شكر لـ الصفحة المركزية للشهيد صلاح خلف ابو اياد، الذين أمدونا بهذا الكتاب
قمنا بتنسيق الكتاب وتخفيض حجمه، مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

أبو اياد
صلاح خلف

فلسطيني بلا هوية

فلسطيني بلا هوية

المقـدّمة

عندما اقترحت على دار نشر « فايول » أن انتج هذا الكتاب ، أعترف بانني قد ترددت في تحمل مهمة تستلزم هذا المقدار من المتاعب . للوهلة الأولى يبدو أنه من المغري أن تحاور « قائدا تاريخيا » للحركة الوطنية الفلسـطينية هو أول من رضى أن ينخرط في مشروع كالذي نحن بصدده . هذا فضلا عن أن « أبا اياد » يحتل مركزا مرموقا داخل المقاومة الفلسطينية . فبالاضافة الى أنه أحد مؤسسي حركة « فتح » وأحد الأعضاء البارزين في لجنتها المـركزية ، يتولى الرجل أيضا قيادة الأجهزة الخاصة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وبهذه الصفة يجمع « أبو اياد » المعلومات التي تحصل عليها مختلف فصائل التجمع المركزي للفدائيين وينسقها . علاوة على ذلك تتهم كل من « الموساد » و « السي آي . اي » أبا اياد بانه زعيم منظمة أيلول الأسود وأنه قد دبر عمليات « ارهابية » هي من اعنف ما شهدته السنوات الأخيرة من العمليات الدمـوية خصوصا عملية دورة ميونيخ الأولمبية التي احتلت حيزا خاصا في وقـائع عام ١٩٧٢ ، ولان « ابا اياد » يحتل مناصب رئيسية كهذه ، فقد كان هذا هـــو بالضبط ما يبرر شكنا فى نجاح مشروع الكتاب .. هل كان سيتلافى مواجهـة الأسئلة التي تفرض طبيعتها أن تكون « تطفلية » أو « محرجة » وعلى الأقل ، هل كان « أبو أياد » قادرا على صرف النظر عن القيـود المألوفة التى تفرضـها عليه مسؤولياته ؟ هل يقبل بان يميط اللثام عن السر الذي ما انفك ، منذ عشرين سنة على تاسيس فتح ، يستر صورة هذه المنظمة : جذورها ، ايديولوجيتها ، تنظيمها ، نشاطاتها (السرية أو غير السرية) واهدافها الحقيقية ؟

لم يكن ثمة مفر اذن من أن تكون المراهنة مخيفة بعض الشيء ، ذلك أن هنالك مخاطرة كبيرة بان تقود رغبة المؤلف في انتهاج أسلوب المؤرخ الى تبنى أسلوب المقالة النقدية أو السيرة الذاتية المعظمة ، مع ذلك أسهمت الالتزامات التي تعهد أبو أياد ، والتدقيقات التي أعطاها بشأن نواياه ، في الاقـلال من مخاوفنا بصورة كبيرة .

وحسب ما أشار اليه ، لم يكن يريد ان ينتج لا مذكرات ولا سـيرة ذاتية تخصه ، وهو لم يوافق على ان يتحدث عن نفسه وعن تجاربه الشخصية الا بقدر ما يسهم ذلك في تنوير القراء حول تطلعات ونضالات وسيكولوجية الشـعب الفلسطيني وكذلك حول ايديولوجية وتنظيم المقاومة الفلسطينية .

انه يجيب بصراحة عن جميع الأسئلة ذات المحتوى السياسي رغم احتمال ان يجر عليه ذلك ـ كما يقول : « الكره والنفور » . ولكن أبا اياد احتفظ بحقه في عدم الاستجابة للرد على الاسئلة التي يمكن ان تعرض امن المقاومة أو امن رجالها للخطر ، ولما كانت كل دعاية في نظره « عملية عقيمة » فقد كان يرى ان من واجبه أن يقول ، ضمن حدود المعقول ، الحقيقة كاملة حتى لو كانت مزعجة او مؤلمة للفلسطينيين انفسهم .. وهكذا ففي تحليله لعقيدة وعمل الفدائيين أسلم نفسه بصراحة قاسية للنقد والنقد الذاتي وذلك لمصلحة المقاومة ذاتها .

ولما كان « أبو أياد » يعتبر ان هذا الكتاب ليس ملكه فقد طالب بان يتم دفع كامل حصته المتاتية من حقوقه كمؤلف الى مؤسسة الشهداء ، وهي هيئة تتكفل بحاجات عائلات الفدائيين الذين يسقطون في ساحات القتال .

وكوني قدعرفت أبا أياد منذ عشر سنين واستمعت اليه فى العديد من المرات ، سواء في حفل عام او في جلسات خاصة ، فقد كان لدي الأسباب ما يجعلني أعتقد بان الكتاب ، كما كان يتخيله ، لن يكون قليل الأهمية . وبما انه معروف بكلامه الصريح فقد جلب ابو أياد لنفسه نسبة من الصداقات توازي مثيلتها من العداوات التي نجمت عن قوله جهرا ، في الغالب ، لما يكتفي مواطنوه او اقرانه بقوله فى مجالسهم الخاصة المحدودة .

في هذا الصدد تحضرنى ثلاثة من لقاءاتي مع ابي أياد خلال اللقاء الأول في كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٩ في منزل سفير الجزائر في القاهرة ، السيد أخضر ابراهيمي ، أدلى ابو أياد باقوال أدهشت مستمعيه ، فقد اعتبر امام حلقة من الشخصيات الأجنبية ، التي من بينها عدة ممثلين لدول عربية ، أن المقاومة الفلسطينية تشكل خطرا على مجموع الأنظمة العربية أكثر بكثير من خطرها على اسرائيل ، ولكي يوضح تحليله ، لجأ ابو اياد الى الصورة الرمزية التالية : « اراد رجل ان يسقط برتقالة رائعة وشهية فعمد الى هز شجرة البرتقال بعنف ولكن بينما بقيت الثمرة المشتهاة عالقة بقوة بالشجرة ، راحت سائر البرتقالات ، ومجموعها ثلاث عشرة برتقالة ، تسقط الواحدة تلو الاخرى » وقد أوضح أبو اياد أن البرتقالات الفاسدة تمثل الأعضاء الثلاثة عشر للجامعة العربية (فى ذلك الوقت) . أما البرتقالة التي لم تنضج بعد حتى يتم قطافها فترمز الى الدولة الصهيونية ..

بعد عدة شهور كان كل شيء يشير الى ان نبوءة ابي أياد قد بدأت تتحقق في الأردن ، كان اختبار القوة بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية يجري لصالح المقاومة وكان الفدائيون المسلحون حتى الأسنان يستفيدون ايضا من عمليات تواطؤ واسعة معهم مما مكنهم من الاشراف، افتراضيا، على عمان بمقدار

انترافهم كذلك على المفاصل الاساسية للدولة الأردنية .

كانت التصريحات الاستفزازية أو المتغطرسة للقادة الفلسطينيين في ذلك الحين تميل الى التأكيد بان السلطة الهاشمية تعيش أيامها الأخيرة . وحده أبو أياد كان يقف خارج دائرة ضغط جو الحبور الفلسطيني العام ، فعندما استقبلني في مكتب اعلام فتح في ٣ سبتمبر ١٩٧٠ (أي قبل أسبوعين من بدء الهجوم الأردني على المقاومة) ابلغني حديثا مدهشا مفاده ان الفدائيين يسيرون نحو الكارثة . وحسب ما أسره لي ، كان ينبغي عدم الركون الى المظاهر لأن الحركة الوطنية الفلسطينية التي نفخت الصحافة قوتها لم تكن قادرة على المقاومة طويلا امام عنف الملك حسين الذي كان مستعدا ، لكي ينقذ عرشه ، لأن « يدفن عاصمته تحت القذائف » . اوضح أبو أياد أن العاهل الأردني يستفيد على اية حال ، من دعم اسرائيل والولايات المتحدة بينما لم يكن بمقدور المقاومة أن تعتمد الا على قواها الذاتية ، وتابع يقول : أن الوحدات العراقية (التي كانت مرابطة حينذاك في الأردن) سوف لن تهب لنجدة الفدائيين رغم الوعود الشكلية التي كان قد حصل عليها هو وياسر عرفات من قادة بغداد ، وقد جاءت الأحداث المأساوية التي تلت ذلك ـ والتي يصفها بدقة في هذا الكتاب ـ لكي تثبت صحة تحليله المذكور .

أن « أبا أياد » هو أول قائد في « فتح » يصوغ في اكتوبر ٦٨ « الهدف الاستراتيجي » للمقاومة : تحويل فلسطين الى « دولة ديموقراطية » يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون كمواطنين متساوين ، وهي صيغة تعني تفكيك الدولة الصهيونية .. زيادة على ذلك ، كان أبو أياد أول من دعا علنا فى شباط ـ فبراير ١٩٧٤ الى ايجاد « فلسطين مصغرة » عربية تقوم الى جانب الدولة اليهودية ..

وابتداء من تشرين الثاني ـ نوفمبر ٧٢ ، كان أبو أياد يقول لي : « يجب أن نكون صريحين مع جماهيرنا لأن امتناعنا عن أن نقول لها كل الحقيقة انما يعني شكلا من أشكال احتقار هذه الجماهير » . وبعد عدة أيام من حرب رمضان أو يوم الغفران ، في ٣١ اكتوبر ٧٣ ، كان أبو أياد أكثر وضوحا أثناء حديث معه في القاهرة ، فقد اعتبر أن الواقعية تستلزم أخذ ميزان القوى بعين الاعتبار ذلك انه « لا فائدة من أن يكون المرء خالص التشدد اذا كان ينبغي عليه ، كما كانت حالة الحاج امين الحسيني ، ان يقضي ايامه الأخيرة في المنفى » .

ورغم انه كان لا يرجح أن تقبل اسرائيل بالتفاوض مع منظمة التحرير حول تسوية ما فانه كان يراهن حينئذ على مشاركة الفدائيين في مؤتمر جنيف شريطة أن يتم تعديل قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بحيث يعترف بان الفلسطينيين

ليسوا مجرد ((لاجئين)) وانما هم قبل كل شيء ((شعب)) له ((حقوقه الوطنية)) .

لا شك في أن أبا أياد هو أحد الرؤوس السياسية الأكثر شهرة في المقاومة الفلسطينية ، انه احد افضل خطبائها ايضا لأن مجرد ظهوره على منصة ما يكفي ليثير حماسة الجماهير ، مع ذلك ليس لأبي اياد مظهر المقاتل او الثوري : قامة متوسطة مربوعة تميل الى السمنة وذات بدانة واضحة ، وهو يفضل ارتداء بذلة عادية ذات تفصيل رديء عموما على البذلة العسكرية التي تميز سائر الفدائيين . اما شكله فيوحي بصورة معلم الفلسفة التي عاشها فعلا قبل أن يكرس حياته للنضال .. وجهه مستدير ممتلىء وعيناه تشعان ذكاء وهما متوجتان بحاجبين سميكين فحميين ، شعر رأسه نادر تبدو عليه ملامح الشيب عند الصدغين ويكاد لا يخفي صلع أعلى الجمجمة .

والحقيقة أن أبا أياد كشخص هو رجل متعدد القدرات عميقها ، ولو أن القدر لم يكن قد جعل منه ما هو عليه الآن ، لكان من دون شك قد أصبح كاتبا ، الم يكن قد ألف في سنوات شبابه قطعتين مسرحيتين ناجحتين ؟ وكونه يتمتع بذاكرة عجيبة فقد كشف عن قدرته كقاص لا نظير له ، أثناء سهراتنا الطويلة كانت حكاياه التي تتخللها النكات والصور الاخاذة والسمات المرحة تنم عن مدى رهافة ملكة الملاحظة عنده ، ومدى حساسيته ، كل ذلك من خلال اجابته على اسئلتي امام جهاز للتسجيل لضرورة انتاج هذا الكتاب ، وبخاصة من خلال الأحاديث المتقطعة معه ، في الظاهر يبدو الرجل مترفعا ولكن انفعاليته الوجدانية ترشح من ظاهر جلده .

لم يبك أبو أياد ، كما يقول ، سوى مرة واحدة في حياته وذلك في سن السابعة عشرة عندما ضربه ابوه في فورة غضب ، ولكن صوته يتكسر عندما يستذكر هروب اسرته المأساوي من فلسطين قبل يوم واحد من اعلان دولة اسرائيل ، أو عندما يسترجع المذلات والمضايقات التي تعرض لها عبر مصائبه كفلسطيني لا هوية له . وأبو اياد نزق سريع التأثر لا يتحمل أقل اساءة لما يرى فيه مساسا بكرامته او كرامة شعبه .

ولما كان يعيش حياة ((ثوري متجول)) مهدد باستمرار ، فقد انفصل منذ عام ١٩٦٧ عن عائلته التي تقيم في ضواحي القاهرة ، وبما ان من المفترض أنه لا ياخذ اية اجازة ، فالنتيجة هي انه لا يرى زوجته واولاده الستة (ثلاث فتيات وثلاثة فتيان تتراوح اعمارهم بين السابعة والسابعة عشرة) الا نادرا جدا ، وهكذا فبسبب انهماكه كليا في مسؤولياته خلال الشهور الثمانية عشرة للحرب الاهلية اللبنانية ، امتنع عن الذهاب الى القاهرة طيلة هذه المدة رغم ان العاصمة

المصرية تستلزم ساعة طيران واحدة من بيروت ، ولكن ملامح الدمع تغشى عينيه كلما تحدث عن مكالمة هاتفية أجراها مع هذا أو ذاك من أولاده وخصوصا ابنته جيهان البالغة من العمر خمس عشرة سنة وهي مصابة بمرض شلل الأطفال منذ ولادتها الأمر الذي اقتضى وضعها تحت الاشراف الطبى الدائم .

غير أن الحنان الذي يبديه ابو اياد تجاه أسرته ، والمودة التي يظهرها لأصدقائه وتسامحه تجاه خصومه ، كل ذلك لم يمنعه ــ بشكل نادر في الواقع ــ من ان يعاقب بالموت خائنا للقضية الفلسطينية أو عميلا لاسرائيل . اما سلوكه تجاه مسالة العنف فيتسم بالازدواجية في الممارسة ، فعلى الرغم من انه نصير عنيد للكفاح المسلح ، فهو لم يشارك مشاركة فعالة فى اي نشاط عسكري . انه بالتاكيد كان موجودا اثناء معركة الكرامة فى اذار ــ مارس ١٩٦٨ ولكنه لم يطلق رصاصة واحدة ضد المهاجمين الاسرائيليين . أكثر من ذلك ، ولاسباب لا يوضحها ، ترك نفسه يغفو في رابعة النهار بينما معارك الكرامة على اشدها ، وذلك على بعد عشرات الأمتار خلف الصخرة التى كان قد احتمى بها ، ولكن لا شك في انه يظل يختلف كثيرا عن معظم مسؤولي حركات التحرر الوطني الذين ، رغم انهم يخططون ويوجهون عمليات العصابات ، لا يرمون انفسهم في خضم المعمعة . في هذا الصدد يذكرنا ابو اياد بمناحيم بيغن المتهم هو ايضا بعمليات ارهابية دموية مدهشة رغم أن من المشهور عن القائد السابق ((للارغون)) أنه بطبيعته انسان غير عنيف ، وتماما مثل الزعيم الفلسطيني يستفظع بيغن رؤية الدم امامه .

لقد كانت مسالة الارهاب موضوعا لحوارات طويلة واحيانا لنقاشات حامية اثناء فترة التحضير لانتاج هذا الكتاب ، وسيجد القارىء ان المقولة التي يدافع عنها ابو اياد على هذا الصعيد هي الاقل طرافة ، ففي نهاية التحليل ، نراه يميز بين العمليات التي يستحسنها ويوافق عليها ــ يصفها ب ((العنف الثوري))وتلك التي يدينها ويصفها بالارهاب ، خصوصا عمليات خطف الطائرات التي تعرض للخطر حياة المدنيين الابرياء . بالمقابل ، سنجد أنه يضفي صفة الشرعية على عمليات كعملية ميونيخ والخرطوم (ضد الدبلوماسيين الأميركين والسعوديين) وعملية طريق حيفا ــ تل ابيب فى آذار ــ مارس ١٩٧٨ .

ولكن هل هنالك نوعان من الرهائن ، احدهما ((بريء)) والآخر ((مذنب ؟)) يجيب ابو اياد على ذلك بالايجاب قبل ان يشدد على ان الاسرائيليين يتحملون كل مرة المسؤولية الثقيلة في قتل الرهائن بدل الاستجابة للمطالب السياسية لخاطفيهم . ولكن الا تؤدي عملية الابتزاز التي يلجا اليها هؤلاء بالضرورة الى الموت في حالة عدم حصولهم على مطالبهم ؟ يؤكد ابو اياد ان الفدائيين لم يبيتوا النية في اية مرة لان يعدموا رهائنهم ، وهذا التاكيد يظل بحاجة الى اثبات

صحته .. ان الحجج التي يعرضها الزعيم الفلسطيني في هذه الصفحات ستترك عددا من القراء الغربيين في حالة من الحذر . وسنلاحظ أن هذه الحجج لا تختلف كثيرا عن تلك التي عرضتها حركات حرب عصابات اخرى من ماوماو كينيا الى توباماروس الأرغواي ، ومن ثوار الجزائر الى ثوار الجبهة الوطنية الروديسية . الارهاب مهما يكن فظيعا أليس هو سلاح الضعفاء الأخير ؟ . . ان ابا اياد يؤكد ضمنا هذه المقولة عندما يفيد بان منظمة أيلول الأسود قد نشأت عام ١٩٧١ من اليأس الذي ولدته هزيمة الفدائيين ومذبحتهم في الأردن . وان لما له دلالته الكبيرة ان هذه المنظمة قد اوقفت نشاطها بعد ((الانتصار)) العربي في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ونجاح منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد الدولي .

ينفي ابو اياد نفيا قاطعا انه كان قائد منظمة أيلول الأسود . اننا نميل الى تصديق ذلك عندما نعلم أن تلك المنظمة لم تكن تعني في الحقيقة منظمة لها بنيتها واهدافها المحددة وانما هي عبارة عن تكتل مجموعات من الكوماندوز الفلسطينيين الذين لا تربطهم روابط عضوية . كان العديد من كوادر ((فتح)) يحركون هذه المجموعات بصورة مستقلة مفصولين الواحد عن الآخر بحواجز عازلة وذلك كاجراءات امن اضافية .. ومن المرجح ان الرجل الذي ترأس هذه المنظمة كان يوسف النجار (ليس أبو يوسف) الذي كان مسؤولا في تلك الفترة عن جهاز امن فتح وهو أحد القادة الفلسطينيين الثلاثة الذين قتلوا في بيروت على يد كوماندوز اسرائيليين في نيسان - ابريل ١٩٧٣ .

كل ذلك لا ينتقص من حقيقة ان ابا اياد يصف بالتفصيل تحضير وتنفيذ العمليات الرئيسية لمنظمة ايلول الأسود خصوصا عملية ميونيخ اضافة الى عمليتين تكاد ان لا تصدقان من اجل ابعاد الملك حسين عن السلطة في الأردن ، ورغم انه لا ينسب الى نفسه تولي هذه العمليات ، الا انه لا يتردد في تقبل شرف الموافقة عليها ، هل علم بهذه العمليات بعد فوات الاوان كما يؤكد ذلك بصفته رئيسا لأجهزة منظمة التحرير الخاصة .. هذا ممكن ، ولكن ما كشفه لنا ، فضلا عن الدقة المتناهية لما رواه ، يمكن ان يدفعنا للاعتقاد بانه لم يكن بعيدا كل البعد عن بعض تلك العمليات .

يعرف ابو اياد أن حياته في خطر ، انه يعرف ذلك لانه سبق له أن نجا من عدة محاولات اغتيال بينها واحدة يرويها بالتفصيل فى هذه الصفحات . والخطر على حياته لا ينبع من اسرائيل وحدها، ذلك ان عددا من اجهزة المخابرات الأجنبية ، خصوصا المخابرات العربية ، لها مصلحة في القضاء عليه . انه يعيش حياة رجل مطارد حتى في بيروت التي هي قلعة للمقاومة الفلسطينية ، ذلك انه مجبر على الأخذ بتدابير امنية مخيفة خصوصا على اثر القطيعة بين منظمة التحرير

ومصر بعد زيارة السادات للقدس . لم يعد له مقر سكن ثابت فهو يتصرف بعدة مكاتب ولا يذهب الى أحدها الا بصورة غير متوقعة .. ويتناوب أربعة من الحراس السريين المسلحين بالرشاشات على حمايته ليلا ونهارا . وهو لا يتردد على اية مؤسسة عامة كما انه لا يتناول اية وجبة في المطاعم ، ولا يستطيع أن يشبع ميوله للعروض المسرحية بالذهاب الى المسرح أو السينما ، وهكذا فلم يتمكن من مشاهدة فيلم الماني غربي عن عملية ميونيخ الفدائية الا بفضل عرض خاص .

لقد وضعته لقاءاتي معه امام مشكلة أمنية ضخمة . ولما كانت هذه اللقاءات سرية فقد كانت تتم ليلا وبالتتابع في بيوت عدد من الأصدقاء كانوا عموما غير فلسطينيين يتعاطفون مع المقاومة الفلسطينية . وكانت السيارة التي تقل ابا اياد الى مكان اللقاء ــ غالبا سيارة بيجو ٥٠٤ ستائرها مسحوبة ــ سرعان ما تغادر بعد أن تصل الى عتبة البناية حتى لا تثير انتباه الجيران بينما كان حرسه الخاص ينوب في المحيط ..

نادرون هم أولئك الذين كانوا قادرين على تحديد مكان وجوده ، وكان مدير الشبكة التلفزيونية الخاصة بفتح ، والمنفصلة عن شبكة الدولة اللبنانية ، يطلعه على النداءات التي يتلقاها ، زيادة على ذلك ، كان عدد من ذوي المراكز المرموقة في المقاومة يستطيعون في حالة الاضطرار القصوى أن يتصلوا به مباشرة عن طريق مركز للبث ، هذه التدابير الأمنية كانت تزعج أبا اياد كما يبدو ، وكان يجدها بلا جدوى ، وقد فرضت عليه التدابير المذكورة من قيادة فتح بعد الغارة الاسرائيلية ، على بيروت في نيسان ــ ابريل ١٩٧٣ والتي اودت بحياة ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية .

لم يكن صوفيا أو قدريا وكان يقول لي ويكرر : ان « تشككيته » تقوم على القناعة التالية: « كل انسان مستعد للتضحية بحياته يقدر على اغتيال اى شخص يريد » ، وبصورة طريفة يتعايش في شخصية ابي أياد نفوره الطبيعي من العنف واشمئزازه من التجسس ، ولذلك فعندما يتعلق الأمر باجهزته الخاصة نراه يفضل اللجوء الى تعبير جهاز « الرصد » أو « الامن » . انها مسالة تتعلق بدلالة الألفاظ دون شك ولكن مع ذلك فهي تعبر عن عقلية مشرد ، مناضل عانى منذ طفولته من السلطة القمعية للدول .

لا مراء فى أن ابا أياد ياخذ مداه في دوره كقائد سياسي وهذا ما تشهد عليه قصص احاديثه ومساوماته مع مختلف رؤساء الدول .. فنظرا لسمعته كمفاوض محنك جرى تكليفه غالبا بمهمات بالغة الدقة . وخلال الحرب الأهلية اللبنانية كان الناطق باسم عشرين حزبا ومنظمة وتجمعا لبنانيا أو فلسطينيا لها

ولاءات مختلفة ، وكان ينبغي عليه أن يصل معها الى موقف مشترك قبل أن يحتك بتنظيمات اليمين اللبناني ويفاوضها .

بمزاج متوازن ، صبور ، حليم واحيانا بشوش رأيته يفاوض تلفونيابحذاقة حول مشروع اتفاق يهدف الى الحصول على انسحاب الميلشيات المارونية من جنوب لبنان .. كان يكشف ان « هذه المساومات لن تؤدي الى شيء ، نحن نعرف ذلك سلفا ولكنها تتيح لنا الفرصة على الأقل لنسبر نوايا خصومنا وخصوصا نوايا حماتهم الاسرائيليين » .

ومن المشهور عن أبي أياد انه قائد الجناح المتشدد داخل فتح ، ولكن اختلافه في وجهات النظر مع بعض رفاقه حول طريقة حل النزاع العربي - الاسرائيلي يظل مع ذلك ذا طابع تكتيكي . بالتأكيد هو يطرى فكرة وحدة العمل مع تنظيمات جبهة الرفض الفلسطينية في وقت أصبحت فيه المقاومة مهددة بمجموعها ، ولكنه يدين في نفس الوقت مقولات المتطرفين الذين يرفضون حلا وسطا يتجسد في دولة فلسطينية مصغرة في الضفة الغربية وقطاع غزة . ولم يكن يؤيد المحادثات السرية التى جرت بين ممثل عن منظمة التحرير الفلسطينية ، السيد عصام سرطاوي ، وعدد من الشخصيات الاسرائيلية (خصوصا الجنرال بيليد واريه الياف ويوري افنيري) وذلك في باريس عام ٧٦ - ٧٧ .

مع ذلك نراه يوضح في هذا الكتاب انه ، مبدئيا ، ليس معاديا لفكرة مفاوضات مع الدولة اليهودية ولا لفكرة اعتراف متبادل بين الشعبين الفلسطينى واليهودى ، وتجد تصرفاته المتناقضة في الظاهر تفسيرها من خلال قوله بان « أية تسوية متفاوض عليها لن تكون مطروحة بالفعل ، طالما لم يتغير ميزان القوى لصالحنا بشكل ملحوظ » . وبعكس بعض القادة الآخرين ، يرى أبو أياد أنه فقط « عندما نكون أقوياء يمكن أن نقدم تنازلات لا تمس الاشياء الأساسية ، والا فلا يمكن لأي حل وسط الا أن يشكل استسلاما » .

هذه القناعة هي التي جعلته بلا شك يدين بشدة زيارة السادات للقدس .. هنا نجده يتخطى ردة الفعل العاطفية التى لا يخفيها مع ذلك ليعيب على رئيس الدوله المصرية ليس فقط زيارته للقدس وانما اساسا وهمه الذي يتجسد في الاعتقاد بأنه يمكن أن يربح القضية بينمايتسم وضعه بالضعف امام اسرائيل . وبعد أن استمع الى خطابي السادات وبيغن امام الكنيست الاسرائيلي فى ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٧ ، قرا ابو اياد مجددا كتاب زعيم الليكود : « الثورة » وقال لي بعدها بمرارة : « يوحي لي بيغن بالاحترام لأنه يعرف على الأقل كيف يدافع عن وطن حتى لو كان مغتصبا ، بالمقابل يرضى السادات أن يبيع بثمن

بخس الحقوق الثابتة للشعب الفلسطينى » .

لم يكن يتصور ان الرئيس المصري قد يذهب الى حد عقد صلح منفـرد مع اسرائيل : « لا يمكن لأية دولة عربية أن توافق على تسوية بدوننا ولا يمكنهـا اكثر من ذلك ان تقر بتسوية ضدنا » . هذا ما كان يراه قبل قمة كامب ديفيد بايام ، وعلى أية حال ، لم يكن ابو أياد يكف أثناء احاديثنا ، عـن الاشـارة الى الخيانات المتعاقبة للأنظمة العربية وهي الخيانات التي يلخصـها في الصيـغة المجازية التالية : « كل الثورات التي ولدت في فلسطين تم اجهاضها في العواصم العربية » .

في خاتمة هذا الكتاب يسلم أبو أياد نفسه الى عملية نقـد ذاتي معـريا « اخطاء ونقاط عجز » المقاومة الفلسطينية منذ عشرين سنة . ورغم كشف هذا النقد للعيوب الا أنه جريء قياسا على التبرير الذي يمارسه باقي القادة غالبا .

بعد ان يجعل من نفسه لسان حال « تشاؤم الواقعيـين » و « تفـاؤل الثوريين » معا ، لا يستبعد ابو أياد امكانية شلّ المقاومة الفلسطينية بل وحتى تدميرها ، كل ذلك مع اقتناعه الكامل بان شعبه الفلسطيني سيتمكن على المدى الطويل من أن يجسد حقوقه في وطن وفي دولة مستقلة ذات سيادة .

«فلسطيني بلا هوية » ليس كتابا موضوعيا ، ولم يكن يمكن أن يكون كذلك رغم كثرة الأشياء التي كشف عنها ، ولكن الكتـاب يشكل وثيقـة قيمـة وفريدة من نوعها ستسهم بالتاكيد في فهم القضية الفلسطينية .

اريك رولو

تمہید

انها المرة الاولى التى يوافق فيها احد قادة المقـاومة « التاريخيين » على نشر مذكراته . وفي كتابه «فلسطيني بلا هوية » يجيب ابو اياد ـ أحد مؤسسى حركة فتح ـ عن الاسئلة حول بداية الحركة الفلسطينية وأيديولوجيتها وتنظيمها وحول الفدائيين ونشاطاتهم السرية وغيرها من الأسئلة التى ظلت حتى الآن بلا جواب صادر عن مصدر مسؤول ماذون له . وابو اياد يتصـدى في مذكراته للأخطاء التى ارتكبها رؤساء المنظمات الفدائية وللصراعات التى ما انفكت تنخـر منظمة التحرير الفلسطينية وتعيق عملها .

وبصـفته عضـوا في اللجنـة المركزية لحـركة فتـح فان أبا اياد يضطلع بمسؤوليات متعددة بينها مسؤولية تسوية المشكلات الدقيقة مع مختلف رؤساء الدول . وهو يكشف في كتابه تفاصيل المحادثات السرية التى أجراها ـ في احايين كانت عصيبة ـ مع عبد الناصر والملك فيصل والرئيس الليبى القذافي والرئيس السورى حافظ الأسد ، ثم يرسم عبر ذلك صورة لمحادثيه العـرب هؤلاء لا مراعاة فيها ، ولا مجاملة ، ليصدر بعد ذلك عليهـم احـكاما تصـل في صراحتها الى حد الفظاظة . وابو أياد الى ذلك جوالة كبير وهو يطلعنا على زيارته للصين وفيتنام وكوبا والاتحاد السوفياتى ومحادثاته مع شوان لاى والجنـرال جياب وفيدل كاسترو الخ ..

ثم ان القائد الفدائى الذى طالما أشارت اليه المخابرات الاسرائيلية (الموساد) ووكالة المخابرات المركزية الاميركية (السى . آى . اي) كرئيس لمنظمة ايلول الاسود قبل ان يقدم سردا تفصيليا حول اعداد وتنفيذ عمليات الاغتيال الفلسطينية. وقد كان بعض هذه العمليات باهرا شان عملية الألعاب الاوليمبية في ميونيخ ، كما كان بعضها مجهولا من الجمهور شان اغتيال عملاء الموساد في أوروبا .

وابو أياد يتمتع بمركز يتيح له أن يكشف النقاب عن « حرب الاشباح » التى لا تزال قائمة بين الاسرائيليين والفلسطينيين منذ سنوات : فقد أصبـح رئيسا لمخابرات منظمة التحرير الفلسطينية منذ العام ١٩٧٠ ، بعد ان كان أحد أوائل المسؤولين عن دوائر فتح الأمنية (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠) .

ويكشف أبو اياد كذلك خفايا المعركة التي خاضتها المقاومة ضد « الخونة العرب » مثل رئيس الوزراء الاردنى وصفي التل الذى قتل في تشرين الثـاني ـ نوفمبر ١٩٧١ ، ومثل مختلف المحاولات التى استهدفت اغتيال الملك حسـين ثم احبطت في اللحظة الأخيرة .

وبالنظر الى أنه كان مولجا بالشؤون المتعلقة بلبنان ، فان أبا اياد يقـدم عرضا آخاذا لمحاولات المقاومة الحيلولة دون نشوب الحرب الأهلية اللبنـانية فيذكر مفاوضاته ومداولاته مع الزعماء اللبنانيين ولا سيما مع سليمان فرنجية

وكميل شمعون وبيار الجميل .

يضاف الى ذلك ان سرده لمختلف مراحل النزاع اللبناني ـ بما في ذلك الصدام بين السوريين والفلسطينيين ـ يبرز الأبعاد الدولية للحرب اللبنانية .

واخيرا فان الشخصية الثانية في فتح تورد الشروط التى يضعها الفلسطينيون لاقامة سلام مع الاسرائيليين : سلام ليس مبنيا على العدل ـ كما تدعو اليه جبهة الرفض ـ وانما على العدل والواقعية معا .

الفصل الأول

بذور الحقد

سيظل يوم ١٣ أيار (مايو) محفورا في ذاكرتي الى الأبد • ففي هذا اليوم وقبيل اعلان دولة اسرائيل بأربع وعشرين ساعة ، فرت عائلتي من يافا لتلجأ الى غزة • فقد كنا محاصرين :. كانت القوات الصهيونية تسيطر على كافة الطرق المؤدية الى الجنوب ، ولم يكن لدينا من وسيلة اخرى للنجاة بأنفسنا الا طريق البحر • وكان أن اقلعنا ، والدي وأشقائي وشقيقاتي الأربعة وعديدون اخرون من عائلتنا ، في ما يشبه أن يكون مركبا تحت وابل من القذائف التي كانت تطلقها المدفعية اليهودية المتمركزة في التجمعات المجاورة ولا سيما في تل أبيب .

ولقد سلك مئات الآلاف من الفلسطينيين طريق المنفى في ظروف مأساوية في الغالب ، فاما انا الذى لم أكن بلغت سن الخامسة عشر بعد ، فان الرحيل اتخذ بالنسبة الي ابعاد يوم الحشر • فقد أخذني مشهد تلك الحشود من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الرازحين تحت ثقل الحقائب أو الصرر ، متجهين بشق الأنفس نحو أرصفة مبناء يافا في عجيج كئيب • وكانت تتخلل صرخات البعض وندب وانتحاب البعض الاخر ، انفجارات تصم الآذان .

ولم يكد المركب يرفع مراسيه ، حتى سمعنا عويل امرأة ، فقد لاحظت أن أحد أطفالها الاربعة لم يكن على المركب ، وراحت تطلب العودة الى المرفأ للبحث عنه • الا انه كان من الصعب علينا ، ونحن نتعرض لنيران المدافع اليهودية الغزيرة ان نعود ادراجنا فنعرض للخطر حياة ما بين مائتين وثلاثمائة شخص بينهم العديد من الأطفال المتراكمين في المركب • ولقد ذهبت توسلات تلك المرأة الباسلة سدى فانهارت باكية • وكنا بضعة اشخاص نحاول تهدئتها مؤكدين لها انه سيتم ايواء ابنها الصغير بالتأكيد ثم يرسلونه في وقت لاحق الى غزة • ولكن عبثا ، اذ راح قنوطها يتزايد برغم مقالاتنا ، وبرغم تطمينات زوجها • ثم اذا بأعصابها تخور فجأة : فتتخطى درابزين المركب وتلقي بنفسها في البحر • واما زوجها الذى لم يفلح في الامساك بها ، فقد غطس بدوره • ولم يكن أى منهما يحسن العوم فابتلعتهما الامواج الهائجة امام نواظرنا • وأما المسافرون الذين أخذهم الروع فكانوا كمن ضربه الشلل •

ولماذا غادرنا دورنا وارزاقنا ورمينا بأنفسنا في مغامرة المنفى .. اني لم أكن ـ وانا الذى يوقر السلطة الابوية ـ لأطرح المسألة على نفسي في ذلك الحين حتى مجرد طرح . سيما واني كنت مقتنعا ، شأن ذوي ، بأنه ليس أمامنا سبيل آخر للافلات من الموت . فمجزرة دير ياسين وقعت قبيل ذلك بشهر ، وزرعت الرعب في نفوس أبناء وطني . ففي ٩ نيسان (ابريل) ،قامت حركة مناحيم بيغن ، الارغون زفاي ليئومي (المنظمة العسكرية القومية) بمهاجمة هذه القرية الوادعة الواقعة غربي القدس وابادت معظم سكانها : فقتل اكثر من ٢٥٠ رجلا وامرأة وطفلا لا مدافع عنهم ، أو ذبحوا أو دفنوا أحياء ، ومثل بالعديد من الجثث بالسلاح الابيض وبقرت بطون ثلاثين امرأة حاملا .

لم يكن لدينا أى سبب يدفعنا للشك بصدق المذبحة الهمجية التى سيؤكدها السيد جاك رينير ، ممثل الصليب الاحمر الدولي ، أثر استقصاء قام به شخصيا في دير ياسين . فبشاعة التفاصيل التى نقلها ، تذكر بالفظاعات التي ارتكبها النازيون في أوروبا المحتلة .

كانت يافا كدير ياسين ، تحت رحمة القوات الصهيونية التي تسيطر بالكامل على المنطقة الواقعة خلف تجمعنا . اما الهاغاناه ، وهي جيش الوكالة اليهودية « الرسمي » فكانت تنسق نشاطاتها تنسيقا وثيقا مع نشاطات « الخوارج » من امثال مناحيم بيغن.وشنت في أول نيسان (ابريل) ١٩٤٨ هجوما حسب الاصول بغرض تصفية « الجيوب » العربية داخل الاقليم الذى رسم له أن يكون الدولة اليهودية . فكان يجرى تحذير الاهالي في كل مرة بأنهم سيلقون مصير دير ياسين اذا لم يخلوا الامكنة .

ثم ان خبر الابادة الجماعية اندلع اندلاع نار البارود في يافا ، شأنه في بقية البلاد . لا بل ان وسائل الاعلام الصهيونية التي كانت تسعى الى ارهاب العرب زادته اذكاء وتضخيما ، وكذلك ـ والحق أحق ان يقال ـ فعل المحرضون الفلسطينيون الذين حسبوا انهم يعبئون بذلك الاهالي . فكانوا على سبيل المثال ، يؤكدون على اغتصاب النساء في دير ياسين من قبل المهاجمين

الصهاينة قبل ان يدعوا الفلسطينيين الى الدفاع عن أثمن ما لديهم ، عنيت عن أعراض زوجاتهم وبناتهم . الا ان استراتيجيتهم هذه أثارت في أغلب الحالات أثرا عكسيا في هذا المجتمع الذى كان لا يزال مجتمعا تقليديا للغاية ، وعلى هذا فكثيرا ما كنت اسمع الناس تقول في وسطي « العرض قبل الارض » وان أول الاولويات هو ان نقي نسوتنا من اعتداء العسكر الصهيوني .

وكان مما يجعل عزم غالبية سكان يافا ـ المئة الف ـ على السعي وراء ضمان ملتجأ مؤقت اكثر تبريرا وتسويغا ، هو تمتع اليهود بتفوق عسكرى ساحق . فقد كانوا بالتالي متقدمين على الفلسطينيين . ثم أن الخوف استولى على الاهالي حين أعلنت بريطانيا العظمى في نهاية عام ١٩٤٧ ، انها تخلت عن الانتداب على فلسطين وانها ستسحب قواتها منها قبل ١٥ ايار ١٩٤٨ فلم يبق في وسعنا الاعتماد على حماية الجيوش البريطانية حتى ولو كانت حماية مشكوكا فيها اصلا . ثم استبد الرعب بيافا عندما شرعت القوات الصهيونية ، بعد مجزرة دير ياسين ، بدك المدينة مستهدفة على نحو خاص المرفأ وأحياء الاعمال . وكان في حسبان الناس ان خنق المدينة اقتصاديا هو مقدمة لغزوها ومن ثم ارتكاب مذابح فظيعة فيها بدون ادنى ريب .

ولو قيل لي ابان سني حداثتي ان اليهود سيطردوننا ذات يوم من وطننا لكنت أول الناس استغرابا بل استنكارا . ذلك انه كانت تصل افراد عائلتي افضل العلاقات باليهود ، وكان لهم الكثير من الاصدقاء فيما بينهم . فجدى الشيخ عبد الله وهو رجل دين من غزة ، ربى اطفاله بروح متسامحة . وقد تزوج أحد ابنائه من يهودية كما لم يكن من النادر أن اسمع من يفوقونني سنا يذكرون اتصال حبل الغرام أو انقطاعه بين هذا القريب أو ذاك من ذوي قرابتنا وبين فتاة يهودية .

كان والدى يتحدث العبرية التي تعلمها عبر ممارسته اليومية بطلاقة . ففي عام ١٩٢٠ ، غادر غزة التي تعاقب فيها عشرة أجيال من عائلته ، ليقيم في حي بمواجهة البحر في يافا يدعى « الحمام المحروق » . واذ عمل بادئا كموظف في السجل العقارى ، فانه اتيح له أن يتآلف مع الاهالي اليهود .

وعندما استقال من الوظيفة العامة عام ١٩٤٠ افتتح بقالة متواضعة في الكرمل ، الحي المختلط القريب من تل أبيب • وكان الموردون له شأن زبائنه ، يهودا في نصفهم ، يقدرونه ويقيمون علاقات ممتازة معه • ووفقا للتقاليد في هذا الجزء من العالم فان أهلي كانوا يتبادلون الزيارات الودية مع جيرانهم واصدقائهم اليهود بمناسبة الاعياد الاسرائيلية والاسلامية •

وفي ساعة الغداء ، ثم لدى مغادرة الصفوف الدراسية بعد الظهر ، كنا ، شقيقي عبد الله الذى يكبرني بثلاث سنوات وانا ، نذهب الى محل البقالة لنتيح لوالدنا ان يرتاح بضع ساعات • وانما تعلمت تدبر أمر نفسي باللغة العبرية عبر خدمة الزبائن اليهود • وبرغم اني كنت أرتاد مدرسة موقوفة على العرب هي مدرسة المروانية ، فاني عقدت صداقات عديدة مع طلاب المؤسسات اليهودية الذين كنت أتحدث اليهم بالعبرية او بالعربية بلا فرق • ولما كان اصدقائي في معظمهم مولودين في فلسطين أو متحدرين من عائلات تعود اصولها الى البلدان العربية ، والى اليمن بخاصة فقد كانوا يتكلمون لغتي بأفضل مما اتكلم انا لغتهم • كانت أذواقنا هي أذواق الاطفال في سننا ، ولا زلت اذكر بوضوح العابنا في ساحة تل ابيب ونزهاتنا الطويلة التي كنا نتحدث خلالها عن كل شيء الا عن المشكلة التي لن تلبث ان تلقي بنا في معسكرين متناحرين •

ولقد وعيت النزاع الصهيوني ـ العربى قبيل نهاية الحرب العالمية الاخيرة وانا ذاهب ذات يوم لزيارة أقارب حميمين لي في العميل ، وهي بلدة عربية تقع في منطقة تل أبيب ، فعلى منعطف الطريق ، شاهدت من بعيد شبابا على رابية يتدربون على استخدام السلاح • وحين انقضت صدمة الوهلة الاولى ، لاحظت وانا مأخوذ ، صبيانا وبناتا تتراوح اعمارهم بين ١٦ و ٢٥ سنة تقريبا وهم يستجيبون لاوامر تعطى لهم بالعبرية ، ويقومون بتمارين مختلفة بانضباط كامل • وكان في المشهد ما يقلق ويؤثر في الطفل ذي الاحد عشر عاما الذى كنته ، اذ لماذا يستعد هؤلاء الاحداث اليهود للحرب •• ؟ ومن تراهم سيقاتلون •• ؟ والى أية تشكيلة ينتمون •• ؟ واجابني احد اساتذة

مدرستي « الى الهاغاناه » . وكانت تلك اول مرة اسمع فيها اسم جيش الوكالة اليهودية « الرسمى » والمرة الاولى أيضا التي افهم فيها اننا ماضون نحو الصدام .

كان هناك منظمة فلسطينية شبه عسكرية قد ولدت حديثا في تلك الحقبة، لمقاومة الهاغاناة ، هي النجادة التي كان يقودها محمد الهواري والذي كان مدير مدرستي ، رشاد الدباغ ، أحد أعضائها المؤسسين فشجعني على الانتساب الى فرع الاحداث أو « الاشبال » فيها . وهكذا ، فقد بدأت مع بعض رفاقي حياتنا النضالية . كان بعض اساتذتنا يجهدون في تزويدنا باعداد سياسي . فيحدثوننا عن تاريخ فلسطين وعن وعد بلفور وعن الاستيطان الصهيوني وعن الثورة الشعبية في سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . ويقولون لنا أن واجبنا هو ان نتابع الكفاح لكي تستقل فلسطين بنفس الطريقة التي استقلت بها بقية الدول العربية في المنطقة .

وبدأت الاهتمام بالمشاكل التي كانت تثير الرأي العام حينذاك أى بمطالبة الصهاينة بالحق في الهجرة غير المحدودة وبشرائهم الكثيف للاراضي العربية ، وبدفق الاسلحة التي كانوا يتلقونها من الخارج بالتواطؤ الفعال أو السلبي من قبل السلطات البريطانية .

الا ان انهيار قوات المحور ، الذى سرعان ما افضى الى معاودة اثارة القضية الفلسطينية ، وضع نهاية للصداقة الجميلة التي كانت تربطنا برفاقنا اليهود .

وقد استمرينا في التعاشر ، سرا احيانا ، برغم النصائح التي كنا تتلقاها ، نحن وهم ، ممن يفوقوننا سنا ، الا ان نقاشاتنا المشبوبة كانت تتخذ شكل المناظرة العنيفة احيانا .

وثمة حدث كان على قدر خاص من الصعوبة ، ولا زلت أذكره جيدا ، جرى لي في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٥ . فقد جرى تبادل كلام حاد بيننا

وبين بعض من رفاقنا اليهود ، وكنا نحوا من عشرين صبيا من كلا الجانبين ـ تحول الى معركة مواجهة تقاتلنا خلالها بالحجارة . واذا اتنسي الحادث ، فانني قررت في الغداة أن أزور عائلتي في العميل . كان ابي قد قدم لي عجلة فكنت سعيدا وفخورا باستخدامها لقطع الكيلو مترات العشرة من الطريق . وبينما كنت اجتاز تل ابيب لابلغ العميل ، اذ بأربعة أو خمسة صبيان اكبر مني بقليل ، يسارعون بغتة الى مطاردتي ، وهم مهتاجون بصورة بادية ويصرخون بأعلى صوتهم « عربيت عربيت » (اى عربي بالعبرية) ثم لحقوا بي وطرحوني ارضا وشرعوا يكيلون لي الضربات على وجهي وبطني وظهري. ولما لم يكن قد سبق لي ان شاهدت مهاجمي هؤلاء قبلا ، فاني لم أعرف سبب احتدامهم الشرس هذا . ووجدتني مأخوذا ومرعوبا وغير قادر على الدفاع عن نفسي ، ولكني لم أبدأ الولولة الا حين رأيت اثنين منهم ينكبان على عجلتي بضراوة لتحطيمها . ثم أسرع اثنان من المارة لتخليصي من أيدى المعتدين الذين افلحوا في الفرار . وساعدني احد المنقذين وهو رجل مسن ، في النهوض وقادني الى صيدلية قريبة لتضميد جروحي .

باتت عجلتي لا تصلح لأى استعمال . فتركتها وانا كسير الفؤاد على قارعة الطريق وركبت الاوتوبيس الى يافا ، حيث عدت الى البيت وأنا لا ألوى على شيء . واذ كنت متألما يستنفذني الامتحان الذى تعرضت له فاني سريعا ما نمت . وبعد ذلك بساعات ، ايقظتنا في منتصف الليل طرقات آمرة على الباب . وازاء تساؤل والدى القلق ، فقد أجابنا صوت جهير : «بوليس ».

كان منزلنا مؤلفا من ثلاث غرف يتراكم فيها أفراد عائلتنا السبعة ، مما يجعله أضيق من أن يستقبل العشرة شرطيين عرب وحفنة الضباط الذين كانوا في معظمهم انكليزا والذين كنا نستطيع تمييزهم عبر اطار الباب . وتقدم أحدهم من والدى ومد اليه بمذكرة توقيف بحقي . فكان من المطلوب أن اتبعه الى مقر دوائر الامن العام لاجل الاستجواب .

ولم يسبق لأفراد عائلتي ان تنازعوا مع البوليس ابدا . كان ابي دقيقا في نزاهته ، محترما للقوانين السارية وتأبى عليه النخوة كما يفهمها ان يرتكب

اية مخالفة ، ولهذا فانه كان في مجرد اقتحام قوات الامن لمنزلنا في ساعة متأخرة بحد ذاته ، ما يصدمه . اذ ما ترى الجيران قائلين .. ! ؟ واية جريمة ارتكبت أنا لاستحق مثل هذا العرض للقوات .. ! ؟

ولكأني انظر اليه الان وهو كمد يطرح الأسئلة على الضابط فيجيبه بجفاء بأنه لا يعلم شيئا . ولقد تعرفنا جميعنا على محدث أبي . انه الحباب ، الذى كان برغم انتمائه الى المخابرات « السرية » . معروفا تماما في يافا . فهو فلسطيني ومدافع مطواع عن السلطة الاستعمارية ، وكان مكلفا من قبل رؤسائه الانكليز بمكافحة « التخريب » . فكان الناس يخشونه ويحتقرونه في آن معا ، ذلك انه كان يبذل كل الحماس في مراقبة مواطنيه وفي قمع كل ما قد يؤدى الى اضطراب الامن قمعا لئيما شرسا .

واحتج أبي بحداثة سني ، وصاح « انكم لا تستطيعون اقتياد طفل في الثانية عشرة من عمره في هزيع الليل .. » اني أعدكم بأن اقتاده الى مكتبكم في الساعة الاولى من صباح غد . اني أعلم ان ابني برىء ، واتوسل اليكم ان تصبروا ... « الا ان الحباب بقي جامدا . فهو لن يغادر المكان بدوني » واخيرا وافق على أن يرافقني والدى . وبدأ الاستجواب فوروصولنا الى مقر الامن العام . وسرعان ما سألني الحباب وهو جالس وراء مكتبه عن مصدر الكدمات الظاهرة على وجهي . وما ان انهيت سرد ما وقع لي في تل أبيب حتى وصفني بالكذاب ، ثم ، اذا بشرطي يدخل علينا وهو يلبس ثيابا مدنية ، فيتهمني بطعن حدث يهودى في قدمه خلال مشاجرة حدثت في اليوم ذاته في يافا . فاوضحت له انه لا يمكنني ان اكون القائم بهذا الاعتداء لأني كنت أنا نفسي لحظة ذاك ، اتعرض لهجوم في تل ابيب . وعند ذاك ادخل الحباب الى المكتب اثنين من رفاقي اليهود ممن كنت أعدهم بين اصدقائي الحميمين . فوافقا بتأكيد على رواية الشرطي مضيفين أنني كنت رئيس العصابة التي هاجمت فريق الطلاب اليهود .

كنت مذهولا ومحنقا من موقفهما الظالم تماما ، وحين سألتهما عما اذا كانا شاهداني بأم أعينهما اشترك في الشجار ... أجابا نعم .

ولم تنفعني احتجاجاتي بشيء لأني لم اكن استطيع تقديم شهود مضادين .

وعندما انتهت المواجهة ، طرد ابي ، الذى كان لايزال يصر على اعادتي الى البيت بقوة السلاح . كنت مهانا عاجزا ، اصر اسناني والدموع في عيني وبعض الرعناء يدفعون أبي بشراسة بينما كان يصيح بأني بريء ويناشد الحباب العدل . ثم حبست في زنزانة معدة للاحداث من الجانحين ،فلم استطع أن اغمض عيني بقية الليل .

وفي صبيحة اليوم التالي ، حاول الحباب أن ينتزع مني اعترافا ، فراح يضربني بمسطرة على اصابعي . ثم ان سكوتي الذى تأوله هو عجرفة ، كلفني مضاعفة الضربات . وفي النهاية قال لي:« انك لا تريد ان تعترف ... حسنا سوف تحال على المحكمة » . ثم اقتدت تحت الحراسة الى طابق الاحداث . وهناك طرح علي رئيس المحكمة وهو انكليزي يتكلم عربية ركيكة ، بعض الأسئلة . فاعدت مرة اخرى سرد ما الم بي ، الا ان ذلك لم يترك في نفسه بديهة الحال أى تأثير . ثم اقتدت مجددا الى طابق الحباب الذى ابقاني واقفا عشر ساعات الى ان ابلغني في ساعة متقدمة من الليل وبحضور والدى نص الحكم . انه حكم بالادانة وبابقائي سنة في الاقامة تحت المراقبة ، يكون علي خلالها ان أكفر عن سيرتي السابقة ، واقوم ، في جملة ما اقوم به بالمثول مرة في الاسبوع امام الحباب لاقدم له تقريرا عن حركاتي وسكناتي .

ولاول مرة في حياتي استشعر الاحباط والحقد . الحقد على الانكليز الذين يقهرون شعبي ، والحقد على من وضعوا انفسهم من مواطني في خدمتهم، والحقد على الصهيونية التي حفرت هوة بين الفلسطينيين واليهود . غير ان اليأس الذى استشعرته أثر الظلم الذى لاقيته ، جرى التعويض عليه جزئيا بالعطف الذى اظهره محيطي لي ، حيث كنت اعتبر بطلا بأكثر مما كنت اعتبر ضحية . افلم اصمد في وجه المتعسفين وجهازهم القمعي .. ؟ وسرعان ما منحني مدير المدرسة رشاد الدباغ عطلة لمدة اسبوع لاتعافى من جراحي ومن تجربتي المؤذية . وحين عدت الى الصف احتفى بي رفاقي ، ثم اصبحت ، واكثر من أى وقت مضى ، الرئيس غير المنازع بين « أشبال النجادة » .

فاما أهلي ، فانه بدا لي أن حنوهم علي قد تعاظم . وقليلا ما علق أبي على الامتحان الذى تعرضنا له سويه . الا انني كنت اعرف عمق وطنيته ،فكنت اعلم أن في وسعي الاعتماد على مناصرته . فقد وافق ، شأن والدتي ، على انتسابي للنجادة ، برغم انه هو لم يكن عضوا في أية منظمة عسكرية أو سياسية ومع هذا فانه كان يتصرف في الاشهر التي تلت توقيفي بصورة غريبة . فقد لاحظنا ، أخي عبد الله وانا ، بانه يقفل بالمفتاح احدى الخزانات فلا يستطيع فتحها احد سواه .وكان يعتزل من حين الى آخر في احدى غرف منزلنا التى توجد فيها هذه الخزانة بالذات .ثم يخرج منها بدون ان ينبس بكلمة . فقررنا ذات يوم، بعد أن اثار ذلك فضولنا ، أن نراقبه من ثقب الباب . وكم كانت دهشتنا حين رأيناه يتجه نحو الخزانة ويخرج منها رشاشا بديعا . فابي ، الذى كان على ما هو عليه من الرقة والوداعة ، كان يزيل الشحم عن سلاحه وينظفه بدقة ويربت عليه بعطف . كان السلاح باهظ الثمن بالنسبة لحانوتي مكد كوالدى. وحسبنا انه لا بد ان يكون بالتأكيد مقاتلا تابعا لتشكيل سرى ..

غير ان الحقيقة لم تكن تطابق توهماتنا . فبعد ذلك بسنة ، أى في مطلع عام ١٩٤٧ ، وعندما جرؤنا اخيرا على أن نعترف بسر فضولنا ، فان والدى باح لنا بأنه اشترى رشاشه بماله الخاص . فليس من المستبعد ، كما قال لنا ، من ان يسحب الانكليز جيوشهم من فلسطين ، فينبغي لنا اذ ذاك ان نكون مستعدين للدفاع عن أنفسنا ضد اليهود الذين يتسلحون الى أبعد حد .

ثم ان غالبية سكان الاحياء العربية في يافا الواقعة على مقربة من التجمعات اليهوديه فعلت الامر نفسه . ولما لم يكن في وسعهم الاعتماد في دفاعهم على أحد ، فانهم بدأوا يرقبون بخشية اليوم الذى يصيرون فيه تحت رحمة المقاتلين الصهاينة .

اما المنظمات الفلسطينية فكان يعوزها السلاح اعوازا قاسيا . فمنظمة النجادة التي كنت انتمي اليها ، كانت تدرب اعضاءها باستخدام البنادق الخشبية وهكذا فانه لم تتح لي مطلقا فرصة أن ألامس أو حتى ان أرى سلاحا حقيقيا ، غير ذلك الذى رأيته بين يدي والدي . فكان قوام تدريبنا هو

التمارين البدنية والمحاضرات النظرية على فن حرب العصابات التي كان يلقيها علينا العسكريون القدامى الذين قاتلوا في الحرب العالمية الثانية في صفوف الجيش البريطاني .

ولم يكن للحركة الوطنية الفلسطينية أي وجود منظم . فانهيار الثورة الشعبية لاعوام ٣٦ ــ ١٩٣٩ الدامية أباد صفوفها وبعثر الاحياء من قادتها ، فكانوا في معظمهم حبساء في سجون الانكليز او مكرهين على المنفى . وفي تلك الفترة سمعت كثيرا بالحاج امين الحسيني مفتي القدس وزعيم الحركة الفلسطينية ، ولكني كنت أعلم القليل عنه ، اللهم الا نفوره من النجادة التي كانت تزعم انها تريد الحفاظ على استقلاليتها الكاملة ازاء « الرؤساء التاريخيين » . وانما اتذكر فقط عودة جمال الحسيني ابن عم المفتي ، من المنفى ،والاجتماع الشعبي الكبير الذى حشد على شرفه في ساحة الساعة بيافا . كنت أحد آلاف المتظاهرين الذين يصيحون معربين عن ارادتهم بالكفاح من أجل فلسطين عربية ومستقلة .

كان جمال الحسيني أحد الرؤساء المستورين لاحدى المنظمات الفلسطينية العديدة التى كانت قائمة حينذاك ، ألا وهي منظمة الفتوة . وبعيد مروره بيافا بدأت المحاولات الرامية لتشجيع دمج الفتوة بالنجادة . وأوفدت الجامعة العربية لهذا الغرض ضابطا مصريا يدعى محمود لبيب ، اشتهر بروابطه بالاخوان المسلمين . ومع ان مهمته كانت شاقة الا انها تكللت بالنجاح ــ ظاهرا على الاقل ــ ذلك ان الفصيلين اندمجا في تشكيل جديد اتخذ اسم « منظمة الشباب » . الا ان هذه العملية بدلا من ان تزود الحركة بدفعة جديدة ، فانها اغرقت مناضلي المنظمتين الموحدتين توحيدا اصطناعيا ، في الفوضي ثم اصابتهم بالتالي بالشلل . فقد اوقف زعيم النجادة محمد الهوارى كل نشاط تعبيرا عن احتجاجه ضد هذا المشروع الذى كان يعارضه حتى من حيث المبدأ . ثم ان الهوارى اسهم ، وهو الخطيب المصقع والقائد الموهوب ، والقومي المتقد ، في تثبيط عدد من المعجبين به ومن محازبيه عندما انزلق من السلبية الى التعاون مع العدو . واضعا نفسه في خدمة اسرائيل منذ احتلال

القوات الصهيونية ليافا . واما « منظمة الشباب » فقد ماتت رغم أنفها في ذات الحقبة .

ويقيني ان الانكليز ليسوا غرباء عن اجهاض هذا المشروع . فقد كانوا يعملون ، بين جملة ما يعملونه ، بواسطة عملائهم داخل الجامعة العربية فلا يتوقفون عن الدسيسة والكيد لاضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية ، ان باثارة الانقسامات داخلها ، وان بجعلها غير فاعلة ، كما حدث في حالة تحييد النجادة والفتوة .

كان الفلسطينيون مجمعين على المطالبة بانهاء الانتداب البريطاني وبايصال بلدهم الى وضع الدولة الكاملة السيادة . واذ ذاك فان السلطات الاستعمارية ضاعفت الاجراءات والمبادرات من أجل تبرير وتمديد وجود سلطانها . ومن أجل هذا فانه كان لا بد لها أن ترعى الانشقاقات في فلسطين وان تفاقم موجدة اليهود والعرب وان تثير المواجهات المسلحة بينهم عند اقتضاء الحاجة . وفي ربيع عام ١٩٤٦ ، الغت حكومة لندن ضمنا كافة احكام وتدابير « الكتاب الابيض » لعام ١٩٣٩ عندما اذنت بقبول ١٠٠٫٠٠٠ مهاجر يهودي الى فلسطين وبشراء الصهاينة للاراضي العربية . معلنة ان بريطانيا العظمى ستستمر في ممارسة انتدابها على فلسطين طالما ظلت الظروف لا تسمح ببلوغ هذا البلد الاستقلال .

وفي بداية عام ١٩٤٧ شاهدت بام عيني كيف ان الانكليز يسعون وراء جعل حضورهم امرا لا غنى عنه ، و البرهنة على أن انسحابهم سيفضي الى حمام دم في فلسطين . فقد لاحظنا ــ رفاقي وأنا ــ وفي عدة مناسبات دبابة خفيفة ترابط في يافا وتطلق النار على الأحياء اليهودية في تل أبيب . وعندها ظن اليهود ان العرب فتحوا النار عليهم فردوا بالمثل . ثم ان الانكليز قاموا بالعملية ذاتها وبوجهة معاكسة مطلقين النار من تل ابيب على يافا . وهكذا فقد راحت المناوشات ، ثم المعارك من بعد ، تتضاعف بين فريقي السكان ، وذلك حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها عندما لاحظت الجمعية العامة للامم المتحدة ان التعايش بينهما بات غير ممكن فقررت

تقسيم فلسطين الى دولتين .

وقد اتخذت السلطات الاستعمارية موقفا واضح الانحياز لصالح الصهاينة لترجيح الغلبة التي تتمتع بها الاكثرية العربية . فبينما كانت تمارس على العرب قمعا لا رأفة فيه ، فانها كانت تعامل الارهابيين اليهود ، برغم قيامهم بجرائم فظيعة ضد الانكليز ، بتسامح يتجاوز الادراك . كانت سلطات الامن تغمض عينيها عن الدفق الكثيف من الاسلحة الذى تتلقاه الهاغاناه والمنظمات الاخرى من الخارج ، في حين انها لم تكن تتردد في سجن أي عربي يحوز سلاحا ناريا . وتحظر علينا ان نقتني حتى الخنجر ، وتعتبر حمله جنحة يعاقب عليها بالسجن مدة ستة أشهر . وهكذا فان نسبة القوى التي كانت تبدو في صالحنا في السنتين الاولين بعد الحرب ، انقلبت لصالح الصهاينة غير انه من الصحيح ان هؤلاء كانوا يتمتعون بدعم وتواطؤ من الخارج ، لم نكن نتمتع به . فالدول العربية كانت تظهر لنا تعاطفا بالغ « العذرية » والافلاطونية ، فتعد بالكثير ولا تزودنا عمليا الا بمعونة شبه رمزية . ولم يكن الفلسطينيون يتمتعون بمنظمة شبيهة بالوكالة اليهودية التى كانت تستقطب الاموال والوسائل التي لا غنى عنها لشراء ونقل الاسلحة. كما كانوا محرومين من القيادة السياسية والعسكرية ، التى يسعها ، فيما لو وجدت ، ان تنظم مقاومتهم .

واذا سلموا الى قدرهم ، وهم يخشون حدوث مجازر شبيهة بمجزرة دير ياسين ، فان مئات الالاف من الفلسطينيين قرروا مغادرة وطنهم تحرزا ، لا سيما وان بعض « اللجان الوطنية » المؤلفة من مناضلين قوميين ، وخاصة في يافا ، كانت تطمئن من يريدون المغادرة بأن منفاهم سيدوم قليلا ، فان هي الا بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ، أى الوقت اللازم لتجمع الجيوش العربية لكي تقهر القوات الصهيونية . ذلك ان القرار الذى أعلنته البلدان العربية بمقاومة انشاء دولة اسرائيل بالسلاح ، اثار أملا كبيرا لدى الفلسطينيين .

وحين استرجع ذلك ، فاني اعتقد ان مواطني اخطأوا حين وثقوا بالانظمة العربية ، كما أخطأوا على أية حال ، حين تركوا الميدان خاليا للمستوطنين

اليهود • كان عليهم الصمود مهما كلف الامر • فما كان في مستطاع الصهاينة ان يبيدوهم حتى آخر رجل • وعلى أية حال ، فقد كان المنفى بالنسبة لكثيرين بيننا أسوأ من الموت •

واذا كانوا يجهلون ما ينتظرهم ، فان أهلي قرروا خلاف ذلك • فهم في نهاية الامر ، يلتجئون الى غزة ، المدينة التي ولد أبي فيها • ثم انهم لاستئمانهم ، خلفوا وراءهم أثاثهم وممتلكاتهم حاملين معهم الامتعة الشخصية ذات الضرورة القصوى ، ولكاني انظر الان الى أبي وهو يمسك بيده مفاتيح مسكننا ويقول لنا مطمئننا اننا لن نلبث أن نعود اليه • ولكنه قدر لي الا أرى بعد ذلك المنزل الذى ولدت فيه ؛ فقد مرت على ذلك ثلاثون من السنين وانا لازلت اجهل ما اذا كان قد دمر ام لا • والحق هو اني افضل الا أعرف •

الفصل الثاني

سنوات الحمل

كانت السنوات التي عشناها في غزة بين أكثر سني حداثتي كآبة . انها سنوات ريبة ويأس وبؤس . رغم اننا لم نكن في عداد الاكثرين حرمانا . ففي حين كان اكثر اللاجئين محشورين في مخيمات كيفما اتفق الحال ،ويسكنون في خيام او اكواخ صفيحية فانه كان لنا حظ القدرة على الاعتماد على عائلتنا المقيمة في المدينة . فقد آوانا احد أعمامي وهو رب عائلة كبيرة ورجل متواضع الحال يصنع هياكل خشبية (طوبار) لاغراض البناء واسكننا في غرفة محاذية فرش فيها سبع فرشات لينام عليها ابواى واطفالهما الخمسة . كان المكان كافيا بالضبط لنتمدد . واذ كان ابي يعيش على أمل لا يقاوم بالعودة في مستقبل قريب الى يافا ، فانه راح يمدد اقامتنا في مسكن عمي شهرا بعد شهر . وعلى أية حال فانه لم يكن يملك الوسائل التي تمكنه من الاقامة في مكان آخر . فعشنا سنتين في اختلاط خانق الى أن جاء اليوم الذى أفهم فيه عمي والدى انه بات لشديد أسفه مكرها على انهاء ضيافتنا (فقد لاحظ ان أخي البكر عبد الله بات رجلا ولم يعد يليق أن نسكن بصورة مشتركة بالنظر الى أن بناته هو أيضا بتن صبايا) .

وثمة مشكلة ثانية طرحت منذ وصولنا الى غزة . فبالنظر الى ضآلة عدد المدارس المتوفرة والى تدفق اللاجئين ، فانه لم تكن ثمة مؤسسة تستطيع استقبالنا . وقد استلزم الأمر من أبي قضاء عدة اشهر في المساعي والتضرعات والمداخلات قبل ان يفلح في أن يرتب أطفاله الخمسة . ومن الصحيح كذلك ان السلطات المصرية لجأت خلال ذلك الى وسيلة لتشجيع امتصاص كافة الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة : كان الاساتذة يتناوبون ، بعضهم في الصباح وبعضهم الآخر بعد الظهر ، لتوفير التعليم للصفوف المختلفة . فكنا ، عبد الله وأنا ، مسجلين في الدورة الصباحية التي تبدأ في الساعة السابعة . واذ لم تكن لدينا الوسائل لاستخدام النقل العام فاننا كنا نذهب الى المدرسة التي تقع على مبعدة ثلاثة أو أربعة كيلو مترات عن منزلنا

سيرا على الاقدام • واذا فقد كنا نستيقظ قبيل الفجر ونبدأ بالسير في الساعة الخامسة والنصف صباحا ، برفقة الاطفال الاخرين من عمرنا الذين يسكنون في مخيم اللاجئين الذى يقع في جوار منزلنا .

وذات ليلة من ليالي شتاء عام ٤٨ ــ ١٩٤٩ ، استيقظنا عبد الله وانا ، على وشوشات محادثة تجرى بين ابوينا • كان أبي يشكو ويتأوه • فقد ذهبت جهوده لايجاد وظيفة ، أية وظيفة كانت ، هباء • ذلك ان البطالة في غزة كانت على مدى من الاتساع والضخامة بحيث انه فقد كل امل في كسب معيشته • وكانت المدخرات التي حملها من يافا على وشك النفاذ فكيف تراه سيعيل ابناءه الخمسة ؟ اما والدتي فراحت تحاول تطمينه بدون كبير اقتناع •

وفي طريقنا الى المدرسة في صبيحة اليوم التالي ، اتخذنا ــ عبد الله وانا ــ قرارا بأن نعمل للمساهمة في نفقات المنزل • فما دمنا نغادر صفوفنا ظهرا ، فاننا نستطيع العمل بعد الظهر • ولما كنا نعلم كبرياء والدنا ، وانه لن يقبل مطلقا بأن ينصرف ولداه القاصران الى عمل مأجور ، فاننا قررنا أن نخفي عن والدينا حقيقة الاعمال التي نقوم بها بعد الدراسة • ومن ثم فقد قمنا سرا بعساع لدى اثنين من ابناء عمومتنا • فكان ان استخدم احدهما ، وهو نجار حرفي شقيقي ككاتب ، في حين استخدمني الاخر وهو صانع يصنع كراسي من السوحر (وهو نوع من القضبان قريب من الصفصاف) كمتمرن فكدت أجن من الفرح •• ذلك أن أجري الشهري كان يبلغ جنيهين مصريين ، وهو مبلغ كان له شأنه في تلك الحقبة ، بالنظر الى ان أجر المسكن على سبيل المثال كان يومها في حدود أربعة أو خمسة جنيهات • ثم ان والدتي انتهت بحكم الاحوال ، الى التكهن بما نقوم به • وكنا نسلمها ما نكسبه فتستخدمه في تأمين نفقات البيت دون أن يعلم والدى بذلك •

وفي تلك السنة رسب أخي في الامتحان وترك المدرسة ليصبح ميكانيكيا ويمارس المهنة التي طالما رغب في ممارستها • ولم يطلع والدى على هذا الامر الذى كان سيستشعره كمأساة • فقد كان يتحدر من عائلة متعلمين ، أو من

عائلة مثقفين كما يقال في هذه الأيام . فوالده الشيخ عبد الله وهو رجل دين موقر في غزة ، اكمل دراساته العليا في جامعة الازهر بالقاهرة . اما والدي نفسه فلم تتوفر له امكانية متابعة ذات السبيل بسبب العراقيل التي كانت تقيمها السلطات العثمانية لتمنع تعلم العرب ، والفلسطينيين منهم بخاصة . ولهذا فان والدي ـ الذي كان ملما مجرد المام بالقراءة والكتابة ، ولم ينس نقص تعليمه ـ كان احرص بكثير من سواه على أن يكمل أولاده دراساتهم . ثم ان الفلسطينيين عامة . ولا سيما فلسطينيي المنفى يولون تعليم اولادهم أهمية من الدرجة الاولى ، وغالبا ما يرتضون من اجل ذلك القيام بتضحيات جليلة عن طيب نفس . فتلك طريقتهم في ضمان بقائهم داخل وسط غير ودود . وليس من قبيل الصدفة أن يكون في وسع الفلسطينيين المفاخرة بأن لديهم ارفع نسبة من المتعلمين بين كافة الشعوب العربية .

ولم يكن لأبي أن يتذمر من شيء فيما يعنيني . فقد كان يراني ادرس حتى ساعة متأخرة من الليل ، كما ان ورقة علاماتي في نهاية السنة المدرسية الاولى كانت تشهد بنجاحي في الامتحانات . الا انه كان يجهل ما كلفتني ترقيتي من الصف من جهود . فالعمل الذي كنت أقوم به لدى ابن عمي صانع الكراسي ، كان صعبا بقدر ما كان منهكا . ثم اني لاحظت ، من جهة ثانية ان أجري كان يظهر غير كاف كلما كانت وسائل أبي المالية تتضاءل .

ولما لم أكن استطيع ان أكاشف أبي ، فاني رحت ذات يوم أطلب مشورة ابن عم لي كنت اكن له عاطفة خاصة . كان يملك مقهى كبيرا يدعى مقهى الكمال ، فتلقاني بقبول وتعاطف . وبعد أن أصغى الى سردي لصعوباتنا المالية ، فانه عرض علي أن أعمل عنده بأجر يبلغ عشرة جنيهات شهريا ، أي خمسة اضعاف ما كنت اكسبه في ذلك الحين ، وكان قوام مهمتي هو أن أجلس وراء الحاسبة لاراقب الطلبات بواسطة البطاقات أو « الفيش » التي يعطيني اياها صبيان مؤسسته . وكان يأذن لي في أن احمل معي كتبامدرسية لكي استطيع الدراسة أثناء الساعات التي يخف فيها العمل .

كان العرض أكثر من مغر ، لكن هل أملك الحق بقبوله . . . فالعمل

في مقهى ، وفقا للتقاليد العائلية ، هو عمل مشين وممجوج ، شأن العمل في منزل دعارة • واذا كان لا بد لي من قبول هذه الوظيفة ، فهل سأستطيع أن أخفي عملي الشائن هذا عن أهلي طويلا •• ؟ فمقهى الكمال يقع في وسط المدينة ورواده كثيرون ولن يطول بي الحال حتى يتعرف على هذا الصديق من اصدقاء أبي أو ذاك • وقررت أن أخاطر ، فقد كانت المخاطرة محدودة لأني كنت أعلم انه لم يسبق لأبي أن وضع قدمه في مقهى •

كانت أسابيع عملي الاولي في وظيفتي الجديدة صعبة • كنت أمضي ست أو سبع ساعات وأنا أترصد زبائن « الكمال » محاولا أن لا يشاهدني مشاهد عندما كنت أرى وجها مألوفا • على أن والدتي انتبهت وهي الدقيقة الملاحظة الى أن شيئا غريبا حدث في حياتي • وانتهى بي الأمر بعد أن اخضعتني لاستنطاق حسب الأصول ،الى الاعتراف لها بالحقيقة • فكانت باديء ذي بدء كمن مستها الصاعقة فبدأت تبكي وتتوسل الي لكي أترك هذه الوظيفة فورا فهي تستطيع الاستغناء عن اجرى كما قالت ، بأن تبيع اساورها ، والمال الذى أكسبه لا يعوض مطلقا الصدمة التي سيتعرض لها أبي اذا ما قدر له سوء الحظ ان يعرف بالعار الذى أوقعته به • الا انني صمدت • وفسرت لها بأنه لم يبق يفصلني سوى بضعة أشهر عن اجتياز امتحانات البكالوريا ، فابحث بعد ذلك عن وظيفة أخرى • فكان ان أذعنت والدتي على غير اقتناع ،ووعدتني برغم عدم اقتناعها هذا بالا تقول لوالدى شيئا • وعندما كان هذا الاخير يدهش لليسر النسبي الذى كنا نعيش فيه – بسبب أجرى – فان والدتي كانت تزعم بأنها تنفق من ثمن مبيع احدى أساورها • وبعيد ذلك بقليل ، غادرنا منزل عمي لنقيم في مسكن استأجرناه • فبتنا أخيرا في دارنا .

وفي يوم من أيام شباط (فبراير) ١٩٥٠ ، وكان قد مضت ستة أشهر على عملي في مقهى الكمال ، حدث الامر العجيب الذى لم يكن في الحسبان• فقد رأيت أبي وهو يدخل الى المقهى ، ويمر بمحاذاة الحاسبة التي كنت أجلس وراءها دون أن يراني ، ثم يتجه نحو طاولة تقع في الطرف الثاني من المقهى الرحب • وبقي جالسا هناك ساعة بدت لي وكأنها دهر كامل • كانت هذه

الساعة احدى أكثر ساعات حياتي قلقا بحيث انني كنت مشلولا من الخوف ، فلا اجرؤ ان اتحرك مخافة ان يسترعي ذلك انتباه أبي • ثم انه نهض أخيرا ، وبينما كان يهبط درجات السلم الذى يفضي به الى المخرج سمع أحد صبيان المقهى يناديني باسمي • فتوقف في مكانه ، ثم استدار ، ثم صعد بضع درجات وشاهدني • والتقت نظراتنا لبضع ثوان عاد بعدها الى الهبوط وهو رابط الجأش لا يهتز له بنان •

واسرعت الى ابن عمي صاحب المقهى أقص عليه ما جرى لي واطلب اليه أن يتشفع بي عند أبي • فرفض رفضا قاطعا محتجا بأنه ليس في وضع يمكنه من الاضطلاع بهذه المهمة لأن ذنبه هو ـ في نظر والدى ـ أعظم من ذنبي • فكان علي أن أواجه وحدى العاصفة التي تنذر بالوقوع •

ووجدت والدتي تنتظرني عند عتبة الباب وهي ترتجف بكل اعضائها • كانت تود تحذيرى بأن أبي « في حالة سعار مجنون من الغضب . فليكن الله في عونك •• » اما اخوتي واخواتى فكانوا خائفين منكفئين على أنفسهم في زاوية من زوايا غرفة الجلوس • واما أبي الذى كان راكعا يصلي فقد تجاهلني • ثم بعد ان فرغ من صلاته سالني بلهجة صارمة : « هل تعلم ان سلوكك هو سلوك مخز •• ؟ » فأجبته بأني قبلت العمل في مقهى الكمال لاساعد عائلتي ليس الا • وكشفت له اني استمعت الى حديثه مع والدتي لسنتين خلتا حول مصاعبه المالية ، ثم قلت له كم ان همومه اشجتنى •فقاطعني قائلا : « كنت أفضل الموت جوعا على ان اراك تعمل في مقهى » • ولست أذكر بعد بما أجبته به تماما ، ولكنه اهتاج فجأة ثم وجه الى ركلة حلت في صدرى واحسست ان الارض تتهاوى تحت قدمي ، وان كل شيء حولي ينهار • فها هو أبي الذى لم يسبق له ان انتهرنى في حياته كلها ، يضربني • وهو يضربني ظالما ، لاني كنت أعتقد صادقا اني تصرفت بوحي ضميري ولخير العائلة كلها • وشعرت بأن كبريائي جرحت ، وان الاهانة اصابتني في اعمق أعماقي . فكانت تلك أول مرة أبكي فيها في حياتى • وبينما كانت دموعي تنهمل ، كنت أرقى درجات السلم المفضي الى سطح المنزل ثم القي نفسي في الخلاء •

واعتقد لدى تدبر هذه الحادثة ، اني لم اكن اسعى حقا الى الانتحار . والقفزة التي قمت بها لم تكن خطرة على نحو خاص . فبالنظر الى أن منزلنا كان مؤلفا من طابق أرضي يعلو قليلا عن سطح الارض ، فان المسافة التي كانت تفصل السطح عن الارض لم تكن تزيد عن مترين أو ثلاثة ، كما أن الارض الرملية التي القيت بنفسي عليها كانت رخوة بعض الشيء ، وبخلاف ذلك فاني اتخذت حيطة بالسقوط على قدمي (الامر الذى تسبب لي بآلام مزمنة في الظهر تعود الى التواء في العمود الفقرى) وانما كان سلوكي هذا تعبيرا عن الغضب وطريقة في الاحتجاج ضد المعاملة الظالمة التي عوملت بها بأكثر مما كان فعلا يائسا .

على أن سقطتي لم تكن أمرا هينا بالكامل . فقد فقدت الوعي بتأثير الصدمة . وعندما عادت الي نفسي ، رأيت والدتي واخوتي واخواتي من حولي وهم مضطربون مشفقون على حالتى ، وينتظرون سيارة الاسعاف التي ستنقلني الى المستشفى الانكليزى الذي كان أحد افضل مستشفيات غزة . وسرعان ما لاحظت غياب أبي ! فهو لم يأت لزيارتي في المستشفى حيث ظللت أعالج عشرة أيام من الرضات ، وبدا لي سلوكه ، وهو المحب الشفوق الرؤوف البالغ الطيبة ، على قدر لا تفسير له من القسوة . وانما فهمت ردة فعله بعد ذلك . فهو رجل مشبوب العاطفة على انكماش ، حساس وعنيد في آن معا ، ولذا فانه تأثر تأثرا شديدا من استخفافي بتقاليد وسطنا وبما كان يعتبره شرف العائلة وحسن احدوثتها ، وهي أفكار كان يرتبط بها بكافة اوتار وجوده . وفوق هذا كله ، فانه تأول سلوكي كتحد وقح للسلطة الأبوية التي هي مقدسة كذلك عنده .

ثم انه عقد لدى خروجي من المستشفى مجلسا للعائلة واعرب لي عن حزنه ثم طلب مني التخلي عن عملي في مقهى الكمال . اما والدتي فانها من جهتها ، أخرجت من حافظتها رزمة أوراق نقدية ـ تزيد على المئة جنيه ـ وهي مبلغ ضخم لم تتح لي فرصة رؤيته قبل ذلك . فقد باعت كافة مجوهراتها كما قالت لي ، وسوف تستخدم الثمن لتلبية حاجات المنزل ، للفترة المتبقية من السنة المدرسية التي ينبغي لي أن أنال في نهايتها شهادة البكالوريا. ثم اضافت:

وبما ان العائلة باتت بمنأى عن الحاجة فانه لم يبق ثمة داع يدعوني لممارسة عمل مأجور . ثم ان أعمامي وابناءهم ممن كانوا مدعوين الى الاجتماع ، أكدوا لي ، واحدهم بعد الاخر ، بأن في وسعي الاعتماد على دعمهم لاتابع دراساتي العليا اذا كنت راغبا فيها . وقد هزني هذا التضامن الحار فأعلنت على الفور عزوفي عن وظيفة مقهى الكمال .

وسجل عام ١٩٥١ منعطفا جديدا في حياتي . فبعد ثلاث سنوات من خروجنا ، غادرت غزة الى القاهرة بقصد الاتساب الى الجامعة . ووفقا لما وعدوا به ، فان أقاربي راحوا يكتتبون ، كل حسب طاقته ، ليزودني بما أعيش به . وبخلاف مباركة أبي ، فاني تلقيت مبلغ خمسين جنيها ينبغي لها أن تفي بمعاشي ابان الاشهر الاولى . ثم ان أبي أوصي بي احد ابناء عمومته ، ويدعى الشيخ يوسف ، كان يتابع دروسا في اللاهوت (علم الكلام) فيجامعة الأزهر الاسلامية . وجاء الشيخ يوسف الى محطة القاهرة برغم عماه ، يسعى في طلبي ، وعرض علي ، المبيت في منامة الجامعة . ومنامة الجامعة عبارة عن رواق واسع تصطف فيه الأسرة بمحاذاة بعضها فلا يفصل السرير عن الاخر سوى منضدة صغيرة . ولما كان احد زملاء الشيخ يوسف غائبا ، فانه كان بوسعي ان أشغل سريره بضعة أيام الى أن أعثر على مأوى دائم . وقبلت عرض ابن عمي هذا بطيبة خاطر رغم ان المنامة الوسخة والتي كانت تنبعث منها رائحة بشعة كانت تنفرني .

ثم اني علقت قميصي ولباسي الذى دسست في جيبه الخمسين جنيها التي اعطتني عائلتي اياها ، بمسمار . وعندما فتحت عيني في صبيحة اليوم التالي لاحظت ثيابي اختفت . واذ استولى علي الذعر ، فاني هززت الشيخ يوسف الذى كان لايزال نائما لاستوضحه عما حل بها . الا انه لم يكن يعلم أكثر مما أعلم ، ثم لم يطل بنا الأمر لندرك ان امتعتي سرقت . وأخذ علي ابن عمي غفلتي مشيرا الى انه يحتفظ بامتعته تحت فراشه . فكان من البديهي أن مؤسسة الأزهر الموقرة ـ خلافا لما يتبادر الى الذهن ـ لم تكن موئل النزاهة الاسمى .

ووجدتني منهكا مدحورا • فلازمت سريري ملازمة شبه كاملة طوال عشرة أيام • كنت لا املك مليما واحدا وليس لدي ما أقتات به ، أو أسكن فيه أو ألبسه • ولم يكن عندى بخلاف ثيابي المسروقة سوى « دشداشة » وهي ضرب من ثوب تقليدى ، وما كنت البسه على أية حال ، الا في البيت • فبدا ني مستقبلي حينها كأحلك ما يكون • فلم يكن في الوارد ان استطيع متابعة دراستي • ذلك ان مجانية التعليم لم تكن قد ادخلت الى الجامعات المصرية بعد • ولسوء حظي ، فان المساعدات التي كانت تصرفها الجامعة العربية للطلاب الفلسطينيين قد اوقفت لاسباب اقتصادية .

كان أبي قد أشار علي بأن أقصد السيد الكاشف وهو أحد اقاربه الاقربين ، وتاجر ثري من قرية العميل (في منطقة تل أبيب) وهاجر قبلنا ببضعة أشهر • وكان يسكن مع عائلته في حي من أحياء القاهرة السكنية • الا أني امتنعت عن زيارته في لحظة الحاجة والعوز ، بدواعي الكبرياء • وانما قدر لي بعد ذلك بسنوات وبعد ان اصبحت مدرسا ، أن أتزوج ابنته •

وعرض علي الشيخ يوسف حينذاك الالتحاق بجامعة الأزهر التي كانت توزع معونات على الطلبة المحتاجين من الأموال التي كانت تضعها المؤسسات الخيرية بتصرفها • كان هو نفسه يسكن بالمجان وينال مخصصا شهريا بقيمة أربعة جنيهات شهريا • فأبيت عرضه هذا بأدب . دون أن أقول له كم كنت أنفر من التعليم ذى الطابع الطائفي • ولكنني من جهة أخرى اقتنعت بتقديم طلب للحصول على منحة من دار العلوم ، وهي ضرب من دار المعلمين العليا • ويقينا ان دار العلوم لم تكن تستجيب للمثال العلماني الذى ارتضيته لنفسي لأنها كانت وثيقة الصلة بالأزهر ، الا انها كانت تشتمل على دروس أخرى أشغف بها غير علم الكلام : كاللغة والأدب العربي والفلسفة وعلم النفس . كانت المنحة المتمناة تبلغ أربعة جنيهات ، وهو مبلغ متواضع الا انه كان يتيح لي ان أعيش وان أواصل دراستي •

غير ان دار العلوم لم تكن تقبل كل من يتمنى الدخول اليها • فكان علي أن اجتاز مباراة مشهورة بقساوتها ، وكان الامتحان في مادة الأدب العربي ،

وهو ميدان كان شبه مجهول ضمنيا بالنسبة الي . ومع هذا فقد قررت أن أجرب حظي . وهكذا فقد مثلت أمام اللجنة الفاحصة شأن ٥٠٠ مرشح آخرين . وبدأ رئيس اللجنة ، وهو شيخ من جامعة الأزهر بمسائلتي حول ديواني شاعرين شهيرين كنت أجهل ـ كما اعترفت له ـ حتى اسميهما . ثم قررت امام ذهول الممتحن ان العب اوراقي كاملة . فقلت له : « ان لك ان تسقطني ، ولكن اسمح لي بادئا ان أعرض لك معتقدي في جامعة الأزهر التي تمثلها هنا » . ثم سردت عليه قصة سرقة نقودى وثيابي ثم انهيت حديثي بهذه الكلمات « انه لم يبق لدى ما أفقده سوى الدشداشة التي البسها » .

وتركت مقالتي المسهبة هذه الشيخ وهو فاغر فاه . وبعد صمت بدا لي وكأنه لن ينتهي، سألني أحد زميليه الآخرين الدكتور حسن جاد ـ الذي لا يمكن ان انسي العمر اسمه لشدة ما أنا مدين له وقال بلهجة المتواطىء معي : « ولكني مقتنع بانك تعرف الكثير عن الشعر الفلسطيني » . فتلقفت رميته وبدأت أنشد ثم أحلل اشعار معين بسيسو الذي سيفرض نفسه بعد ذلك كأحد أفضل شعراء المقاومة ، وربحت . كانت وجوه الممتحنين الطلقة المنفرجة تشير الى اني ساقبل في دار العلوم . وبعد ذلك بأيام غادرت منامة الأزهر المشؤومة جذلانا .. وقايضت الدشداشة بقميص وبنطلون . كان دخلي الشهري لا يسمح لي بأن استأجر غرفة ، ولكن اصدقا فلسطينيين دعوني الى مشاركتهم مسكنهم بدون مقابل . فالتضامن ليس كلمة لا طائل فيها لدى فلسطينيي المنفى والخروج . واذ لم اتلق أية معونة من أهلي ، فاني عشت على هذه الحال سنتين لدى أصدقاء اصبح بعضهم فيما بعد ذلك بسنوات مناضلين في فتح . وذات يوم ، تلقيت حوالة بريدية من أبي . كان المبلغ هائلا . فقد عثر على عمل في العربية السعودية ، بعد أن استخدمه مقاول كبير هناك ، هو حامد أبو ستة الذى يشغل اليوم عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فأرسل الي أجر أول شهر عمله عنده .

وعام ١٩٥١ ليس عام الانفصال عن العائلة وبدايات حياة الطالب وحسب بل كان الى ذلك نقطة المنطلق في عملي النضالي الذى لم ين عن التطور والنمو منذ ربع قرن . ولا ريب في ان انتسابي الى « اشبال » النجادة في يافا ، يشكل

صيغة التزام سياسي ، الا ان الظروف وحداثة سني منعتني من ان أشارك مشاركة فعالة متواصلة في المعارك التي كان من يفوقوني سنا يخوضونها . أما في غزة ، فاني لم انقطع برغم الصعوبات المادية والهموم العائلية ،عن الاهتمام اهتماما شديدا بتطور المشكلة الفلسطينية . غير أن الحركة الوطنية كانت قد خمدت ضمنا تحت تأثير الاندحار العربي واليأس الذى تلاه ولم يبق سوى بضعة زعماء تقليديين بائدين يحاولون بعثها عبثا تحت كنف الجامعة العربية تلك المنظمة الحجرية التي تتلاعب بها الأنظمة الرجعية العربيةالمرتبطة بالامبريالية والتي قليلا ما كانت على استعداد لدعم القضية الفلسطينية . كان الاحتقار والغضب كارادة التمرد والنهوض ضد النظام القائم تعتمل في نفسي . ولم تلبث الفرصة ان واتت حين أثار قرار الجامعة العربية في خريف عام ١٩٥١ بالغاء المخصصات التي تدفع للمحتاجين من الطلبة الفلسطينيين ، سخطا محقا بين صفوف هؤلاء الآخيرين. وسرعان ما رميت بنفسي في المعترك وشاركت بالمظاهرة التي نظمت امام مقر الجامعة العربية الذى احتليناه . واقتحمنا عنوة مكتب أحمد الشقيرى الذى كان يشغل حينذاك منصب الامين العام المساعد المكلف بالشئون الفلسطينية ، واتلفناه . وقد تكلل عملنا هذا بالنجاح . وأعيدت معونة الطلاب الى سابق ما كانت عليه . غير ان البوليس أوقف قادة المظاهرة وأودعهم سجن عابدين القريب من قصر الملك فاروق . وكان من الوارد تماما ان ابعد الى غزة ، الا أن الأزمة التي كان يجتازهاالنظام الملكي جعلت السلطات تعدل عن مشروعها ، فأفرج عني بعد ٤٩ يوما .

وفي هذه الحقبة التقيت للمرة الأولى بطالب يدرس في كلية الهندسة عمره ٢٢ سنة ، ويكبرني بأربع سنوات ويتمتع بطاقة ونشاط وحماس وروحية مغامرة ، أسرتني وجذبتني اليه : انه ياسر عرفات ، الذى سيتعرف عليه الرأى العام العالمي بعد ذلك بخمس عشرة سنة باسمه الحركي : أبو عمار . كان ياسر يومها مسئولا عن التدريب العسكرى لطلاب الهندسة الراغبين في الاشتراك بالاعمال الفدائية ضد البريطانيين فى منطقة قنال السويس .وبخلاف ذلك فانه كان يناضل ، شأني أنا ، داخل اتحاد الطلاب الفلسطينيين الذى كان يضم زملاءنا الطلبة ممن ينتمون الى كافة النزعات السياسية : الاخوان

المسلمون ، الشيوعيون ، البعثيون ، القوميون العرب (أى الحزب الذى يعتبر جورج حبش أبرز مؤسسيه) الخ .

وبصورة أعم ، فان الفلسطينيين كانوا يتعشقون الاحزاب العروبية ــ يمينية كانت أم يسارية ــ ويعقدون عليها آمالهم كلها نظرا لأنه لم يكن في مستطاعهم الاعتماد على حزب أو تشكيلة محض وطنية تقف نفسها على تحرير فلسطين ، فلم تكن مختلف الايديولوجيات التي اعتنقوها بالنسبة اليهم ــ سواء وعوا ذلك أم لم يعوه ــ الا ناقلة ينبغي ان تصل بهم في نهاية المطاف الى الهدف المشترك.

الا انني ، شأن ياسر عرفات ، لم التحق بأى حزب سياسي . كنت اتعاطف بلا ريب مع الاخوان المسلمين الذين سبق لي أن رأيتهم يعملون في غزة . فقد كان بينهم وعاظ يعتمدون على العكس من العلماء التقليديين ، لغة نضالية متحمسة يسهل تناولها على عامة الناس . فكانوا يدعون المؤمنين الى الكفاح، رافعين من معنوياتهم في لحظة كانوا أحوج ما يكونون فيها الى ذلك . وكان مما يزيد في اجتذاب التعاطف معهم ، هو ان كثيرا من محازبيهم كانوا مطاردين مضطهدين وسجناء لدى السلطات المصرية . وكانوا يعرفون كيف يموتون من أجل مثلهم ، فقد استشهد عدد منهم في السنوات الممتدة بين ١٩٥٠و ١٩٥٢ بينما كانوا يخوضون أعمالا فدائية ضد قوات الاحتلال البريطاني في منطقة قنال السويس .

الا انني ــ بالرغم من كل هذا ، لم التحق بصفوفهم . صحيح انني كنت حفيد شيخ ، وأن أبي مسلم لا يقطع فريضة ، الا ان تسامح وسطي وبيئتي ، العميق ، أبعدني عن ايديولوجية الاخوان المسلمين . وبخلاف ذلك ، فان ميولي الطبيعية كانت تحملني على أن انضم الى ركب قومية علمانية لا يزال علينا أن نوضح شكلها وجوهرها .

ولم تكن لدينا أفكار مسبقة بهذا الصدد ، لا ياسر عرفات ولا أنا ، الا اننا كنا نعلم على الاقل ما هو مضر بالقضية الفلسطينية . كان تقديرنا هو

انه ليس لأبناء وطننا أن ينتظروا شيئا من الأنظمة العربية الفاسدة في معظمها أو المرتبطة بالامبريالية ، وانهم يخطئون بالمراهنة على الاحزاب السياسيةالقائمة في المنطقة . وكنا نعتقد كذلك ان على الفلسطينيين الا يعتمدوا اساسا الا على أنفسهم . وهكذا فقد قررنا عام ١٩٥٢ مباشرة هذه الفكرة الاساسية بتقديم ترشيحنا الى قيادة اتحاد الطلاب الفلسطينيين ، وهو الهيئة الوحيدة التي كانت تمارس في داخلها انتخابات ديمقراطية . وعلى هذا ، فان اتحاد الطلاب الفلسطينيين كان التشكيل الوحيد الذى يسعه ان يدعي انه يمثل قطاعا ما من الرأى العام الفلسطيني .

كان مشروعنا يشتمل على مخاطر بينة . فمعظم الطلبة كانوا أعضاء أو متعاطفين مع الاحزاب السياسية التي لم نكن غير منتمين اليها وحسب ، بل كنا نأباها . وهكذا فقد وجهنا ما يشبه التحدى الى كافة المرشحين المقدمين من قبل احزاب وتشكيلات تتمتع ، وبدرجات متفاوتة ، من المهابة والوسائل المادية والنفوذ .

الا انه من الصحيح كذلك انه لم تكن تعوزنا نحن أيضا الاوراق الرابحة ذلك اننا أفلحنا ، ياسر عرفات وأنا ، في اقامة علاقات جيدة مع كافة الطلاب بدون تمييز لانتماءاتهم السياسية ، فقد كنا أبدا على رأس معاركهم ،مستعدين لكافة التضحيات .

ولم نكن نقدم أنفسنا كاخصام للأحزاب ، بل كأنصار « الاتحاد الطلابي » وهو الاسم الذى اطلقناه على لائحة مرشحينا التي كانت تشتمل على تسعة أسماء مرشحة لملء المقاعد التسعة في اللجنة التنفيذية . كان ستة منهم ينتمون الى فريقنا (منهم عرفات وأنا) اما المقاعد الباقية فقد اسندناها الى الفئات الأخرى : واحد من الاخوان المسلمين ، وآخر شيوعي ، وثالث بعثي . وبهذا اظهرنا روحيتنا الديمقراطية والوحدوية .

وتبين ان حساباتنا كانت صحيحة ، اذ أن لائحتنا انتخبت بأغلبية ساحقة من الأصوات . وظهر أن الطلاب يتطلعون قبل كل شيء ، وبرغم

معتقداتهم الايديولوجية ، الى عمل وحدوي . وقد احتفظ ياسر عرفات الذي عين رئيسا لاتحاد الطلاب الفلسطينيين ، بمنصبه هذا الى حين انهائه دراسته الجامعية عام ١٩٥٦ ، فكان ان خلفته على رأس التجمع بعد ان ظللت مساعده طيلة أربع سنوات .

وبعد انتخابي بشهرين ، أي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ ، ثار النزاع مع الجامعة العربية مجددا ، بعد ان قررت الجامعة مرة أخرى الغاء المساعدات التي كانت تدفعها للطلاب الفلسطينيين . فكان ان بدأنا ، كما في الخريف السابق ، اضرابا عاما ، في حين أن كثيرين منا احتلوا مقر الجامعة . غير ان المسؤولين هذه المرة لم يتراجعوا واستدعوا قوات الامن التي لجأت في طردنا الى استخدام العنف . وبينما تم توقيف تسعة عشر فردا منا ، فانني أفلحت مع كثيرين آخرين في الافلات . وبعد ذلك بقليل أبلغ الامن اتحاد الطلاب الفلسطينيين بأنه لن يطلق سراح رفاقنا الا اذا استسلمت أنا للعدالة ، وهو ما فعلته بناء على نصائح ياسر عرفات الذي كنت قد التجأت الى شقته في ضاحية مصر الجديدة . كان الامن يسعى ان يذل « المغامر » الذي كنته في نظره : فحجزت في قسم المومسات بسجن عابدين ، ثم اطلق سراحي بعد ذلك بـ ٣٥ يوما بناء على تدخل شخصي من احمد الشقيري .

وقد حاول الشقيري أن « يسترجعني الى الحظيرة » بأن رتب مقابلة بيني وبين صلاح سالم ، احد اعضاء مجلس قيادة الثورة التي كانت استولت على السلطة قبل ذلك بأربعة أشهر . ومع ان مقابلتي مع صلاح سالم اطرتني الا انها لم تنل بشيء من ارادتي في متابعة المعركة ولا من ارادة السلطات الناصرية في تحطيم ارادتي .

كانت الشراسة التي تحملها السلطات لي تظهر أحيانا في صغائر ففي شهر تموز (يوليو) ١٩٥٤ كنت عضوا في الوفد الذي يرأسه ياسر عرفات ، والذي كان ينبغي ان يسافر الى فرصوفيا لحضور مهرجان للاتحاد الدولي للطلاب ، الا انني أوقفت قبيل مغادرة الوفد بساعات . كانوا يرون انني « خطر جدا » وأخطر من ان يأذنوا لي بمغادرة البلاد . فكان أن تظاهر العديد من الطلاب

الفلسطينيين مثيرين الكثير من الضجيج ضد هذا التعسف مطالبين باعادة تأشيرة الخروج الي ، ولكن ذلك ذهب عبثا . ولم يطلق سراحي الا بعد ذلك بسبعة وثلاثين يوما ، وبعد عودة الوفد الى القاهرة .

ولم أكن في تلك الحقبة أكن من التعاطف مع جمال عبد الناصر الا القليل كنت أشارك الاخوان المسلمين والشيوعيين الحذر الذى يبدونه ازاءه في بدايات نظامه . وكنت آخذ عليه انه لم يفعل شيئا من أجل القضية الفلسطينية فالغارة الاسرائيلية التي شنت على غزة بتاريخ ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥ وذهب ضحيتها بضع عشرات من الاشخاص أثارت غضبا عظيما بين كافة الفلسطينيين الساخطين على سلبية الجيش المصرى وعجزه عن الدفاع عن السكان أو عن الرد بنفس الضخامة . وتدفقت حشود المتظاهرين تطالب بالسلاح . اما الطلاب الفلسطينيون بالقاهرة ، فانهم نظموا اضرابات ومظاهرات تدعو الى سقوط النظام علنا . واحتللنا مقر اتحاد الطلاب الفلسطينيين ، وتقدمنا ونحن مضربون عن الطعام الى السلطات بثلاثة مطالب هى : الغاء نظام التأشيرات المفروضة على الفلسطينيين لدى الدخول الى غزة او الخروج منها ، اعادة المواصلات الحديدية بين القاهرة وغزة (بعد ان قطعت في بداية المظاهرات) ، اقامة تدريب عسكرى اجبارى يتيح للفلسطينيين الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات الاسرائيلية . ثم طلبنا بين جملة ما طلبناه ان يقوم عبد الناصر بزيارتنا شخصيا لمناقشة شكوانا .

وبعد مرور يومين على الاضراب ، جرى ابلاغنا بأن عبد الناصر مستعد لاستقبال الوفد الذى نعينه . فرفضنا وقلنا بأنه اما ان يجرى الاجتماع بحضور كافة المضربين ــ وكانوا في حدود المئتين ــ واما ان لا يكون . فكان ان وافق عبد الناصر ودعانا الى مكتبه في مجلس الوزراء . وعلى عتبة المبنى تلقتنا قوات امن ضخمة وجرى تفتيشنا بدقة قبل السماح لنا بالدخول .

وبدأ عبد الناصر حديثه بالتأكيد لنا بأنه يعترف بصحة مطالبنا كلها وأنه سيلبيها بالكامل . والواقع انه أصدر اوامره في اليوم نفسه برفع كافة القيود الموضوعة على تنقل الفلسطينيين بين مصر وغزة ، وبفتح معسكرات

تدريب لاعداد فدائيين (الا انه لم يف بوعده بالنسبة لهذه النقطة الاخيرة وحسب ما قدر لنا ان نلاحظه على كر السنين ، الا بصورة شكلية)

ماذا كان لنا ان تتمنى بعد .. ! وعلى هذا فان الجو لم يلبث ان انفرج واتخذت الاحاديث المتبادلة طابعا وديا . وفي نهاية الاجتماع ، اعرب عبدالناصر بينما كنا نهم بالخروج ، عن تمنيه مواصلة النقاش مع اربعة منا ، فكان ان جرى تسمية عبد الحميد الطايع (بعثي) وعزت عوده (شيوعي) وفؤاد احمد (من حركة القوميين العرب) وأنا ، للقيام بهذا الحوار الثاني . واستبقى عبد الناصر الى جانبيه لطفي واكد ــ وهو أحد كبار معاونيه ــ وكمال الدين حسين ، الذى عمل وزيرا عدة مرات ، وعلى صبري الرئيس العقيد لمجلس الوزراء . كان رئيس الدولة المصرية يريد أن يعرف المزيد حول اتحاد الطلاب الفلسطينيين ، وحول مشاعرنا وتطلعاتنا . وكان سؤاله الاول لنا هو : « هل تنتمون الى أحزاب سياسية » . فكان سؤالا غير حصيف ، وبل سؤالا خطرا في بلد فرض الحظر فيه على كافة الاحزاب والتشكيلات ، واستبدلت بحزب واحد . وسرعان ما فهم خطأه حين اجبناه غير مترددين بأننا لسنا سوى طلبة فلسطينيين . ثم دار نقاش أخاذ . ولم نلبث أن اسرنا سحر هذا الرجل الذي تبين انه وطني كبير . وخلال هذه المحادثة ، كشف لنا عن نيته في الالتفاف على الحظر الا تتنامي الذى تفرضه عليه القوى الغربية في ميدان التسلح وذلك بالتوجه الى مكان آخر « الى الشيطان نفسه اذا اقتضي الأمر » ، لتأمين الدفاع عن مصر ضد الاعتداءات الاسرائيلية . وبعد ذلك بشهور أثار حماسا شعبيا عارما عندما عقد صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا ، (التي استخدمت كواجهة للاتحاد السوفياتي) . وغادرنا عبد الناصر في ذلك اليوم ونحن نؤكد له دعمنا ، برغم ان البعض منا لم يفقدوا حذرهم كله ازاءه .

على ان المنعطف الحقيقي ، حدث في تموز(يوليو)١٩٥٦ ، عندما اعلن عبد الناصر تأميم شركة قنال السويس . فكان ان انفجرت الفرحة لدى الفلسطينيين ، الذين أصبح « الريس » بعدها بالنسبة اليهم بطل الصراع ضد الامبريالية . ولقد تأثرنا شأن العرب جميعا من المحيط الاطلسي الى الخليج ،

تأثرا عميقا بالجرأة وبالتحدي الذي وجهه عبد الناصر الى انكلترا وفرنسا . فبفضل الاشراف الذي كانت تمارسه هاتان الدولتان العظيمتان على القنال ، فانهما استغلتا مصر بصورة وقحة ، منتهكتين في الان نفسه سيادتها . وهكذا فان عبد الناصر أعاد الى شعبه حقا ثابتا لا يجوز التفريط به ، معيدا الى العرب جميعا وبل الى شعوب العالم الثالث كرامتهم وثقتهم بأنفسهم . بات كل شيء ممكنا ، بما في ذلك تحرير فلسطين ! وحين عبأنا أنفسنا للدفاع عن مصر ضد العدوان الذي شنته عليها اسرائيل وانكلترا وفرنسا بعد تأميم القنال بثلاثة

اشهر ، فاننا فعلنا ذلك بحماس . وشكلنا كتيبة كوماندوز ، لنقوم بمقاومة العدوان الثلاثي الى جانب المتطوعين المصريين . فاما ياسر عرفات الذي كان يومها ضابط احتياط ، فانه ارسل الى بورسعيد حيث ساهم في اطار سلاح الهندسة في عمليات نزع الالغام . اما أنا فقد تطوعت من جهتي في قوى المقاومة الشعبية ، كنت مستعدا للقتال ، لكن السلطات لم تسمح لي بالذهاب الى جبهة قنال السويس . فكان علي أن اكتفي بالقيام بمهمات دفاعية ،كالقيام بالحراسة امام جسور القاهرة .

اما في غزة ، فان مقاومة المحتل الاسرائيلي . كانت تنتظم تحت رعاية الجبهة التي كان قد جرى تشكيلها حديثا . فقد ائتلف الاخوان المسلمون والشيوعيون والقوميون العرب والبعثيون والناصريون على اساس برنامج عمل مشترك . وقد تبين في البداية ان الاتفاق مع الشيوعيين صعب لانهم كانوا يريدون ادخال بند بصدد التعاون مع التقدميين الاسرائيليين وعلى رأسهم الشيوعيون الاسرائيليون لانهم يعارضون هم أيضا العدوان الثلاثي : غير ان الاذهان لم تكن ناضجة لمثل هذا الاخاء . ذلك انه كان ينظر الى الاسرائيلي ـ كائنا ما كانت ايديولوجيته وقناعاته ، كعدو . ثم انتهى شيوعيو غزة الى تهذيب نصهم وتشذيبه مسهلين بذلك الوصول الى اتفاق .

وقد ساعدنا هذه الجبهة في حدود امكاناتنا المتواضعة . فكنا ندخل سرا الى المدينة المحتلة المال ، وبعض السلاح . والكثير من المناشير . وانما بدأنا خلال هذه الفترة التي أثارت فينا من الاحباط أكثر ما أثارت من الرضي

بالتطلع ــ رفاقي وأنا ــ الى مشروع كان يبدو لنا حتى الساعة من قبيل الاحلام • فالوطنيون الجزائريون كانوا قد شكلوا منظمة تخوض الصراع ضد الجيش الفرنسي منذ سنتين ، فكانت المعركة البطولية التى كنا تتابعها عن كثب ، تذهلنا وتملأ نفوسنا اعجابا • وطوال سهرات طويلة كنا نطرح على أنفسنا مسألة ما اذا لم يكن في وسعنا نحن كذلك ان ننشيء حركة واسعة تكون ضربا من الجبهة التي تضم الفلسطينيين من جميع الاتجاهات ،وينتمون اليها بصفة فردية ، بغرض اشعال الكفاح المسلح في فلسطين •

ففي سنتي ٥٤ ــ ١٩٥٥ جرت بعض غارات الكوماندوز ضد اسرائيل الا انها كانت تقاد جميعها تقريبا من قبل مصالح استخبارات البلدان المجاورة لاسرائيل •• فالمخابرات المصرية شكلت هذه المجموعات اساسا من اجل القيام بعمليات تجسس • فكانت تعمل في غزة والاردن تحت قيادة مصطفى حافظ الذى قتل بعد ذلك بواسطة طرد ملغوم ارسلته له المخابرات الاسرائيلية (الموساد) • وكذلك كان الامر في سوريا • كنا نشعر بأنفسنا معنيين قليلا بالمشروعات التي تمليها مصلحة دولة لا المصلحة الفلسطينية ،والتى لا يمكن أن تكون الا مشروعات عارضة • ولما كنا نرتاب في كافة الأنظمة العربية ،المحافظة منها والتقدمية ، فان تقديرنا كان بان الكفاح المسلح الذى يستحق هذه التسمية ، هو كفاح ينبغي أن يعده وينظمه ويخوضه الفلسطينيون الى غايته بدون ان يكون لهم أى ارتباط بغير شعبهم • وانما كان أساس ريبتنا وحذرنا هو التجربة • فرفيقنا أبو جهاد مثلا (خليل الوزير) وهو أحد مؤسسي فتح، وعضو لجنتها المركزية حاليا ، نظم عام ١٩٥٤ ، غارة ضد اسرائيل انطلقت من غزة ، فكان ان أوقفه الامن المصرى فورا •

واذن ، فقد كنا متفقين على المبادىء العامة التي ينبغي لها أن تحكم حركة احلامنا . وبانتظار ان نطور هذه المبادىء ونعقلنها ، فاننا قررنا ان ننشرها في وسطنا عامدين في الحين ذاته الى تجنيد الاطر والكوادر التي ستضعها ذات يوم موضع الممارسة • فانشاء حركة شعبية واسعة وجيش تحرير وطني حقيقي ، كان لا يزال في فترة حرب السويس عام ١٩٥٦ ، افكارا غائمة ،سوف تتبلور في أهداف واضحة خلال السنتين التاليتين • ثم اننا تبعثرنا خلال

الاشهر الاولى من عام ١٩٥٧ . فياسر عرفات وابو جهاد ذهبا للعمل في الكويت ، ولن يلبث فاروق القدومي (ابو اللطف) الرئيس الحالي للدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية وعضو اللجنة المركزية في فتح ، ان يلحق بهما بعد ذلك . وأما محمد يوسف النجار وكمال عدوان وأبو مازن ، فقد أقاموا في قطر . واما انا فقد قررت من جهتي ان اناضل في غزة . كنت مجازا في الفلسفة وعلم النفس من دار العلوم ، وفرغت لتوي من الحصول على دبلوم التربية من جامعة عين شمس . فكان في وسعي اذن السعي وراء وظيفة في التعليم .

الا ان سلطات الامن فهمت ان سعيي وراء العمل في غزة ليس خاليا من الأفكار المسبقة . فقد جرت العادة على أن يسعى الموظفون في غزة الى الانتقال منها ــ لا العكس ــ الى القاهرة أو الى أية مدينة مصرية كبيرة اخرى لتحسين أوضاعهم غير أنني امام عظيم دهشتي ، عينت استاذا في مدرسة بنات ــ وهو اجراء استثنائي يتخذ بصورة عامة على سبيل العقاب . فليس ثمة ما هو أزعج بالنسبة لرجل في مجتمع اسلامي تقليدى ، من العمل في وسط نسائي .

ولفت نظر مدير التربية الوطنية ، الى أن تعييني مخالف للقاعدة المتبعة التي توصي بالا يعلم في مدارس البنات الا الرجل المتزوج . فأجابني مبتسما بأن لكل قاعدة شواذها . ففهمت انهم يحاولون منعي من القيام بنشاط سياسي ما وذلك بعزلي داخل وسط أكون فيه ضمنيا كمنبوذ .

غير ان مدرسة « الزهرة » بحد ذاتها لم تكن كريهة ، ولكنهم اوكلوا الي صفوف الطالبات المعيدات ، وهن في الغالب بنات مدللات مزاجيات غير منضبطات . الا ان عزيمتي لم تثبط . وقررت استغلال الوظيفة التي اشغلها لأقوم بالدعوة السياسية . وماذا تراني سأخسر ! ؟ وبرغم انني كنت أعلم اللغة العربية وعلم النفس فقد دعوت طالبات صفوفي لتشكيل مجموعات تجمعات مدنية كنت أطلق عليها اسم « اللجان الوطنية » وكن مكلفات بعرض موضوعات للنقاش على مجموع الصف . وبعد ذلك بستة اشهر ، أبلغتني مديرة المؤسسة بنقلي الى ثانوية للصبيان .

وبرغم ان ثانوية خالد بن الوليد لم تكن جذابة ولا مريحة ، الا انني هللت من الفرح • فهي تقع في وسط الصحراء خارج غزة ويرتادها اطفال اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في المخيمات القريبة • واما الصفوف فكانت ضيقة متهاوية ومكتظة يحشر فيها ٦٠ الى ٧٠ طالبا في الصف الواحد • فكنا نرتعد من البرد في الشتاء بينما ينفذ المطر الينا عبر السقف الهش ، وبالمقابل ، فقد كان كل شي هناك مؤاتيا للنشاطات السياسية التي كنت اعتزم القيام بها • فطلابي المتحدرون من أوساط بالغة التواضع ويعيشون في ظروف يرثى لها ، ويعانون كذويهم من النفي، كانوا يظهرون كما بدا لي ذكاء وحساسية تزيد عن المتوسط . ولازلت اذكر حادثة هزتني • فبعد ان شكلنا لجنة معونة للثورة الجزائرية ، طلبت اليهم المساهمة ، كل حسب امكانياته ، في جمع المال • فكان ان استجابوا جميعا للنداء برغم بؤسهم ، في غداة اليوم التالي ، راحوا يمرون بالتتابع امام مكتبي ، فيضع عليه البعض قرشا والبعض الاخر قرشين أو ثلاثة • وهي وان كانت مبالغ زهيدة ، الا انها كانت تمثل تضحيات كبرى من جانبهم • وأخيرا ، فقد جاء صبي حدث وهو بادى الانزعاج ،ليضع قميصه الذى لا يسلك سواه على مكتبى • واكتفى بأن قال : « لعله يفيد طفلا جزائريا » •

وفي تلك الفترة (١٩٥٨) كتبت مسرحية اسميتها « ايام مجيدة » تقوم حبكتها على رحيل عام ١٩٤٨ • وكان النص يقوم أساسا على ذكرياتي الخاصة ، حول رحيل عائلتي في المركب وكذلك بالطبع على النهاية المأساوية للزوجين اللذين القيا بنفسيهما في البحر لاسترجاع ابنهما المتروك في يافا • وقد لاقت المسرحية نجاحا كبيرا ومثلت على مدة عدة أشهر في كافة مخيمات اللاجئين في غزة ، قبل ان يتم اخراجها في العديد من بلدان الخليج العربية •

وكنت بصدد كتابة مسرحية أخرى ايضا في تلك الفترة ، الا انها كانت أكثر تبعة وخطورة • كان هدفي التنديد بموقف كافة الأنظمة العربية بما في ذلك نظام عبد الناصر ازاء القضية الفلسطينية • فعمدت الى مختلف أنواع

الحيل مخادعة مني لتشدد الرقابة • واخترت للدور المركزي شخص عباس المهداوي ، وهو فوكيي تانفل (١) النظام العراقي الذى كان قد قام لتوه في بغداد • كان المهداوي يرئس محكمة « شعبية » مكلفة بالارسال بالمعارضين الى المشنقة ، اما في النص الذى كتبته ، فان المتهمين الماثلين امام المحكمة ، كانوا رؤساء الدول العربية ، الذين كان المهداوى يعدد « جرائمهم » باللغة الطريفة التي اشهرته• كانت المسرحية مكتوبةبأسلوب نقدى وتسخر بالمهداوى في نفس الوقت الذى تقول فيه حقائق تدركها حساسية الفلسطينيين . وما كان يمكن اتهامي بتعاطي التخريب ، لان المقالات التي يقولها بطلي ، كانت استشهادات حقيقية مختارة من مسهبات المهداوى الحقيقي •

ثم اني اتخذت احتياطات أخرى : فقد عرضت على وكيل دائرة ديرالبلح المسؤول عن القطاع الذى تقع فيه مدرستي ، ان يتولى اخراج المسرحية• ولما كان الرجل مولعا بالمسرح فانه قبل العرض بحماس • واخيرا دعوت حاكم غزة العسكرى لحضور حفل الافتتاح فكان مسرورا من المسرحية التي لم يستبن ازدواجيتها وتضمين معانيها ، فأرسل لي بعد ذلك بثلاثة أيام رسالة رسمية يهنئني فيها على جودة النص •

غير انني تلقيت في اليوم نفسه دعوة عاجلة من العقيد كمال حسين المسؤول عن دوائر الامن في غزة • كان قد شاهد هو أيضا المسرحية ، الا انه فهم لثاقب بصره ومعرفته الجيدة بارائي ، الطابع النضالي للمسرحية • فكان ظاهر التصميم على تدفيعي ثمن وقاحتي • فاحتججت وأدليت بحسن نيتي وذكرته على سبيل البرهان ، برعاية وكيل الدائرة للمسرحية ، وبامتداح الحاكم العسكرى لها ، ثم باجازتها من قبل المراقبين • ثم رحت اتعجب وانا انصنع السخط واقول « افيكون هؤلاء جميعا حمقى اغبياء ••• ؟ ! • » فصر العقيد كمال حسين اسنانه ثم قال لي بلهجة قارسة : « صلاح : انت مراوغ مكار • ولكني سانال منك وتستطيع الوثوق بي فى هذا الصدد • »

---

(١) هو انطوان كانتاك : « ومهداوى الثورة الفرنسية الكبرى ورمز الافراط فيها . » ومات بموجب حكم : اعدام فى عام ١٧٩٥ .

لكنه كان يجهل أسوأ ما في الموضوع ، فممارساتي الأدبية لم تكن سوى الجزء الطافي من جبل الجليد ، اما الجانب الرئيسي من نشاطاتي خارج التعليم، والذى كان قوامه تجنيد وتنظيم مجموعات من المناضلين ، فكان سريا . وطبقت في هذا النطاق نفس الطرق المتبعة من قبل رفاقي الموزعين في بلدان الخليج . كنا نختار المرشح للتنظيم وفق معايير خلقية وسياسية ، كنا نعتبرها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها : فكان ينبغي للمرشح ان يكون حرا من كل رابط حزبي وان يتمتع في حياته الخاصة بسلوك لا مأخذ عليه ، ثم اننا كنا نطلب اليه كضمان لجديته ووقاره ان يمتنع عن شرب الكحول . وكنا نوفر له خلال فترة الاختبار اعدادا سياسيا مزودينه بين جملة ما نزوده به بالكتب والمقالات .

ثم اننا زيادة في الامن ، اخترنا نمط التنظيم « العمودى » فكان كل واحد منا يرتبط بمناضل واحد ، يجند هو بدوره مناضلا آخر ، وهكذا . فقد كانت « السلسلة » التي تتكون على هذا النحو ، تبدو لنا أقل عطبا من الخلية التي تضم عدة اعضاء في آن معا . كانت اجتماعاتنا تتم عموما في المقاهي (كان مقهاي المفضل هو مقهى الكمال الذى عملت فيه أثناء مراهقتى) فكنا نلعب بالنرد والدومينو ونحن نتحدث بصوت خفيض .

وكنا نحرر ونطبع منشورات كلما اقتضي الظرف للتنديد بهذا الاجراء القمعي او ذاك من الاجراءات التي تتخذها السلطات المصرية . ولكننا كنا نتلافي على وجه العموم ان نلفت الانتباه الى وجودنا . فمرحلة اعداد الكوادر تقتضي الانكفاء على الذات والتروى الى أقصي الحدود . وكنا ــ زيادة في الحذر ــ نوقع على كل منشور باسم مختلف ، « كشباب الاصلاح » أو « شباب الثأر » مثلا . على اننا كنا متفقين ــ رفاقي المقيمين في بلدان الخليج وانا ــ على التسمية التي سنطلقها على الحركة التي نريد تأسيسها منذ عام ١٩٥٨ : فتح (حركة تحرير فلسطين) التي تصبح الاحرف الاولى منها ح.ت.ف . اذا ما قلبت فتح . ولكننا كنا غازمين على الا نستخدم هذا الاسم طالما لم نزود الحركة بالبنى والأنظمة والقيادة المركزية ، وهي مهمة سوف نستكملها في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٩ .

وفي مطلع عام ١٩٥٩ ، طلب مني عرفات ان أبحث لنفسي عن وظيفة مجزية في بلد عربي نفطي • فراتبي كاستاذ في غزة لا يكفي لتلبية حاجاتي المعيشية الا بجهد جهيد ، في حين ان الحركة تحتاج حاجة ماسة ملحة الى المال ومن جهة أخرى ، فان في وسعنا ان نناضل بحرية أعظم في دول الخليج حيث مصالح الامن اقل تطورا ، وحيث قادة هذه البلاد أكثر تهيؤا ازاءنا مما هو الحال في البلدان المحاذية لاسرائيل •

وهكذا فقد قدمت ترشيحي لشغل وظيفة في دائرة التعليم في قطر • ولكن بعد ان تلقيت جوابا ايجابيا ، ابلغت بأن الوظيفة لم تعد شاغرة • وقد بلغتني معلومات عبر أحد رفاقنا ــ ابو مازن ــ الذى يشغل وظيفة ادارية داخل هذه الدوائر ، بأن مصالح الامن المصرية حذرت سلطات قطر من اني كنت « شيوعيا خطرا » •

غير انه لم يمض زمن طويل بعد ذلك ، حتى جاء عبد العزيز حسين ، مدير التعليم في الكويت ، الى غزة على رأس بعثة مكلفة بتجنيد معلمين • وأثر اجرائه مقابلة معي قبل بتشغيلي دون أن يعتد بتقرير الشرطة الذى تلقاه عني ، والشبيه بذلك الذى ابلغ لقطر •

ولما كنت متزوجا منذ فترة قريبة ، فانني قررت مغادرة غزة مع زوجتي الشابة • وعشية سفرنا ، جاءني ضابط الى منزلي ثم وضع اصفاده في يدى دون أن يقدم لي أية تفسيرات • وبرغم احتجاجاتي فانه رافقني حتى مطار القاهرة ، ولم يوافق على نزع الاصفاد الا عند سلم الطائرة التي ستأخذني الى الكويت •

انه عدوي القديم ، العقيد كمال حسين ، رئيس ادارة الامن في غزة ،فهو لم يفلح في توقيفي أو في منعي من مغادرة البلاد ، فكان حريصا حرصا ظاهرا على طيب ذكراى •

الفصل الثالث

انفجار التيّار

كنا في العاشر من شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٩ ، بضعة اشخاص مجتمعين في منزل سرى في الكويت لايقاف منظمة فتح على قدميها • وسيتلو اجتماعنا هذا ، انعقاد عدد آخر من الاجتماعات في الايام التاليـة يحضرها مشاركون آخرون (أقل من عشرين شخصا بالاجمال) وبسرية كاملة دائما وابدا • وعلى هذا فان ممثلي المجموعات السرية القادمين من مختلف البلدان العربية ، أو من امكنة أخرى ، كانوا يتشاورون فيما بينهم للمرة الاولى بهدف مركزة نشاطاتهم ومحورتها • وفي هذا المؤتمر الضيق جرى التأسيس الشكلي لما سيصبح في أقل من عشر سنوات ، أقوى منظمة تحرير وطني عرفتهافلسطين غير ان مجموع تعداد المناضلين الممثلين في هذا المؤتمر الضيق لم يكن يبلغ الخمسماية شخص •

وقد تم يومها اعداد عدة وثائق ، وجرت الموافقة عليها خلال اجتماعات تشرين الاول هذه • وتدور هذه الوثائق حول بنى الحركة ونظامها الداخلي واستراتيجيتها وتكتيكها ووسائل عمل وتمويل الثورة التى ستكون القابلة التي تولدها • وتوضحت مهمات مختلف أجهزة فتح ، واتضحت معها الكيفية التي سيجرى تجنيد واعداد الاطر والكوادر على أساسها • اما البرنامج السياسي بحصر المعنى ، والذى يحدد الخيارات الكبرى للحركة • فكانت الموافقة عليه قد تمت في مطلع عام ١٩٥٨ • فبعد أن قامت لجنة تكونت لهذا الغرض بتحرير هذه الوثيقة ، فانه جرت مناقشتها وتعديلها ثم الموافقة عليها خلال اتصالات شخصية أو بواسطة المراسلات التى تبادلناها •

كانت الوثيقة تعكس الاجماع الذى كنا قد توصلنا اليه في المحادثات العديدة والمناقشات التي اجريناها خلال سنوات الخمسين في القاهرة وغزة ، الا انها كانت مبنية كذلك على تجارب من سبقونا في الحركة الوطنية •

وبالرغم من أننا لم نقم في تلك الفترة بدراسة منهجية أو بتفكير جماعى حول هذا الموضوع ، الا ان كلّ واحد منا كان قد استخلص عبر قراءاته

الخاصة دروس الماضي وعبره • كانت النتائج التي خلصنا اليها واحدة برغم ان ادراكاتنا وتحليلاتنا للاحداث التي وسمت تاريخ فلسطين يمكن أن تكون غير متماثلة • ثم ان تقديراتنا ستتطور على كل حال وستتضح على مدى السنين •

وفيما يعنيني أنا ، فان تقديرى هو انه ليس من العدل ، اصدار حكم اجمالي سلبي على عمل من سبقونا فهم أولا ، لم يكونوا يشكلون كتلة متراصة • كان بينهم كبار البرجوازيين كما كان بينهم اناس متحدرون من أوساط شعبية • وكان بينهم الوطنيون كما كان بينهم الخونة ، وكان بينهم صائبو النظر كما كان بينهم من يخطئون احيانا • وكيف يمكن — ايا ما كان الامر — الا يؤخذ بعين الاعتبار سياق حقبتهم ، والذهنية السائدة فيها والصعوبات الموضوعية ، الحاسمة احيانا — التى كان عليهم ان يواجهونها بدون ان يكونوا حائزين على التجربة الضرورية ••• ثم ان كثيرين منهم ارتضوا القيام بتضحيات باهظة ، دافعين في كثير من الاحيان حياتهم ثمنالفشلهم وتلك امور لا يمكن ان نعزوها الى الوضع الدولي غير المؤاتي والى قدرة العدو ومكره وحقده • فثمة اخطاء جسيمة ارتكبت • فكان كشف هذه الاخطاء وتحليلها تلافيا لارتكابها مجددا ، هو احدى المهمات التي اضطلعنا بها •

ولا ريب في انه لم تكن لمن سبقونا الاهمية التي تمتلكها منظمة تتمتع ببنى متينة • فقد ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية ، حتى ظهور فتح ، حركة تقودها شخصيات تتحدر من العائلات الكبرى وخاصة عائلتي الحسيني والنشاشيبي وغالبا ما كانت في حالة شلل وكثيرا ما تسود بينها المنافسة أو المواجهة عندما لا تتفق على السلوك الذى ينبغى اتباعه • اما المنظمة أو التنظيم فانه غالبا ما يكون — اذا وجد — هشا ولا يضرب بجذوره في الفئات الشعبية، فكان يضمحل اضمحلالا تلقائيا عندما يختفي الزعيم لأن الزعيم هو روحه وركيزته • اما الشعب ، فانه كان يتبع القادة ، أو يسبقهم في بعض الاحيان • ويمارس بفضل اللجان المحلية الناشئة عفويا،مختلف انواع الصراع كالاضرابات

والمظاهرات ، بل وكحرب العصابات . فعصيانات اعوام ١٩١٩ و ١٩٢٢ و ١٩٢٨ و ١٩٣٣ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ تشهد بروح الاهالي الكفاحية ، ولكنها تشهد كذلك بعقم المعركة التي لا يشنها ويقودها ويدعمها جهاز مركزي دائم يتمتع ببنية متينة .

ومن هنا كانت الاهمية الاولية التي اعطاها مؤسسو فتح ، لاقامة منظمة شعبية حقا ، تكون قادرة على الاستمرار مهما حدث ، وكائنا ما كان مصير هذا القائد او ذاك .

وثمة خطأ آخر ارتكبه من سبقونا : فهم لم يقدروا أهمية ضم السكان اليهود أو جزء منهم على الأقل ، الى الحركة الوطنية ، حق قدرها . فقادة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانوا واعين انهم يخوضون المعركة أساسا ضد المحتل البريطاني ، فكانوا يطالبون دائما وابدا ، ومنذ ذلك الحين ، بانسحاب القوات الانكليزية ، وباعلان استقلال وسيادة الدولة الفلسطينية . وكانوا يتهمون حكومة لندن — محقين — باثارة النزاع بين العرب واليهود ، باعلانها عام ١٩١٧ لوعد بلفور القاضي باعطاء اليهود وطنا قوميا في فلسطين ، وبتغذية هذا النزاع بمختلف الوسائل ، لتبرير وضمان دوام سلطتها الاستعمارية . فكان واضحا انه لا يمكن لهذه السياسة الا أن تلحق الضرر بجميع السكان عربا ويهودا .

ولا ريب في انه كان لمفتي القدس الحاج امين الحسيني ، قائد المقاومة الرئيسي لما بين الحربين بلا منازع الفضل في اقتلاع كل أثر للطائفية بين العرب. فقد أفلح في الجمع بين المسلمين والمسيحيين في نفس المعركة ضد الامبريالية . فلماذا لم يحاول ان يقنع اليهود الفلسطينيين بأن مصلحتهم ، اذا ما فهموها حق فهمها ، تدفعهم الى التحول عن الاوهام الصهيونية ، والتفاهم مع العرب. ولماذا لم تقم النقابات الفلسطينية من جهتها بتشكيل جبهة مشتركة مع العمال اليهود . ! ؟ لا ريب في انه كان من الصعب على ضحايا الاستيطان الصهيوني، وخاصة اولئك الذين فقدوا اراضيهم ومصادر رزقهم لصالح المهاجرين الجدد، ان يميزوا بين اليهود الذين يحاولون التعايش مع الفلسطينيين ، وبين زعمائهم

الصهاينة • الا انه كان على القادة الفلسطينيين ، ان يكبوا ويواظبوا على مهمة تبديد الغموض وسوء التفاهم اللذين يعيقان الوفاق اليهودي ـ العربي •

وهكذا فان مؤسسي فتح استشفوا منذ البداية ، امكانية اقامة دولة ديمقراطية في كامل فلسطين يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون كمواطنين متساوين • غير عوامل ذات طابع سياسي كانت تمنعنا ان نجاهر قبل عام ١٩٦٨ ، بالعرض الذى ينبغي لنا ان نقدمه لليهود الاسرائيليين •

وكذلك فان من سبقونا ارتكبوا غلطة الحاق الحركة الوطنية الفلسطينية بارادة الأنظمة العربية خالطين بين بواعثها ودوافعها الأنانية وبين دوافع الشعوب العربية البريئة من الاغراض • كانت غالبية حكومات المنطقة في تلك الحقبة خاضعة لسوط انكلترا أو لنفوذها بحيث أنه لم يكن بالامكان ـ ضرورة أو بسبب طبيعتها ـ ان تكون حليفة صادقة لحركة تحرير تناضل ضد الاستعمار البريطاني بالذات • فقد استشهد الشيخ عز الدين القسام ، وهو مناضل حقيقي من أجل الحرية ، قام بتنظيم الفئات الدنيا من الفلسطينيين قبل ان يبدأ المقاومة السرية عام ١٩٣٢ وقضي ببطولة لأنه لم يستطع الحصول على أدنى دعم من اى بلد « شقيق » • واذا كان القسام قد لقي مصرعه عام ١٩٣٥ ، أثر معركة خاسرة سلفا ، على يد الانكليز بالتأكيد ، الا انه موته يعزى بخاصة الى المتواطئين العرب مع السلطات البريطانية •

وكذلك فان أى نظام عربي لم يهب لنجدة الشعب الفلسطيني أثناء عصيان عام ١٩٣٦ الشعبي • وانتهت الاضرابات العامة ـ التي دام احدها ستة اشهر ـ والمظاهرات ومعارك المواجهة التي تتالت حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، الى حمامات دم • فلم تكتف الدول العربية بأنها لم تفعل شيئا لوقف المذابح وحسب ، ولم تكتف بالامتناع عن تقديم معونة مادية لشعب أعزل يواجه المدافع والدبابات الانكليزية ، بل انها وجهت نداء علنيا الى الشعب الفلسطيني تدعوه فيه الى وقف المعارك ضد ـ وبالحرف ـ « حليفتنا العظمى انكلترا » • وحاولوا بالمناسبة نفسها حرف الثورة وتضليلها بالاشارة الى اليهود على انهم العدو الذى يجب صرعه .

وفيما بعد الحرب واصلت الدول العربية رفضها لمد الفلسطينيين بالوسائل التي يدافعون بها عن أنفسهم ، في حين كان الصهاينة فيه يتلقون كميات مذهلة من الاسلحة بفضل تواطؤ الانكليز السلبي أو الفعال ، في ذات الحين الذى كان فيه ميزان القوى ينقلب بصورة خطيرة لصالح الهاغاناه ،وفي نفس الوقت الذى كانت هذه الاخيرة تواصل في الاشهر الاولى من عام ١٩٤٨ غزوها للاراضي • ولكنهم انقاذا للمظاهر ارسلوا بضع مئات من البنادق لأجل عشرات الالاف ممن كان يمكن تعبئتهم من بيننا لخوض المعركة

وكانوا يحتجون على سبيل التبرير ، بأنهم قدالزموا أنفسهم بأن يضطلعوا هم بتحرير فلسطين • ومن المعلوم الان ، الى ماذا افضت مغامرتهم التي تدعو للرثاء • فلم تكن جيوشهم التي اجتاحت فلسطين في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ قادرة حتى على أن تطبق على ارض المعركة ، مشروع التقسيم الذى تبنته الجمعية العامة للامم المتحدة في شهر تشرين ثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٤٧ ،ولذلك سببه : فعاهل الاردن ، الملك عبد الله ، الذى كان يطمع بالضفة الغربية ،سارع الى ضم أراضي الضفة بلا قيد ولا شرط ، في حين ان الملك فاروق وضع منطقة غزة تحت الادارة المصرية • اما الحكومة التي تشكلت في غزة برئاسة أحمد حلمي باشا ، فماتت في يوم ولادتها نفسه ، بعد أن امتنعت كافة العواصم العربية عن المخاطرة بدعمها • فالدول العربية يسرت وساعدت ، عمليا ، على تدعيم الامر الواقع الذى هو انشاء دولة اسرائيل ، متيحة لهذه الاخيرة ان توسع مساحة الاراضي التي خصصتها لها هيئة الامم المتحدة •

ونستطيع أن نضاعف من سوق الأمثلة التي تشهد بصحة المثل الشعبي القائل : « كل الثورات التي تولد في فلسطين ، تجهض في العواصم العربية » • فقد أثبتت التجربة ان كافة أنظمة المنطقة ــ الرجعية منها والتقدمية ــ تعاملنا في نهاية الامر بنفس الطريقة مقدمة مصالحها على مصالح الشعب الفلسطيني•

وعلى هذا فان مؤسسي فتح اقسموا اليمين على التصدى لكل محاولة لاخضاع الحركة الوطنية الفلسطينية لاشراف حكومة عربية كائنا ما كانت هذه الحكومة ، وعلى السهر على الا يستعيدها أى بلد « شقيق » الى حظيرته•

فقد كان في تقديرنا ، انه بهذا الثمن وحده ، نستطيع ان نضمن من استمرار مشروعنا ، ومن ثم نجاحه في وقت لاحق . فاذا تجاوزنا عن هذا ، فاننا كنا نفسر لمناضلينا ، ثم لمحاورينا العتيدين ، اننا لسنا غير انفصاليين وحسب ، بل اننا نطمح الى أن نصبح أبطال الوحدة العربية . خاصة واننا كنا مقتنعين بأن الفلسطينيين لا يستطيعون بمفردهم تحرير وطنهم ، طالما بقي ميزان القوى المحلي والعالمي على ما هو عليه . ووضعنا لأنفسنا كهدف ، ان نصبح الوسيط والحافز لقوة عربية وحدوية ثورية ، ورأس حربة لجبهة عريضة تستطيع هي وحدها أن تعيد للفلسطينيين حقوقهم . هكذا كانت استراتيجيتنا ولا تزال . وبانتظار ان تفضي الى المأمول ، فانها لا تستبعد ، بل على العكس ، قيام تحالفات تكتيكية مع حكومات عربية وغير عربية ، تتلاقى مصالحها ومصالحنا .

وقد طبق الحاج امين الحسيني هذا المبدأ تطبيقا خاطئا ، حين انضم أثناء الحرب العالمية الثانية الى المانيا الهتلرية مرتكبا بذلك خطأ ندينه جميعا بأقصي ما يمكن من شدة . بعد هذا يبقى من الضروري أن نضع سلوكه هذا في سياقه الحقيقي . فالدعاية الصهيونية تقدم الحاج أمين ، لاسباب لا تخفى ، كمتعاطف مع النازية . لكن كافة من عرفوه – وانا منهم – يستطيعون ان يشهدوا بالعكس . كان الحاج امين وطنيا – محافظا بالتأكيد – ولكنه صادق وينبغي لي ان أقول ، ابراء له ، انه برغم عقيلته وبرغم التباينات الجدية التي كانت تفصلنا ، فانه لم ينتقد فتح وقادتها في العلن مطلقا . وقد التقيت به في آخر مرة عام ١٩٧٤ قبل وفاته بثلاثة أشهر . وحين أخذت عليه ربطه لمصيره بالمانيا فانه فسر لي دوافعه . فهو لسخطه على دور وأساليب انكلترا في فلسطين ولمطاردة السلطات الانتدابية له ، فانه التحق تلقائيا بالمعسكر المناوىء .

ثم انه شأن كثيرين آخرين من القوميين العرب ، ولا سيما في مصر والعراق ، اعتقد ان قوى المحور ستربح الحرب وستمنح فلسطين الاستقلال ، عرفانا منها بجميل كافة الذين دعموها في النزاع . وقد لفت نظره الى أن مثل هذه الأوهام انما تستند الى حسابات ساذجة ، خاصة عندما تتذكر ان هتلر كان يضع العرب في المرتبة الرابعةعشرة ، بعد اليهود ، في سلسلة مراتب جودة

« الاعراق » على سطح كوكبنا • ولو ربحت المانيا الحرب ، لفرضت على العرب الفلسطينيين احتلالا أشد شراسة من ذلك الذى عرفوه تحت الانتداب البريطاني •

قلت اذا ان الحاج امين لم يكن نازيا ، كما لم يكن القادة الفلسطينيون الذين دعموا انكلترا خلال الحرب عملاء الاستعمار • ذلك ان هؤلاء الاخيرين، وبكل بساطة ، راهنوا على انتصار الحلفاء ، آملين ان ينتزعوا بذلك استقلال وطنهم ، الذى هو الهدف الأول المقدس لكافة صراعات الشعب الفلسطيني منذ الحرب العالمية الاولى •

ان الذين حاولوا تأكيد الاطروحة القائلة بأن الوطنيين الفلسطينيين قد وضعوا أنفسهم في خدمة المانيا الهتلرية ، انما يتجاهلون بأن الآلاف من مواطنينا قاتلوا في صفوف الجيش البريطاني ، وانه تم اعداد أفضل مدربينا العسكريين اى أولئك الذين ساهموا بتدريب الفدائيين ، على يد القوات الانكليزية • لا بل ان سخرية القدر شاءت أن يكون أول قائد لجيش التحرير الفلسطيني الذى تشكل عام ١٩٦٥ ، وهو اللواء وجيه المدني ، خريج نفس الدورة التي تخرج منها موشي دايان ، في مدرسة عسكرية بريطانية في فلسطين •••وليست تجارب من سبقونا واخطاؤهم وحدها هي التي ساهمت في توجيه خططنا الاولى • فحرب العصابات التي اندلعت في الجزائر قبل تأسيس فتح بخمس سنوات ، قد افادتنا افادة عميقة • كنا مأخوذين بمسيرة الوطنيين الجزائريين الذين استطاعوا أن يشكلوا جبهة صلبة وان يخوضوا المعركة ضد جيش قوى ، يفوق جيشهم الف مرة ، وان يحصلوا على معونة متعددة الاشكال من مختلف البلدان العربية التي كانت في بعض الاحيان تنتمي الى معسكرات متناحرة ، وان يفلحوا في الوقت نفسه في عدم الوقوع بالتبعية لأى منها • فكانوا رمزا ، اذا صح القول ، للنجاح الذى كنا نحلم به •

ولما لم تكن لنا علاقات مع ممثلى جبهة التحرير الوطني الجزائرى ، فاننا رحنا نتزود بالوثائق حول الحركة الجزائرية مما كان ينشر في الصحف والكتب • كانت ثقافتي السياسية تعاني من الكثير ، وكنت كطالب في الفلسفة

فد الفت هيغل وماركس ولينين بعض الالفة بحكم وبطبيعة الاشياء ، الا أن قراءاتي ظلت انتقائية تذهب من ميشيل عفلق (مؤسس البعث) وسيد قطب (أحد اصحاب المذهب في حركة الاخوان المسلمين) الى قصص المغامرات والكتب البوليسية . وانما بدأت اهتم على نحو خاص بالثورات ، جميع الثورات ، بعد عودتي الى غزة عام ١٩٥٧ .

والتهمت مؤلفات لينين . كانت شجاعته وتفاؤله العميق حتى في الفترة التي كان يعيش فيها كمنفي سياسي في الخارج تثيراني . ثم ان في استيلاء البلاشفة على السلطة والصعوبات التي واجهوها تعاليم عديدة كانت تبدو لي ذات فائدة كلية عامة . الا انى كنت أشعر بنفسي أقرب الى ماوتسي تونغ الذى كان حسه الخلقي أقرب فيما يبدو لى الى الاسلام منه الى مادية لينين المحضة ثم ان « المسيرة الطويلة » مسيرة الـ ١٠٠٠٠ كيلو متر ، استحوذت قبل هذا كله على خيالي . وجعلتني أحلم فاتمثل الشعب الفلسطيني حاملا السلاح عائدا الى بلاده ليطرد محتليه .

وقد كتب فرانز فانون الذى كان أحد كتابي المفضلين في كتاب «معذبي الأرض » الذى قراته وأعدت قراءته عدة مرات ــ انه ليس سوى الشعب الذى لا يخشى مدافع ودبابات العدو بمستطيع أن يخوض الثورة الى منتهاها. فكان يعني ان الوطنيين الجزائريين ماكانوا سيباشرون أى امر ، فيما لو انهم أخذوا بعين الاعتبار ميزان القوى السائد في اللحظة التي اشعلوا فيها انتفاضتهم . كان في وسعنا ان نلاحظ في تلك الحقبة كم كان فانون مصيبا . فقد كانت الشعوب من أقصى العالم الثالث الى أقصاه ، تمتشق السلاح ، برغم انها عزلاء مجردة ، لتأخذ حريتها واستقلالها غلابا .

كان مؤسسو فتح ، يقدرون تماما تفوق اسرائيل العسكرى ، ومدى وسائلها وقوة حلفائها ، الا انهم حددوا لأنفسهم برغم ذلك ، كهدف أساسي ، تسعير الكفاح المسلح . ليس لاننا كنا نتعلل بوهم الاستطاعة على التغلب على الدولة الصهيونية برغم كل شيء ، بل لأنه لم تكن لدينا وسيلة أخرى لفرض القضية الفلسطينية على انتباه الرأى العام العالمي ، ثم وبخاصة ،

لتجميع جماهير شعبنا داخل الحركة الشعبية التي نسعى لانشائها .

كنا نأخذ بعين الاعتبار ـ من هذه الناحية ـ عاملين اثنين :

عقلية الفلسطينيين وتوزعهم على مختلف الاحزاب السياسية العربية . ونحن لم نكن نستطيع منافسة هذه الاحزاب على الصعيد الايديولوجي .فلم يكن لدينا ما نقدمه خيرا مما لدى الاخوان المسلمين والشيوعيين والقوميين العرب أو البعثيين كل في مجاله . والحق هو اننا كنا نعتقد ان هذه الاحزاب هي تشكيلات سلبية ، بمقدار ما كانت تطرح تحرير فلسطين وتجعله في المستوى الثاني ، ثم لأنها تقسم الفلسطينيين .

كان الكفاح المسلح وحده قادرا على التسامي على التباينات الايديولوجية وان يصبح بالتالي حافزاً أو وسيطا للوحدة . وبالفعل ، فقد كنا بدأنا نلاحظ ان كثيرين من أبناء وطننا ممن أوسعتهم الاحزاب ورجال السياسة العرب خطابات واشبعتهم وعودا ، بدأوا يصابون بالاعياء من هذه المماحكة العقيمة ويتساءلون عما اذا لم تكن الدعوة الاسلامية والعروبية والشيوعية تشكل تحولات منفرة ، او ما هو اسوأ من ذلك ، أي بدائل تحل محل الهدف الذى يتشغف أفئدتهم ، عنيت ، هدف استعادة وطنهم .

وانما تمكنا ان نعرض عقيدتنا امام الجمهور الواسع بواسطة مجلة بدأنا نحررها ونطبعها بصورة سرية مغفلة منذ عام ١٩٥٩ تحت اسم «فلسطيننا» فكانت تظهر بصورة غير منتظمة وبحسب ما تتيحه وسائلنا وامكانياتنا وهي تشتمل على معلومات واراء ومقالات موقعة بأسماء مستعارة ونعالج فيها بعبارات بسيطة في متناول الكافة ، مبادىء أساسية يمكن ايجازها كما يلي : ان العنف الثوري هو الطريق الوحيد المؤدى الى تحرير الوطن ، ولا بد من أن يمارس ، في المرحلة الاولى على الاقل ، من قبل الجماهير الفلسطينية نفسها بقيادة مستقلة عن الاحزاب والدول ، غير ان دعم العالم العربي الفعال ، هو أمر لا غنى عنه لنجاح المشروع ، على ان يحتفظ الشعب الفلسطيني بسلطة التقرير وبدور الطليعة .

كانت فتح تناقض اطروحات قومية عربية كانت تسود في تلك الحقبة وهي تعلن ان « الوحدة العربية تمر بتحرير فلسطين » لا العكس . وكانت هذه المواقف مواقف جسورة في لحظة بلغت فيها الناصرية أوج قمتها ، وبدت فيها ولادة الجمهورية العربية المتحدة التى جمعت بين مصر وسوريا ، كنقطة انطلاق لتيار سيكتسح دولة اسرائيل .

غير ان مهمتنا الرئيسية في خريف عام ١٩٥٩ ، لم تكن كسب قطاعات واسعة من الرأى العام لوجهات نظرنا ؛ وانما انهاض المنظمة التي ستتيح لنا شن الكفاح المسلح وان نصبح حركة جماهيرية .

وابتكرنا فكرة جهازين احدهما عسكرى والاخر سياسي على النمط الهرمي . فكانت هناك خلايا القاعدة ولجان فروع ، ولجان مناطق ومجلس ثورى ينبغي له ان يعمل تحت الرقابة العليا للجنة مركزية تستمد سلطتها من مؤتمر وطني ، وهو ضرب من البرلمان الذى يضم ممثلي كافة فئات الشعب الفلسطيني : التجار والموظفون والعمال اليدويون ، واعضاء المهن الحرة ، والمثقفون الذين ينبغي لاعضائنا ان يناضلوا بينهم كمستقلين .

وخلال المرحلة المسماة بمرحلة اعداد الاطر والكوادر والتي تمتد من عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦٤ ، أوجدنا مئات الخلايا على أطراف دولة اسرائيل ، في الضفة الغربية ، وغزة وفي مخيمات اللاجئين في سوريا ولبنان. وكذلك داخل التجمعات الفلسطينية في البلدان العربية الاخرى وفي افريقيا واوروبا وحتى في الاميركيتين الشمالية والجنوبية . وكان مناضلونا يتوصلون ، دون ان يكشفوا انتماءهم لفتح الى الفوز في الانتخابات لمراكز القيادة في النقابات والنوادى والتجمعات الحرفية والمجالس البلدية . كما ان من يملكون كفاءات خاصة منا ، كانوا يجدون أنفسهم وقد عهد اليهم بوظائف هامة في هذا البلد العربي أو ذاك .

كانت السرية المطلقة هي القاعدة في كافة نشاطاتنا . وكانت كل خلية تضم ثلاثة اعضاء على الاكثر ولا يعرفون بعضهم بعضا الا باسمائهم القتالية

التي كانت تتغير بين الحين والآخر ، كاجراء امن اضافي • وكانت أمكنة اجتماعهم المفضلة هي المؤسسات العامة أو الأمكنة التي يكونون فيها على مرأى من الكافة وذلك بمناسبة نزهات وهمية ينظمونها لهذا الغرض • اما الاتصالات الهاتفية والمراسلات فكانت ممنوعة بحيث ان المبادلات كانت تتم شفويا ، وحتى لو كان على القيادة ان ترسل موفدين الى بلدان أخرى تتمتع تنظيماتنا فيها باستقلال ذاتي كبير •

وقد امتنعنا أثناء هذه المرحلة ، وفاء منا لمبدئنا في الاستقلال ، ان نطلب أدنى معونة مالية من أية دولة في المنطقة ، رغم ان حاجاتنا كانت هامة • فلم يكن علينا ان نؤمن عمل فتح ونموها وحسب ، وانما ان نغذى كذلك مختلف الصناديق المالية التي كان أحدها مخصصا لشراء الاسلحة • فبدأنا منذ ذاك نطلب تضحيات جساما من مناضلينا ، الذين كانوا يدفعون جزءا هاما من أجرهم او من راتبهم – يزيد احيانا على النصف – الى صندوق فتح • ومن جهة أخرى فان أثرياء فلسطينيين ، من فلسطينيي المنفى كانوا اعضاء في حركتنا أو متعاطفين معها ، راحوا يغذون هذا الصندوق بكرم بالغ • وعلى مدى السنين بدأ جامعوا التبرعات لنا يشكلون شبكة واسعة من المتبرعين المنضمين أو المنضمين الى لجان الدعم •

وعرفت فتح أول انطلاقة لها اعتبارا من عام ١٩٦١ • وثمة حدثان ساهما في توسيع صفوف الحركة • كان الاول هو نجاحنا في توحيد معظم الخمس وثلاثين او الاربعين منظمة فلسطينية من تلك التي كانت قد نشأت بصورة عفوية في الكويت • صحيح انه لم يكن لكثير منها سوى وجود كسيح ولا تضم الواحدة سوى مجموعة أو مجموعتين من الشباب المتحمس • الا انه يظل صحيحا كذلك ان دخولها الى فتح وضع حدا لتبعثر الارادات الطيبة ، كما كان يحمل الينا في بعض الحالات عناصر ديناميكية وكفؤة •

اما ما كان أهم من ذلك فهو الاندماج الذى تفاوضنا عليه مع المنظمة التى كان يذكيها في قطر وفي العربية السعودية ، ثلاثة رجال سيلعبون بعد ذلك

ادوارا من المقام الاول :هم ابويوسف النجار وكمال عدوان « اللذين استشهدا على يد مجموعة مغاوير اسرائيلية في بيروت في شهر نيسان ــ ابريل ــ ١٩٧٣ » وابو مازن ، وهو حاليا عضو اللجنة المركزية في فتح . كانت افكارهم متقاربة جدا مع افكارنا ، فكان ان تم اتفاق الوحدة بيننا دون صعوبات . كما كان بينهم الشهيد الأول للجنة المركزية المهندس عبد الفتاح حمود (أبو صلاح) .

والحقيقة هي ان انفراط عقد الجمهورية العربية المتحدة في أيلول ــ سبتمبر ١٩٦١ ، سجل بداية استمالتنا الى حركة جماهيرية . فالخيبة التي أثارها فشل الوحدة المصرية السورية ، التي كانت بحجم الامل الشاسع الذى ثار لدى اعلانها تحت كنف عبد الناصر قبل ذلك بثلاث سنوات ، حثت العديد من الفلسطينيين على الفرار من تنظيماتهم الخاصة والالتحاق بفتح ، وسيسوء حكم القارىء على تعجل الفلسطينيين وعيلان صبرهم ازاء استعادة وطنهم ،اذا لم يقدر مدى ضنكهم . فالمنفى بحد ذاته ، هو الم لا يستطيع فهمه سوى أولئك الذين عانوه . ثم ان الشقاء والتعاسة يكونان أعظم عندما يلي فقدان الدار ، الانفصال عمن نحبهم . فقليلة هى العائلات الفلسطينية التي لم تذهب أشلاء بتبعثرها بسبب الحاجة في مختلف البلدان ، العربية وغير العربية ، وفي اجزاء تبلغ في البعد مبلغ الولايات المتحدة أو اميركا الجنوبية .

وعلى هذا فان المصير الذى آلت اليه عائلتي من هذه الناحية ليس مصيرا استثنائيا . فأخي البكر ، عبد الله ، عمل كعامل ميكانيكي في العربية السعودية قبل ان يصبح تقنيا يعمل في حقل تكييف الهواء في الكويت . اما أخي الاصغر الذى يليه سنا ، أحمد ، فهو استاذ ادب انكليزى في قطر ، الا انه عاش قبل ذلك في باكستان ومصر وانكلترا . واما شقيقاتي سلوى وانصاف ، فهما وان كانتا مقيمتان في العربية السعودية ، الا أن الاولى تعلم في جدة بينما استقرت الثانية في الرياض حيث تزوجت من موظف يعمل في وزارة الدفاع . وهكذا فاننا لم نفلح خلال ربع قرن ، في ان نجتمع سوى مرة واحدة عام ١٩٧٧ وذلك بمناسبة عملية جراحية خطيرة اجريت لشقيقي

عبد الله في الكويت • وغاب عن اجتماع العائلة المشهود هذا . غائب واحد : هو والدى الذى توفي قبل ذلك بسنة في القاهرة •

وحين غادر الفلسطينيون فلسطين عام ١٩٤٨ ، ظنوا انهم سيلقون في البلاد العربية عطف الاشقاء • وكم كان ذهولهم عظيما حين لاحظوا انهم يعاملون كأجانب في أفضل الاحوال ، أو كاشخاص غير مرغوب فيهم في غالبية الدول • اما لبنان ، وهو الارض المضيافة ، فقد أجاز لهم الاقامة مهتما بهم معتنيا بشأنهم • ولكن مخيمات اللاجئين التي نصبت فيه ، لم تلبث ان تحولت الى مراكز « تحجير » (غيتو) بحيث لا يسكن الدخول اليها أو الخروج منها الا بأجازة • اما في الاردن فكان الدخول الى المخيمات حرا ، الا ان اللاجئين كانوا يخضعون لرقابة بوليسية ثابتة ، بحيث ان كل نشاط سياسي ، بل أي اعتراض ، يعاقب عليه باستجوابات منهكة ، وسجن تعسفي بل بالتعذيب • اما في سوريا ، فان شروط الحياة كانت أقل قسوة ، ولكن السلطات كانت تطالب ضيوفها بالمقابل ، بامتثال كامل ، والتحاق غير مشروط بالنظام القائم ، يساريا كان ام يمينيا ، « انفصاليا » أو عروبيا • كما ان مشكلة الاستخدام كانت هي نفسها من أقصي العالم العربى الى أقصاه : فابناء البلاد يتمتعون بالاولوية في تقلد الوظائف ، اما الفلسطينيون فكان عليهم الاقتناع عند الاقتضاء بالوظائف الثانوية الشاقة أو الزهيدة الاجر • وعلى أى حال ، فانه كان عليهم ان « يؤدوا ما عليهم » ازاء مصالح الامن ، التي كان في مقدورها ان تقضي بالبطالة على كل فلسطيني تشتبه « باخلاصه » أو تظن فيه « التخريب » •

كانت الكويت أحد الاستثناءات القليلة على القاعدة • فطالما ابدى شعب وحكومة هذه الدولة الصغيرة تعاطفا ودعما ازاء الفلسطينيين الذين ساهموا ، والحق يقال ، في نمو ورفاهية هذه الامارة ، ان باعدادهم وان بنوعيتهم ، وذلك قبل ان تغرقها مداخيل النفط •

وتضم الجالية الفلسطينية التي تمثل حوالى ٢٠ بالمئة من سكان الكويت عددا من المعلمين والمهندسين والاطباء وكبار الموظفين • فضلا عن جمهور

واسع من العمال المؤهلين .

فليس من قبيل الصدفة أن تكون فتح كبرت ونست وترعرعت في الكويت فكثير من بيننا كانوا يشغلون مناصب ممتازة هناك : فياسر عرفات كان مهندسا يتمتع بكثير من التقدير والاحترام في وزارة الاشغال العامة ، وفاروق القدومي (ابو اللطف) كان يدير دائرة في وزارة الصحة العامة ، وخالد الحسن وعبد المحسن القطان كانا من كبار اداريي الدولة . واما خليل الوزير (ابو جهاد) وانا فكنا استاذين في مدارس ثانوية . ونمر صالح (ابو صالح) فقد كان عاملا فنيا هناك وله شعبية خاصة بين العمال .

وهكذا فاننا كنا ، بالنسبة الى الفلسطينيين الذين يعيشون في بلدان عربية أخرى بمثابة اصحاب امتيازات . فبالرغم من اننا كنا نقوم بنشاطات سرية واسعة ، الا اننا لم نكن نلاحق أو نضطهد . ودروس اللغة العربية والفلسفة وعلم النفس التي كنت اتولاها كانت تتيح لي أن أعرض أفكار فتح بكل طمأنينة على طلابي الذين كنت أجند من بينهم أفضل العناصر .

وبالمقابل فاننا كنا نشاطر كافة الفلسطينيين قدرهم لجهة القيود المفروضة على تنقلاتنا . فبرغم اننا كنا نحمل جوازات سفر صادرة عن هذه الدولة العربية او تلك ، فاننا كنا مطالبين بالحصول على تأشيرات خروج ودخول ، كانت تعطى لنا بشح وتقتير ، وبعد الكثير من المساعى المضنية .

كان لنا ان نكون رعايا مصريين أو سوريين واردنيين ولبنانيين ، الا ان سلطات اوطاننا بالتبني ظلت تعاملنا كاجانب ، فضلا عن معاملتنا كمشبوهين . فالفلسطيني المزود بوثيقة سفر مصرية مثلا ، لا يستطيع الخروج من البلاد أو الدخول اليها ، دون اذن خاص .

ولما كنت اتولى مسئوليات تنظيمية داخل فتح ، فاني كنت مجبرا من جهتي على ان اكثر من ارتياد مختلف البلاد العربية . فكانت تضاف الى ازعاجات التأشيرات ، الصعوبات الادارية في الحصول خلال السنة المدرسية على عطل غير نظامية . فكنت اتلافي القيام برحلات لا تكون ضرورية للغاية .

الا ان ظرفا قاهرا طرأ علي في اذار (مارس) ١٩٦٣ عندما علمت ان شقيق زوجتي البكر ، وهو مهندس يقيم في القاهرة ، قد توفي بحادث • فكان ان أثارت التفسيرات التي قدمتها لاطلب الاذن بالغياب ، تشكك وكيل وزارة التربية الوطنية يعقوب الغنيم الذى انتهى الى الارتياب بأني اتعاطى نشاطات غامضة • والغنيم رجل مرهف يملك حسن دعابة حاداً ، وقد قال لي وهو يضحك « لقد تذرعت ، تبريرا لسفراتك الكثيرة في هذه السنوات الاخيرة ، بوفاة والدك ، ثلاث مرات على الاقل ، وبوفاة والدتك أربع مرات وكذلك بموت أشقائك وشقيقاتك • افتظن انك تستطيع ان تقنعني اليوم بوفاة شقيق زوجتك المأساوية » • ولست أدرى اذا كنت افلحت باقناعه بحسن نيتي • لكن يعقوب الغنيم الذى سيصبح فيما بعد أحد افضل اصدقائي « والذى لا يزال يشغل نفس الوظائف » قد وافق على منحي على الاذن بالسفر • فاصطحبت زوجتي وابنتي ايمان التي كانت في الثالثة من عمرها ، ثم صعدنا الى طائرة متجهة الى بيروت حيث كان ينبغي لنا ان نمضي الليلة قبل أن نأخذ الطائرة الى القاهرة • ولكننا اصطدمنا برفض السلطات اللبنانية في أن تعطينا تأشيرة دخول مؤقت (ترانزيت) لأربع وعشرين ساعة ، ودعينا لتمضيةالليل في مطار بيروت في غرفة صغيرة لا نستطيع حتى ان تتمدد فيها ، فرحت اترافع لصالح زوجتي وابنتي ، عارضا ان أبقى في المطار بينما تمضيان هما الليلة في فندق بالعاصمة • ولكن عبثا ، اذ ان ضابط الامن لم يتزحزح عن موقفه •

وفي أثناء ذلك ، تم ادخال كلب الى الغرفة التي كنا محتجزين فيها • اذ لم يكن باستطاعته هو الاخر ان يدخل الى البلاد ، لانه لا يحوز على شهادة صحية نظامية • كنت بدأت أتعزى بفكرة انه ليس ثمة تمييز يفصل بين الفلسطينيين والكلاب ، عندما جاء من يسعى وراء صاحبنا العاثر الحظ ، بعد أن نال اعفاء استثنائيا بسبب « تدخل رفيع المستوى » تم لصالحه •

وقد ظل هذا الحادث ، الذى يرمز الى المصير الذى ينتظر الفلسطينيين ، محفورا في ذاكرتي • بحيث اني بعد ذلك بعشر سنوات ، رويته لشخصية

لبنانية تشغل حاليا منصبا هاما داخل حزب الكتائب ، لأدلل له على قدر الفلسطينيين البائس وعلى معنى كفاحنا . فشزرني ببرود وقال لي بلهجة ازدراء : « ان حركتك التحريرية لم تدرك أى هدف من أهدافها ولا تزالون غرباء غير مرغوب فيهم ولن تحصلوا مطلقا على حق الدخول الى البلدان العربية . والنتيجة الملموسة الوحيدة لوجودكم في لبنان ، هو انكم ساهمتم بدعواكم في حقل الاجور ، الى رفع الاجرة التي ندفعها لخدمنا . »

فصررت اسناني وكظمت غيظي ولم أجب . كان علي أن أضبط أعصابي في لحظة كنت أحاول فيها المفاوضة على اتفاق يهدف الى تجنيب اللبنانيين حربا أهلية مدمرة وتجنيب المقاتلين الفلسطينيين محنة جديدة قاسية في بلد يشكل بالنسبة اليهم آخر ملاذ لهم في العالم العربي غير ان زوجة محدثي التي كانت شاهدة على محادثتنا لم تستطع ان تكبح سخطها على مثل هذه الصلافة الشرسة . فقالت له بحدة : « لو كنت مكان ابو اياد ، لقتلتك في الحال .. » غير ان محدثي لم يخطيء في نقطة واحدة . فنحن برغم صراعاتنا وانتصاراتنا ، وبرغم الالاف من شهدائنا ، بما في ذلك الذين ضحينا بهم في ميدان المعارك العربية ، لا نزال أبدا نعامل كالموبوئين بالطاعون .

وأريد ان اذكر بهذا الصدد ، حالة قريبة العهد بين كثير من الحالات الاخرى ، هي تلك التي حدثت للمدعو أحمد الاسطل الذى يحمل جواز سفر مصرى حسب الاصول ، ولكنه وجد نفسه ذات يوم في عام ١٩٧٦ ممنوعا من دخول مطار القاهرة . ووضعته السلطات المصرية في طائرة متجهة الى دمشق حيث ما لبث أن أبعد باتجاه الكويت . وهناك وضعوه في طائرة متجهة الى عمان التي رفضت قبوله . وهكذا فقد قام بجولة حول مختلف البلدان العربية ، ولمدة اسابيع ، قبل أن يتمكن بعد مداخلات كثيرة ، من أن يجد ملاذا . والأسطل حسب علمي ، لم يرتكب أى عمل يستحق العقاب، لكن تقريرا ما من تقارير الشرطة مبنياً على اشاعات ، يكفي لتجريم فلسطيني .

ان شعبا بلا وطن ، لهو شعب بلا حول وبالتالي بلا دفاع . أمن العجيب بعد هذا ، اذا بحثنا عن انعكاس هويتنا ، بل وجودنا في رموز مثل جواز

السفر أو العلم . ومن بداية سنوات الستين ، راح الاستياء ينتشر بين الفلسطينيين بسبب اللا مبالاة التي كانت تظهرها ازاءهم مختلف الأنظمة العربية . فكانت الحاجة الى منظمة قتالية محض فلسطينية تزداد الحاحا . لا سيما بعد الحملة التي خضناها في مجلة فلسطيننا . وكان التقدير السائد لدى العديد من الحكومات العربية ، هو انه يجب ملء هذا « الفراغ » بانشاء حركة تأخذ على عاتقها الغضب المتزايد الذى يهدد بأن ينقلب ضدها . فكان لابد لها من ان تجد الرجل القادر على تنظيم الفلسطينيين تحت كنفه وعلى اعادة الثقة اليهم . ويقينا ان الحاج امين الحسيني الذى كانت مهابته لاتزال عظيمة ان لم نقل سليمة كاملة لدى قطاع واسع من الرأى العام ، كان لا يزال جاهزا . غير ان عبد الناصر لم يكن شغوفا بمفتي القدس السابق . فقد منحه حق اللجوء السياسي الى مصر ولكنه منعه من القيام بأى نشاط عام . كان تقدير الريس ان الزعيم الفلسطيني الهرم يرمز الى ماض ولى الى الأبد ، وانه على كل حال ، أفقد نفسه الاعتبار بتعاونه مع المانيا النازية .فكان يفضل عليه احمد الشقيرى وهو محام محترف ومحدث لبق وخطيب مجيد ، كما انه اكتسب فوق ذلك تجربة في الحياة الدولية بتمثيله العربية السعودية في الامم المتحدة .

وهكذا فقد جرى تكليف احمد الشقيرى في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٦٣ ، بالبحث عن وسائل تأكيد وجود « كيان فلسطيني » فكان عليه ان يتشاور مع الحكومات العربية لهذا الغرض ، بهدف عقد مؤتمر فلسطيني يؤسس منظمة تمثيلية .

وما لبثت منظمة فتح ان اكتشفت المناورة وقدرت خطورة هذه المؤسسة التي تشكلها وتحركها وتشرف عليها الأنظمة العربية ، على الحركة الوطنية الفلسطينية . وقد سبق لنا ، ياسر عرفات ، وانا ، ان عرفنا الشقيرى جيدا في مطلع سنوات الخمسين في الفترة التي كنا نقود فيها اتحاد الطلاب الفلسطينيين . فقررنا الاتصال به لاقناعه بالتعاون معنا . وخلال محادثة أولى معه ، في القاهرة ، حاولت ان أفسر له لماذا نعتقد ان منظمة تشكل

« من فوق » ستكون منظمة غير فعالة اذا لم تتمتع بدعم « القاعدة » الفعال . وعرضت عليه التنسيق السرى بين نشاطاته العلنية وبين عمل نخوضه بصورة سرية . وبهذا تصبح منظمة التحرير الفلسطينية التي ستعهد اليه أول قمة عربية بتشكيلها في كانون الثاني (يناير) ضربا من الوكالة اليهودية – كما قلت له – ونوعا من الواجهة الشرعية للكفاح المسلح الذى يقوم به مناضلونا على أن يتم تأمين الاتصال بيننا وبين منظمة التحرير عبر بعض اطرنا (كوادرنا) التي يستطيع الشقيري تعيين بعضنا من اعضائها في اللجنة التنفيذية للمنظمة

وأصغى الي احمد الشقيرى – الذى كان لا يزال يجهل كل شيء عن فتح – بكثير من الانتباه والتعاطف كما بدا لي . ثم طلب مهلة للتفكير . وخلال جولته في العواصم العربية كلمه بعض الرفاق المكلفين بذات المهمة المناطة بي ، بلغة مماثلة . الا ان جوابه كان سلبيا . وأبلغني ان وظائفه وعلاقاته مع الأنظمة العربية وواجبه في عدم الاضرار باستراتيجية الجامعة ، التي كان قوامها في تلك الحقبة ، منع اسرائيل من تحويل مياه نهر الاردن لصالحها ، تمنعه من عقد مثل هذا التحالف معنا . وبعد ذلك بعدة سنوات ، أى بعد أن أبعد عن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، راح يبرر موقفه السلبي بالقاء المسؤولية على عبد الناصر وعلى قادة آخرين . والواقع هو ان تفسيراته المتأخرة ليست مقنعة . اذ لماذا كان عليه أن يستشعر الحاجة الى الحصول على موافقة رؤساء الدول العربية ما دمنا عرضنا عليه اقامة علاقات سرية بيننا لكن الشقيرى بدلا من ان يساعدنا كما وعد ، فانه راح بعد ذلك يحاربنا بأقصى ما لديه من طاقة .

وقد دعي اول مؤتمر وطني فلسطيني الى الانعقاد في ٢٨ ايار (مايو) ١٩٦٤ . فكانت المسألة المطروحة علينا حينذاك هي مسألة ما اذا كان ينبغي لنا ان نقاطعه أم لا . فطبيعة رعايته ، وتركيبه والهدف الذى ينزع اليه وغير ذلك من العوامل ، كانت تدفعنا الى التغيب عنه . غير أن أسبابا أخرى كانت على العكس من ذلك ، تحث على اشتراكنا فيه : منها ضرورة عدم الانقطاع عن الحياة السياسية الفلسطينية ، ومنها الضرورة الاخرى الاكثر الحاحا . الا

وهي ضرورة التسرب الى داخل منظمة غنية وقوية ، للافادة من الوسائل التي تتمتع بها .

فقد كان يسعها فعلا أن تستخدم استخداما مفيدا كواجهة لنشاطاتنا السرية . وهكذا فان عددا من رفاقنا (منهم أبو جهاد ومحمد النجار وكمال عدوان وخالد الحسن) شاركوا في المؤتمر واستغلوا مشاركتهم للدفاع عن اطروحات فتح الرئيسية ، ولا سيما اطروحة الكفاح المسلح . كنا نحاول أن نفتح طريق حرب العصابات التي كنا نعد لها اعدادا محموما بحسب وسائلنا المتواضعة . ولما كنا لا نتمتع بدعم مالي من قبل أية حكومة كانت ، فاننا رحنا نشترى من سوق السلاح أسلحة خفيفة بكميات ضئيلة ، ومن نوعيات سيئة الجودة ، في غالب الاحيان . على أن أحدّ مشكلة واجهناها ، كانت مشكلة اعداد فدائيينا العتيدين ، وهم أكثر من ألف ممن نظمناهم في خلايا . كنا نستطيع عند الاقتضاء ان نشرك عسكريين قدامى ممن خدموا في مختلف الجيوش العربية أو في القوات البريطانية اثناء الحرب العالمية الثانية . الا انه لا بد من تهيئة اماكن آمنة لاغراض التدريب .

كان النظام العربي الوحيد الذى يؤيدنا عام ١٩٦٤ ، هو نظام بن بللا الذى رخص لنا باقامة ممثلية في الجزائر . غير ان بن بللا ، الذى كان وثيق الصلة بعبد الناصر ، كان يرفض اعطاءنا أية معونة مادية . وانما تسلمنا أول شحنة من السلاح من الجزائر ، عام ١٩٦٥ ، بعد تسلم بو مدين مقاليد السلطة وعلى كل ، فقد كان ذلك بفضل اللواء حافظ الاسد ، رئيس الجمهورية السورية الحالي ، الذى كانت لنا معه علاقات طيبة منذ عام ١٩٦٤ .

كان الاسد في تلك الاثناء قائدا لسلاح الطيران . فكان يستلم الاسلحة المرسلة لنا بالطريق الجوى على سبيل الوديعة ، ثم يسلمها لنا بدون علم حكومته و دون علم حزب البعث الذى ينتمي اليه . والواقع هو ان النظام السورى كان معاديا لنا . ولكنا كنا نتمتع بتواطؤ رجلين يشغلان مناصب حساسة : الاسد واللواء احمد السويدانى رئيس الاستخبارات العسكرية الذى سيرقى فيما بعد الى منصب رئيس الاركان العامة . وهكذا فقداستطعنا

ان نمتلك منذ مطلع عام ١٩٦٤ ، معسكرين للتدريب في سوريا • وفي موضع آخر ، كان فدائيونا يقومون بتمارين على اطلاق النار في مناطق صحراوية ، وأحيانا في وسط بدوي • وكانوا حين يعوزهم ذلك، ينخرطون في جيش التحرير الفلسطيني الذى بدأ أحمد الشقيرى بتكوينه تحت اشراف منظمة التحرير الفلسطينية •

كان جيش التحرير الفلسطيني طعما وخديعة• اذ لم يكن مرصودا لمحاربة اسرائيل الأمر الذي كانت كافة الانظمة العربية تتلافاه بأى ثمن — وانما لتحويل الفلسطينيين عن محاولة خوض كفاح مسلح مستقل • ولم تكن هذه الحسابات دون اساس ، وكان من واجبنا ان نحبطها ، فانه لا بد لنا من البدء بالعمل بلا ابطاء • وهكذا فقد عقدت قيادة فتح اجتماعا في الكويت في بداية خريف عام ١٩٦٤ ، لمناقشة المسألة • فكانت المناقشة حامية بين ممثلي منحيين متباينين • فبعض رفاقنا ممن سنشير اليهم بعد ذلك باسم « المتعقلين » وقفوا ضد ما اعتبروه محاولة سابقة لاوانها بصورة خطيرة . وراحو يؤكدون ان شن حرب العصابات ، لا يزال امرا مبكرا للغاية خاصة واننا كنا قليلي أو سيئي التجهيز ، وان عدد مناضلينا لا يزال ضئيلا نسبيا • ثم خلصوا الى القول بأنه أولى بنا ان ننتظر الى أن تصبح فتح حركة جماهيرية تتمتع بقوات أساسية قبل أن نقذف بأنفسنا في مشروع قد يثير ضدنا مجمل العالم العربي •

وكنا بضعة أشخاص بينهم — ياسر عرفات وأنا وأبو جهاد ومحمد النجار وابو مازن وفاروق القدومي وخالد الحسن وسليم الزعنون ومحمد غنيم وسواهم ندافع عن وجهة النظر المقابلة تماما • قلنا ان الوضع ناضج بالنسبة للكفاح المسلح ، فالجماهير الفلسطينية لم تسممها بعد ديماغوجية الشقيرى ولن تلبث ان تتأثر وتؤخذ بجديتنا وعزمنا على العمل • وقلنا ان فتح ستنمو وتتطور الى حركة جماهيرية ، بممارسة الكفاح المسلح وليس عبر السياق المعاكس • فكان ان استحقينا بسبب هذه الاطروحة التي اعتبرت متهورة وصف « المغامرين » •

وقد دفعنا المأزق الذى افضينا اليه ، الى عقد اجتماع موسع في دمشق في شهر تشرين اول ١٩٦٤ ، لكوادر فتح القيادية في البلدان المحاذية لاسرائيل وخاصة لاطر الضفة الغربية وغزة ، اى تحديدا ، الاراضي التي ستنطلق منها اولى غارات الفدائيين • فانقسم الاجتماع وفقا للشرخ نفسه الذى حدث في الكويت ، ولكن نقاشات طويلة افضت هذه المرة الى موقف اجماعي على مشروع « المغامرين » وبعد ذلك بأيام جرى توقيت ميعاد اول عملية عسكرية ضد اسرائيل ، فكان يوم ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٤ •

وفي هذا اليوم ستعبر مجموعات من المغاوير المكونة في الضفة الغربية وغزة ولبنان الحدود الاسرائيلية سرا لتقوم بغارات على عدة مواضع ضد اهداف عسكرية واقتصادية ، ولا سيما ضد المنشآت المرصودة لتحويل مياه الاردن الى الدولة اليهودية • غير انه جرى توقيف فريق غزة بالكامل من قبل دوائر الامن المصرية قبل موعد العملية بأسبوع • فالواقع هو ان عميلين ناصريين أفلحا في التسرب الى داخل الفريق • بيد ان المحافظة على السر تمت بصورة أفضل في الضفة الغربية ولبنان ، حيث تمكن فدائيونا من انجاز مهماتهم ــ وقاموا بحوالي عشر عمليات ــ بنجاح •

ولم يوقعوا خسائر هامة بالعدو ، فذلك لم يكن على أية حال هدفنا الاساسي • كنا نسعى الى اخراج عمل صارخ مذهل يصعق مخيلة الاسرائيليين الذين كنا نريد أن نبلغهم وندلل لهم على وجودنا كفلسطينيين يسعون الى تدعيم ارادة الصراع بصورة مستقلة استقلالا ذاتيا عن الأنظمة العربية التي قذفنا في وجهها هذا التحدى ، واخيرا تدعيمها امام الرأى العام العالمي الذى كان يجهل او يتجاهل قدر ومصير شعبنا •

تم تحضير عملية ٣١ كانون الاول ١٩٦٤ بصورة دقيقة وعلى مدى أكثر من شهرين • وأعطينا الفدائيين امرا ، بين جملة ما اعطيناهم من اوامر ، بألا يحدثوا خسائر في أرواح السكان المدنيين الاسرائيليين كائنا ما كانت الذريعة فقد كانت تلك هي ارادتنا في البدء • الا أن سلوك السلطات الاسرائيلية اضطرنا بعد ذلك ، لسوء الحظ ، على ان نخالف القاعدة التي أقمناها •

فالغارات الانتقامية الاسرائيلية ، توقع بصورة عامة العديد من الضحايا بين المدنيين الفلسطينيين وخاصة عندما تدك مخيمات اللاجئين بصورة همجية عمياء فمن الطبيعي ان نرد نحن بصورة مطابقة ، لردع العدو عن مواصلة المجزرة ضد الابرياء • فالعقيدة الصهيونية ذات الجوهر العنصرى معروفة تماما : فهي تقوم على تبرير ابادة عشرات بل مئات الفلسطينيين واحيانا على تدمير مناطق بكاملها تدميرا تاما ، كعوض عن موت اسرائيلي واحد •

وبطبيعة الحال ، فان سلطات تل أبيب فوجئت بعمليتنا التي تمت في ٣١ كانون الاول • كنت يومها في مهمة مراقبة في بيروت فرحت اصغي بدون انقطاع الى الاذاعة الاسرائيلية التي كانت تذيع بلاغات مشوبة بالتشوش • كانت البيانات تنسب غارات الفدائيين الى منظمات بأسماء نجهلها بالكامل • وانما وعى المسؤولون الصهاينة طبيعة وابعاد المشروع بعد ان نشرنا بلاغنا العسكرى الاول في أول كانون الثاني(يناير) موقعا باسم « العاصفة » لاننا كنا لا نعرف مقدما ، ما اذا كان مشروعنا سينجح أم لا • ولما كنا لا نريد توريط فتح ، فقد اخترنا اسم العاصفة كاجراء احترازى • و لن نشير الى ان العاصفة ليست سوى الجناح العسكرى من حركتنا الا بعد ذلك بكثير •

أما بالنسبة لوسائل الاعلام العربية ، فقد أصابنا منها ، بعد بضعة أيام من الصمت المذهل ، سيل من القدح والسباب • فنحن بالنسبة لمصر لا يمكن ان نكون الا اخوانا مسلمين متعصبين من عملاء الاستعمار .فصحيفة الانوار اليومية الموالية للناصرية ، والتي تصدر في بيروت خصصت صدر صفحتها الاولى لعنوان « يتبين » فيه اننا عملاء وكالة المخابرات المركزية الاميركية (السي • آى • اى) • اما السعوديون فكان رأيهم اننا عملاء الشيوعية الدولية • واما الاردنيون من جهتهم فصنفونا في خانة معسكر الثوريين العروبيين •

لا بل أن وطنيين فلسطينيين لا ينتمون لفتح ، لم يعفوا عنا هم أيضا • فقد انتقدنا وطنيون من امثال غسان كنفاني ـ الذى سيغتاله الاسرائيليون

عام ١٩٧٢ ـ بمقالات ملتهبة نشرت في صحيفة المحرر اليومية . وقد اجبت على مقالاتهم على أعمدة الصحيفة ذاتها ، باسم مستعار . اما احمد الشقيرى فراح يندد بنا باسم منظمة التحرير الفلسطينية كاعداء لحركة التحرير الفلسطينية . ثم ما لبث ان اكب على مهمة انشاء منظمات وهمية حتى لا تنفرد « فتح » في الساحة وحدها .

والحقيقة هي ان احمد الشقيرى لم يكن سوى اداة الجامعة العربية التي كانت تسعى لتدميرنا ، فالفريق المصري علي علي عامر ، الذى كان يشغل في تلك الحقبة منصب قائد القوات العربية الموحدة ، وجه مذكرة الى كافة الحكومات العربية طالبا اليها قمع نشاطاتنا بشدة لعدم « اعطاء اسرائيل ذريعة لمهاجمة البلدان العربية» . فكان ان اغتنم الاردن ولبنان ذلك ، ليمنعا الصحافة حتى من ذكر اسم العاصفة . بحيث ان بعض الصحف التي حظر عليها نشر بلاغاتنا ، كانت تلتف على حظر الرقابة ، بأن تنقل تصريحات الناطقين الاسرائيليين الذين كانوا يشيرون الى العاصفة وصنائعها .

وفي ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ نشرنا اول بيان سياسي مهرناه باسم العاصفة وأعلنا فيه ارتباطنا وتعلقنا بالامة العربية ونضالاتها . ولكننا وجهنا اليها نداء ندعوها فيه الى دعمنا في كفاحنا المسلح الذى شرعنا به لوضع حد للامر الواقع الاسرائيلى . ثم خلصنا الى القول « بأننا لن نضع السلاح طالما لم تتحرر فلسطين ولم تحتل المكانة التي تستحقها في قلب الأمة العربية . »

لكن الأنظمة العربية اصمت اذانيها عن هذا النداء ، مكثفة في الان ذاته حملة القمع . فشهيدنا الاول احمد موسى سقط برصاص اردني . فقد كان عائدا من مهمة في اسرائيل حيث تمكن من الافلات من القوات الصهيونية ، فقتل بعد أن اجتاز خطوط العدو من قبل جنود الملك حسين . وتكاثرت المداهمات وزخات الرصاص في وادى الاردن بحيث ان ٢٥٠ فلسطينيا يشتبه بانتمائهم او تعاطفهم مع العاصفة ، كانوا عشية حرب ١٩٦٧ في السجون الاردنية . وكذلك فان القمع كان شبيها في بقية البلدان العربية وان كان

أقل شراسة مما هو حاله في الاردن ــ بحيث ان الفلسطينيين كانوا مراقبين مطاردين معتقلين .

غير اننا كنا مبتهجين لان بلدين على الاقل ، كانا يشذان عن هذه القاعدة ففي الكويت تبنت دوائر الامن ازاءنا موقفا محايدا ، وفقا لتقاليدها في الحكمة والتسامح ، وكذلك بسبب تعاطفاها مع حركة تحرر لا تتهدد سلطة واستقرار النظام القائم . اما في سوريا فكان الوضع اكثر تعقيدا . فالحكومة السورية وحزب البعث كانا يعتبراننا « انفصاليين » وذلك بالقدر الذى كنا لا نشاطرهم فيه تصوراتهم العروبية ، ولكن عددا من المناضلين البعثيين كانوا يقدمون لنا المساعدة ، تقديرا منهم بأن كفاحنا هو على كل حال ، اهل للدعم .

غير أن سلطات دمشق عمدت ، بدون ان تحاربنا ، الى مناورات مختلفة لاحتوائنا بل وللسيطرة علينا . فراحت تعمل بالاتفاق مع مناوئينا «المتعقلين» داخل قيادة فتح ، محاولة التسرب الى منظمتنا والسيطرة عليها بادخال عناصر مؤيدة لها ، الى داخلها . كانت هذه حالة يوسف العرابي ومحمد حشمت ، وكلاهما فلسطينيان ذوى نزعة بعثية واعداد عسكرى ، تطوعا في صفوف العاصفة . كنا نعتبرهما كمقاتلين مخلصين لقضيتنا ، الى أن قتلا في نهاية شهر شباط ــ فبراير ١٩٦٦ برصاصات مسدس ولم يتضح لنا حتى اليوم كيف قتلا ؟

وما لبثت السلطات البعثية ان ارتابت في أن نكون قمنا بتصفيتهم . وهكذا فقد جرى توقيف قادة فتح الذين كانوا موجودين في دمشق حينها ــ ياسر عرفات ، ابو جهاد ، ابو علي اياد ، وابو صبرى ، وكذلك سبعة اعضاء آخرين أقل أهمية ــ وجرموا بالاغتيال .

وعلى الفور غادرنا ، فاروق القدومى ومحمد يوسف النجار وانا ، الكويت متجهين الى دمشق بغرض تأمين الافراج عن رفاقنا . وهناك راح العقيد صلاح جديد ، الرجل القوى في النظام الذى كان قد أقامه لتوه بعد أن أقصى الشريحة « اليمينية » في البعث ، يصغي الينا بكثير من الادب

والمجاملة . وبعد محادثة طويلة فهمنا ان القضية بين يدى حافظ الاسد الذى تمت ترقيته منذ فترة بسيطة الى منصب وزير الدفاع ، فبدت لنا محاولتنا وكأنها بدأت بداية حسنة . فمع اني لم التق بالاسد مطلقا ، الا اني كنت أعرف العلاقات الوثيقة التي اقامها منذ سنتين مع ياسر عرفات وأبي جهاد . وقلت في نفسي اننا لن نجد مشقة في اقناعه ببراءتهم لا سيما وانهم اضربوا عن الطعام منذ ما يقرب الشهر وان حياتهم في خطر .

وكانت اول مفاجئة هي ان حافظ الاسد جعلنا ننتظر ثلاثة أيام قبل ان يحدد لنا موعدا ، وكان موضوع الاستغراب الثاني والذى زاد من قلقنا هو انه تلقانا قرب عتبة مكتبه بوزارة الدفاع وهو يسألنا بجفاء عما نريد . ثم قاطع العرض الذى كنت أقدمه له ليبلغني بأن رفاقنا المسجونين مذنبون وان شيئا او أحدا لا يستطيع أن يقنعه بالعكس . فنشب بيننا جدال عنيف . وعندما بلغ مني الحنق مداه ، قلت له « ان موقفكم يؤكد شكوكنا بأنكم تسعون في الواقع الى خنق الكفاح المسلح الذى بدأناه ، في المهد . وعلى أى حال فانا اشكركم على استقبالكم ، ولكن فلتعلموا انكم تتحملون امام التاريخ المسؤولية في انكم وجهتم ضربة شديدة الى حركة التحرير الفلسطينية . »

وسكت حافظ الاسد ، ثم بعد لحظة تأمل ، دعانا في اللحظة التي كنا نتظاهر فيها بأننا نهم بالانسحاب ، للدخول الى مكتبه ودار نقاش دام اكثر من ثلاث ساعات . وطرح علينا الف سؤال حول فتح وايديولوجيتها واهدافها ثم وبخاصة حول عرفات (الذى كان يعرف حينها باسمه القتالي رؤوف) الذى كانت شخصيته تحيره . مع ان ياسر لم يكن مجهولا بالنسبة للسلطات السورية فقد اوقفته سلطات دمشق في نهاية عام ١٩٦٥ ، لاشتباهها بضلوعه في تخريب خط أنابيب التابلاين ، ثم أفرجت عنه بعد ذلك ببضعة أيام لعدم توفر أدلة ضده .

وخلص حافظ الاسد الى القول وهو ظاهر الرضي : « اذهبوا لتوكم الى سجن المزة ، فسوف تغادرونه مصحوبين برفاقكم المسجونين وسأعطي الاوامر اللازمة للافراج عنهم » وقد وفى بوعده فيما يتعلق بعشرة من

المتهمين . اما الحادى عشر ، وهو مناضل بسيط من فتح فلا يزال الى اليوم في السجن برغم انه برىء من التهمة الموجهة اليه .

واتخذت قيادة فتح قرارا « بتجميد » نشاطات الأشخاص المفرج عنهم كبادرة حسن نية ازاء السلطات السورية ، وتكفيرا عن الاخطاء التى ارتكبوها الا ان عرفات لم يكن يحتمل هذا الامر الذى شعر به حينها وكأنه عقاب . فهو بطبيعته لا يستطيع أن يظل ساكنا، فكان ان عرض علينا الصفقة التالية : مقابل الغاء الاجراء المتخذ بحقه فانه سيقوم بعملية هامة في اسرائيل ، قد تكلفه حياته اذا ما فشلت ، ولكنها ستكون مفيدة للحركة افادة خاصة ، اذا ما تكللت بالنجاح ، فقبلنا عرضه .

وعلى هذا فانه انطلق مع مجموعة من الفدائيين باتجاه الحدود اللبنانية الاسرائيلية . غير ان دوائر الامن في بيروت ، اعترضته لسوء حظه ، وراح اثنان من ضباط المكتب الثاني يتبادلان استجوابه . فكان احدهما ، وهو سامى الخطيب ، القائد الحالى لقوات الردع العربية ، يحاول ان يتحرى عن هوية رفيقنا الذى ارتاب في انتمائه الى مخابرات عبد الناصر . غير ان عرفات الذى يتقن اللهجة المصرية لم يحاول تبديد هذا الخطأ . ولكنه في النهاية كشف اسمه الحقيقي بدون ان يشير الى كونه عضو اللجنة المركزية في فتح وقائد قوات العاصفة . بيد ان الشكوك التي تحوم حوله بدت وكأنها تتأكد حين تدخل المكتب الثاني السورى بناء لطلبنا ، لصالحه ، ذلك ان السلطات اللبنانية لم تكن تجهل بأن ثمة تعاونا وثيقا في تلك الحقبة كان يربط دوائر الاستخبارات المصرية والسورية . اما نحن ، فاننا ابلغنا من جهتنا حكومة بيروت ، بأننا سنقوم ، اذا لم يجر الافراج عن عرفات ورفاقه ، بسلسلة عمليات في لبنان على سبيل الانتقام . وتحت التأثير المزدوج لهذا التهديد ولضغوط دمشق ، فان مسؤولي بيروت اطلقوا سراح عرفات وبقية الفدائيين من سجن الرمل بعد ثلاثة اسابيع من الحبس .

كان من الواضح اننا لن نستطيع مواصلة مهمتنا ،الا اذا اعدنا العلاقات مع الانظمة العربية الى طبيعتها . فاتخذنا عدة اجراءات تهدف الى تطمين

الحكومة السورية وكلفنا ياسر عرفات وفاروق القدومي باجراء اتصالات مع السلطات المصرية التي كنا نعرف بالتجربة ان لها تأثيرا حاسما على عدد من البلدان الاخرى في المنطقة .

وتلقى رئيس المخابرات المصرية العتي ، صلاح نصر ، مندوبينا المطلقي الصلاحية في ظروف غريبة للغاية . فقد بدأ باصدار اوامره بحضورهم ، بالهاتف ، لكي تحجز لهم مقصورة فاخرة في فندق عمر الخيام الذى كان حينذاك أحد أفخم المؤسسات الفندقية في العاصمة المصرية . ثم طلب بعد ذلك الى معاونيه ان يضعوا أنفسهم بتصرف ضيوفه وان يزودوهم بما يشاؤون.ثم اضاف موضحا ، بما في ذلك أجمل نساء القاهرة .

كان صلاح نصر الذى سيوقفه عبد الناصر ويحاكمه غداة هزيمة يونيو ـ حزيران ١٩٦٧ بتهمة الفساد والتآمر ضد امن الدولة ـ يتصرف عامة على هذا النحو مع من يحاول افسادهم . غير ان سلوكه صدم رفيقينا الى أقصى الحدود . فكان ان رد عليه فاروق القدومي بجفاء فظ قائلا : « اننا ممثلو حركة ثورية يرتبط بها مصير شعب بكامله . لذلك فانك لن تفلح في اقامة علاقات معنا اذا كنت تسعى الى تأسيس هذه العلاقات على طعم الحظوة والغانيات .

وتفاجأ صلاح نصر بادىء الامر ، ثم عاد فتمالك نفسه وأكد انه لم يقصد ذلك مطلقا . كان يريد أن يعرف فقط ومقدما ، ما هي حركتنا بالضبط وكيف تعمل .. وكم تضم .. وفي أية بلدان تتواجد.. ومن أين نستمد مواردنا المالية وكيف نشترى اسلحتنا .. وهل بالامكان أخيرا ، معرفة اسماء الاشخاص الذين يشكلون قيادة فتح .

واندهل ياسر عرفات وفاروق القدومي ، ولكنهما بطبيعة الحال رفضا الاجابة على أى سؤال من هذه الاسئلة وبات من البديهي انه لا طائل في مواصلة الحديث مع رجل يتصرف كبوليسي ، في حين انهما كانا يعتقدان ان باستطاعتهما التفاوض على تعاون سياسي . وعلى ذلك فان رفيقينا عادا

من القاهرة بخيبة امل عميقة واشمئزاز غير عميق .

وبعد ذلك بضعة اشهر ، اى في تشرين الثاني – نوفمبر – اوكانون الاول ديسمبر ١٩٦٦ على ما اعتقد ، قررنا القيام بمحاولة جديدة لاقامة علاقات مع النظام الناصرى ، ولكن على اسس خاصة محددة . فعرضنا على وزير الدفاع المصرى شمس بدران (الذى سجن هو ايضا بعد حرب ١٩٦٧) ان يساعدنا على تشكيل خلايا فدائية في النقب تكون مهمتها انهاك الجيش الاسرائيلي في زمن السلم ، وكذلك في حالة اندلاع الحرب بين مصر والدولة اليهودية ، على أن تتكفل نحن من جهتنا بوضع ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فدائي في القسم الصحراوى من النقب بينما يقدم لهم المصريون دعما لوجستيكيا (اى لجهة نقلهم وايوائهم وتغذيتهم) .

كان شمس بدران يصغي بصمت المتعجرف المتعاظم . ثم اعلن لنا بشيء من السخرية بأن مشروعنا « مثير للاهتمام بالتأكيد » ولكنه لا يرى كيف يسعه الاشتراك فيه دون ان يعرف مقدما من هي فتح ومن هم قادتها .كانت عقليته لا تختلف بشيء عن عقلية محدثنا السابق رئيس المخابرات . وانما اقتضي الامر ان تحدث هزيمة الجيش المصرى في حزيران ١٩٦٧ ، وان تجرى عملية تطهير النظام التي تلت ذلك ، لكي نستطيع اخيرا ان نمد جسرا بين الحركة الفلسطينية وبين أقوى الدول العربية .

وبرغم ضآلة الدعم الخارجي الذى كنا نتمتع به ، فان فتح زادت من قتاليتها وتماسكها فغداة عملية ٣١ كانون الاول – ديسمبر – ١٩٦٤ زاد مناوئو الكفاح المسلح داخل القيادة أي « المتعقلون » من ضغوطهم بغرض تحييد « المغامرين » كما كانوا يصفوننا . فاستخدموا كافة الوسائل للبرهنة على ان مشروعنا قد أضر بالحركة . فاذا جرى توقيف مناضل في الاردن ؟ أنّا اذا لمسؤولون .. افتتهمنا الصحافة بأننا عملاء وكالة الاستخبارات المركزية ، (السي آى اى) .؟ انا اذا لم نعد الرأى العام كفاية لحرب العصابات التي شنيناها .. أو فشلت الغارة التي قام بها فدائيونا ؟ انها خطيئتنا لاننا ، في رأيهم ، لم نجند عسكريين محترفين .. وهل الأنظمة العربية تحمل علينا

وتشنع ؟ ! ان في ذلك لدليلا على ان مشروعنا سابق لاوانه .

كان الجدال في اوجه حين أهوى مناوئونا بأقنعتهم وكشفوها بمناسبة اتهام ياسر عرفات وصحبه بقتل ضابطي العاصفة . فقد ارتكب « المتعقلون » خطأ التحلل من رفاقنا المسجونين . ثم ان الافراج عن هؤلاء الاخيرين مبرئين من كل اتهام ، اعلن نهاية رفاقنا هؤلاء الذين لم يلبثوا بعد ذلك بقليل ان انسحبوا من قيادة فتح التي عادت متجانسة .

ومنذ ذلك الحين ، بتنا قادرين على مواصلة وتطوير حرب العصابات ومن عام ١٩٦٥ حتى عشية حرب الايام الستة ، قام فدائيونا بحوالي مايتي غارة تقريبا . ولا ريب في أن معظمها جاء على نطاق متواضع بحيث انه لم يكن يعرض امن واستقرار الدولة الصهيونية للخطر ، ولكن هذه العمليات ساهمت في زيادة التوتر بين اسرائيل والبلدان العربية التي كانت اسرائيل - ويا لسخرية القدر - تتهمها بتشجيع ودعم الحركة الفدائية ؟

وفي الخامس من حزيران يونيه ١٩٦٧ ، علمت من الاذاعة بأن اسرائيل شنت هجمة جوية صاعقة ضد مصر . كانت العطل المدرسية قد بدأت فغادرت الكويت في اليوم ذاته الى دمشق . وانتهت بذلك مرحلة من حياتي كمناضل ذلك انني سأصبح منذ ذلك الحين ، ما يدعى « بالثوري المتفرغ » فالحرب التي بدأت لتوها ، ستسجل كذلك منعطفا رئيسيا في تاريخ الحركة الفلسطينية .

الفصل الرابع

المدّ

كانت السيارة الصغيرة التي تتكدس فيها خمستنا ، تسير بأقصى سرعتها على الطريق من الكويت الى بغداد . وقد اخترنا هذا الانعطاف الى الشمال لتلافي الطريق التي سارت فيه ارتال الجيش الاسرائيلي المدرعة المتجهة نحو الجنوب أي نحو الأردن . ولم نكن نبالي ببهاء الصحراء العارى وهي تمتد على مرمى النظر ولا بالحرارة الخانقة المنبعثة من اشعة الشمس الحارقة ولا بضوء النهار الذى يعمي الأبصار ولا بالظلمة الداكنة البـاردة التي تحيط بنا في الليل . فقد كانت ثمة فكرة واحدة تستحوذ علينا الوصول بأسرع ما يمكن الى دمشق ، حيث ياسر عرفات وأبو جهاد وأبو على اياد وأبو صبري ، أي « متفرغو » قيادة فتح . كان علينا ان نجتمع لنحدد السلوك الذى ينبغي لنا اتباعه على ضوء الحرب التي اندلعت لتوها في ٥ حزيران (يونيه) ١٩٦٧ .

كانت الطريق طويلة صعبة مبهمة بحيث اننا تهنا في الرمال اكثر من مرة . وكنا نتعاقب على القيادة ليلا نهارا ، لكن عقلنا كان في مكان آخر . وكنا صحابتي الأربعة ــ وهم كوادر في الحركة ــ وأنا ، نصغي الى الاذاعة دون انقطاع . وقد حيرنا التفاوت في نشرات الأخبار ، بالصورة التي كانت تبث بها من القاهرة وتل ابيب ولندن في بادىء الأمر ، ذلك اننا كنا نثق بقدرة وقوة الجيش المصرى . فتصلب عبد الناصر في المواقف التي اتخذها في الاسابيع التي سبقت الحرب ، وخطبه الملتهبة والتحديات التي قام بها خاصة حين أقفل خليج العقبة في وجه الملاحة الاسرائيلية ، يجعل المرء يعتقد ، ليس بأن الريس لا يخشى المواجهة وحسب ، بل انه يتمناها . غير ان الريبة بدأت تتسرب منذ الساعات الأولى من النزاع . والروايات المتباينة عن تطور المعارك ، بدأت تصير صريحة التناقض ، ولم تلبث أخبار اذاعة القاهرة المتناقضة مع لهجة تل ابيب المتوازنة المصبوغة بصبغة الثقة والاطمئنان ، ان زادت في اضطرابنا . ولم يكن سير المعارك على الجبهات الثلاث المصرية والسورية والأردنية يسير ببديهة الحال ، لصالحنا . وقلنا في أنفسنا أين الحقيقة . فالحرب لا تزال في بداياتها ، ولم يتح للعالم العربي بعد أن يعبىء موارده كلها. ووصلنا الى مقصدنا في مساء السادس من حزيران متأخرين عشر ساعات

عن الأجل المضروب • وبالرغم من اني كنت منهكا ، الا انني ذهبت على الفور الى مكتب فتح حيث علمت انه لم يبق في دمشق أى عضو من رفاقنا أعضاء القيادة • فقد التحقوا بقاعدة الهامة التي قدمتها لنا السلطات السورية لتدريب حوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ فدائي • غير أن معظم هؤلاء قد تسربوا بقيادة ياسر عرفات وراء خطوط العدو حيث كانوا يحاولون اعاقة تقدم القوات الاسرائيلية • وخلال اليومين التاليين ، بدا ان النكسات التي لحقت بالجيوش العربية امر لا ريب فيه ، شأن امارات الهزيمة المحتملة • على انى كنت اتوقع كل شيء ، الا الهزيمة المذلة التي أعلنها عبد الناصر في الكلمة التي أذاعها يوم ٩ حزيران ــ يونيه . ولا احسب اني حزنت عليه في أى يوم بقدر ماحزنت في ذلك اليوم • واذا فان الامر العجب كان امرا حقا : والطائرات المصريةدمرت على الأرض في الساعات الأولى من النزاع ، ومشاة الجيش تشتتوا في سيناء، والجيش الصهيوني يعسكر على طول قنال السويس • وعبد الناصر يستسلم ! من كان سيتخيل ذلك • واذا فان زعيم الأمة العربية العظيم ، رجل القدر ، ذاك الذى سيساعدنا على تحرير جزء على الأقل من وطننا المحتل ، قد القى بنفسه في مغامرة دون ان يعد لها الحد الأدنى من الاعداد • كانت المرارة تختلط بالغضب • والجيوش العربية ، كل الجيوش العربية ، لم تكن قادرة اذا على ان تدفع الجيش الاسرائيلي الصغير • بل الامر أسوأ من ذلك ، فقد تخلت عن المزيد من الأراضي للصهاينة •

وبلغ الاندحار الذى احسسنا به ، رفاقي وأنا ، بعد أن كان ياسرعرفات والقادة الآخرون قد عادوا مسرعين الى دمشق ، ذروته بعد ان سمعنا عبد الناصر يعلن استقالته في نهاية خطابه في ٩ حزيران • فشعرنا بأننا تلقينا هزيمة مزدوجة ، عسكرية وسياسية • وأقول هزيمة سياسية لأن سقوط عبد الناصر كان يعني بالنسبة الينا نهاية كل أمل • اذ ان الريس يبقى برغم كل شيء ، رمزا لرفض الأمر الواقع وللمقاومة التي يجب في نظرنا أن يشتعل فتيلها ضرورة •

ولم يكن رد الفعل هذا خاصا بنا وحدنا • فقد اندلعت مظاهرات كثيفة

عفوية مؤثرة من اقصي العالم العربي الى أقصاه . كانت الجموع تعبر عن ألمها بالعويل مطالبة في الحين نفسه ، الرجل الذى قادها الى الهزيمة ان يبقى في مقر قيادته • فالفرح العارم الذى تلقى به الاسرائيليون استقالة عبدالناصر اقنعنا بأن علينا أن نؤيده في المحنة • وخلال ساعات ، استحال الحقد الذى كنا نشعر به ازاء الريس الى تحدى • ثم ان ارادتنا في المقاومة الى جانبه تعززت في الأيام التالية عندما أدركنا الى أى حد كانت البرجوازيات والأنظمة الرجعية تشارك الاسرائيليين فرحتهم ازاء انهيار النظام الناصرى •

وما ان سحب عبد الناصر استقالته حتى انعقد مؤتمر لفتح في دمشق في ١٢ حزيران ـ يونيه ، لمناقشة جدوى وملاءمة استئناف الكفاح المسلح • وانقسم المجتمعون ـ شأنهم في خريف عام ١٩٦٤ يوم كان علينا ان نقرر الشروع بحرب العصابات ـ الى معسكرين بين أنصار ومناوئي العمل الفورى • وكنا نحاول يوما بعد يوم واجتماعا بعد اجتماع ، ان نجيب على المسائل الملحة المطروحة : فهل سنواجه المنتصرين بالسلاح • وهل لدينا أدنى حظ أو فرصة في احباط قدرة اسرائيل العسكرية • أو لا نخاطر باستثارة انتقامات رهيبة توقع على أهالي الضفة الغربية • واذا كنا سنمتنع عن القيام بأى عمل ، افلا تلحقنا الجماهير الفلسطينية بالمهزومين وتحتقرنا احتقارها لهم • كان كلا التيارين الماثلين امامنا ، يشتملان على مخاطر جسيمة بالنسبة لمستقبلنا • وقد افضت مناقشاتنا التى دارت في جو محموم شبيه بذلك الذى كان سائدا في خريف عام ١٩٦٤ ، الى سلسلة من الاجراءات الرئيسية :

١ ـ جرى تعيين عدد من الأطر والكوادر العليا منهم محمد النجار وعبد الفتاح حمود وأنا ، ليصبحوا « متفرغين » ويوقفوا انفسهم على تنظيم الحركة في المرحلة الجديدة التي بدأت •

٢ ـ جرى توجيه نداء الى كافة المناضلين لجمع السلاح الذى تركته الجيوش العربية في ساحات المعركة أو في مخازن السلاح • وبموازاة ذلك ، فانه سيباشر بشراء السلاح وبكافة الوسائل من الأسواق المحلية أو الدولية بواسطة المتاجرين به والمهربين الخ .

٣ ـ جرى شن حملة جمع تبرعات وخاصة بين الأثرياء من فلسطينيي المنفى. وتلقى محمد النجار وكمال عدوان وأبو مازن وخالد الحسن الاشارة بدق النفير لأصدقائنا والمتعاطفين معنا . كما تم تكليف آخرين بالتماس المعونة من البلدان النفطية . فالواقع هو اننا لم نعد نخشى من توريط استقلاليتنا المالية الذاتية ، التي دافعنا عنها حتى الآن دفاعا حريصا . فقد كان تقديرنا هو ان الوضع المأسوى الذى يجد عدد من الأنظمة العربية نفسه فيه ، لا يسمح لهذه الأنظمة بأن تضع شروطا سياسية على المعونة التي تقدمها لنا .

٤ ـ اجيز لعدد من الأطر ، على رأسهم ياسر عرفات ، بأن يذهبوا الى الأراضي المحتلة ـ في الضفة الغربية وغزة ـ خلسة لتدعيم وتوسيع جهاز فتح السرى بهدف استئناف الأعمال الفدائية . على ان المناضلين الذين اختيروا لهذه المهمة التي تفوق كافة المهمات في دقتها ، كانوا من ابناء الأراضي المحتلة بحيث يتمكنوا من التنقل هناك تنقل « السمك في الماء » .

٥ ـ اتخذ عدد من التدابير لاقامة قواعد فدائية على طول خطوط وقف اطلاق النار وعلى طول نهر الأردن وفي جنوب لبنان خاصة .

٦ ـ ارسلت وفود الى أربعة بلدان عربية هي مصر وسوريا والعراق والجزائر ـ بهدف اجراء مشاورات معها حول ملاءمة استئناف الأعمال الفدائية الفلسطينية .

وحدد المشتركون بمؤتمر ١٢ حزيران يونيه لأنفسهم مهلة شهرين لانجاز هذه المهمات الست ، ثم تتم الدعوة بعد ذلك لمؤتمر جديد بهدف اتخاذ قرار نهائي بصدد البدء في العمليات . وقد تم بلوغ الأهداف التي رسمناها لأنفسنا تماما ، كما انها تجاوزت بعض الأحيان ما كنا نأمل به . فتراخي سلطة الدولة في « بلدان المواجهة » سهل علينا الاستيلاء على مخزونات هامة من السلاح راكمناها في ترساناتنا . والتبرعات النقدية التي جمعناها من الأثرياء الفلسطينيين كانت عديدة وسخية وان ظلت غير كافية بالنظر الى حاجاتنا

التي ما كان الا للدول ان تستطيع تلبيتها .

وقداظهر الملك فيصل لدى استقباله لابي جهاد في جنيف حسن الاستعداد ازاءنا . فهو على معرفة بوجود فتح منذ مطلع سنوات الستين ، عبر زكي اليماني وزير النفط الحالي ، الذى كانت تربطه علاقات صداقة مع احد أعضاء منظمتنا . وقد طمأن ابو جهاد العاهل السعودى الى أن فتح لا ترتبط بأى حزب وان مبدأها هو عدم التدخل بالشؤون الداخلية للبلدان العربية . واما الملك فيصل فانه اشار من جانبه الى انه يؤيد وجهات نظر والده المغفور له الملك السابق عبد العزيز الذى كان يعتبر ان تحرير فلسطين لا يمكن ان يتم الا على ايدى ابنائها ، وهي قناعة ادت به الى عدم الموافقة على تدخل الجيوش العربية عام ١٩٤٨ . اذا فان العاهل السعودى كان يؤيد حصول الفلسطينيين على الوسائل المالية وغير المالية اللازمة لهم لمواصلة كفاحهم .

أما الاتصال بالقادة الليبيين فكان اقل يسرا نسبيا . فقد ذهبنا ــ فاروق القدومي وأنا ــ الى البيضاء ، حيث يقيم الملك السنوسي . ولكن العاهل العجوز الذى لا يستقبل الزوار الأجانب الا نادرا ، احالنا على رئيس وزرائه عبد الحميد باكوش الذى تلقانا بعداء فظ . فقبل ان ندخل مكتبه ، وقبل أن يدعونا الى الجلوس ، راح يقول لنا بخشونة بأنه يرتاب بنا بقدر ما يرتاب بحركتنا ، وأنه لا يؤمن بجدية الثورة التي نريد خوضها وان هذه الثورة لن تؤدى على كل حال ، الى أى شيء ذى قيمة . ثم أضاف : « واذا كنت استقبلكم اليوم فلأنه لا يسعني ان أفعل غير ذلك ، لأنكم تتمتعون بتعاطف شعبي واسع فالليبيون لسوء الحظ شعب من الحمقى ... »

وأجبته : « شعب من الحمقى . حسنا أيها السيد الرئيس اننا ذاهبون لتونا لنذيع في الناس هذا الحكم الغريب الذى تصدرونه على شعبكم . فأنا لم أعد أرى فائدة في الشروع في حوار معكم » .

وأما فاروق القدومي وقد صدم بمثل ما صدمت ، فانه استطرد يقول بلهجة أحد : « انكم لا تفهمون شيئا من قضيتنا ، وتحتقرون شعبكم رغم انكم

كنتم ابان سنواتكم الجامعية مناضلا شيوعيا . ان الرأى العام لا يجهل انكم غطستم في صفقات سلاح مريبة . ان شعبكم سيحاكمكم ذات يوم ... »

بات عبد الحميد باكوش مضطربا بادي القلق، فغير لفوره لهجته وحديثه. ثم دعانا بلطف الى الجلوس والى شرب فنجان قهوة بصحبته . وقال اننا أسأنا فهمه . فهو يدعم الثورة الفلسطينية بكل تأكيد ، وهو يقر بالمبدأ ولكنه لا بد من تحديد اشكال هذه المعونة . فهل تتلطف ونعود لرؤيته ولكن في مكتبه في طرابلس هذه المرة ؟

واستغلينا المهلة لنشن حملة جمع تبرعات مع « اللجان الشعبية » التي كان ممثلونا قد شكلوها في طول البلاد ابتداء من مطلع سنوات الستين . كان لدينا الكثير من المتعاطفين ولا سيما من اثرياء التجار الذين طالما ساعدونا بكرم وسخاء . وقد اعدت لنا لجنة مدينة بنغازى استقبالا حارا على نحو خاص . وعلى أثر اجتماع عقد على شرفنا ، أعلن لنا رئيس المجموعة انه تم جمع مبلغ عشرة آلاف دينار وأنه يتمنى أن يقسمه مناصفة بين فتح والعاصفة . كان يجهل ــ شأن كافة الناس ــ ان هاتين المنظمتين ليستا سوى منظمة واحدة . فشكرته ثم اشرت له بأقصى ما يمكن من جد ، الى ان فاروق القدومي ينتمي الى العاصفة ، في حين انني امثل من جهتي منظمة فتح .

وبعد ذلك بأيام استقبلنا رئيس الوزراء في طرابلس ، في جو مختلف بالكامل عن جو لقائنا السابق في البيضاء . كان عبد الحميد باكوش ودودا حار النبرة لا يتردد أمام كلّ ما نطلبه منه . وغادرنا ليبيا نحمل في جيوبنا نحوا من ثلاثين الف دينار ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لماليتنا في ذلك الحين .

وتلافينا في أن نثير مع رئيس الوزراء الليبي مسألة استئناف الكفاح المسلح . فقد كنا لا نريد من جهة اولى ان نذعره كما كان من السابق لاوانه من جهة ثانية ان نتحدث عن ذلك ، لاننا لم نفرغ بعد من مشاوراتنا مع البلدان العربية الاخرى .

وقد ايد بلدان من هذه البلدان بدون تحفظ شن الاعمال الفدائية

الفلسطينية فورا . وهذان البلدان هما الجزائر ، بطبيعة الحال ، وبسبب تجربتها الخاصة ابان حرب الاستقلال ، ومصر .

صحيح ان عبد الناصر امتنع عن استقبال موفدينا المطلقي الصلاحية فاروق القدومي وخالد الحسن ، الا انهما استقبلا بالمقابل من قبل وزير الخارجية محمود رياض ورئيس تحرير الاهرام محمد حسنين هيكل . وبرغم ان نجي عبد الناصر ومؤتمنه كان يؤيد العمل الذي تعتزمه فتح ، الا انه لم يكن يخفي تحفظاته ازاءنا . فقد قال « اننا نعرف القليل عنكم . والملف الذي فتحته مخابراتنا حول العاصفة ، فارغ عمليا . والقناع الذي تتقنعون به يحيرنا . وعلى اي حال فان قدرتكم على التكتم والتخفي ، هما مؤشر على جديتكم » .

بقي ان نستشير السوريين والعراقيين . كان العراقيون يتخبطون بحيث ان رئيس الدولة العراقية عبد الرحمن عارف انهى محادثته مع ممثلينا وهو يعلن : « لسنا مع مشروعكم ولسنا ضده . وبصراحة فاننا لا ندري ماذا نقول فيه ، فيعود اليكم اذا ان تتخذوا القرار الذي تجدونه حكيما » .

أما الرئيس نور الدين الاتاسي فكان قاطعا من جانبه . فقد حذرنا بقوة من القيام بأعمال فدائية ضد اسرائيل . « اذ انكم ستخسرون وستجرونا جميعا معكم الى الكارثة » . ثم راح يتوسل موفدي فتح قائلا « اعطونا الوقت لنسترد انفاسنا » .

خلال ذلك تلقينا تقارير من ياسر عرفات الذي كان يعيش متسترا في الاراضي المحتلة . وكذلك فان الرفاق الذين كانوا ينجزون مهمة مماثلة لمهمته لاحظوا بفرح كما لاحظ هو ، بأن الهزيمة العربية لم توهن عزيمة أهالي الضفة الغربية وغزة ، وانهم يؤيدون متابعة النضال بكافة الوسائل . وبالرغم من ان عرفات كان يخفي هويته الحقيقية ، الا انه كان يستقبل بأذرعة مفتوحة ويؤوى ويلقى الحماية . ولم يجد اية صعوبة ، شأن صحابته ، في التنقل من مكان الى مكان لا بل انه استطاع ان يدخل اكثر من مرة الى مسقط رأسه

ـ القدس ـ والى تل ابيب •

كان في وسعنا ان نمضي ، مؤيدين بثقة شعبنا ، الى الامام برغم موقف الدول العربية المشوب ازاءنا • وعندما اجتمعنا في ٢٠ آب ـ أغسطس لنتخذ قرارنا النهائي ، كان عرفات لا يزال في الارض المحتلة . فعاد مسرعا بناء على طلبنا ليشارك في النقاش الذي كان حادا لان بعض الكوادر كانوا لا يزالون معادين للقيام بعمل يعتبرونه سابقا لاوانه • غير ان الاجتماع انتهى الى اجماع والى قرار راسخ : ففي ٣١ آب ـ أغسطس سينطلق فدائيونا لمهاجمة القلعة الصهيونية •

وقد اتخذت عملياتنا في الاراضي المحتلة اشكالا متنوعة : زرع الغام ، كمائن ، هجمات بالقنابل اليدوية وغير اليدوية ، طلقات بازوكا وقذائف صاروخية • كانت اهدافنا متواضعة : رفع معنويات الجماهير العربية ومناوشة العدو وابقائه في حالة تيقظ ، وفي افضل الاحوال ، ارباك الاقتصاد الاسرائيلي • ولم نفكر في اية لحظة من اللحظات ان عملنا سيضع امان الدولة اليهودية في خطر • وانما هي وسائل الاعلام العربية ، وأحيانا الاجنبية ، هي التي ضخمت محمل ومدى عملياتنا ، تضخيما خارج القياس مثيرة بهذا ، ذلك الوهم الخطير القائل بأنه سيكون بوسعنا تحرير فلسطين • وأعتقد ان هذه المبالغات كانت محسوبة في بعض الاحيان وتهدف الى الاضرار بنا • بحيث اذا حان الحين ، جرى اظهار « عجزنا » كفشل بهدف افقادنا الثقة أمام شعبنا وأمام الجماهير العربية •

يبقى ان الاسرائيليين ردوا على نشاطاتنا بقمع شديد • وقاموا بموجات من الاعتقالات حرمتنا من مئات المناضلين والانصار • وتعزى خسائرنا الى عاملين على الاقل : قدرة المخابرات الاسرائيلية وتهور مقاتلينا • كان حماسهم وقلة تجربتهم يقودانهم الى تحدي سلطات الاحتلال بصورة مكشوفة والمخاطرة بمخاطرات لا جدوى فيها • ثم انه لم يكن على الاسرائيليين ان يبذلوا كبير جهد في ملاحقة المقاومين بعد ان وضعوا يدهم على محفوظات الادارة الاردنية القديمة ومخبريها ووشاتها .

وببديهة الحال ، فقد كان لدينا ثغرة يجب سدها • فأنشأنا دائرة مكافحة جاسوسية تولى قيادتها فاروق القدومي قبل ان تسند الي في نهاية عام ١٩٦٧ • وتلقى بعض الكوادر الذين انتخبناهم بدقة اعدادا سريعا في مصر وسواها قبل ان ينتشروا في الاراضي المحتلة والبلدان العربية المجاورة •

ثم ان عددا من المخبرين الذين عملوا لصالح البوليس الاسرائيلي تقدموا الينا معترفين بذنبهم • فأعطيناهم بصورة عامة ، بعد اجراء استجوابات كثيفة معهم ، امكانية التكفير وذلك أما بالحاقهم بمخابراتنا الخاصة واما عبر قيامهم بمهمات ذات خطورة خاصة • وكانوا يسجلون قبل الانطلاق في العملية تصريحا حول نشاطاتهم السابقة لصالح اسرائيل ثم يعرضون اسباب تحولهم • وكنا نحتفظ بحق نشر تصريحاتهم في حالة موتهم او اذا ما تبين انهم عملاء مزدوجون ــ الامر الذي لم يحدث ابدا •

وقد طبقنا منذ البداية قاعدة عدم المعاقبة على الخيانة بالاعدام • كنا نعدم فقط اولئك الذين ادى تعاونهم مع العدو الى خسارة بشرية في صفوفنا • لكن هذه الحالات الاخيرة كانت نادرة نسبيا ، ذلك ان عدد الذين اعدموا خلال عشر سنوات كانوا في حدود عشرين من الوشاة فقط •

أما المتعاونون مع العدو من امثال الشيخ الجعبري ، عمدة الخليل السابق ، فلم نكن نتخذ ضدهم بصورة عامة اي عقاب ، كان تقديرنا في الواقع هو ان من الاولى تحييدهم بعزلهم سياسيا ، عن الاهالي • وقد اخذ علينا بعض اصدقائنا في العالم الثالث احيانا اننا لم نصفي اخصامنا جسديا • بحيث اننا اسهمنا بذلك في تغذية الانقسامات والتشوش في الحركة الوطنية الفلسطينية • الا ان قادة فتح كانوا يعتبرون دائما وابدا ان الحوار الديمقراطي هو الطريقة الصحيحة الوحيدة ــ والمجزية على المدى الطويل ــ من اجل امتصاص الاختلافات •

ومهما يكن من امر ، فاننا كنا في الاشهر الاولى التي تلت حرب عام ١٩٦٧ ، نواجه العدو وحدنا ، واسلحتنا في يدنا ، في حين ان المنظمات الاخرى التي

ستشكل بعد ذلك ببضع سنوات « جبهة الرفض » لم تكن قد ظهرت بعد على المسرح ، او انها لم تكن قد اتخذت قرارها بعد بخوض الكفاح المسلح . كانت فتح افضل منها تحضيرا واستعدادا لشن الاعمال الفدائية على المدى القصير . فبخلاف التجربة التي اكتسبناها منذ قيامنا بأول عملية في ٣١ كانون أول ــ ديسمبر ١٩٦٤ فاننا كنا تتمتع بدعم سوريا والجزائر اللوجستيكي كما ان الجزائر كانت قد وافقت عام ١٩٦٦ على تأمين تدريب رجالنا تدريبا عسكريا .

وقد فتحت هزيمة الايام الستة افاقا جديدة أمام نمونا وتطورنا . فالنظام الاردني بات اضعف من ان يتصدى لمشروعنا . وأفرج الملك حسين عن مئات الوطنيين الفلسطينيين الذين كان قد سجنهم في السنوات التي سبقت النزاع كما انه اغمض عينيه عنا حين عمدنا الى اقامة قواعد على طول نهر الاردن لتكون بمثابة نقاط اسناد لفدائيينا .

ثم ان المؤازرة لم تكن تعوزنا لا بين السكان المحليين ولا داخل القوات الاردنية التي أقمنا معها علاقات ممتازة . كان الضباط الاردنيو الاصل الذين سيرتكبون بعد سنتين مجزرة بحق الفلسطينيين ، يسهلون لنا مهمتنا تسهيلا عظيما . وكذلك كان الامر بالنسبة للوحدات العراقية التي وصلت متأخرة جدا الى الجبهة للمشاركة في القتال والتي كانت لا تزال ترابط قرب خطوط وقف اطلاق النار . فقد اعطانا ضباط بغداد ــ ياسر عرفات وأنا ــ اوراقا ثبوتية مزورة تتيح لنا التجول بحرية . وكان مما يزيدنا شعورا بالراحة هو اننا اقمنا قواعد فدائية قرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يوفرون حماية مثلى لنشاطاتنا . وجعلنا من احدى القواعد القريبة من تجمع الكرامة مقر قيادة عملياتنا العام . وبما انها كانت تقع بين تلال تبعد اربعة كيلومترات عن نهر الاردن ، فانها كانت تحتل موقعا استراتيجيا نفيسا .

وفي مطلع شهر اذار ــ مارس ١٩٦٨ ، تلقينا رسالة من مسؤول في المكتب الثاني الاردني هو غازي عربيات ، يلتمس فيها اجراء محادثة مع قادة فتح . وقد ترددنا بادىء الامر ــ ياسر عرفات وأنا ــ في اعطائه جوابا

بالايجاب . فنحن لم يسبق لنا ان قابلنا ممثلا عن النظام الاردني . ثم اننا لما كنا نختلج بضرب من البراءة السياسية في تلك الحقبة ، فاننا كنا نعتقد ان اي اتصال مثل هذا الاتصال ، سيكون محرجا ملوثا ، بل غير لائق بحركة ثورية . الا ان الحاح عربيات دفعنا الى ان نقبل في النهاية ان تجرى المحادثة يوم ١٠ آذار ــ مارس في احد منازل الكرامة . وقد اطلعنا عربيات على معلومات مصدرها وكالة المخابرات المركزية الاميركية (السي. آي. اي.) تفيد بأن اسرائيل سوف تشن هجوما واسع النطاق على قواعدنا المقامة على طول نهر الاردن . ونصحنا ، من باب الصداقة ، بالتروي ودعانا للذهاب الى عمان لمقابلة رئيس الاركان العامة اللواء عامر خماش الذي يود التباحث معنا حول هذا الموضوع .

وقد حدثنا اللواء خماش في يوم الاثنين ١٨ آذار ــ مارس بحديث اكثر وضوحا واشد احكاما . وأخبرنا ان الهجمة الاسرائيلية ستتم خلال الايام الثلاثة المقبلة ، وان الحكمة تقضي بأن يتلافى الفدائيون اية مواجهة وان ينسحبوا الى داخل الاراضي الاردنية . ثم ألح قائلا بأن قيادة فتح ترتكب خطأ جسيما اذا ما عرضت نفسها لضربات العدو . وأنه انما ينبغي لنا ان نقي أنفسنا ذلك بأسرع ما يمكن .

كان اللواء خماش محقا ، في المطلق . فالفدائيون ــ بحكم قانون حرب العصابات ــ لا يخوضون معركة مع جيش نظامي . وفعاليتهم رهن بقدرتهم على الحركة . الا ان اعتبارات سياسية دفعتنا الى ان نخالف نصائح محدثنا . وقلنا له مفسرين ، ان الفلسطينيين ، ثم ان العرب بصورة اعم ، لن يفهموا ان نخلي الساحة حرة مرة اخرى أمام الاسرائيليين . ان واجبنا هو ان نعطي الامثولة وان نبرهن على ان العرب اهل للشجاعة والكرامة . اننا سنقوض وسندمر ، اذا ما أمكن ، اسطورة الجيش اليهودي الذي لا يقهر . وأمام تصميمنا ، ويأسه من اقناعنا ، فان اللواء خماش اقترح علينا ان نطلب مقابلة الملك حسين . فرددنا عليه دعوته بأدب محتجين بقلة ما تبقى لدينا من وقت لكي نستعد للدفاع عن قواعدنا على طول نهر الاردن .

ولدى عودتنا الى الكرامة في اليوم نفسه ، استدعينا كافة المسؤولين العسكريين في المنطقة لنعلمهم بالهجوم الاسرائيلي الوشيك ولنطلب اليهم ان يقرروا ما اذا كان ينبغي تلافي المواجهة ام لا . ولم نشأ ـ عرفات وأنا ـ ان نؤثر في الحكم الذي ينبغي لهم ان يصدروه . ولذلك فاننا قررنا الا نطلعهم على الرأي الذي ابديناه بحضور اللواء خماش . كان النقاش مختصرا . فالجميع مجمعون على انه لا ينبغي للفدائيين بأي حال من الاحوال ، أن يتراجعوا أمام العدو ، ولكن على اعضاء القيادة ، بالمقابل ، ان يغادروا الامكنة كاجراء أمني . الا ان عرفات وفاروق القدومي وأبو صبري وأنا ـ قررنا ان نشترك في المعركة . وتوزعنا في مختلف قطاعات الكرامة واستقر كل منا في مغارة على خاصرة التلال المحيطة بها .

وفي ٢١ آذار ـ مارس ، اي بعد ثلاثة أيام من تحذير اللواء خماش ، أيقظني احد الفدائيين عند الفجر ليعلمني ببدء الهجوم الاسرائيلي . كان في وسع المرء ان يميز ارتال مصفحات الجيش الصهيوني وهي تجتاز نهر الاردن تتبعها تشكيلات من المشاة . وبدأت المدفعية بالقصف بينما راحت الطائرات المروحية (الهيلوكوبتر) تلقي بالمظليين خلف خطوطنا . وهكذا فقد راح حوالي الـ ١٥٠٠٠ رجل يندفعون في هجومهم على قواعدنا على جبهة تمتد ثمانين كيلومترا تقريبا . الا انه كان باديا ان الهجوم الرئيسي يتجه نحو الكرامة التي كان علينا ان ندافع عنها بأقل من ٣٠٠ رجل . و دون ان ينتظر تعليمات القيادة الاردنية العليا ، فان مسؤول المنطقة ، اللواء مشهور حديثه ، اصدر أمره الى المدفعية الاردنية بالرد . واستقبلت الدبابات الاسرائيلية في الكرامة باطلاق نار غزير من بنادق الآر. بي. جي. وبوابل من القنابل اليدوية . وهبط الفدائيون من التلال ليخوضوا المعركة مجابهة وجسما لجسم احيانا وبالسلاح الابيض . وأبدى بعض منهم بطولة انتحارية . فقد رأيت مثلا احد شبابنا من رجال الكوماندوز وهو يدمر دبابة بأن يلقى بنفسه تحت زردها (جنزيرها) وقد لف نفسه بحزام محشو بالمتفجرات .

أما أنا فاني نجوت من الموت مرتين . كان احد الفدائيين الذين أقودهم

ـ ويدعى جورج ـ قد غادر المغارة التي أحل فيها بحثا عن ذخيرة • ولست أدري اي توجس غامض دفعني الى مغادرة المكان لاستقر وراء صخرة تقع فوق المغارة بما يقرب من مئة متر • فبعد ذلك بقليل شاهدت جورج يتقدم نحو المغارة رافعا ذراعيه تتبعه مجموعة من الجنود الاسرائيليين • ثم قذف هؤلاء بقنبلة مسيلة للدموع داخل مخبئي السابق قبل ان يقتحموه •

ولما كنت اعاني من آلام من ظهري ، فانني لم استطع اللحاق برجالي الذين تسلقوا التلال ليحتلوا مواقع اكثر أمانا • وحين بقيت وحيدا ، فانني شاهدت مجموعة اخرى من الجنود الاسرائيليين تتجه نحوي واصابعهم على زناد رشاشاتهم وهم يبحثون بصورة بادية عن مرمى • فبقيت جامدا بلا حراك حتى اللحظة التي لم يعد يفصلهم فيها عن الصخرة التي اقبع خلفها الا بضعة أمتار • وأخرجت مسدسي ببطء وهو جاهز للاطلاق • لم يكن فيه (في مشطه) سوى خمس رصاصات ، كنت ادخر أخيرتها لنفسي• الا ان الجنودالاسرائيليين توجهوا بغتة وجهة أخرى مخلفينني وراءهم • وبعيد ذلك بقليل جاءت مجموعة فدائية تبحث عني وتساعدني على تسلق التلال لايوائي في مكان أقل تعرضا للخطر •

وتواصلت المعارك حتى المغيب ، وبعدها شرعت القوات الاسرائيلية بلم موتاها وجرحاها كمقدمة للانسحاب • لقد دمروا ثلاثة أرباع مباني الكرامة ، الا انهم كانوا راجعين في الحقيقة بخفي حنين • فخسائرهم كانت مرتفعة : ثلاثون قتيلا ومئة جريح بحسب بياناتهم ، وأكثر من ذلك بحسب تقديراتنا • ثم انهم بخاصة لم يفلحوا في التغلب على المقاومة الضارية التي أبداها فريق صغير من الرجال قر عزمهم على ان يموتوا قبل أن يستسلموا •

واحتفى العالم العربي كله بمعركة الكرامة واعتبرها نصرا باهرا . وحيكت الأساطير حول مأثرتنا هذه • وتدفق عشرات الآلاف من الأشخاص وكبار شخصيات المملكة الأردنية ، عسكريين ومدنيين ، الى المدينة لينحنوا امام جثمان شهدائنا الذين ينوفون على المئة والذين صففناهم في سرادق •

واستبد الحماس بالجماهير الفلسطينية التى امتلأت فخرا بانتصار

الكرامة ، بعد عقود الاهانة والمذلة ، ورأت فيه بداية تحررها • وبدأ الآلاف وعشرات الالاف من الشباب والشيوخ يسعون الى الاتساب لفتح • كان الطلبة الثانويون والجامعيون يتركون دراستهم ليلتحقوا بصفوفنا • لكن طاقاتنا على الامتصاص كانت برغم كل شيء ، محدودة ، فكنا مجبرين على القيام بعملية انتخاب قاسية • فلم نجند ، على سبيل المثال ، من الخمسة آلاف مرشح الذين تقدموا الينا في الثماني والأربعين ساعة التي تلت معركة الكرامة سوى تسعماية فقط •

وعرفت الحركة الفدائية انطلاقة لا سابق لها • وبدأ مغاويرنا يكثفون عملياتهم مستفيدين من تعاطف اهالي الأراضي المحتلة الفعال • وزادت العمليات من معدل ١٢ عملية شهريا عام ١٩٦٧ الى معدل ٥٢ عملية شهريا عام ١٩٦٨ الى ١٩٩ عملية عام ١٩٦٩ الى ٢٧٩ عملية شهريا في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٠ • فمن القاء القنابل في المتاجر الكبرى ومواقف سيارات الأوتوبيس في اسرائيل الى اطلاق القذائف الصاروخية على التجمعات الحدودية الى المناوشات على خطوط وقف اطلاق النار ، الى الهجمات على ثكنات الجيش اليهودى • بحيث ان مناضلينا لم يتركوا سلطات الاحتلال تتوقف أو ترتاح •

ثم ان الجرأة ونكران الذات اللذين اظهرتهما النسوة الكثيرات اللاتي التحقن بالمقاومة ، تنتزع اعجاب الكافة بما في ذلك اولئك الذين كانت لهم احكامهم المسبقة ازاءهن • كانت الطالبات الثانويات اول من قام بالمظاهرات العنيفة ورددن على هجوم قوات الأمن • وأدى عدد من النسوة مهمات دقيقة وقمن بتأمين الاتصالات السرية بنقل الأسلحة • فأما من جرى توقيفهن فانهن اظهرن شجاعة ادهشت حتى سجانيهن • فقد وضعت احداهن حملها في السجن وتحملت المخاض برباطة جأش • وتعرضت ثانية حين رفضت الاعتراف للاغتصاب على يد الجلادين في سجن غزة • وقد تقدم عدة فلسطينيين بطلب يدها ، ناقضين العقلية المحافظة التى تسود في مجتمع محافظ كمجتمعنا • بل ان هذا الحادث الذى لا سابق له ، تكرر مرات عدة في حالات مشابهة • فقد كان من شأن المقاومة وأثرها انها شجعت تحرير المرأة وانعتاق

الرجال من التقاليد المتحجرة .

ثم انه تولد عن نمو فتح وتطورها بضع مشكلات تنظيمية حاولنا ان نحلها بصورة جماعية . وقد طرحت احدى المشكلات نفسها بصورة غير متوقعة ، واقتضت قرارا عاجلا ، فكان على ان اتخذ القرار بدون التشاور مع أعضاء اللجنة المركزية الآخرين . ذلك اني تلقيت بعد مرور ثلاثة اسابيع على معركة الكرامة تقريرا سريا ، بصفتي رئيس استخبارات فتح - يفيد بأن أحد أعضائنا يستعد للمناداة بنفسه قائدا لقوات العاصفة ، الجناح العسكرى من فتح . كانت خطته هذه تخاطر باثارة أزمة داخل الحركة وتشويشا خطيرا في الرأى العام ، سيما وأن تركيب قيادة فتح كان لا يزال في ذلك الحين سريا ، فكان في وسع أى كان ان يدعي العضوية فيها . وكان المذكور سيبث اعلانه في الساعات التالية . واذ وجدت نفسي وحيدا في دمشق لا استطيع الاتصال على وجه السرعة برفاقي في اللجنة المركزية ، الذين كانوا في غالبيتهم متوزعين بين القاهرة وعمان وبيروت فاني اتخذت المبادرة لوضع حد لهذا الشذوذ . وهكذا فقد اعطيت الصحافة في ١٥ نيسان - ابريل ١٩٦٨ بيانا يعلن تعيين ياسر عرفات ناطقا باسم فتح (وبالتالي باسم العاصفة) موضحا بأنه الشخص الوحيد الذى يحق له الكلام باسم الحركة . كما نشرت كذلك تصريحا قصيرا باسم عرفات - حررته كذلك بدون علمه - يعلن فيه قبوله لمسؤولياته الجديدة مضيفا ان قيادة فتح تظل قيادة جماعية .

وقد علم عرفات بالخبر من الاذاعة فكان أول المندهشين غير انه لتواضعه عارض تعيينه هذا خلال اجتماع عقد بعد ذلك في دمشق مؤكدا ان ثمة من هم اجدر منه وأحق بهذا المنصب . لكن بقية اعضاء القيادة الاخرين ، وافقوا كما توقعت على اختيارى . فعرفات لم يكن احد أقدم مناضلي الحركة وحسب بل انه كان ثمة اجماع بيننا على احترامه وتقديره . بيد أن المهم هو أن فتح باتت ممهورة بالنسبة للمرحلة الجديدة ، بوجه بارز جدير بتمثيلها امام الرأى العام وأمام المؤسسات الدولية .

ثم ان مهابتنا بلغت ، بفضل انطلاقة الأعمال الفدائية ، الذروة ، فقررنا

الاستفادة من هذا الوضع لنقيم علاقات وثيقة مع كافة الأنظمة العربية المستعدة لمساعدتنا • وهكذا فان الملك حسين الذى كنا نمثل بالنسبة اليه قوة منافسة، وبديلا ثوريا لنظامه ، قد اضطر لأن يعلن جهارا بعد مرور يومين على معركة الكرامة : « كلنا فدائيون » •

وقررنا ان نقوم بجولة منظمة على البلدان العربية الرئيسية بادئين بأكبرها ، عنيت مصر • ولما كانت تجاربنا مع مخابرات عبد الناصر تجارب مخيبة للأمل ، فاننا طلبنا ـ فاروق القدومي وأنا ـ اجراء محادثة مع رئيس تحرير الاهرام محمد حسنين هيكل الذى استقبلنا بطيبة خاطر • وكان الانطباع الذى تركه للوهلة الأولى في نفسي نجي الريس ومؤتمنه النافذ ، انطباعا سيئا وبدا لي في لباسه المتأنق وسيجاره الكبير القابع بين شفتيه واطمئنانه المفرط لدى الكلام ، وكأنه يتحدث الينا من قبيل التنازل • وقلت في نفسي انه لايمكن ان يكون لدى هذا الرجل أدنى تعاطف مع القضية الفلسطينية • الا اني لن البث فاكتشفت اني اخطأت الحكم عليه • وعلى كل حال فانه عاد وأصبح احد أفضل اصدقاء المقاومة •

كانت أول محادثة بيننا وبين هيكل قصيرة نسبيا • وبعد ان قال لنا كل الخير الذى يرجوه من عمل حركتنا ، فانه اكد لنا ان النظام المصرى يود اقامة علاقات « على أرفع مستوى » مع فتح • ثم عرض علينا ان يصطحبنا لتونا الى الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي ـ الحزب الوحيد في مصر ـ علي صبرى • وعلى الطريق طرح علينا بينما كان يقود سيارته بنفسه سؤالا مدهشا ، وقال « هل انتم مسلحون ؟ » ثم بدا أن جوابنا بالنفي لم يرضه ، لأنه اعاد تكرار السؤال • وانما بدأنا نفهم قلقه عندما وصلنا ـ ويا لدهشتنا العظمى ـ ليس الى مقر الاتحاد الاشتراكي العربي وانما الى مقر عبد الناصر • ذلك ان هيكل ـ الذى يحب عمليات الاخراج المسرحي حبا جما ـ كان قد أخذ لنا في الحقيقة موعدا مع الرئيس المصرى •

وتلقانا عبد الناصر على الطريقة العربية ، بأن احتضننا بين ذراعيه • وما ان جلسنا حتى سألنا بلهجة بادية الجد وهو يشير بأصبعه الى حافظة

الوثائق التي يحملها فاروق القدومى « أصحيح انكم تحملون هنا متفجرات لقتلى ؟ » ثم أضاف « اطمئنوا فأنا امزح . فقد تلقيت من المخابرات تقريرا يحذرني بأنكم ستحاولون اغتيالي . ومزقت هذا التقرير السخيف كما عارضت اقتراح هيكل بتفتيشكم على مدخل مقرى » . وكانت مناسبةبالنسبة الي لأهاجم المخابرات التي اضطهدتنا في سنوات الخمسين (كان عبد الناصر لا يتذكر الطالب الذى كنته عام ١٩٥٥ والذى تحاور معه غداة الغارة على غزة) . كما رويت له كيف ان رئيس مخابراته حاول ان يفسد ممثليناعام١٩٦٦ وقد أجابنى عبد الناصر بأنه اجرى تغييرا عميقا في المخابرات غداة حرب ١٩٦٧ ثم الح وهو يحلل لنا أسباب الهزيمة بأنه كان عشية النزاع لا يسيطر على المفاصل الرئيسية في الدولة وفي الجيش خاصة . وهكذا فانه ترك نفسه كما قال ينقاد الى حرب كان يريد تلافيها . الا انه اكد بأنه يتحمل برغم كل شيء المسؤولية الكاملة عن الهزيمة .

ثم ان صراحته شجعتنا على أن نحدثه بمنتهى الحرية عن فتح . وراح هو يسائلنا على مدى أكثر من ساعتين حول تأسيس منظمتنا وأيديولوجيتها ومصادر تمويلها ونشاطاتها . كان يريد أن يعرف كيف استطعنا أن نصمد للاسرائيليين في الكرامة وما هي القيمة التقنية لبنادقنا ـ الرشاشة الآر . بي . جي . وبعد أن اصغى الينا باهتمام كبير تناول مسألة توجهنا السياسي الذى كان يبدو انه يقلقه . أصحيح أن بيننا الكثير من الاخوان المسلمين ـ تلك الحركة التي يخشاها اكثر من أى شيء آخر ؟ ألسنا معادين للناصرية ؟ وعندما طمأناه بأجوبتنا ، فانه راح يسائلنا حول شخصية ياسر عرفات .فشرحنا له أن عرفات الذى يود على أى حال لقاءه ، يشكل جزءا من قيادة جماعية تماما .

وأفضت هذه المباحثات التي دامت اكثر من خمس ساعات ، الى تنائج ملموسة . فقد عبر لنا عبد الناصر عن رغبته في اقامة علاقات مباشرة مع فتح بدون المرور بالمخابرات (الأمر الذى كنا نرفضه على كل حال) واتفقنا على أن يكون هيكل ، فيما عنى المشكلات السياسية واللواء صادق (رئيس

المكتب الثاني) فيما عنى المسائل ذات النطاق العسكرى المتباحثين الوحيدين معنا .

ووعدنا عبد الناصر بأن يقدم لنا الأسلحة وأن يؤمن تدريب الفدائيين . ثم أضاف : انه ليست لدى مصر الوسائل لتزويدنا بمعونة مالية وأوصانا بأن نعمد الى الملك فيصل فيما عنى هذا الموضوع ، الأمر الذى كنا نعتزم القيام به على أى حال .

واستقبلني العاهل الوهابي في ذات اليوم الذى وصلت فيه الى العربية السعودية التي كنت أعرفها قليلا بالنظر الى اني أقمت فيها في شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ١٩٥٢ كعضو في وفد اتحاد الطلاب الفلسطينيين . كما خصنا الملك السابق سعود باستقبال حار وسلمنا قبل الانصراف ما يوازى ٣٠٠٠٠ دولار وهو مبلغ ضخم استخدمناه في تمويل نشاطات اتحاد الطلاب الفلسطينيين .

وقد اظهر الملك فيصل ، الذى استبقاني طيلة اربع ساعات عطفا حادا على الحركة الفلسطينية ، وان عرض مطولا شكاواه من العناصر اليسارية والماركسيين « المندسين » في رأيه بين الفدائيين . وامتنع وهو الرجل المرهف من ان يذكر اسماء او ان ينتقد هذا النظام العربي او ذاك . الا انه لم يكن ببديهة الحال ، يكن ، اية ثقة بالنظام السورى الذى كان يسيطر عليه حينذاك صلاح جديد ، ولا كان يحب عبد الناصر .

وكان تقديره هو ان علينا ان لا تتشابه أو تتماثل مع أي نظام عربي . وعلى هذا فان العربية السعودية ستساعدنا بقدر ما يمكن من تكتم . ثم راح يلح قائلا « ونحن لا ننتظر منكم مديحا ولا انتقادا » . كما وافق بناء على اقتراحي ، على السماح بانشاء « لجان دعم » في المملكة تكلف بجمع الهبات وبأن تحسم تلقائيا نسبة تصل الى سبعة بالمئة من رواتب الفلسطينيين المقيمين في العربية السعودية ، وهي مبالغ ستستخدم في تغذية صندوق فتح . ثم اضاف وهو المولى الكبير ، بأنه سيدفع لحركتنا مبلغا مكافئا لكامل الأموال التي

تجمع من الافراد .

وكذلك فان زيارتي للسودان ــ وهي المرحلة الثالثة في الجولة التي قمت بها صيف عام ١٩٦٨ ــ مثمرة على نحو خاص . كان يصحبني هذه المرة فاروق القدومي وأبو صالح ، وقد تأثرنا جميعا بالروح الديمقراطية والتسامح والمروءة والكرم لدى السودانيين ــ فغداة وصولنا ، نظمت احزاب المعارضة بما في ذلك الشيوعيون والاخوان المسلمون ، اجتماعا شعبيا كبيرا على عتبة الفندق الذى نقيم فيه . فكان الخطباء يهاجمون رئيس الحكومة محجوب الواقف الى جانبنا مذكرين بأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية (التى كان لا يزال يرئسها الشقيرى) ماليا وليس فتح ، فتهتف الحشود « محجوب خائن » . ووجدتني محرجا ، فأخذت الكلام لأعلن ان ثمة مفاوضات جارية بيننا وأنني مقتنع بأن محجوب لن يرفض معونة حركتنا .

وفي ذات المساء ، كان رئيس الحكومة وزعماء المعارضة ، أى نفس اولئك الذين هاجموه قبل ساعات ، يحضرون حفل استقبال على شرفنا ، وكم كانت دهشتي حين رأيتهم يتبادلون احاديثا حبية بل ودية . وحتى الاخوان المسلمون والشيوعيون كانوا يبدون على ما يرام . فهؤلاء الأخيرون كانوا يحترمون معتقدات مواطنيهم الدينية بكثير من الدقة ؛ الى حد انهم قطعوا محادثة خاصة مع وفدنا ليدعونا لأداء الصلاة في المسجد . أقول ذلك لأدلل الى أى حد وجدتني مدهوشا ومصدوما لدى اندلاع الحرب الأهلية في السودان بعد ذلك بثلاث سنوات تماما والتي كانت حصيلتها اعدام قادة انحزب الشيوعي الرئيسيين .

وثمة حدث آخر استرعى انتباهي لدى مكوثي في السودان . فخلال اجتماع عام نظمه اتحاد النساء السودانيات ، وقفت احدى المناضلات المكلفات بجمع ثياب صوفية للفدائيين ، لتطرح علي السؤال التالي : « ألا تظنون انه لن يكون ثمة طائل في هذه الثياب في الشتاء المقبل اذا صح انكم ستكونوا قد حررتم فلسطين ؟ » وقد أتاح لي هذا السؤال ان أقيس مدى الأسطورة التي انشأتها الصحافة العربية حول امكانياتنا . لكنه بدا لي في ذلك اليوم

انه من غير اللائق ان أعرض علنا نقائص وقصور ــ كي لا اقول خيانات ــ بعض الأنظمة العربية ازاء القضية الفلسطينية • اذ كيف الى تفسير رعاية حلفائنا الطبيعيين لموازين قوى تميل بصورة ساطعة لصالح اسرائيل • واذا فقد اكتفيت بأن اجيب بالقول أنه لا ينبغي اليأس من حدوث نصر قريب •

ثم ان علاقاتنا بمختلف الحكومات العربية تحسنت بصورة واضحة ، فلم يعد علينا ان نجعل من منظمة التحرير الفلسطينية اداة بروزنا على المسرح السياسي • كان احمد الشقيرى قد استقال ، على كره ، من منصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٧ وحل محله بالوكالة يحيى حموده • وقد حاول الشقيري خلال محادثتين أجراهما مع قادة فتح في شهري حزيران ــ يونيه وآب ــ اغسطس ١٩٦٧ ، ان يقنعنا بأن الملك حسين خانه ، وأنه سلم الضفة الغربيه عمدا الى اسرائيل • كان يحاول ان يحصل مجددا على ثقة الرؤساء العرب الذين كان من المقرر ان يعقدوا اجتماعا لهم في نهاية شهر آب ــ أغسطس في الخرطوم • الا ان الرياح جرت بعكس ما اشتهت سفنه ، اذ انه تعرض لهجوم عنيف من الكثيرين منهم ، كما أسلمه حاميه عبد الناصر الى قدره •

ومنذ ذلك الحين أكب الريس المصرى على محاولة اصطياد عصفورين بحجر : فهو بتشجيعه دمج الحركة الفدائية بمنظمة التحرير ، فانه كان يسعى الى وضع حد لازدواجية السلطة ــ السلطة الشكلية التي تمثلها منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الشرعية التي نمثلها نحن ــ ثم ان يقيم من جهة ثانية اطارا مناسبا لتوحيد المقاومة • فالواقع هو ان عدة منظمات منافسة لفتح ظهرت بعد حرب عام ١٩٦٧ وكانت تشكل ، بالرغم من انها اقليات ، قوى ينبغي تجميعها بصورة أو بأخرى •

ولم نكن في البداية مجمعين على ارادة الحلول محل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية • كان بعض منا يخشي على الحركة ان تنالها البيروقراطية وأن يضعف نقاؤها الثورى بنتيجة ذلك • ووضعنا عدة شروط بدت لنا ضرورية ولا غنى عنها لقيامنا بالتعاون في هذا المجال . فلا بد من ان تحوز المنظمات

الفدائية على أغلبية المقاعد في داخل المجلس الوطني الفلسطيني ، وهو ضرب من برلمان منظمة التحرير الفلسطينية . ثم افلحنا على أثر مساومات شاقة ، في الحصول في منتصف حزيران ــ يونيه ١٩٦٨ على قرابة نصف المقاعد . ولم يغير المجلس الوطني الفلسطيني الرابع الذى انعقد في القاهرة في الشهر التالي ، شيئا في تركيب اللجنة التنفيذية ــ الجهاز الأعلى في منظمة التحرير ــ ولكنه تبنى قرارات تسير في وجهتنا السياسية . وجرى تعديل الميثاق الوطني الذى جرى تبنيه في أول مجلس عقد في القدس عام ١٩٦٤ برئاسة الشقيرى ، لادراج وتوضيح « ان الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد المؤدى الى تحرير فلسطين » .

ولم تقبض المنظمات الفدائية على زمام منظمة التحرير الا في شباط ــ فبراير ١٩٦٩ ، خلال دورة المجلس الوطني الفلسطيني الخامس بعد ان كانت امنت لنفسها خلال ذلك الأغلبية المطلقة في المقاعد . ثم عينت اللجنة التنفيذية الجديدة كرئيس لها ياسر عرفات ، الذى بكى انفعالا امام ضخامة المسؤوليات التي بات عليه الاضطلاع بها . وخلال هذه الدورة اخذ المجلس الوطني الفلسطيني على عاتقه هدف فتح الاستراتيجي والذى عرضته في ١٠ تشرين أول ــ اكتوبر ١٩٦٨ خلال مؤتمر صحفي ــ الا وهو انشاء دولة ديمقراطية في فلسطين يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مساواة تامة وتكافؤ كامل .

ثم ان كافة البلدان العربية ، بما في ذلك تلك التي كانت ولا تزال تحاذر منظمات اقصى اليسار الفدائية ، تلقت بارتياح ورضى تولى المقاومة منظمة التحرير الفلسطينية . والسبب الرئيسي لهذا الارتياح ، هو ان فتح التي كانت تتمتع بثقة الغالبية من هذه البلدان ، قد أمنت لنفسها ، وكما ينبغي أن يكون نفوذا راجحا ، ان في داخل المجلس الوطني الفلسطيني وان في داخل اللجنة التنفيذية .

وأتاح لنا هذا التكريس الذى حصلنا عليه على مستوى العالم العربي ان نخوض عملا يهدف الى تأمين مرتكزات دولية للحركة . وما كان يمكن

لهذا العمل الا ان يتوجه باتجاه البلدان الاشتراكية بالنظر الى العداء واللامبالاة التي كانت الدول العظمى الغربية ومن يدور في فلكها ، تظهره ازاءنا • فقد افقدتنا الممارسة اليومية تدريجيا ، بأكثر مما افقدتنا قراءاتنا ، الأحكام المسبقة التي كنا تتعلل بها في مطلع سنوات الخمسين ازاء الماركسية والبلدان الاشتراكية غير ان من الصحيح كذلك ان علاقاتنا بالاتحاد السوفياتي ظلت متباعدة ومشوبة بالحذر • فقد أبطأ القادة السوفيات في ادراك معنى كفاحنا ، ربما لأنهم تأثروا بالأحزاب الشيوعية العربية التي كانت تواصل التنديد بروح « المغامرة » لدينا وتتهمنا بأننا اخوان مسلمون ورجعيون • وعلى هذا فقد تلقينا بارتياح الدعوات التي تسلمناها في مطلع عام ١٩٧٠ ، لزيارة الصين الشعبية وفييتنام •

كان قد سبق لياسر عرفات أن زار بكين مرتين في عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦ وكانت الزيارة الأولى ناجحة بحذر ، بينما تمخضت الثانية عن وعود بالمعونة تجسدت بعد حرب الأيام الستة • والواقع هو ان عدة مجموعات من الفدائيين تلقت اعتبارا من عام ١٩٦٨ اعدادا عسكريا في معسكرات التدريب في الصين • الا انه بقي علينا ان ننمي ونعزز هذه العلاقات • وقد كان هذا الهدف في بالنا حين سلكنا ، ياسر عرفات وأنا ، طريق بكين في شهر فبراير شباط ١٩٧٠ •

وكانت الدواعي السياسية والأمنية توجب ان تظل هذه الرحلة سرية • وامعانا في التمويه ، فاننا سلكنا طرقا مختلفة لنلتقي في باكستان حيث نستقل الطائرة من هناك • وحاولنا ان لا نسترعي الانتباه • فكان عرفات مثلا يلبس طقما رسميا مستبدلا غطاء رأسه التقليدى ــ الكوفية والعقال ــ بقبعة لينة محترمة • لكنها كانت احتياطات لا طائل فيها • اذ ما كدنا نجلس في الطائرة حتى وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع عبد السلام جلود • وبدا لنا جلود ــ الشخصية الثانية في ليبيا ــ غريبا • فقد كان خافض الرأس بادي الاحراج ، وحيانا بقليل من الملاطفة ثم لزم الصمت طوال الرحلة • وعرفنا بعد ذلك انه كان يقوم هو أيضا بزيارة سرية للصين ، هي أول زيارة يقوم بها منذ قيام الثورة الليبية في أول ايلول ــ سبتمبر ١٩٦٩ .

وقد لقينا لدى توقفنا في شنغهاى ، ما لقيناه في مطار بكين من استقبال

رسمي وشعبي حار وأنزلونا في قصر قديم كان لسفارة فرنسا قديما قبل أن يزورونا مختلف المصانع والمؤسسات الشعبية . وذات يوم باغتناهم بطلب زيارة كومونة . فقد كان ثمة حملة صحفية عارمة في تلك الأثناء تهاجم هذا الشكل من وحدات الانتاج ، فكان الفضول يستبد بنا لمعرفة الكيفية التي تعمل بها في الواقع . واستجاب مضيفونا للطلب بكثير من اللطف . ووضعوا طائرة بتصرفنا اقلتنا خلال ست ساعات الى كومونة في داخل البلاد . وانتهت المنشآت التي زرناها والأحاديث الطويلة التي اجريناها مع السكان والمسؤولين المحليين والتوضيحات التي قدموها لنا، الى اقناعنا بالدور الايجابي الذى تلعبه الكومونات في اقتصاد البلاد .

ثم ان جدية الصينيين أثرت في نفسي . فهم منصرفون الى الكد اليدوى أو الذهني ويكرسون أوقات فراغهم لنشاطات بسيطة سليمة . واسترعاني نمط حياتهم المشوب بالتقشف (بالتطهرية) .

وسحرنا شو ان لاى ، الذى أجرينا معه محادثات ودية طويلة ، بذكائه الحاد ورهافته وسعة ثقافته . ثم ان الأسئلة التي طرحها علينا نمت ، ليس عن عميق تعاطف ازاء الشعب الفلسطيني وحسب ، وانما عن عميق معرفته كذلك بالمشكلة وسياقها المحلي والدولي . وكان يتذكر بالتفصيل ، وهو ذو الذاكرة الفريدة ، الأجوبة التي حصل عليها من زوار فلسطينيين آخرين على ذات الأسئلة التي وجهها الينا . الأمر الذى كان يتيح له أن يستخلص نتائجه الخاصة .

وعندما تعرضنا لمسألة موقفنا من الاتحاد السوفياتي ، وهي أدق المسائل على الاطلاق ، فاننا شرحنا له اننا نريد اقامة علاقات ودية مع موسكو .وأضفنا بأننا نأمل في أن لا تنال مثل هذه العلاقات من تعاوننا مع الصين الشعبية . كان من البديهي ، ان النظام الصيني يريد ، كما يظهر من الشعارات التي تغطي جدران بيكين ، تعبئة السكان ضد «امبريالية الاتحاد السوفياتي الاشتراكية» . وأصغى الينا شو ان لاى برصانة ثم اجابنا ، أمام عظيم دهشتنا ، بأنه

يفهم شواغلنا . « فأنتم تمثلون حركة تحرر وطني ، ومن الطبيعي ان تحاولوا تأمين الأزر والمساعدة حيثما وسعكم الحصول على ذلك . »

ووعدنا بدعم الصين الكامل ودعانا الى توضيح حاجاتنا بدقة . ثم ضرب لنا موعدا لموافاته في اليوم التالي في وزارة الدفاع ، حيث أعلمونا للتو بأن طلباتنا العسكرية أو المدنية قد قبلت .

وغادرنا الصين الى فييتنام الشمالية على متن طائرة عسكرية صينية . كنت منفعلا ازاء هذا الاحتكاك الذى سأحتكه مع شعب اعجب بعناده وصلابته وبطولته . فكل ما قرأته وسمعته عن مقاومة الفيتناميين للاحتلال الفرنسي أولا ، ثم للعدوان الأميركي بعد ذلك ، كان يشكل بالنسبة لي مصدر امل وكنت أقول في نفسي ان الشعب الفلسطيني شعب صغير وفقير بالموارد ، هو الآخر ، وسيكون في طاقته ان يواجه أقوياء هذا العالم وأن ينال حقه في الاستقلال والحرية . كان كل ما سأراه وأسمعه في فييتنام الشمالية مصدر اثراء وحماس متزايد بالنسبة الي .

ووجدنا باطن مطار هانوى ، حيث استقبلنا اعضاء المكتب السياسي في حزب العمل (الشيوعي) خيرا من ظاهره . فأبعاده متواضعة ، ومظهره مقفر، يشهد بأن البلاد في حالة حرب : فمدرجاته المحفوفة بالمدافع المضادة للطائرات تحتلها في غالبها الطائرات المروحية وطائرات الميغ ١٧ و ١٩ .

واتصل الحديث الذى خضناه مع مضيفينا في أحد صالونات المطار نحوا من ثلاث ساعات . وعندما عبرت عن دهشتي لهذا الانتظار الطويل ، فانهم اجابوني بدون ادنى حرج بأن السلطات لا تزال تبحث عن بيت لايوائنا وسيارة لتقلنا . ولم يقدر لي ان ارى خلال الأسبوعين اللذين اقمتهما هناك سوى خمس عشرة سيارة خاصة تتجول في المدينة .

ولاحظت ان بؤس الفييتناميين كان متقدما في بعض النواحي على بؤس الفلسطينيين وأن ظروف الحياة في هانوى ، أسوأ من تلك التي يعانيها مواطني

منذ ثلاثين سنة في مخيمات اللاجئين • فغالبية مباني العاصمة الفيتنامية كانت اما مصابة بالقذائف واما في حالة تداعي متقدمة• بينما يتحمل الأهالي صعوبات الحياة اليومية ، بما في ذلك النقص في المواد الغذائية الضرورية جدا ، بصبر ورباطة جأش عظيمين •

واسترعاني الدور الذى تلعبه النساء الفيتناميات • كن يعملن بنشاط في كل مكان : في المصانع والمكاتب والمدارس وكذلك في ورش البناء وحتى في ميادين المعركة • فكافة مزالق اطلاق صواريخ سام ، التي قدر لي زيارتها ، انما كان يتولى تشغيلها فتيات ما فتئت هشاشتهن تدهشني • ومما يزيد من تقديرى لانعتاق المرأة الفيتنامية ، هو انها ظلت طيلة قرون ، بل وحتى فترة متأخرة ، خاضعة لنظام تمييز وقهر ، شرس • فكان من « الطبيعي » مثلا ، ان يبيع الأب بناته لمن يدفع الثمن الأعلى ، تلبية لحاجات عائلته •

وكانت الزيارات التي قمنا بها للقواعد العسكرية ومخيمات التدريب ذات فائدة عظمى لنا ذلك انه اتيحت لنا فرصة دراسة أساليب تنظيم واعداد مقاتلي حرب العصابات ، التي نستطيع تكييفها على تشكيلاتنا الفدائية • ولاحظنا باهتمام وجود مفوضين سياسيين ، شبيهين بمفوضينا ، لم تكن مهمتهم اغناء وتكثيف بواعث المقاتلين وحسب ، بل القيام بدور صلة الوصل بين الحزب والجيش •

وقد أثر فينا الجنرال جياب الى أبعد الحدود ، سواء بما يتعلق بمعارفه العسكرية ، أو بثقافته السياسية ، أو بتواضعه ورهافته • وبدأ وزير الدفاع اول محادثة بيننا بذكر آية من القرآن تؤكد على ان القوة امر ضروري لمواجهة العدو (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ثم استطرد محذرا ايانا من الانسياق وراء الأوهام التي يمكن ان تتولد عن افكار رائجة مثل « الحرب الشعبية » و « السلطة عند فوهة البندقية » • ثم أضاف وهو يستشهد أبدا بالتجربة الفيتنامية : ذلك ان الأمور ليست بمثل هذه البساطة • فلا ريب في ان البندقية هامة ، الا انها لا تكفي لتأمين الانتصار • ولا بد من أن يضاف اليها المدفع والصاروخ وكافة مجموعة

الأسلحة التي يتمتع بها المعتدى •

وواصل الجنرال جياب حديثه قائلا : « ولا ريب في أن لدى الفيتناميين والفلسطينيين كشعبين يعانيان من نفس الشر ، الكثير من الأمور المشتركة بينهما • ولكن كفاحنا يتمتع بمزايا كثيرة تفوق ما يتمتع به كفاحكم بكثير • فنحن بخلاف الفلسطينيين الذين يعيشون في وسط معاد وغير ودود ، فاننا تتمتع من جهتنا بداخل ودى وبالبر الصيني الذى يقدم لنا عمقا استراتيجيا لا يقدر بثمن ، اضافة الى أن المعونة المتعددة الأشكال التي تقدمها البلدان الاشتراكية • » ثم خلص الى القول ان ثمة ثلاثة مقومات لا غنى عنها لانتصار حرب شعبية : الأسلحة البالغة التطور ، والايديولوجية المعبئة ، والتنظيم القادر على لم شمل الجماهير وتأليبها وقيادتها •

وحول هذا الموضوع الأخير ، شرح لنا الجنرال جياب كيف توصل حزب العمل الى انشاء وبعث الحياة في الجبهة الوطنية التي افلحت في اجتذاب كافة الفئات الاجتماعية أو الدينية من السكان من بوذيين ومسيحيين ومسلمين ومن العمال والفلاحين بطبيعة الحال ، وكذلك ـ ويا لعظيم اندهاشنا ـ من الطبقات الوسطى والصناع والتجار والصناعيين الذين تأذت مصالحهم من قبل الامبريالية الأميركية • وبدا لنا برنامج الجبهة الوطنية ـ الذى اتيح لنا أن نقرأه خلال اقامتنا ـ مثيرا للخيبة للوهلة الأولى • فهو مكتوب بعبارات بسيطة لا تثير ، كما ان الأهداف التي يرسمها للحركة كانت تبدو لنا بديهية بل وجيزة مجملة : الوحدة الوطنية ، تحرير الوطن ، الديمقراطية الخ • الا اننا ادركنا لدى امعان التفكير ، بأنه توخي في تصميم النص وتصوره ان يستجيب لحاجات السكان كافة وبدون استثناء •

ولم استطع عند ذاك من ان امنع نفسي عن التفكير بالسفسطة التي تسود العالم العربي ، وبالألف شعار وشعار من تلك الشعارات التي كنا نطلقها بدون ان يكون في مقدورنا ان نضع ولو واحدا منها موضع التطبيق ،وبالمزايدات الديماغوجية التي هى أهل لتنفير افضل الارادات وأجود النوايا • وقلت لنفسي ان لدى الأحزاب والحركات السياسية العربية الكثير مما تعلمه من

تواضع وتكتم وواقعية القادة الفيتناميين .

ودفعتنا مباحثاتنا مع أعضاء المكتب السياسي في حزب العمل الى التفكير تفكيرا أعظم ببرنامجنا . كنا قد صغنا في تلك الحقبة هدفنا الاستراتيجي الذى كان قوامه انشاء دولة ديمقراطية اتحادية في مجمل فلسطين. ولكننا لم نحسب حساب أية مرحلة انتقالية ولا أى تسوية مؤقتة . و دون ان يشيروا الى فتح او الى منظمة التحرير الفلسطينية صراحة ، فان محادثينا من اعضاء المكتب السياسي قدموا لنا عرضا مطولا لمختلف مراحل نضال الشعب الفيتنامي . موضحين لنا انهم اضطروا الى الخضوع الى تنازلات مختلفة ، كان بعضها أحيانا في حجم تقسيم البلاد الى دولتين مستقلتين .

كما انهم اعطوا مثالا آخر على روحيتهم الشديدة الواقعية لدى تركيز صيغة البيان المشترك الذى كان ينبغي نشره لدى نهاية زيارتنا . فقد لاحظت كعضو في اللجنة المكلفة بتحرير النص ، تردد زملائي الفيتناميين امام اقتراحاتنا المتعلقة بالتنديد باسرائيل والصهيونية . وقال لي احد هؤلاء الزملاء ، وهو عضو في المكتب السياسي ، بأنه يود لو نلجأ الى عبارات اكثر اعتدالا ، بل الى عبارات غامضة ، من أجل عدم تكدير اليهود الأميركيين الذين يناضل كثير منهم في الولايات المتحدة في الحركة المؤيدة لفيتنام . وهنأت محدثي على صراحته وعلى ترويه بخاصة ، ووافقت لفوري على الصيغة المخففة فيما عنى المقطع المتعلق باسرائيل الذى قدموه لي . وبالمقابل فان البيان أعلن دعم فيتنام لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . وهنا ايضا دار في خلدى أن علينا ان نتعلم الكثير من رفاقنا الفيتناميين الذين لا يترددون بالتضحية بالثانوى محافظة على الأساسي .

اما على الصعيد العملي ، فاننا حصلنا من مضيفينا على موافقة بمنحنا تسهيلات واسعة لتدريب مغاويرنا في معسكراتهم . ولما كنا نعلم محدودية وسائلهم ، فاننا لم نطلب اليهم أية معونة أخرى .

وها قد مضى ما يقارب التسع سنوات على تلك الزيارة المشهودة ، ولا

يزال أحد اعز أماني ، هو ان أعود الى هناك ـ بمجرد ان تتيح لي التزاماتي ذلك ـ لأشاهد التحولات التي حدثت منذ أن حقق الشعب الفيتنامي انتصاره التاريخي ووحد وطنه •

وبعيد عودتي من فيتنام بقليل ، تلقيت في ربيع عام ١٩٧٠ ، دعوة لحضور الاحتفالات التي ستجرى في شهر تموز ـ يوليو في كوبا بمناسبة ذكرى الثورة الكاستروية • ولما كنت منشغلا بتطور الموقف في الشرق الأوسط وخاصة في الأردن حيث كان التوتر يتنامى بين الملك حسين وبين منظمة التحرير الفلسطينية ، فانني لم أقرر اعطاء رد ايجابي على الدعوة ، الا قبل الموعد المحدد ببضعة ايام • والواقع هو أنني وافقت على الذهاب الى كوبا لأتلافى حضور الاحتفالات التي كانت الحكومة المصرية تنظمها في ذات الأسبوع بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لسقوط الملكية • فوفقا للمعلومات السرية التي أفضى بها الي ، فان عبد الناصر كان يعتزم ان يعلن ، في الخطاب الذى سيلقيه بهذه المناسبة ، قبوله بمخطط روجرز حول تسوية مصرية اسرائيلية وكنا معادين عداء شديدا لمثل هذا الاتفاق ، ولم أكن اتمنى بطبيعة الحال أن أكون حاضرا حين يعلن عبد الناصر انضمامه الى المشروع الأميركي • وبرغم الالحاح ، المشبوه في نظرى ، الذى ابداه محمد حسنين هيكل ،صديق عبد الناصر ومؤتمن سره ، فاني دفعت الدعوة متذرعا باستحالة رفض دعوة فيدل كاسترو •

كانت الرحلة التي قمت بها من القاهرة الى كوبا بطريق مدريد ، احد انهك الرحلات التي قمت بها في حياتي • فبعد انتظار طويل في مطارالعاصمة الاسبانية ، حيث تولى الحرس الكوبي المرافق (الغورلية) امرنا ، اقلع الوفد الفلسطيني الذى كنت أقوده على متن طائرة متواضعة تابعة للشركة الوطنية الكوبية • واستمرت الرحلة أكثر من خمس عشرة ساعة ، وضمن أوضاع تذكرني بأوضاع الترام العامل في الريف المصرى • كانت الطائرة المكتظة بعدد من الركاب يزيد على عدد مقاعدها ، والمزدحمة بالحقائب والصرر التي تعيق المرور ، تبدو وكأنها تطير كيفما كان •

ووجدتني جالسا الى جانب أمين الهويدى ، كبير سادة المخابرات المصرية وكان يشكو مثلي من ضيق المقاعد ومن الحرارة • وقال لي وهو يمسح العرق عن جبهته : « واذا فانكم تعتزمون محاربة مخطط روجرز وعبد الناصر» فأوضحت له اننا نعارض أى مشروع يزرى بالحقوق الوطنية الفلسطينية ، فأجابني بأنه ينبغي لنا أن نثق بعبد الناصر ووطنيته وأمانته للقضية الفلسطينية

وفي مطار هافانا ، استقبلني نظيري الكوبي ، رئيس المخابرات الكوبية، وهو رجل يتمتع بحس دعابة عظيم ، وأصبح فيما بعد صديقا لي • وما أن استقر بي المقام في منزل بسيط حتى قدموا لي برنامج مباحثات بدا لي مفرطا • اذ كان علي ان استقبل ممثلي حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية • وكان مما يزيد اللائحة طولا ، هو انها كانت تضم ممثلين عن عدة تنظيمات متنافسة في كل بلد من بلدان اميركا اللاتينية • بحيث أن الانقسامات داخل منظمة التحرير الفلسطينية بدت لي امرا لا يؤثر له بالنسبة الى التفتت الذي يسود هذه الحركات • وكان أن تعديت على قواعد اللياقة ، مخاطرا باسقاط عدد من الفصائل الصغيرة وطلبت من مضيفي أن يقصروا لقاءاتي مع التشكيلات الرئيسية في كل بلد من البلدان المعنية •

وهكذا ، فان الوقت الذى تمكنت من اكتسابه بهذه الطريقة ، أتاح لي الانصراف الى مختلف النشاطات الأخرى • وحضرت بخاصة ، الاجتماع الذى عقدته على شرفي الجالية الفلسطينية التي تبلغ نحوا من خمسين عائلة هاجرت الى كوبا منذ عهد بعيد • كان الأحداث الذين ولدوا في البلاد لا يتكلمون الا الاسبانية ، وأحيانا الانكليزية • وأما الكهول فينطقون بعربية تقريبية • لكن اللقاء كان مؤثرا برغم كل هذا • فقد رأيت الدموع وهي تنهمر على وجوه عدة ، وأنا اعرض أهداف النضال الذى شرعنا به •

وفي يوم آخر ، دعاني فيديل كاسترو لأزور بصحبته مزارع قصب السكر • وانما تعرفت الى هذه القوة الطبيعية لدى هذا الرجل الصريح الخشن المرح ، خلال هذه الجولة الريفية التي قمنا بها في سيارته التي كان يقودها بنفسه • وقد أظهر خلال مناقشاتنا ذات الطابع السياسي ، معرفة

عميقة بنزاع الشرق الأوسط عامة وبالقضية الفلسطينية بصورة خاصة • فهو يعتبر اسرائيل كما قال لي ، حجر شطرنج بيد الامبريالية الأميركية • ولكنه شأن القادة الفيتناميين رغب الينا في الا يشتمل البيان المشترك على عبارات مهينة للدولة الصهيونية • وفسر لي ذلك بقوله أن كوبا على علاقة بأوساط عمالية يهودية نافذة بسبب تجارتها الخارجية كما انها تقيم من جهة ثانية علاقات دبلوماسية مع اسرائيل لا يريد ان ينال منها • ثم اضاف ولكن « ثق اني سأتخذ الاجراءات المناسبة حين يحين الحين » •

وبعد هذه الحادثة بثلاث سنوات ، ومن على منبر مؤتمر دول عدم الانحياز الذى انعقد في شهر ايلول ــ سبتمبر من عام ١٩٧٣ في الجزائر ، أعلن فيديل كاسترو بصورة باهرة قراره بقطع العلاقات مع اسرائيل • فكنت أحد أوائل الذين أخذوه بالأحضان تهنئة له •

والحق ، هو ان كلامه المتروي في تموز ــ يوليو ١٩٧٠ لم يكدرني قط سيما وأنه أولاني ، من باب التعويض ، حرية في التعبير عما أشاء ، وفتح لي أعمدة الصحف واضعا بمعنى من المعاني موجات الاذاعة والتلفزيون الكوبي تحت تصرفي • فاستغليت ذلك وأفدت منه افادة واسعة لأقدم عدة تصريحات ومقابلات • لكن ذلك لم يكن المكسب الوحيد الذى تحقق من الزيارة •فقد برهن فيديل كاسترو عمليا عن دعمه لكفاح الشعب الفلسطيني المسلح ، عندما قدم لنا معونة عسكرية هامة ، وخاصة على شكل امدادات وتدريب للفدائيين في كوبا . ولم نثر مطلقا مسألة ارسال متطوعين كوبيين الى الشرق الأوسط ذلك اننا لا نعاني ــ كما تعرف الكافة ــ نقصا في المقاتلين ، بل ان العكس هو الصحيح •

شكل الخطاب الذى القاه فيديل كاسترو في ٢٦ تموز ــ يوليو ١٩٧٠ ، امام مئات الألوف من الأشخاص ، بالنسبة الى أحد اكثر المشاهد الخارقة التي قدر لي ان أحضرها • فالرئيس الكوبي هو بلا ريب احد اعظم خطباء عصرنا اذ انه يمسك بأنفاس المستمعين اليه على مدى ست ساعات متكلما بنبرة الغضب حينا ، وبلهجة ساخرة حينا آخر ، مستشهدا بيسر ووضوح

بتواريخ وأرقام تدليلا على احاديثه الأخاذة شأن صوته ، بحيث انه غالبا ما يضع المستمعين المصفقين له تصفيقا حادا في حالة هيجان.

وعندما أخذ مدعويه الأجانب الذين كنت بينهم بأيديهم رافعا ذراعيه على الطريقة الكوبية لتجرى تحيتنا واحدا بعد الآخر ، فاني شعرت بالانفعال وهو يبلغ تراقيّ حين سمعت الحشود تزأر بصوت واحد : « فلسطين ! فلسطين ! » . كنت فخورا سعيدا ومتأثرا .

أكان اسم بلادى كما هتفت به مئات ألوف الكوبيين لا يزال يدوى في اذني حين صعدت الى الطائرة ـ التي كانت تابعة هذه المرة للشركة الوطنية المغربية ـ لأعود الى الشرق الأوسط . كنت أجهل في تلك اللحظة ان الملك حسين سيحاول بعد أقل من شهرين أن يمحو فلسطين من الخارطة ويزيلها من اللغة .

الفصل الخامس

الجذر

دقت معركة جرش وعجلون ناقوس نهاية المقاومة الفلسطينية في الأردن. فعلى مدى الأيام الخمسة الممتدة بين ١٣ و ١٧ تموز ــ يوليو ١٩٧١ ، راح نحو من ثلاثة آلاف فدائي متحصنين في الغابات والهضاب المكسوة بالأشجار في هاتين الناحيتين الواقعتين في شمال المملكة يقاتلون حتى الطلقة الأخيرة ببطولة خارقة ضد قوات الملك حسين الهائجة المنفلتة العقال ، والتي كانت تبيد كل ما يعترضها بمقصد واضح هو تصفية آخر رقعة بقيت للفدائيين بعد مذابح ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ . فكانت الدبابات والمدرعات تطلق النار لتقتل ثم تسحق الناجين في عبورها .

وقد رفض القائد المحلي ، أبو علي اياد ، عضو اللجنة المركزية في فتح ان يستسلم . لكنه أسر على أثر عملية مطاردة هائلة ، فعذب ومثل به ثم قتل. وطالت المجزرة بالكامل نحوا من سبعمائة فدائي : ووقع نحو من ألفين آخرين في الأسر وسلموا في وقت لاحق الى سلطات دمشق ، وأفلح نحو من مئة في اللجوء الى سوريا او انهم ــ لعظيم المذلة ــ لجؤوا الى الضفة الغربية المحتلة حيث وافقت السلطات الاسرائيلية على منحهم حق اللجوء .

وهكذا انطوت احدى أكثر صفحات المقاومة دموية ، وهكذا ايضا انتهى عصر زهو الحركة الفلسطينية ، الذى كان انتصار الكرامة في آذار ــ مارس ١٩٦٨ أحد ذراه بلا نزاع . فقد مر ما يزيد عن ثلاث سنوات على يوم راح الملك حسين ، الذى بهرته تلك المأثرة ، يهتف قائلا : « كلنا فدائيون ! » فكيف وصلنا الى حيث وصلنا ؟ صحيح ولا ريب ان العاهل الهاشمي لم يكن شغوفا بنا ، وأنه برغم جميل كلماته ، لم ينفك عن الدسيسة لايرادنا مورد التهلكة ، الا اننا ساعدناه مساعدة عظيمة على بلوغ هدفه حين تعاظمت اخطاؤنا في التقدير ، وكبواتنا ، بل ــ ولم لا نقر ونقولها بصراحة ؟ ــ واستفزازاتنا . غير أنه يظل ان الصدام كان أمرا مقضيا بحكم الأشياء ولا مفر منه .

كانت المظنة والريب تسيطر على الملك حسين . فكان يعتقد برغم تطميناتنا المتكررة ، اننا نسعى الى سلبه السلطة . ولا ريب في ان بعضا من المحيطين

به ، بل وبعض الشخصيات الأجنبية أيضا ، كانوا يغذون هذا القلق ، بقصد أو بغير قصد . وهكذا مثلا فان الملك الحسن الثاني قال له ذات يوم انه يعتبر تسلم الفدائيين للسلطة في عمان امرا طبيعيا . واذ صدمته كلمات العاهل المغربى فانه راح يسأل ياسر عرفات بعد ذلك بقليل عما اذا كان يطمح حقا الى الحلول مكانه ! مع اننا لم ننفك نؤكد له ان فتح الزمت نفسها منذ تأسيسها بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان المضيفة للفلسطينيين ، وأن دعمه للحركة الفلسطينية يجعل منه بطل الأمة العربية . كان حسين يقتنع نصف اقتناع بحسن نوايانا فيتأرجح بين التشكك وعدم التصديق .

وبدأت علاقاتنا به تتوتر في منتصف شهر تشرين أول ــ اكتوبر ١٩٦٨ بعد مصرع رفيقنا عبد الفتاح حمود ــ الذى كان احد اوائل القيادات لفتح ــ بحادث سيارة . كنت أنا وثيق الصلة بحمود منذ مطلع سنوات الخمسين . فقد انتخب في ذات الوقت الذى انتخبنا فيه ، ياسر عرفات وأنا ، في قيادة اتحاد الطلبة الفلسطينيين ، فلم ينقطع عن النضال الى جانبنا ، في القاهرة اولا ثم في قطر حيث شغل مناصب هامة كمهندس . وبرغم انه والد سبعة أطفال ، فانه عرض غداة حرب الأيام الستة أن يترك وظيفته المجزية جدا ليصبح « متفرغا » في الحركة . وكان في اليوم الذى قضي فيه نحبه ، على موعد مع عرفات ومعي في احدى النواحي الأردنية القريبة من الحدود السورية . ولعلمي بدقته في مواعيده فان القلق بدأ يعتريني عندما لم يأت في الساعة المتفق عليها . ولم ألبث ان انبئت بأن حادثا خطيرا قد وقع على الطريق على مسافة غير بعيدة من البيت الذى كنا سنلتقي فيه . ولتوجسي ما هو أسوأ ، وخشية مني في أن أكون شاهدا لمشهد لا طاقة لي باحتماله ، فاني طلبت الى عرفات أن يذهب بمفرده الى مكان الحادث . وعاد عرفات باكيا . كان عبد الفتاح حمود الذى لم يكد يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ، قد لقي مصرعه وراء مقود سيارته .

وقررنا ان تسير جنازته في عمان ، حيث ظهرنا فيها للمرة الأولى . وهناك القيت امام عشرات الألوف من الأشخاص الذين جاؤوا ليودعوه الوداع

الأخير ، خطابا يثني على صنيعه وصنيع المقاومة • وكان ان قلق الملك حسين من هذه التظاهرة العامة في عاصمته وبدأ يحيك وينفذ المؤامرة التي ستفضي بعد أقل من عامين ، الى نزاع مسلح في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ •

وبعد مرور شهر على جنازة عبد الفتاح حمود ، في تشرين ثاني ـ نوفمبر ١٩٦٨ ، جرى اختطاف ضابط من الحرس الملكي الأردني على يد منظمة سرية تدعي انها فلسطينية ، ولكننا لم نسمع بها قبل ذلك مطلقا • وانما عرفنا بعد ذلك بكثير ، انه جرى تكوين الفريق المذكور وتمويله وتسليحه على يد المخابرات الأردنية •

بقي ان الملك حسين وضع جيشه في حالة استنفار وهدد باقتحام مخيمات اللاجئين لالقاء القبض على الخاطفين وتحرير رهينتهم . فكان ان طلب فريق من قادة مختلف المنظمات الفدائية ـ بينهم ياسر عرفات ويحيى حموده وبهجت أبو غربية وحامد ابو سته وأنا ـ مقابلته بغرض ثنيه عن ذلك • وكانت تلك أول مرة أقابل الملك فيها شخصيا •

وقد افادتني المحادثة ـ التي ظللت صامتا لأعاينه معاينة أفضل ـ افادة بالغة حول شخصية الملك حسين .
فبرغم انه كان يعلم علم اليقين انه لا يد لنا ولا علاقة في اختطاف ضابط الحرس الملكي ، فانه اظهر استياءه بقحة وراح يغضب غضبات مفاجئة تستحيل أحيانا الى بدايات حركات عنيفة • ولقينا الكثير من العناء في تهدئته • واحتججنا ببراءتنا وأوضحنا له أننا نجهل كل شيء عن المنظمة التي تدعي القيام بهذه المحاولة التي ندينها نحن على أى حال بمنتهى الشدة والحزم • ثم أكدنا له مجددا على ارادتنا في الحفاظ على علاقات جيدة مع السلطات الأردنية• وفي النهاية أذعن الملك وأصدر أوامره لقواته برفع حصارها عن مخيمات اللاجئين •

وانما تأجل الأمر مجرد تأجيل كما ستثبت ذلك الأحداث • وقدتصرف حسين بكثير من المهارة والخداع • فراح يعد الرأى العام ويعد جيشه خاصة،

بصبر ومنهجية للمواجهة التي يتمناها فيغذى التوتر ويثير الأزمات ، ليس بمعونة الفصائل المفروضة على المقاومة التي كونتها مخابراته وحسب ، بل انه كان يستفيد من العملاء المحرضين المهندسين في المنظمات الفدائية •

وكان بعض هؤلاء يشغلون في هذه الأخيرة مناصب ذات تبعات كما سنكشف ذلك فيما بعد ، ففي حزيران ـ يونيه ١٩٧٠ مثلا ، استدعاني عبد المنعم الرفاعي ـ وهو رجل في الغاية من النزاهة ـ الى مكتبه بعيدتشكيله الحكومة ، وراح يسمعني تسجيلا لخطاب القاه عشية ذلك اليوم ، أبو الرائد عضو المكتب السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي يرئسها الدكتور جورج حبش • كان أبو الرائد يهاجم في خطابه بعبارات مبهمة ، لا الملك وحسب ، وانما زوجته ووالدته • وكان الخطاب من البذاءة بحيث انني لم أطق الاصغاء للتسجيل الى آخره •

ثم اطلعني عبد المنعم الرفاعي على رسالة من الملك يطلب فيها من رئيس وزرائه ان يقفل كافة مكاتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والا عهد للجيش بذلك • فأسرعت الى القصر الملكي لأوضح لحسين بأننا مضطرون برغم التقزز الذى يثيره فينا أبو الرائد ، ان ندافع شأننا في ذلك شأن الجماهير الفلسطينية ، عن حق الجبهة الشعبية في الوجود ، امام هجوم قوات الأمن • ومرة أخرى تراجع الملك خطوة ليعاود الوثوب خطوات • وانما اكتشف أمر أبي الرائد كعميل للمخابرات وطرد من منظمته بعد ذلك بكثير •

ومن جهة ثانية ، فان الانقسامات داخل المقاومة ، ساعدت الملك في مخططاته • فبعد مرور بضعة أشهر على حرب الأيام الستة ، ظهرت الى حيز الوجود عدة منظمات فدائية ، غالبا ما كان هدفها الوحيد ، هو اختطاف قيادة الحركة من فتح • كما ان بعضا منها لم يكن سوى انبثاق وتعبير عن الأنظمة العربية التي كانت تسعى الى نقل خصوماتها وصراعاتها الى المسرح الفلسطيني•

واذ ذاك باتت المواقف الديماغوجية والمزايدات امرا محتوما • وبات كل

فريق يحاول ان يظهر انه أشد « ثورية » وأوفى تصلبا من جاره • ولا زلت أذكر ان ممثلي بعض المنظمات الفدائية لم يكونوا يترددون ، في بعض اجتماعات العمل المعقودة مع حسين ، في ان يستشيطوا غضبا ويضربوا الطاولة بقبضتهم ويقدحوا في أعضاء العائلة الملكية ، فيتهمون خال الملك ، الشريف ناصر مثلا ، بتهريب المخدرات • فكنت أجهد في مثل هذه الحالات بأن اعيد رفاقي الى جادة الصواب موضحا بأن سلوكهم لا يمكن ان يخدم الا أخصامنا ، وعلى رأسهم الملك •

وكان من الصعب في بعض الأحيان تمييز التطرف السياسي، من الاستفزاز الذى يدبره العملاء المأجورون • فازدهار الشعارات اليسارية ـ شأن ذلك الشعار الذى يدعو الجماهير الى ايلاء « كل السلطة للمقاومة » ـ وتوزيع صور لينين في شوارع عمان وحتى داخل المساجد ، والدعوات الى الثورة واقامة نظام اشتراكي ، كل ذلك كان ينم عن عدم وعي اجرامي • كان المتطرفون يتنافسون في الخلط بين معركة التحرر الوطني التي تقصر فتح دعوتها عليها ، وبين الصراع الطبقي •

ومن الصحيح كذلك ان سلوكنا نحن لم يكن غاية في التماسك • فبرغم اننا كنا نسعى وراء الحصول على دعم كافة السكان ، بدون تمييز لأصلهم ، الا اننا كنا ننحوا منحى اهمال الاردنى الاصل ، لصالح الفلسطينيين • ثم ان الفدائيين الذين كانوا فخورين بقوتهم ومآثرهم ، كثيرا ما اظهروا شعورا بالتفوق ، وأحيانا بالغطرسة بدون ان يأخذوا حساسيات ومصالح الأردنيين بعين الاعتبار • والأخطر من ذلك كله ، هو موقفهم ازاء الجيش الأردني الذى كان يعامل كعدو بأكثر مما يعامل كحليف ممكن •

غير أن الصحيح كذلك ، ان حسين تفنن في حفر الهوة بين الفدائيين والقوات الملكية ، وذلك باثارة الصدامات الدموية أولا ، ثم بمنح الضباط والجنود الذين شاركوا فيها اجازات جماعية أثر كل معركة • فكان هؤلاء يصطدمون لدى عودتهم الى منازلهم بعداوة مقاتلينا ، التي يمكن ان تفهم على كل حال • ولما كان العسكريون يجدون أنفسهم مهانين مذلين مخزيين ، وأحيانا

معتقلين ، فان تشوقهم الى الصدام معنا كان يزداد • وقد علق الملك على تكاثر هذه الحوادث في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٠ مفسرا سلبيته الظاهرة ازاءها لأحد المقربين منه ، قائلا : اني امد لهم (أى للفدائيين الحبل الذى سيشنقون به •••)

وبلغ التوتر اوجه في شهر تموز ــ يوليو ١٩٧٠ ، عندما دعونا لعقد دورة استثنائية لمجلس المقاومة المركزى الذى يضم ممثلي نحو من اثنتي عشرة منظمة • وفور انعقاد الاجتماع ، طرحت على رفاقي سؤالين : هل ترغبون بالاستيلاء على السلطة في عمان ؟ واذا كنتم ترغبون في ذلك ، فهل تقدرون ان نسبة القوى تتيح لنا الظفر ؟ وأجابوا في غالبيتهم بالنفي على كلا السؤالين• فهم يعتقدون من جهة اولى ، ان على المقاومة ان تتلافى الوقوع في شرك مسؤوليات الدولة والبيروقراطية ، كما انهم من الجهة الثانية مقتنعون بتفوق القوات الملكية الساحق •

وبهذا ، فانهم اكدوا اقتناعي بأن التكتيك يحل لدى غالبية اعضاء المجلس المركزى محل الاستراتيجية • ومن هنا كان الغموض الخطر في سياستهم التي كانت تقودنا وفق قناعتي ، الى الكارثة مباشرة • والحال هو ان الملك ، كما أوضحت حينذاك ، لن يتحمل طويلا السلطة الموازية التي اقمناها في مملكته • فكان لا بد لنا من ان نختار خيارا واضحا يتفق مع تحليلنا ومع استراتيجيتنا• فاذا كان من الصحيح اننا لا نريد قلب النظام الملكي ، وأنه على أية حال اعصى من ان يقهر في اللحظة الحالية ، فانه يكون من الواجب الملح علينا كما رحت أؤكد ، ان نعيد علاقاتنا مع حسين الى طبيعتها قبل ان يفوت الأوان •

وبعد ان انهيت عرضي ، توجهت نحو بوابة الخروج وأنا أقول للمجتمعين: « من كانت تهمهم مصلحة الشعب الفلسطيني فليتبعوني فنذهب معا لنتفاوض مع القصر على نمط تعايش ! » فبقيت الأغلبية مسمرة بينما غادرت قبضة من مندوبي مختلف المنظمات الأخرى غير فتح ، قاعة الاجتماع برفقتي •

ولن يفهم تهافت وتناقض غالبية مجلس المقاومة المركزى ، ان لم اضف

انهم كانوا مقتنعين بأن الملك حسين لن يجرؤ على مهاجمة الفدائيين المنتشرين في العاصمة وفي البلاد ، خشية ان يوقع مجزرة بالسكان • كما ان بعضا منهم كان يعتقد ان الجيش الملكي ، أو جزءا هاما منه على الأقل ، سيتمرد اذا ما تلقى الأمر بأن يطلق النار على أعداد الناس عشوائيا •

أما انا فاني كنت شخصيا مقتنعا بالعكس • فالملك قد أمن ولاء ضباطه بعد ان غمرهم بالامتيازات المادية • كما كان الجنود جميعا ــ بما في ذلك الفلسطينيون الذين يشكلون قرابة ثلث القوات الملكية وليس ٦٠ بالمئة منها كما يكتب عادة ــ معبئين ضد حركة الفدائيين بدعاية ذكية • كانت هذه الدعاية تظهرنا كملحدين وأعداء لله ، وشيوعيين يتعاونون تعاونا وثيقا مع قوى دولية مريبة بما في ذلك يهود اليسار المتطرف • وكنا نسعى ، وفق ما يقوله ثالبونا ، الى الاستيلاء على السلطة لصالح قوى أجنبية ، لا للدفاع عن مصالح الشعب الفلسطيني • وبرغم هذه التعبئة ، فان حسين احتاط وأبعد الفلسطينيين عن صفوة الوحدات العسكرية وخاصة عن المدفعية والمدرعات التي استخدمها استخداما واسعا في معارك ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ وتموز ــ يوليو ١٩٧١ في جرش وعجلون •

ومما زادني قلقا على قلق ، هو ان الملك حسين [illegible] يبدو في نهاية شهر آب ــ أغسطس واثقا من نفسه ثقة لها ما يبررها • فبعد ان [illegible] ـق ، شأن عبد الناصر ، بمشروع التسوية مع اسرائيل ، الذى قـ [illegible] الخارجية الأميركية ويليام روجرز ، فانه بات يتمتع بدعم قوي على [illegible] ـدولي ، وبخاصة ، في العالم العربي • وفي ٧ آب ــ أغسطس ، أى بعد مرور اسبوعين على دخول وقف اطلاق النار ــ الذى انهى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية بين البلدين ــ حيز التنفيذ ، ذهب حسين الى الاسكندرية ، حيث حظي باستقبال حار من قبل عبد الناصر • ولدى عودة الملك الى عمان ، أشاعت السلطات الأردنية ، أنه أخذ من الرئيس المصرى الضوء

الأخضر لسحق الحركة الفلسطينية التي وقفت بالاجماع ضد مخطط روجرز وقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى يرتكز المخطط عليه •

غير ان مجلس المقاومة المركزى كان منقسما بشأن الموقف الذى ينبغى اتخاذه من عبد الناصر • فهل ينبغي ان تتصادم مع النظام المصرى؟ وأجابت الغالبية التي تؤيد السياسة المغامرة على هذا السؤال بالايجاب • أما فتح ، ومعها منظمة الصاعقة الموالية لسوريا وبعض المستقلين ، فكانت على العكس من ذلك ، مصممة على عدم قطع الجسور مع مصر • ومنذ ذاك فاننا قررنا ارسال مندوبين الى عبد الناصر سعيا وراء نمط تعايش •

وثمة أسباب عديدة كانت تدفعنا الى القيام بهذا المسعى • فمن الناحية التكتيكية ، كان الهجوم على الريس عملا انتحاريا من قبلنا في ظرف تتعرض فيه لخطر تلقي طعنة في الظهر من حسين • كما انه لم يكن في وسعنا من الناحية الإستراتيجية ، ان نسمح لأنفسنا بقطع علاقاتنا مع أقوى البلدان العربية ، والتى كان وزنها الدولي والمحلي ثمينا بالنسبة الينا • ثم اننا كنا ، فضلا عن ذلك ، نثق بوطنية عبد الناصر • وكنا نعرف انه لن يخوننا لأنه سبق له وأعلن جهارا بأنه يفهم تماما اطراح المقاومة للقرار ٢٤٢ ورفضها لذلك النص الذى لا يستجيب بأية صورة من الصور الى تطلعات الشعب الفلسطيني •

كان الوفد الذى ذهب الى الاسكندرية يضم ياسر عرفات وفاروق القدومى وهايل عبد الحميد وأنا (عن اللجنة المركزية في فتح) وضافي جمعانى (عن الصاعقة) وإبراهيم بكر (مستقل) • واستقبلنا عبد الناصر ببعض الفتور ثم قال لنا لفوره « لقد تنزهت في حديقتي طوال ساعة لأتمالك غضبي وأنا أستقبلكم » • كان مغضبا من الهجمات التي كان يتعرض لها في منشورات فتح والتي اظهر لنا بعض نماذج منها كانت مبعثرة على مكتبه • ثم أضاف انه لا يحق لنا ان ننتقده قبل أن نعرف البواعث التي دفعته الى قبول مخطط روجرز •

وأشار خلال المحادثة التي دامت اكثر من سبع ساعات الى أن هناك امكانية بنسبة واحد بالألف في أن يتحقق مشروع السلام الاميركي لأنه يعلم

مقدما انه ليست لدى اسرائيل النية مطلقا في احترام التزاماتها واعادة الاراضي المحتلة بكاملها • ولكنه سيواصل برغم ذلك جهوده للتوصل الى تسوية سلمية • وبانتظار ذلك فانه لا بد له من كسب الوقت ليستعد للحرب التي تبدو له في الوهلة الأولى امرا لا مناص منه • وأضاف انه خلال زيارته الاخيرة لموسكو طالب بتسليم مصر صواريخ سام ٧ ، وحصل عليها بعد أن هدد بالاستقالة • ثم أفضى لنا بأنه « سوف نستغل وقف اطلاق النار السارى حاليا، لنضع هذه الصواريخ على طول قنال السويس » •

وروى لنا ان القادة السوفيات اندهشوا في بادئ الأمر من انضوائه تحت راية مشروع اميركي وعرضوا عليه كبديل مشروعا تقدمه له موسكو وواشنطن سوية • فرفض المشروع موضحا لمحادثيه بأنه يريد أن « يحرج » الولايات المتحدة التي التزمت لأول مرة منذ حرب حزيران ــ يونيه ١٩٦٧ ، بجلاء اسرائيل الكامل تقريبا عن الاراضي التي غنمتها • وأضاف : ان ميزة القرار ٢٤٢ ، هو انه صدق على حق العرب في استعادة أراضيهم المفقودة ، باقرار دولي •

ثم استطرد عبد الناصر يقول بلهجة ساخرة وهو يلتفت نحو ياسرعرفات: « كم تظن انه يلزمكم من السنين كي تدمروا الدولة الصهيونية وتبنوا دولة موحدة ديمقراطية على كامل فلسطين المحررة ؟ » وأخذ علينا ممارستنا لسياسة غير « واقعية » وقال ان دويلة في الضفة الغربية وغزة ، هي خير من لا شيء •

دارت المحادثة في الجزء الأعظم منها في جو حبي اولا ثم ودي بعد ذلك وبدأ عبد الناصر مرتاحا ودعانا الى العشاء على مائدته • ثم أبدى لنا قلقه من الوضع في الأردن • وقال لنا « أنا أعلم ان المخابرات الهاشمية أشاعت انني شجعت الملك حسين على ضربكم • ان العكس هو الصحيح • فقد حذرتهخلال زيارته الأخيرة للقاهرة من مثل هذه المحاولة مرتين • مرة في اجتماع مغلق ، ومرة ثانية بحضور رئيس وزرائه عبد المنعم الرفاعى » •

وغادرنا الاسكندرية ونحن نصف مطمئنين • اذ لم يكن يبدو ان الملك

حسين يأخذ تحذيرات عبد الناصر بعين الاعتبار ، لأنه كان يقوم بدك مراكز المقاومة . واتنهت المعارك المتفرقة وشبه اليومية ، والريبة المخيمة ، بأن أرهقت الرأي العام الذى بدأ جزء منه يظهر تبرمه بالفدائيين الذين بات يعتبرهم مسؤولين عن الصدامات . وفي مناخ الأزمة هذا ، عمدت الجبهة الشعبية في ٦ أيلول ــ سبتمبر الى اختطاف أربع طائرات ، وقادتها الى مدرج هبوط في الأردن بعد أن عمدته باسم « مطار الثورة » موجهة بذلك اهانة جديدة للملك .

وبدت لنا العملية على أرفع قدر من الشبهة ، شأن قرار رئيس الجبهة الشعبية ، الدكتور جورج حبش ، بمغادرة عمان قبل ذلك بشهر وفي وسط الأزمة ، ليقوم ... « بزيارة ودية » الى كوريا الشمالية . كانت ضربة عتو تضع المقاومة بمجملها في منصة الاتهام معطية بذلك حسين الذريعة التي كان يحلم بها لينتقل الى الهجوم . فحتى العراق الذى كان مؤيدا لنا من حيث المبدأ ، وجه ضربا من الانذار لفتح طالبا توقيف قراصنة الجو واطلاق سراح الرهائن . ذلك انهم كانوا يعزون الينا سلطانا ما كنا نملكه في الواقع . ولم يفلح ياسر عرفات في الحصول الا على « تعليق » عضوية الجبهة الشعبية في اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لكن هذا الاجراء بدا قمينا بصورة مثيرة للسخرية بعد تدمير الطائرات المخطوفة بالديناميت ، واحتجاز بضع عشرات من المسافرين بينهم نساء وأطفال .

وعمت المعارك شمال الأردن حيث راحت المدفعية الملكية تقصف مكاتبنا قصفا منتظما . كان علينا ان نرد وأن نسرع في الرد . والغريب هو ان العراق كان يحرضنا على الاستيلاء على السلطة . فقد جرى تقديم عرض ملموس لنا بهذا المعنى قبل اختطاف الجبهة الشعبية للطائرات ببضعة أشهر . فخلال زيارة رسمية لعمان ، التقى وفد يمثل نظام بغداد ويضم ثلاثة من أبرز اعضائه نفوذا هم : عبد الخالق السامرائي وزيد حيدر ــ عضوا القيادة في حزب البعث ــ ومهدى عماش وزير الداخلية ، بياسر عرفات وبي في شهر ايار ــ مايو بقاعدة الحبانية . وقال لنا موفدو بغداد : « نظموا محاولة انقلاب ، فستدعمكم

الوحدات العراقية المرابطة في الأردن لقلب النظام الملكي واقامة سلطة شعبية » وكان في مشروعهم ان تحتل هذه الوحدات الزرقا واربد في الشمال بينما يستولى الفدائيون على عمان •

كان شعور عرفات وشعورى هو ان هذاالعرض تعوزه الجدية •واقترحنا على محادثينا الحصول بادئا على تأييد سوريا ، واذا امكن مشاركتها في المشروع وكنا نعلم ان التفاهم بين بغداد ودمشق امر مستبعد عمليا بالنظر الى المنافسات والخصومات بين العاصمتين • ثم تبين ان ريبتنا كانت في موضعها عندما لاحظنا سلبية الجيش العراقي أثناء الحرب التي ستندلع بعد ذلك بأيام بين الفدائيين والقوات الملكية • وهكذا فقد حاولنا كل ما تمكن محاولته في الأسبوعين الأولين من أيلول ــ سبتمبر لنتلافى المواجهة • فدخلنا في مفاوضات مضنية دارت تحت رعاية وسيط من الجامعة العربية هو الوزير السوداني السابق أمين الشبلي • وكنا لا نزال في ١٤ ايلول تتردد في الانضمام الى اتفاق تسوية كان يبدو لنا جائرا متعسفا ، حين خابرني عبد المنعم الرفاعي بالهاتف • كان صوته في الطرف الآخر من الخط عصبيا قلقا • وقال لي رئيس الوزراء «وقعوا الاتفاق بالغا ما بلغت الكلفة » دون أن يقدم أية تفسيرات ، ثم أقفل الخط • كنا نثق بالرفاعي الذى لم يكن وفاؤه للملك ينال من رأفته وتساهله مع المقاومة . وفهمت الرسالة التي كان يحاول ايصالها الينا : ان علينا ان تتفاهم مع الملك والا فانه سيشن علينا حربا عامة • فذهبت لفورى الى القصر ووقعت بروتوكول الاتفاق كما قدم الي ثم ابلغت الرفاعي بذلك للحال فأذاع النص مباشرة من اذاعة عمان • وحسبنا عند ذلك اننا تلافينا الأسوأ •

لكننا كنا مخطئين ، ذلك ان الملك أقال حكومة الرفاعي في صبيحة اليوم التالي ، وكلف اللواء محمد داود ، الفلسطيني الأصل ، بتشكيل حكومة حرب كان كامل اعضائها من العسكريين • وفي اليوم ذاته ، شنت وسائل الاعلام ولا سيما الاذاعة والتلفزيون حملة مقذعة ضد المقاومة • وفي ١٦ ايلول ــ سبتمبر وجه ياسر عرفات نداء استغاثة الى كافة رؤساء الدول العربية • لكن كان الأوان قد فات • ففي غداة اليوم التالي شنت القوات الملكية هجوما عاما

ضد الفدائيين غير مترددة في قصف كافة احياء عمان قصفا عشوائيا •

وهكذا ومهما بلغت الغرابة في ذلك ، الا اننا لم نكن مستعدين لمواجهة هذا الامتحان برغم انه كان متوقعا منذ بضعة أشهر : كان عدد من مسؤولي المقاومة يعتقدون اعتقادا راسخا لا حدود له بأن حسين لا يجرؤ على ذلك • وانما تشكلت قيادة موحدة من مختلف التنظيمات الفدائية قبيل بدء المعارك ببضع ساعات • الا ان جيش الملك احتل مقر قيادة فتح العسكرية العامة ، خلال دقائق • كنا قد أقمنا مقر القيادة هذا في جبل الحسين • وهو حي سهل الاتيان على نحو خاص ، في حين أنه كان بوسعنا ان نقيمه في حي الأشرفية الذى يعصى عمليا على كل اقتحام •

وذهبت الى مقر العمليات العسكرية ، الذى كان يقع هو الآخر في جبل الحسين ، ولكنه لم يسقط بيد القوات الملكية • ووجدت هناك ياسر عرفات الذى كان يحاول يائسا الاتصال بالملك بالهاتف ، في حين ان القذائف كانت تتساقط حولنا كالمطر • وقلت له : اقفل الهاتف فالهاتف لا يجدى نفعا ، ان احدا لا يريد حتى أن يخاطبك ! كنت مصيبا فيما أقول • فقد طلب الكلام مع الملك ثم من عدة عديدة من اعضاء بطانته واحدا بعد واحد ، فكان جوابهم جميعا هو انهم يؤدون صلاة الصبح ولا يريدون ان يزعجهم مزعج •

كنا اقل تنظيما مما كان حالنا يوم معركة الكرامة • فلم نعد اى مخطط للمعركة ولم نكن نستطيع ان نتصل ببعض القيادات العسكرية ولم نعدمخابىء لأعضاء القيادة • وكان خمسة منا موجودين في ذلك الصباح في دائرةالعمليات العسكرية • وكان ينبغي لنا أن نتفرق بسرعة• واقترحت على عرفات انيتحصن في جبل الويبدة ، بينما غادرت أنا المكان بصحبة فاروق القدومي وابراهيم بكر وبهجت ابو غربية لنتجه نحو مقر الاستخبارات العامة في المقاومة •

وما كدنا نصل الى طرف الشارع ، حتى رأينا أربع أو خمس دبابات من الجيش الملكي تخرج وتتقدم نحونا وهي تطلق النار في كافة الاتجاهات • فأسرعنا نحو أقرب منزل حيث وجدنا قاضيا أردنيا من الطائفة المسيحية عرض

علينا ضيافته . ولم نكن نعلم بعد اننا سنضطر لأن نمضي خمسة أيام دراماتيكية في صحبته .

ولن نلبث أن نعرف ان الحي محاصر من قبل قوات الملك حسين التي فرضت منع التجول على مجمل المدينة . ورسمنا عدة خطط للفرار ، لكن المراقبة كانت على قدر من الشدة ، ولا سيما في النهار ، بحيث اضطررنا الى التخلي عنها . وذات يوم ، عمدت قوات الأمن الى تفتيش كافة بيوت الحي بصورة منتظمة . وراح صوت آمر يزيده المذياع ضخامة يطلب من السكان الوقوف على مداخل المباني لمراقبة هوياتهم . كان من المستحيل علينا أن نقاوم فدسسنا مسدساتنا تحت الفراش ونزلنا الى الشارع .

كان الجنود المسلحون بالرشاشات ، يتطلعون بريبة وحذر ويسائلون ويفتشون ويشمون الأيدى طلبا لرائحة البارود التي تنم عمن استخدم الأسلحة النارية . ثم ان رائدا شابا راح يتفرس فينا وهو يقترب منا . ثم قال لنا بلهجة ملتبسة : « ماذا تفعلون هنا ؟ » فبادر القاضي الذى كنا ملتجئين عنده للاجابة بدلا منا بشجاعة : « انهم ضيوفي ، اصدقاء لي من الكويت » . وأمام عظيم دهشتنا ، فان الضابط اكتفى بذلك ولم يطلب معرفة المزيد وتركنا نمضي . فقد كان لنا ، برغم كل شيء ، اصدقاء في داخل القوات الملكية .

لكن ما أن كدنا نهم باللحاق بالمنزل ، حتى صاح جندى بسيط : « هذا رئيس فدائيين ! أنا اعرفه » . ثم أسرع نحو ابراهيم بكر وصفعه . واذ تفاجأ الضابط ، فانه أشار الينا لننسحب منسلين ، في حين وضعت القيود بيدي رفيقنا .

وفي المساء قررنا أن نفلت مهما كلف الأمر من أحد ثقوب الشبكة التي بدأت تضيق حولنا . وفي غمرة الليل ، وكانت الساعة الثامنة والنصف تقريبا، انسل فاروق القدومي خارج النافذة بواسطة حبل . وقبل أن اتمكن من أن اتبعه رأيته في العتمة وهو يعاود الصعود فجأة . وراح يفسر لي وهو يلهث ، ان قدمه لاقت جسما صلبا قبل أن يصل الى الأرض . وهكذا فقد تبين له وجود دبابة ترابط تحت شباكنا .

وفي غداة اليوم التالي ، علمنا بارتياح أن حظر التجول سوف يرفع في اليوم التالي لمدة ساعة للسماح للأهالي بالتمون . وهكذا فقد حانت أخيرا الفرصة التي تمكننا من مغادرة ملاذنا ، واللحاق بصورة أو بأخرى بمقاتلينا وبما أننا نلبس ثيابا مدنية ،فان بوسعنا ان نمر دون ان ينتبه الناس الينا . الا أننا استيقظنا في صباح اليوم التالي على جلبة وضجيج . فقد جاءت قوات اضافية تضم دبابات ومدرعات وبدأت تحاصر المجموعة السكنية . وما أن استقر المقام بهذا التشكيل العسكرى حتى دوى صوت مذياع يقول : « أبو أياد ! اننا نعرف أنك تختبىء هنا . سلم نفسك ، والا قصفنا الحي كله ! »

وعشت آنذاك أكثر ساعات حياتي قلقا . كان رأي بهجت أبو غربية هو أنه ينبغي أن نذعن للأمر ، توفيرا لخسائر بشرية لا طائل في هدرها . أما فاروق القدومي وأنا ، فقد ترددنا . اذ لم نكن نستطيع الركون الى استسلام مذل . بل لقد فكرنا في أن نقتل أنفسنا بأن نفرغ مسدساتنا على القوة التي تحاصرنا . وأما مضيفنا فانه لم يقل شيئا ، ولكنه كان بادي الرعب . وأما الجيران الذين خمنوا هويتنا أثر توقيف ابراهيم بكر ، فانهم جاءونا بعضهم أثر بعض يطلبون الينا تسليم أنفسنا . لا بل ان أحدهم ، وهو قريب بعيد للقدومي ، تعرف عليه وراح يمارس عليه ضغوطا خسيسة . وأما صوت المذياع الوخاز ، فانه ازداد تهديدا .

وقرابة الساعة العاشرة صباحا ، أي بعد الانذار الأول بأربع ساعات انهمرت الرشاشات وتتالت الانفجارات المرعبة وأصيب عدد من منازل الحي . واختلطت فرقعة الطلقات التي استقرت في مصاريع نوافذنا ، بصيحات النساء وبكاء الأطفال . وجاء بعض هؤلاء الأطفال ــ بعد ان ارسلهم ذووهم يطرقون على بابنا ويضرعون الينا لكي نغادر المكان . ثم جاء أحد جيراننا يعطينا ثلاثة أعلام بيضاء اقتطعها من شرشف فراش . فقطعتها اربا .

ولحسن الحظ فان الجنود الأردنيين اوقفوا اطلاق النار بعد ذلك بقليل. فاغتنمنا فترة السكون لنقنع جيراننا بالصبر حتى الظهر أى حتى الساعة التي سيرفع فيها منع التجول . وبهذا نغادر المنزل بدون أن نرفع أذرعتنا بعلامة

الاستسلام . ويظل شرفنا سليما .

وما كدنا نسير في الشارع المقفر بعد دخول الهدنة حيز التنفيذ بدقائق ، حتى نادانا أحد العسكريين ليقودنا الى رئيسه الذى يريد رؤية أوراقنا .وكان جوازا سفر بهجت أبو غربية وفاروق القدومي الصادرين باسميهما الحقيقيين يشيران الى صفتهما كأستاذين في الكويت . ولم يكن لدي من جهتي أيةوثيقة أقدمها . وبذل القدومي كل مواهبه ككوميدى وصاحب نكتة ليزيل ريبة وحذر الضابط الذى كان يصر ـ ربما لأنه عرف هويتنا ـ على اقتيادنا الى معسكر الطبربور العسكرى الذى يقع على مبعدة خمسة كيلو مترات من عمان ويستخدم كمركز اعتقال .

وكانت الشاحنة التي صعدنا اليها تضم نحوا من عشرة مشبوهين وينهال الجنود عليهم بالضرب . لكن الضابط أوصى حراسنا بأن لا يضربونا قبل اجراء التحقيقات الاعتيادية .

ولسوء حظي ـ وحسنه أيضا ـ فان ضابط الاستخبارات الذى قدمنا اليه ، مصطفى الاسكندرى تعرف علي فورا .واحتضنني بين ذراعيه قبل أن يذكرني بأنني خلصته ذات يوم من مجموعة فدائيين أخذوه رهينة . وأعفانا من عمليات التعذيب التي توقع بمعتقلي الطبربور ـ الذين كنا نسمع صرخاتهم ـ باحالتنا فورا الى المقر المركزى للمخابرات بعد أن أخطر بتوقيفنا .

كان الاستقبال الذى حظينا به هناك استقبالا سيء الطالع . فقد خلعوا أحذيتنا ونزعوا كافة أمتعتنا الشخصية قبل أن يأخذونا حفاة الى زنزانات تحت الأرض وحبسونا ثلاثتنا في زنزانات متجاورة . وكانت زنزاتي تبلغ المترين طولا والمتر الواحد عرضا ، رطبة قذرة الرائحة بحيث أنها قززتني للحال . وجعلتني الاثنتا عشرة ساعة المتوالية التي أمضيتها فيها في عتمة دامسة دون طعام أو شراب ، أغرق في كآبة عميقة . ليس لأن اغتيالنا كان يبدو لنا امرا محتوما ، وانما بسبب الوصمات التي سيحاول أعداؤنا تلويث شرفنا بها بعد اعدامنا . اذ لا ريب أنهم سيقدمون توقيفنا ـ وتوقيف ابراهيم بكر ـ كاستسلام جبناء ، بهدف تحطيم معنويات قواتنا .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، أخرجت من الزنزانة لأتعرض لأول استجواب كان الضابط المحقق لطيفا بل محببا وقدم لي سيجارة فرفضتها برغم أني كنت مدخنا مدمنا • ثم رفضت أن أجيب على أسئلته طالما لم يحضر الى جانبي أبو غربية والقدومي اللذين كنت أسعى للاطمئنان على مصيرهما • وراح الضابط يلح : هل أستطيع على الأقل ان أدله على مكان جهاز ارسال راديو العاصفة السرى ، الذى كان ببديهة الحال يزعج السلطة الملكية الى أقصى حد• وأجبت بأنني لا أعرف عنه شيئا (وكان ذلك صحيحا) وأنني حتى لو كنت أعرف موضعه لفضلت الموت على أن أرشد اليه • وعندما انتقلنا الى التهديدات قلت لمحدثي ان الفدائيين سيعرفون متى عاد السلام ، كيف يصفون حساباتهم مع من يفرطون ، مثله ، في الحماس •

وتوقف عن الالحاح ثم استدعى أبو غربية والقدومي • ولم ينس القدومي دوره الذى يجيده ، فراح يعرب عن استنكاره الشديد وسخطه التام ، مبديا أنه لم يلق في حياته من الاهانة ــ وهو الذى يشغل في منظمة التحرير منصبا يوازى منصب وزير ــ بقدر ما لقي اليوم ! وكنا لا نزال نضحك من طرف خفي حين دخل رئيس المخابرات نذير رشيد واحتضنا بين ذراعيه على الطريقة العربية مرحبا بنا • كان اللواء رشيد معارضا قديما للنظام الأردني ولاجئا سياسيا طيلة عدة سنوات في مصر قبل أن يعود فيلتحق مجددا بالملك حسين ، ويقدم نفسه كقومي عربي صلب • وأوقف الاستجواب وأصدر أمرا بأن نعامل بعد الآن معاملة حسنة • فقد فهم ، وهو الداهية ، بأنه لا جدوى في الالحاح وأن الحكمة تقضي بالحفاظ على حياتنا • لكن ذلك لم يكن رأي سلفه رسول الكيلاني وهو من أصفياء الملك ، حين التقاني بعد نهاية المعارك • فقد قال لى: « ان أفدح خطأ ارتكب هو الابقاء عليكم • ولو اعدمناكم في الحال ، لكنا كسبنا الحرب ! » قال ذلك بحضور القدومي في لقاء عابر •

يبقى أنه في غداة محادثتنا مع رئيس المخابرات ، بدأ الوزراء وكبار المسؤولين وكبار ضباط الاستخبارات يتوافدون الى الغرفة الفسيحة التي وضعت بتصرفنا لخوض مناقشات سياسية حادة جعلتنا نملها لأنها كانت تبدو لنا عقيمة لا طائل فيها • وفي اليوم بعد التالي ، بدأت حرب الأعصاب .

وبدأ ضباط الحرس « يفضون الينا سرا » ، مرة بأن ياسر عرفات استسلم ، وتارة بأنه قتل . وحينا بأن « البحرية الأميركية » (المارينز) تستعد للانزال لمساعدة القوات الملكية .

وقد تركتنا هذه المعلومات في حالة قلق . كنا لا نزال نجهل بأن وحدات سورية عبرت الحدود لتساعد الفدائيين ، مثلما كنا نجهل أن ضغوطا سوفياتية ومصرية كانت تمارس على دمشق لتسحب قواتها تلافيا لتدخل عسكرى اسرائيلي ـ أميركي . وانما عرفنا فيما بعد ، بأن الجيش السورى انسحب بعد دخوله بأربعة أيام . أما الوحدات العراقية فانها ظلت سلبية كما توقعنا تماما . وقد أسمعني ضابط استخبارات أردني ابان اعتقالي تسجيلا لمحادثة بين الملك حسين واللواء حردان التكريتي وزير الدفاع العراقي حيث كان الوزير يعلن بوضوح : « ان قواتنا ، وفقا لتعهداتنا ، لن تتحرك ... » والواقع هو أن الجيش العراقي سحب من الأردن بعد معارك أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ . ذلك ان بغداد ـ كما سيفسر لي الرئيس البكر ذلك بعد بضعة أشهر ـ خافت من تدخل أميركي يعرض النظام البعثي للخطر .

وباختصار ، فان كافة الأصداء التي كانت تتناهى الينا من خارج سجننا لم تكن أخبارا مفرحة . وذات مساء جاءتنا ثلاث شخصيات أردنية بينها رئيس الأركان العامة ورئيس الاستخبارات للتباحث معنا . فعرضت عليهم مشروع اتفاق لوقف اطلاق النار لا يدخل حيز التنفيذ الا بعد موافقة ياسر عرفات وبقية أعضاء القيادة . وألحيت برغم اعتراضات فاروق القدومي وابراهيم بكر ـ بأن يعرض المشروع على الملك حسين على مسؤوليتي وحدي . كان تفكيرى هو التالي : اذا كان الفدائيون على وشك الهزيمة ، فانني أكون قد قدمت لهم مخرجا مشرفا ، ووفرت حياة كثيرين ، أما اذا كان الظرف لصالحهم فانني أكون المتورط الوحيد بالمبادرة .

وكان المشروع الذى حررته بحضور محادثي الأردنيين يتضمن أربع نقاط : عودة الجيش الملكي الى ثكناته ، اخلاء الفدائيين لعمان ، الشروع في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد

للشعب الفلسطيني ، اقامة قواعد فدائية على طول الخط الفاصل عن الأراضي التي تحتلها اسرائيل •

وبناء على اقتراح الشخصيات الأردنية المطلقة الصلاحية هذه ، فانني قرأت النص بصوت عال فسجلوه بدون علمي ونقلوه للملك • وكان الاتفاق بيننا هو ان نذهب رفاقي وأنا الى سفارة مصر حيث تتصل بعرفات بالراديو لأخذ موافقته • غير أن الملك انتهك التعهدات المعطاة حين بث من راديو عمان منذ صباح ٢٣ أيلول ــ سبتمبر اقتراحاتي ــ بعد أن قدمها كاقتراحات صادرة عن قيادة فتح ــ معلنا موافقته عليها • وكنت أوضحت تماما بأنه ليست لي كسجين أية صفة تخولني التفاوض فضلا عن اتخاذ قرار باسم منظمتي • يبقى أنني ، وأنا لا أزال أجهل ما حل بمشروعي ، وافقت في اليوم نفسه طبقا لما تم الاتفاق عليه ، أن أذهب الى سفارة مصر بصحبة القدومي وبكر ، اذ كان أبو غربية مريضا • الا ان السيارة المدرعة التي وضعونا فيها لم تفلح في التقدم أكثر من بضع عشرات من الأمتار ، فقد كانت المعارك التي تدور في هذا القطاع على جانب عظيم من الكثافة • وأجبرتنا العيارات وانفجارات القذائف على أن نعود أدراجنا بعد عدة محاولات غير مثمرة • وهكذا أدركت أخيرا بأن الفدائيين لم يهزموا وأنهم لا يزالون يسيطرون على عدة أحياء من العاصمة • وكنت أجهل بطبيعة الحال ان قوات المقاومة حررت في اليوم ذاته مثلث اربد ــ الرمثا ــ جرش وأنها تسيطر على هذه المدن الشمالية الثلاث •

ولدى عودتي الى السجن ، دعوني للذهاب الى قصر الحمر ، حيث ينتظرني الملك وأعضاء الوفد الذى أرسله رؤساء الدول العربية من القاهرة للتوصل الى وقف المعارك • وكان يقود الوفد ، الرئيس السوداني اللواء جعفر النميرى ويضم رئيس الوزراء التونسي الباهي الأدغم ووزير الدفاع الكويتي الشيخ سعد العبد الله ، ورئيس المكتب الثاني المصرى ، الفريق صادق • وكان هذا الأخير قد سبق الوفد الى عمان ليطلب من الملك باسم عبد الناصر اطلاق سراحي وسراح القدومي • ورفض عرضا لزيارتنا في السجن وألح على ان ندعى الى القصر •

وبعيد وصولنا الى مدخل المقر الملكي ، جاء حسين ليرحب بنا • وعانقني بحرارة وقال لي بلهجة اللائم : « أأنت راض عن المأساة التي نعيشها ؟ » وأجبته : « يا صاحب الجلالة : لقد فعلنا كل ما في وسعنا لتلافي هذه الكارثة، وأنتم لا تجهلون ذلك • لكن اتعرفون ما تفعله قواتكم ؟ وهل تعلمون انها تقوم بذبح الأهالي ؟ وأن رجالكم يعذبون الشباب الوطنيين في معسكر الطبربور غيرالبعيدعن قصركم ؟ » وأخذني الملك من ذراعي ومضى بي الى داخل القصر مؤكدا لي أنه سيفتح تحقيقا بهذا الموضوع •

دارت المحادثة التي جرت بيننا وبين أعضاء الوفد العربي بحضور حسين ، حول وسائل الاتصال بعرفات لفرض وقف اطلاق النار بأسرع مايمكن كان الجو متوترا ، وانسحبت مع بعض أفراد البطانة الملكية الى الطابق الأرضي من القصر • وبينما كنت أتحادث مع رئيس الوزراء السابق أحمد طوقان ، فانني طلبت بعض الماء لأشرب • فرماني مرافق عسكرى شاب كان يقف الى جانبنا بعبارة شتيمة مضيفا أنه يفضل ان يراني « أموت عطشا » • وذهب أحمد طوقان ليبلغ الحادث الى الملك الذى ما لبث ان جاء بعد بضع دقائق وفي يده كوب ماء •

غير أننا لم نكن نملك الا الأعداء فقط في المحيط الملكي • فبينما كنت ننتظر نهاية المداولات أبلغني ضابط أردني كبير على انفراد بأن الأمر صدر للجيش بقصف مدينة اربد في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم ذاته • فأسرعت لفورى الى الطابق الأول لأطلب من حسين ، أمام أعضاء الوفد العربي أن يعطي أمرا مضادا لمنع حدوث مجزرة جديدة • واذ أخذته المفاجأة ، والغضب أيضا ، فانه بدأ بالانكار وصاح « لكن من ذا الذى قدم لك هذه المعلومات الخاطئة ، أريد أن أعرف » • ورفضت بطبيعة الحال أن أكشف له المصدر • وبناء على طلب أعضاء الوفد العربي ، ذهب الملك الى الغرفة التي يستخدمها كمركز اتصالات ، ثم عاد ليعلن بأن قيادة الأركان أكدت له « ان اربد لن تقصف »•

وقرر الوفد العربي ان يعود مساء اليوم نفسه الى القاهرة ووافق الملك حسين على أن يطلق سراح صحابتي الثلاثة • ولكنه أصر على الاحتفاظ بي في

عمان ، حيث يمكن أن أكون ، وفق ما قال ، أكثر فائدة • الا أنه اضطر ان يرضح للفريق صادق الذى كرر أمامه بحزم ، ان عبد الناصر أعطاه الأمر بألا يغادر عمان الا برفقتي •

ولم أعلم ، الا وأنا على متن الطائرة التي تقلنا الى القاهرة من فم اللواء النميري بالضربة الغادرة التي سددها الينا • فقبل مغادرته عمان ، أذاع رئيس الدولة السودانية بدون علمي بيانا لوقف اطلاق النار من راديو عمان ، كان قد تفاوض عليه مع حسين ، ولكنه عزاه الى رفاقي الثلاثة والي • واستبد بي الغضب عندما قدم الي الرئيس السوداني نص الاتفاق ، وألقيت الوثيقة أرضا وأنا أقول له أنه باطل لاغ • وبالفعل فان قيادة فتح نشرت بيانا بهذا المعنى، مبدية أننا لم نوافق عليه لأننا كنا مسجونين ولسنا في وضع يمكننا من ممارسة ارادتنا بحرية •

كان جمال عبد الناصر ينتظرنا في مطار القاهرة واحتضننا بحرارة وهو بادى السعادة لدى رؤيتنا سالمين معافين جميعا • وأخذنا في سيارته الى قصر القبة في ضاحية القاهرة حيث كان رؤساء الدول العربية مجتمعين منذ بضعة أيام ينتظرون نتائج المهمة التي قام بها مندوبوهم في عمان .

وقدمت لهم عرضا عن الوضع في الأردن ، واصفا وحشية القوات الملكية ، والدمار الرهيب الذى شاهدته في شوارع العاصمة، ملحا على الخسائر البشرية التي تحل بالأهالي المدنيين وعلى ارادة الملك حسين في تصفية المقاومة •

وقد صدمت ، وأنا أتكلم ، من قلة التحسس لدى غالبية المستمعين الي• كانت وجوههم ساكنة باردة ونظراتهم غائبة او لا مبالية • صحيح انهم كانوا يصغون الي بأدب ، ولكنه اصغاء متجرد غير آبه جعلني استشعر البرودة في ظهري • أفصحيح أن من أراهم أمامي هم زعماء الأمة العربية الساخطة المنكرة لهذه المأساة الرهيبة التي يعيشها الشعبان الأردني والفلسطيني ؟!

وعندما أنهيت عرضي ، أوصلنا عبد الناصر ــ القدومي وأنا ــ بسيارته

الى فندق هيلتون بالقاهرة حيث كان يقيم طيلة اجتماع « القمة » • ثم استقبلنا بعد ذلك في الجناح الرئاسي بحضور نائب رئيس الجمهورية حسين الشافعي ورئيس الوزراء السابق علي صبرى ثم ما لبث أن طرح علينا لتوه السؤال التالي : ماذا تريدون أن أفعل لمساعدتكم ؟ • كان عبد الناصر بقسماته المتعبة ونظرته الحزينة يبدو مغموما مكتئبا للغاية • وأحسب أني استشفيت شعورا بالذنب لديه ازاءنا • وقال لنا مفسرا ابطاءه بالتدخل (حوالي خمسة أيام) لوضع حد للمعارك في الأردن : « كنت في مرسي مطروح بعيدا عن مصادر معلوماتي ، فكان انطباعي الأول هو ان المواجهة ضئيلة الأهمية ، شبيهة بكل تلك المواجهات التي سبقتها ••• » كان يسعى الى التعويض عن قصوره • وراح يلح قائلا : « هل تريدون أن نضع اذاعة القاهرة بتصرفكم مجددا ؟ » (كان قد منعنا عنها قبل ذلك بثلاثة أشهر كرد على الانتقادات التي وجهناها الى مخطط روجرز) . وأجبته بأنه يجب الاسراع بأقصي ما يمكن ايجاد الوسائل اللازمة لاخراج ياسر عرفات من عمان • ثم أضفت موضحا ، ان الملك حسين لن يوقف المعركة طالما بقي رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن • والحال هو أنه يجب ايقاف الحرب بأسرع ما يمكن • فوفقا للمعلومات التي أملكها فان هجمة الجيش الملكي ضد حي الأشرفية حيث أقام عرفات مقر قيادته ، كانت الى ازدياد في حين أن ذخائر مقاتلينا كانت الى نفاذ • ثم انتقدت الطريقة التي انجز بها الرئيس السوداني جعفر النميرى مهمته ، قبل أن اقترح عودته الى عمان لتخليص عرفات •

واستمرت محادثتنا مع عبد الناصر طوال الليل ، وانتهت بموافقته على مشروعي • وقال لي ان الفريق صادق سيكلف بتركيز خطة خروج عرفات • فلم يبق علي سوى ان اقنع بقية رؤساء الدول المعنيين بمهمة اللواء النميرى الجديدة • فأما الملك فيصل فكان مغلقا أبدا، ثم عين بعد بعض التردد مستشاره رشاد فرعون كعضو في الوفد • وأما أمير الكويت فعين وزير دفاعه على عجل • وذهب أبو غربية وفاروق القدومي الى سوريا لاقناع الرئيس الأتاسي الذى غاب عن اجتماع القاهرة،في حين ان ابراهيم بكر رافق الوفد العربي الى عمان • وعارض عبد الناصر معارضة حازمة امر اشتراكي بالوفد خشية أن

أعتقل مرة أخرى .

غير ان اللواء النميرى رفض ، أمام دهشتي الكبرى ، أن يقود الوفد . اذ اعتبر ان مهمته انتهت ، وأنه على أى حال لا يريد أن يضع بعد قدميه في عمان . ولم يرضخ في النهاية الا بناء لالحاح عبد الناصر الذى كان يجله كثيرا .

ثم ان الفريق صادق بدأ تنفيذ الخطة التي وضعها لايصال عرفات الى القاهرة ، منذ وصول الموفدين العرب المطلقي الصلاحية الى عمان . وقد أوصلوا بناء على طلبهم الى سفارة القاهرة حيث اتصلوا برئيس منظمةالتحرير بالراديو وبواسطة شيفرة تجهلها السلطات الأردنية ، وضربوا له موعدا فيحي تسيطر عليه المقاومة . وفيما كان بعض أعضاء الوفد العربى يتفاوض مع الملك حسين ، كان آخرون قد ذهبوا لملاقاة عرفات مزودين بلباس بدوى كويتي . وبهذا الزى التنكرى ، تمكن رفيقنا من مغادرة الأراضي الأردنية على متن ذات الطائرة التي أقلت الوفد الى القاهرة .

وما أن علم الملك حسين ، الذي كانلا يزال حتى ذلك الوقت يتذرع بمختلف الأعذار ليتخلف عن حضور مؤتمر رؤساء الدول العربية ــ عن طريق برقية وعيد أرسلها اليه عبد الناصر ــ بأن عرفات أفلح في الفرار ، حتى ركبالطائرة الى مصر . وكما توقعت ، فانه تم التوصل الى اتفاق لوقف اطلاق النار وافق عليه الطرفان وأعلن للفور ، على أن يطبقه الجيش الأردني تحت اشرافضباط عرب أرسلوا الى عمان .

وفي غداة توقيع اتفاق عرفات ــ حسين في القاهرة في ٢٨ أيلول ــ سبتمبر ، كنا ــ فاروق القدومي وأنا ــ لدى أصدقاء حين توقفت الاذاعة فجأة وبدأت تبث بدون سبب ظاهر ، آيات من الذكر الحكيم . وخالجنا شعور ازاء علامة الحداد هذه ، بأن مصيبة حلت بعبد الناصر . ثم لم يلبث بعض الصحفيين الأصدقاء أن أكدوا لنا النبأ الرهيب : فالرجل الذى أنقذنا مات ! وبرغم ألمي الذى لا يطاق ولا يحتمل ، فانني حررت باسم فتح رسالة تعزية

الى أنور السادات ، بصفته نائب رئيس الجمهورية . كان النص ينبع من قلبي وكنت واثقا أن كل كلمة فيه ، تعبر عن أعمق مشاعر الفلسطينيين كافة . وجاء في الرسالة ما فحواه ، ان عبد الناصر الذى يجسد تطلعات وأحلام الأمة العربية كلها ، قد سقط في ساحة الشرف ، وستظل أفكاره محفورة في ذاكرة الأجيال المقبلة من الشعب الفلسطيني الذى أعاد اليه كما أعاد لكافة الشعوب العربية الأخرى ، الكرامة والأمل .. وعلم عرفات وأبو جهاد وأبو مازن الذين كانوا يتجولون ذلك المساء في سيارة بدمشق ، بالنبأ من الاذاعة التي بثت النبأ كما بثت نص برقيتي . وانفجر الثلاثة بالبكاء . وعندما رأيت عرفات الذى عاد مسرعا الى القاهرة كانت الدموع لا تزال تنهمر من عينيه .

وقد يدهش البعض من عمق حزننا ، معللين دهشتهم بالخلافات وأحيانا بالمصادمات التي جرت بيننا وبين عبد الناصر . ان هؤلاء لن يفهموا كذلك أسي الشعب المصرى الذى راح يندب ويولول بالملايين في جنازته ، مثلما نادى به في ٩ و ١٠ حزيران ـ يونيه ، بعد حرب الأيام الستة . كان عبد الناصر أبا لنا جميعا وهاديا ، حتى ولو كان يحدث له أن يخطىء . وقد أدى كوطني ، خدمات جلى للشعب المصرى ، وقدم ، كقومي عربي ، معونة لا تقدر للشعب الفلسطيني . ذلك أنه كان يحبنا حبا صادقا .

وظل وفيا للالتزامات التي قطعها لنا منذ لقائنا الرسمي الأول عام ١٩٦٨ وكان كثيرا ما يستقبلنا دون أن يحسب حساب الوقت الذى يوليه لنا .فكانت محادثاتنا تتصف بالصراحة وتنتهي دائما بنتائج ملموسة . ولازلت أذكر محادثة اجريناها معه ـ عرفات وأنا ـ في تشرين ثاني ـ نوفمبر عام ١٩٦٩ بحضور أنور السادات . فقد حرص على أن يوصلنا الى درج مدخل منزله ، ثم راح يتتبعنا بعينيه ونحن نتجه نحو سيارتنا . ورأيت نظرته ، كانت نظرة مشرقة مليئة بالحنو الأبوى وبالرضى . وهمس السادات الذى كان يسير الى جانبنا يقول : « ان الريس يحبكما كثيرا أنتما الأثنين ، وهو يسعد كثيرا عندما يراكما متحدين في الكفاح ، فأيداه بلا قصور ، فانه يحتاج الى ذلك » .

ويقينا أنه تأخر في الرد على الهجمة التي شنها الملك حسين ضد الفدائيين

في أيلول ١٩٧٠ بحيث أن بعض المرتابين لم يترددوا في تبني الاشاعة التي روجتها المخابرات الأردنية والتي تقول أنه « أعطى الضوء الأخضر » للملك للتخلص من الفدائيين • لكن كافة الأمور تبدو لي وكأنها تكذب هذه الأطروحة • فلو كان يريد دمارنا حقا ، أفكان بذل كل هذا الكد لايقاف المعارك وانقاذ قادة المقاومة • ثم ان الأسباب التي قدمها لي ليفسر سلبيته ابان الأيام الاربعة أو الخمسة الأولى من الحرب ، بدت لي صادقة صريحة • واذا لم تكن كذلك ، فان اسوأ الافتراضات التي يمكن أن نقول بها هي تلك التي تقول أن عبدالناصر كان يسعى الى « تلقيننا درسا » وأن يذكرنا بحدودنا في اللحظة التي كنا نحاول فيها قطع الطريق أمام تسوية سلمية مبنية على « مخطط روجرز » •

وأنا ، على أية حال ، واثق من أن حسين ما كان سيجرؤ على انجاز مشروعه الرامي الى تصفية الفدائيين في الأردن ، لو أن عبد الناصر بقي حيا • بحيث أن مجازر جرش وعجلون ، التي تشكل نهاية استراتيجيته ، كانت ستصبح مستحيلة • وانما رضخ الملك وقبل بوقف اطلاق النار تحت ضغط الرئيس المصرى الذى كان نفوذه غالبا على العالم العربى ، راجحا فيه • كما أنه اضطر بعد ذلك ، حين وجد نفسه معزولا الى أن يوقع مع منظمة التحرير الفلسطينية اتفاق ١٣ تشرين أول ــ أكتوبر • وهو لم يكن ينوى حين وقع الاتفاق ان يطبقه ، كما افضى لي بذلك في وقت لاحق ، وصفي التل ، الذى جرى تعيينه رئيسا للوزراء وحاكما عسكريا للأردن في ٢٨ تشرين الأول • كانت شروط الاتفاق تبقي لنا حرية عمل واسعة ، كما كانت تسمح لميليشياتنا بالبقاء في المدن • لكنه كان ثمة بند بخاصة لم يكن في استطاعة الملك ان يحتمله ، عنيت البند الذى يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني • فالواقع هو أن أحد أهداف حرب أيلول ، كان بالضبط اعادة حق التفاوض على مستقبل الأراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية وغزة الى العرش الهاشمي •

وعندما عدت الى عمان في نهاية شهر تشرين الأول ــ أكتوبر ، خصصت زيارتي الأولى للقاضي الذى آوانا بشجاعة، صحابتي المنكودى الحظ الثلاثة

وأنا • وبطبيعة الحال ، فقد حافظت على سره ولم تفلح المخابرات في اكتشافه. ورحنا نمرح ونثير حول مائدته العامرة، بعض الفصول المأساوية ــ الكوميدية في محنتنا المشتركة • وأجريت عدة مباحثات مع حسين ووصفي التل ، تهدف الى تركيز اطار علاقاتنا المستقبلية • ولم يكن وصفي التل الذى كنت أعرفه ، يوحي اليّ بأية ثقة • كنت أسميه « العميل الأيدلوجي » . ذلك أنه كان مترفعا على الصعيد المادى ، ولكنه ذو طواعية مخيفة عندما يتعلق الأمر بتنفيذ سياسة لندن ، في الفترة التي كان نفوذ انكلترا غالبا على الأردن • ثم اتخذ موقفا مماثلا من الامبريالية الأميركية.

كان وصفي التل ، المعروف بشراسته التي لا تعرف الشفقة او الرحمة ، ذا مهارة وحنكة ايضا • وكان يحتك بالاوساط القومية في الاردن محاولا التلاعب بها ، مفلحا في ذلك احيانا • وخلال محادثاتنا في خريف عام ١٩٧٠ كان محببا وديا وحارا • ولم يكن يهدف ، بحسب اقواله ، الا الى توفير انطلاقة جديدة للحركة الفدائية • وقال انه يريد مساعدتنا وانه ليس علي الا أن أشير لما « نطلب ونتمنى » • ولم ينطل علي ذلك خاصة وانني كنت اراقب عن كثب مناوراته التي ستؤدي في اقل من تسعة اشهر بعد ذلك ، الى تدميرنا.

فخلال شهري تشرين الثاني ــ نوفمبر وكانون الأول ــ ديسمبر ، أقام بجوار كافة مواقعنا « مراكز درك » لم تكن في الحقيقة الا مراكز للجيش الملكي • وفي كانون الثاني ــ يناير ، بدأت الحوادث والمصادمات وحوادث اطلاق النار تندلع بين الفدائيين وقوات الامن كما لو ان وراءها سحر ساحر • وأبلغنا وصفي التل بأنه لا يسمح بهذا الوضع الفوضوي الذي توجده حركة لا تستطيع فرض الانضباط في صفوفها • وطالب بمغادرة الفدائيين لكافة مدن المملكة وبنزع سلاح الميليشيات • ثم أكد ان على مقاتلينا ان يتجمعوا في جرش وعجلون حيث يستطيعون مقاتلة العدو بصورة افضل • ووافق ممثلونا في نهاية شهر كانون الثاني ــ يناير على عقد اتفاق ينص على تسليم السلاح ظانين ان في وسعهم مغافلة السلطات وافراغ الاتفاق • وما ان وافاني الخبر

الى حيث كنت ، في الكويت ، حتى عدت مسرعا الى عمان • كنت مقتنعا بأننا ارتكبنا خطأ فادحا سوف يكلفنا ثمنا باهظا • وقد صوبت الاحداث لسوء الحظ رأيي • وبدأ وصفي التل باصدار قانون يوقع عقوبة الاعدام بكل شخص يحمل سلاحا ناريا • ثم بدأ الجيش بعد ذلك يفتش الاحياء منزلا منزلا ويكتشف مخابىء سلاحنا بسهولة مذهلة • وببديهة الحال ، فان قوات الامن كانت على قدر حسن من الاطلاع على نشاطاتنا السرية • وقد اتاحت لنا التحقيقات التي قمنا بها لاحقا ان نكتشف عددا من عملائهم ، الذين كانوا يبدون في الغالب مناضلين متعصبين من انصار التطرف . الامر الذي عزز قناعتي بأن دعاة التطرف ، لا يمكن ان يكونوا الا اغبياء او خونة •••

وبدت لي معالم المؤامرة وهي تتضح ، فطلبت مقابلة الملك • ولم يكن في وسعي هذه المرة ان اراعي أصول المجاملة التي طالما راعيتها حتى الان ازاءه • وقلت له بالحرف : « اذا ما ضربت الفدائيين في اخر معاقلهم في جرش وعجلون ، فاني اقسم اني سألاحقك حتى اخر نفس في حياتي ولو الى طرف الدنيا ، لأوقع عليك العقاب الذي تستحق ! « وأخذ حسين بادىء الامر ، ثم اكتفى بأن تمتم قائلا:« لا سمح الله ••• » ولم أره منذ ذلك الحين •

وفي الشهرين التاليين تكاثرت الاجراءات المتخذة ضد الفدائيين ، واحتل الجيش كافة مخيمات اللاجئين ، وتكاثف القمع ، وازدادت الحوادث المسلحة التي تصطنعها السلطة حتى ابتذلت • وأدارت الانظمة العربية وجهها عنا ولم تعد تأبه بمصيرنا • وبدا لي أن ساعة المواجهة القصوى حلت • فقررت ان أقاتل بوجه حاسر صريح • ودعوت في الخامس عشر من أيار الى اجتماع عام في مخيم اللاجئين بالوحدات في عمان •

وقال لي رفاقي ان ذلك « مستحيل » ، فالناس اكثر رعبا من ان يشاركوا بمثل هذه المظاهرة » • ولثقتي في شجاعة مواطني فانني طلبت أن يعقد الاجتماع في مدرج يستطيع أن يضم أكثر من ١٠٫٠٠٠ شخص • اذ أليست هذه هي المرة الاولى منذ حرب أيلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ التي يخاطب فيها احد قادة المقاومة الشعب ؟ غير اني أبلغت عشية الاجتماع بأن الجيش

أحاط بالمدرج وركز الرشاشات على أسطح المباني المحيطة • وقلت ما هم فالاجتماع سيعقد على كل حال •

وفي صبيحة اليوم التالي ، جاءني منظمو الاجتماع في الساعة الرابعة الا ربعا أي قبل موعد الاجتماع بخمس عشرة دقيقة وهم قلقون ليقولوا لي ان المدرج لا يزال خاويا خواء مؤيسا • وبرغم كل شيء فانني اتخذت طريقي ماشيا الى مخيم الوحدات فوصلت اليه في الساعة الرابعة تماما • لأشاهد هناك مشهدا ينم عن معجزة ، فلم يكن الملعب الرياضي مكتظا وحسب ، بل كان يفيض بحشود كثيفة غالبيتها العظمى من النساء ، اللاتي كثيرا ما كن يحملن اطفالهن الرضع على سواعدهن ، ومن الاطفال والمسنين • وكانت النسوة يلبسن اللباس الوطني ، الطويل المزدان بالزركشة المتعددة الالوان • وعلمت في وقت لاحق ان الاتفاق في مختلف مخيمات اللاجئين كان يقضي بالذهاب الى الاجتماع في اللحظة الاخيرة . وهكذا فان قوات الامن لم تستطع ان تكبح الموج البشري الذي اندفع على الوحدات •

ولاحظت الجنود وأنا أصعد الى المنصة ، وهم على السطوح لابسين بزات القتال وأيديهم على الزناد يصوبون مدافع رشاشاتهم باتجاه الحشود التي كانت تتجاهلهم • وعندما أخذت الكلام ، خاطبت العسكريين الذين يحاصروننا للحال • وقلت : « هل تظنون انكم تخيفوننا باتشاركم هذا • كلا ! فلا الضربات ولا الطلقات جعلت الفلسطينيين يتراجعون عن هدفهم الوحيد بتحرير وطنهم • ولو كنت مكانكم لاعتراني الخجل • اذ بدلا من ان تكونوا على الجبهة تقاتلون الجيش الاسرائيلي ، ها انتم مجبرون على توجيه اسلحتكم نحو نساء وأطفال لا سلاح لديهم ولا دفاع » •

وما كدت انهي هذه الخطبة القصيرة حتى ارتبك الجنود وحولوا مدافع أسلحتهم بعضهم اثر بعض أمام تصفيق الجمهور • كما أن كثيرين منهم غادروا مواقعهم تدريجيا اثناء خطابي ليختلطوا بالحشود • ثم خاطبت الحشود بعبارات قاسية في صراحتها وسردت تاريخ علاقات المقاومة بالسلطة الاردنية ، ونددت بازدواجية وصفي التل والملك حسين • فقد اخلفا وعودهما لنا

دائما وباتنظام ، ووقعا اتفاقيات لم تكن لديهما أية نية لاحترامها ، وانتهكا تعهداتهما حين احتلت قواتهما المخيمات وطردت الفدائيين من المدن . وتابعت أقول : ولقد أقسما على أن يبقيا على فدائيينا المحتشدين في جرش وعجلون ولكن معلوماتنا تشير الى انهما يعدان لمجازر جديدة . ثم خلصت الى القول وقد بلغ بي الانفعال مداه : « وهذه بلا ريب آخر مرة تشاهدوني فيها بينكم . كونوا أقوياء ! فالمستقبل لنا ! »

كانت الحشود ساكنة صامتة فاذا بها تجيش فجأة . ورفعت النسوة أطفالهن وهن يصرخن « كلنا فدائيون ! » واذا بالحشد كله يهتف بشعارات تعبر عن ارادة المقاومة ومواصلة المعركة حتى النصر . والحق اني لا استطيع أن أمنع نفسي من التأثر كلما عاد الى ذاكرتي ذلك اللقاء الحار المرتعش في مخيم الوحدات .

وبعد ذلك بشهرين تماما ، أي في صبيحة الخامس عشر من تموز — يوليه ، أسرعت بالذهاب الى مصيف مرسي مطروح المصري ، حيث كان يجتمع الرئيس السادات والعقيد القذافي رئيس الدولة الليبية ومحمود الايوبي ، رئيس وزراء سوريا وعضو من مجلس الثورة السودانية لتدارس الازمة الناشبة في المغرب . جئت أطلب اليهم التدخل على عجل لوقف المجازر التي بدأ الجيش الاردني بتنفيذها منذ يومين في جرش وعجلون . وعندما أخطروا بوصولي وبما جئت من أجله ، فانهم جعلوني أنتظر عشر ساعات قبل أن يأذنوا لي بدخول خلوتهم ! وعلى أية حال فأنهم كانوا سيجعلونني أنتظر أكثر لو لم يعلموا بأنني توجهت ساخطاً نحو سيارتي لأعود من حيث أتيت الى القاهرة .

وبعد أن استمعوا الي ، اقترح العقيد القذافي ان يتدخل سلاح الجو المصري لتحطيم الحصار المفروض على منطقة جرش وعجلون ، وأن تفتح الحدود السورية (المقفلة منذ حرب أيلول) أمام الفدائيين وأمام الاسلحة الجزائرية التي وصلت الى مرفأ اللاذقية وجمدتها سلطات دمشق منذ أسابيع. واستدار السادات نحوي وقال لي : « ما رأيك ؟ » وأجبت « أوتعتقد أيها

السيد الرئيس ان طلباتي ستكون أكثر تواضعا من طلبات القذافي ؟ الامر الاساسي هو أن تفعلوا شيئا ، أي شيء لوقف المذابح » .

وأحرج السادات والايوبي ولم يبديا حراكا . ولحسن حظ رئيس الوزراء السوري ، فانه استدعي على الهاتف . ثم ما لبث ان عاد وهو مشرق الوجه . فقد ابلغته دمشق أن وفدا سوريا فلسطينيا يفاوض الان على وقف لاطلاق النار يعتبرونه وشيك الحلول . وبعد يومين استنفذت الجريمة ، ولم يبق في وسع احد ان يفعل أي شيء للثلاثة الاف فدائي من القتلى والجرحى والموقوفين او الهاربين . وفي ١٨ تموز - يوليو أعلن وزير الاعلام الاردني عدنان أبو عودة ، الذي كان من اكثر زواري مثابرة ابان أسري ، على الصحفيين بلهجة لا تخلو من الطلاقة الوقحة بأن اتفاقيات ١٣ تشرين أول بين الملك والمقاومة باتت لاغية . وقلبت بذلك صفحة من تاريخنا بصورة نهائية .

ولم يبق لنا الا أن نعلن افلاسنا ، وأن نعرض بيان ادارتنا وأن نخطط للمستقبل على ضوء الدروس التي استخلصناها من تجربتنا . وعندما عقدت القيادة أول اجتماع بكامل هيئتها في شهر أيلول - سبتمبر ١٩٧١ ، فأن رفاقي باتوا يفهمون فهما أفضل الاسباب التي حدت بي في أيلول الى أن أعرض وقف اطلاق النار على الملك . ذلك أن بادرتي التي لم يملها علي أي ضغط خارجي ، كانت تنزع الى وقف الاراقة غير المجدية للدم ، ومنع تعريب النزاع الذي كنت اعتبره بمثل خطورة الفتنمة التي كان يخشاها قادة هانوي . وأدين في هذا الاجتماع تصرف متطرفي الجبهة الشعبية التي يقودها جورج حبش خاطفة الطائرات عشية المعارك .

أما على الصعيد العملي ، فاننا قررنا انشاء جهاز سري في الاردن يتولى الاعداد لاسقاط النظام . وجرى تعييني مسؤولا عن هذه المنظمة . ومن جهة أخرى فانه صدرت عن الاجتماع تعليمات بتعزيز قواعدنا في لبنان كما وكيفا ، للعودة الى شن الهجمات الفدائية ضد اسرائيل انطلاقا من الجنوب . وأخيرا فقد تقرر أن تجري الدعوة لعقد مؤتمر استثنائي في شهر تشرين الأول

ـ أكتوبر من السنة التالية لتحديد الوسائل اللازمة لاعطاء الحركة اندفاعا جديـــدا •

كان مؤتمر فتح الذي انعقد في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧١ ، أحد أهم المؤتمرات التي شهدتها منظمتنا ابان وجودها كله . فقد بدأ تنفيذ مبادىء المركزية الديمقراطية : ولاول مرة يجري تعيين اعضاء المؤتمر (حوالي ثلاثماية) وأعضاء القيادة (تسعة) بالانتخاب • وأظهرت اعادة انتخابي لعضوية اللجنة المركزية بأغلبية ساحقة مدى الثقة التي كنت لا أزال أتمتع بها لدى « القاعدة » وجرى تعديل الانظمة الداخلية واعتمد خط سياسي جديد • وكان أحد البنود البارزة هو ذلك الذى ينص على ان حرب العصابات هي احدى الوسائل (الوسيلة الوحيدة) التي نملكها لخوض نضالنا التحريري •

غير اننا كنا نواجه مشكلة هامة جدا منذ نهاية معركة جرش عجلون المأساوية • فبعد يأس وخيبة أمل المناضلين ، جاء التعطش للانتقام • ذلك ان معارك « أيلول الاسود » أوقعت عددا يتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ قتيل وجريح دون ان نذكر ضحايا تموز ـ يوليو ١٩٧١ في شمال الاردن • وقبل ان يقضي قائد منطقة جرش وعجلون ، عضو اللجنة المركزية في فتح ، أبو علي أياد ، نحبه، فانه افلح في ارسال رسالة أخيرة الينا وقال : بعد هذه الكلمات ، سأدمر جهاز الارسال ، نموت واقفين ولا نركع ••• »

وقد حفظت شبيبة فتح هذه الجملة الاخيرة • ولانه لم يعد في الوسع خوض حرب فدائية تقليدية عبر الحدود الاسرائيلية ، فانهم كانوا حريصين على ممارسة عنف ثوري من نوع اخر ، أي من ذلك النوع الذي يطلق عليه عادة في مواضع أخرى اسم « الارهاب » • كانوا لا يريدون مهاجمة العدو الصهيوني وحسب ، وانما القتلة والخونة العرب الذين جعلوا انفسهـــم مساعدي اسرائيل • وتلافيا لان يتخذ هذا العنف شكلا فرديا فوضويا ، فانه لم يكن ثمة سبيل اخر امامنا سوى تحويل وتوجيه موجة الغضـــب واعطائها بنية وذلك بأن نزودها بمحتوى سياسي •

الفصل السادس

حرب الأشباح

بعد ظهر الثامن والعشرين من تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧١، كان وصفي التل المحاط بحرسه ومساعديه يخطو بخطى رشيقة على السلم الواسع في فندق شيراتون بالقاهرة • فتقدم منه شابان ، ثم دوت رصاصتان وتهاوى رئيس الوزراء الأردنى في بركة من الدم • وبذلك تم الاقتصاص ، وأعدم أحد جلادى الشعب الفلسطيني • وها هي « أيلول الأسود » المنظمة السرية التي انشئت في مطلع الخريف ، أتمت أولى مآثرها •

كان قد جرى اعداد عدة مشاريع اغتيال لتنفذ في عمان أو في القاهرة ــ حيث كان التل يشارك في مجلس دفاع الجامعة العربية ــ ، ثم نبذت في اللحظة الأخيرة • وكان بوسع الشابين اللذين أعدما وصفي التل ، الاعتماد على رفيقين لهما في داخل الفندق فيقتلانه في البهو فيما لو تمكن من اجتياز عتبة الفندق سالما • ثم ان المفاجأة ساعدت على نجاح المشروع • فالواقع هو ان الفاعلين انتظروا يومين قبل القيام بالمحاولة ، أى الوقت الكافي لتراخي الرقابة البوليسية . وجرى قتل رئيس الوزراء الأردني ، رمز خيانة القضية الفلسطينية ، أمام أنظار مختلف الوزراء العرب الذين انطرحوا جميعهم أرضا ابان عملية اطلاق النار • بحيث أن مشهدهم هذا ، أفرح المسؤولين عن المحاولة ، لأنهم كانوا يسعون بالضبط الى توجيه تحذير الى كافة من يحاولون التضحية بمصالح وحقوق الشعب الفلسطيني ، في العالم العربي •

واذا كنت بحكم طبيعتي وايديولوجيتي عدوا لدودا للاغتيال السياسي، ثم للارهاب عامة ، الا أنني لا أخلط كما يفعل كثيرون في أرجاء العالم ، بين العنف الثورى وبين الارهاب ، وبين ما يشكل فعلا سياسيا وبين ما ليس كذلك • وأرفض الفعل الفردى الذى يرتكب خارج أى تنظيم أو أية استراتيجية أو تمليه بواعث ذاتية ، ويدعي الحلول محل كفاح الجماهير الشعبية • وعلى العكس من ذلك ، فان العنف الثوري ينخرط في حركة واسعة ذات بنى يشكل قوة متممة لها ، ويساهم في مدها في فترات الجزر أو الهزيمة ، بانطلاقة جديدة •

لكنه يصبح نافلا لا جدوى فيه عندما تسجل الحركة الشعبية نجاحات سياسية على الصعيد المحلي أو على المسرح الدولي .

و « أيلول الأسود » لم تكن منظمة ارهابية مطلقا . بل تصرفت دائما كرديف ملحق بالمقاومة في الحين الذى لم يكن بوسع هذه الأخيرة فيه ، أن تضطلع بمهماتها العسكرية والسياسية كاملة . وقد أكد أعضاؤها دائما وأبدا انه ليست لهم أية صلة عضوية بفتح أو بمنظمة التحرير الفلسطينية . وقد عرفت عددا منهم ، واستطيع أن أؤكد أنهم ينتمون في غالبيتهم الى مختلف المنظمات الفدائية . وبالنظر الى أنهم خرجوا من صفوف هذه المنظمات ، فانهم كانوا يترجمون ترجمة صادقة مشاعر الاحباط والسخط التي تعتمر الشعب الفلسطيني ازاء مذابح الأردن وازاء التواطؤات التي مكنت من تنفيذ هذه المذابح ، ومظاهرات الفرح التي استقبلت اعدام وصفي التل هي اكبر شاهد على ذلك . ولهذا فان السلطات المصرية ، مراعاة منها للارادة الشعبية ، لم تلبث أن أطلقت سراح منفذى العملية الذين جاؤوا ليضافوا الى أبطال المقاومة .

وبعيد أسبوعين من اعدام التل ، ضربت « أيلول الأسود » تابعا آخر من أتباع حسين ، وأحد أقرب مستشاريه ابان اشتباكات أيلول ـ سبتمبر : عنيت زيد الرفاعي الذى كان حينها سفيرا في لندن . كان الرفاعى يقدم نفسه ، وهو المرهف الذى ينتمي الى عائلة كبرى ، كمصلح موفق ، الا أنه كان يمارس دورا خطيرا .
فبينما كان عائدا الى منزله الكائن في مقر السفارة في ١٥ كانون الأول ـ ديسمبر تعرضت سيارته الأنيقة لزخات رصاص سلاح أوتوماتيكي . فألقى نفسه بصورة غريزية على أرض السيارة وخرج بجرح طفيف في يده . أما الشاب الفلسطيني الذى حاول اغتياله فانه تخلص من رشاشه . ولخوفه من أن يكتشف ويعتقل فانه اندس في أول منزل صادفه في طريقه . وكانت ساكنة البيت امرأة عجوزا لم تشتبه في أمره بشيء ، فاستضافته بضع ساعات . ولما كان يملك جواز سفر ثانيا ، ومزورا أيضا ، فانه غادر لندن في اليوم التالي

من مطار احدى المقاطعات بدون أن يزعجه مزعج • فالحق هو ان السلطات البريطانية ، شأن بقية السلطات في البلدان الأوربية الأخرى ، تفضل تلافي التعقيدات فلا تغالي في بذل الجهود لاعتقال المغاوير الفلسطينيين •

وقد اتخذت المعركة ضد النظام الأردني أشكالا متنوعة • وكان أحد هذه الأشكال هو مضايقته بلا هوادة ولا انقطاع لاضعافه واجباره على الاذعان للقوة • وأعدت « أيلول الأسود » خطة واسعة النطاق تحتاج الى عدة أشهر من الاعداد الدقيق وتهدف للتوصل الى اطلاق سبيل مئات من المعتقلين السياسيين في السجون الأردنية ، وتقضي بارسال مجموعتين من المناضلين المجربين تكلف احداهما باحتلال سفارة الولايات المتحدة وأخذ السفير الأميركي ومساعديه رهائن لمبادلتهم باطلاق سراح السجناء • وفي حال فشل هذه المجموعة ، تقوم المجموعة الثانية باحتلال رئاسة الحكومة وتعتقل أعضاءها توصلا الى ذات الهدف •

وكان الرجل الذى اختير لتنفيذ هذه المهمة التي تفوق سائر المهمات دقة ، هو صديقي أبو داود الرجل الذائع الصيت داخل المقاومة بسبب تفانيه وشجاعته النادرين • فقد كان يقود الميليشات في الأردن قبل طرد الفدائيين منه ، وتميز خلال « معركة عمان » في أيلول ١٩٧٠. وهو يتمتع بذاكرة مدهشة بحيث أن في استطاعته ان يسمي الشهداء واحدا واحدا ذاكرا أصولهم العائلية وأسلافهم • وبما أنه كان معروفا تماما في العاصمة الأردنية ، ان لدى الأهالي وان لدى المخابرات ، فانه كان يخاطر مخاطرة كبرى بقبوله بالعودة خفية الى عمان • ثم راح يستعد لذلك بضعة أشهر مقدما : فأطلق لحيته وبدأ يحيا حياة بالغة التكتم في بيروت ودمشق ، مكانا اقامته الاعتياديين •

وعهدت « أيلول الأسود » الى ثلاثة من أعضائها في عمان ، استئجار ثلاث شقق تحت « تغطية » ملائمة ، لايواء الخمسة عشر فدائيا الذين سيشاركون في العملية • أما أبو داود فان احد اصدقائه الحميمين ، مصطفى سوف يأويه ويأوى المرأة التي سترافقه على أنها زوجته • ومع أن مصطفى لم يكن عضوا في الحركة ، الا انه كان يتمتع بثقة كافة المناضلين الكاملة • فهو

في الخامسة والثلاثين من عمره وأمضي سبع سنوات في السجن لقيامه بنشاطات شيوعية ، قبل أن يضع نفسه عام ١٩٦٨ ، في خدمة المقاومة التى كان يظهر لها اخلاصا متقدا مطلقا • ثم ان عمله كموظف في وزارة الاعلام الأردنية ،كان يقدم ستارا من الاحترام يناسب تماما الدور الذى أوكله اليه مؤتمرو « أيلول الأسود » • وغادر أبو داود الكويت في ١٣ شباط ــ فبراير ١٩٧٣ وهو يأتزر بعباءة واسعة موشاة بالذهب ويلبس كوفية وعقالا على رأسه ، فبات يبدو وهو جالس وراء مقود سيارته الأميركية الفخمة برفقة « امرأته » التى تلبس هى الأخرى ثيابا تقليدية ، كرجل أعمال خليجي لا شبهة فيه • ومن الكويت توجه الى بغداد سالكا من هناك طريق عمان فوصلها في اليوم التالي ونزل عند مصطفى • وأطلع مضيفه على مخطط العملية التى ستتم بعد ظهر اليوم التالي ، وطلب اليه أن يعرض الخطة شخصيا على كل مسؤولي المجموعتين الفدائيتين المكلفتين بالتنفيذ • وأعطاه لهذا الغرض عنوان أحد الشقق الثلاث المستأجرة كما زوده بكلمة السر • ثم ان المناضلة التي جاءت مع أبي داود ، رافقت مصطفى لتسهل له المهمة . ذلك انها في واقع الأمر زوجة أحد الفدائيين الخمسة عشر ، ولا بد أن يبدد حضورها كل تحفظ ممكن ازاء مصطفى •

وبعد أن انجز الرسولان المهمة ، عادا برفقة بن بللا ــ الاسم القتالي لأحد مسؤولى المجموعتين ــ لأنه كان يريد الحصول على ايضاحات اضافية من أبي داود • أما أبو داود ، فانه غادر هو ورفيقته منزل مصطفى في ذات الليلة ليسلكا طريق دمشق • وكان من المقدر أن يقوم مناضلان آخران ــ هما زوجان شابان ــ ويجهلان كل شيء عن العملية وعن هوية ابي داود الحقيقية ــ بمواكبة ابي داود بسيارتهما حتى الحدود السورية للاطمئنان على سلامته وابلاغ ذلك لرئيس « أيلول الأسود » أبو ايهاب ، الذى كان يتابع العملية من عاصمة عربية أخرى •

وانتظر أبو ايهاب طيلة الليل وطول النهار التالي دون ان يصله أى خبر. وبما أن الهجوم على السفارة الأميركية لم يتم ، فانه كان من البديهي أن عقبة ما قد حدثت • ولم يعلم بالكارثة الا في غداة اليوم التالي حين اتصل بمسؤول

من عمان ليبلغه أن أبا داود ومرافقته ، وعنصري الرصد المكلفين باتباعه الى الحدود ، وأفراد مجموعتي المغاوير ، قد أوقفوا جميعا • وقد تمت مداهمات البوليس للشقق الثلاث التى ينزل فيها الفدائيون في ذات الحين الذى اوقفت فيه سيارة أبي داود في أحد شوارع عمان • كان كل شيء يشير الى أن دوائر الأمن الأردنية كانت على علم تام بالقضية • كما كان من الواضح ان الواشي لا يمكن أن يكون الا مصطفى ، الشخص الوحيد الذى لم يجر توقيفه ، والشخص الوحيد الذى كان يعرف ـ باستثناء ابي داود وزوجته ـ بالعملية معرفة شاملة •

واتصل به ابو ايهاب بالهاتف بلغة مرموزة (شيفرة) وراح يسأله بكل براءة عن أخبار المغاوير • فأبلغه مصطفى بالتوقيفات وطمأنه على مصير أبي داود ـ برغم أن هذا الأخير أخضع ، كما علمنا فيما بعد ، لعمليات تعذيب لا تحتمل • ولما كان قرار أبي ايهاب قد قر على معاقبة الخائن ، فانه راح يتخيل خدعة يجتذب بها مصطفى الى شرك • وهكذا فانه أرسل اليه رسالة يخبره فيها بعزمه على القيام بعملية واسعة جديدة بهدف اطلاق سراح أبي داود ورفاقه وطلب منه موافاته الى القاهرة لمناقشة المشروع •

كان الطعم مغريا ولا سيما بالنسبة لرؤساء مصطفى الذين كانوا يريدون معرفة المزيد • وجرى تحليل الرسالة ومناقشتها في اجتماع شارك فيها نذير رشيد ، رئيس المخابرات والأمير حسن شقيق الملك ، بصفته المسؤول عن امن الدولة وعدنان أبو عودة وزير الاعلام . وكان هذا الأخير المعارض الوحيد لسفر مصطفى بعد أن اشتبه بالمكيدة • ومع هذا ، فان مصطفى غادر عمان الى القاهرة مزودا بأمر مهمة • الا ان الدهشة استولت عليه حين وصوله ، عندما علم أن أبا ايهاب ينتظره في عاصمة عربية أخرى ، بعد أن اضطرته الى البقاء هناك ـ كما قيل له ـ قضية هامة • والحقيقة هي أن القاهرة لم تكن تتلاءم مع مخطط رئيس « أيلول الأسود » فاختار بالتالي بلدا على جانب كاف من التساهل يتيح له تسوية حساباته مع الشخص الذى خان ـ وفق ارجح الاحتمالات ـ ثقة المنظمة •

غير أن مصطفى أثار مشكلة أمر المهمة الذى لا تزيد مدته عن خمسة أيام ولا يخوله الذهاب الى بلد آخر غير مصر • فعرضوا عليه وثيقة مزورة تنيح له الذهاب والاياب باسم مستعار مما كان يناسب تماما خاطفيه ، الذين كانوا يسعون لأسباب تختلف عن أسبابه هو ــ الى محو كل أثر له • وبما أنه لم يكن يرتاب بشيء ، فان مصطفى وافق على العرض ، وسافر الى العاصمة العربية المعينة • وعلى المطار وجد سيارة تنتظره لتقوده الى أبي ايهاب ، الذى استأجر لهذه المناسبة منزلا مكتوما •

كانت المواجهة دراماتيكية من اللحظة الأولى • فقد خص أبو ايهاب ضيفه باستقبال بارد • ورفض أن يصافحه ثم أمره بالجلوس والصمت • وبدأ بتوجيه الاتهامات اليه على التتالي ذاكرا الأدلة الاتهامية التى تمكن خلال ذلك من جمعها • فانفجر مصطفى باكيا وبدأ بالاعتراف ، بأنه هو الذى سلم مجموعة أبي داود للبوليس •

ولم يدهش أبو ايهاب من السرد الذى سرده مصطفى كثيرا . فقد عرف عددا من قدامى المناضلين الذين جندتهم المخابرات الأردنية ، شأن مصطفى ، ابان سني الاعتقال • فمصطفى سلك ذات السبيل الذى سلكه عدنان أبو عودة • فقد ارتد هذا الأخير وجحد ايمانه الشيوعي واضعا نفسه في خدمة البوليس ، قبل أن يصبح أحد أصفياء الملك ووزيرا للاعلام • وأما مصطفى فانه كان ، حسب الأصول ، يعلن آراء مفرطة الجذرية ، الأمر الذى أتاح له الاندساس في صفوف الجبهة الشعبية التي يرأسها جورج حبش حيث تمكن بفضل مناخ التطرف السائد فيها ، أن يقوم بنشاطات الاستفزاز والوشاية دون أن يخاطر مخاطرة كبرى بالانكشاف •

ولهذا ، فان مشروع « أيلول الأسود » كان بالنسبة اليه بمثابة نعمة • فأخطر دوائر الامن بوصول ابي داود الوشيك دون أن يكون في وسعه بعد تزويدهم بمعلومات حول طبيعة وتاريخ تنفيذ العملية • وبمجرد أن تلقى هو نفسه هذه المعلومات ، فانه لجأ في تأدية مهمته الى الحيلة • فبينما كان يرافق « زوجة » ابي داود الى الشقة التي يشغلها مسؤولا المغاوير ، فانه

تذرع بحاجة طارئة لشراء بعض الحاجيات ، وذهب الى مقر الأمن ثم عاد فلحق بها بعد نصف ساعة . وبعد أن أطلع البوليس على الساعة المحددة لذهاب ابي داود ، فانه لم يبق عليه الا ان ينشر شباكه ويعتقل كافة أفراد المجموعتين. واستمر استجواب مصطفى عدة أشهر ، أفادنا خلالها بمعلومات ثمينة بينها أسماء عملاء المخابرات الأردنية داخل الحركة الفلسطينية . وقد أفلح أبو ايهاب في اجتذاب ستة منهم لا يزالون معتقلين حتى الان في بلد عربي صديق للمقاومة أما مصطفى ، فبالنظر الى أن نشاطاته السابقة كلفتنا خسائر في الأرواح ، فانه حكم بالاعدام . غير أن الاعدام لم ينفذ الا بعد مواجهة نهائية مع أبى داود الذى أطلق سراحه بعد سبعة أشهر من اعتقاله .

غير ان التقلبات التي سبقت اطلاق سراحه تستحق الرواية . فقد أوقف في ١٥ شباط ــ فبراير وحكم هو وصحابته الخمسة عشر بالاعدام . وفي اليوم الثامن والعشرين من الشهر نفسه قررت « أيلول الأسود » أن تنتقل الى العمل لتجبر الملك حسين على التراجع . ففي أول آذار ــ مارس ، قامت مجموعة مغاوير مؤلفة من ثمانية فدائيين باحتلال سفارة العربية السعودية في الخرطوم، حيث كان نحواً من أربعين شخصا من أعضاء السلك الدبلوماسي يحضرون حفل استقبال ، وأخذوا خمسة دبلوماسيين كرهائن ، وهم سفيرا المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة والقائمون بالاعمال الاميركى والبلجيكى والاردنى ثم طالبوا من بين ما طالبوا به ، باطلاق سراح ابي داود وصحابته .

ولم يفهم الرأى العام في ذلك الحين لا اختيار سفارة بلد اشتهر بأنه صديق للمقاومة ولا اختيار الدبلوماسيين المعتقلين . والواقع هو أنه كان للصدفة نصيب كبير في العملية ، وفقا للعرض الذى قدمه لي القائمون بها بعد ذلك . فهم ، لاقتناعهم بأن الملك حسين لن يذعن حتى ولو هلك نصف الشعب الأردني ، فانهم قرروا ممارسة ضغوطهم عبر الولايات المتحدة التى يمكن أن يكون تأثيرها على الملك حاسما . فكان المرمى الذى صوبوا اليه هو القائم بالأعمال الأميركى الذى خدم في عمان حيث اضطلع بمسؤولية جسيمة في الاعداد لحرب عام ١٩٧٠ ، وكان سيترك وظيفته في الخرطوم نهائيا

في ٢ آذار ـ مارس • وعلى هذا ، فان حفل الاستقبال الذى أقيم على شرفه في سفارة المملكة العربية السعودية ، كان آخر حفل له قبل سفره الى واشنطن •

ولم تكن لدى أبطال المحاولة أية نية في اعدام رهائنهم • وبعد رفض حسين الاستجابة الى مطالبهم، بناء على طلب عاجل من الرئيس نيكسون ،فانهم طلبوا طائرة لاقتياد رهائنهم الى واشنطن حيث كانوا يعتزمون اجراء مفاوضات هناك ، والدفاع عن قضيتهم أمام الرأى العام الأميركي • وبناء على تحريض نيكسون أيضا ، فان الرئيس السوداني ، لم يرفض طلبهم وحسب ، بل انه دفع بجيشه في مساء الثاني من آذار الى مهاجمة السفارة • وبهذا اضطر فدائيو « أيلول الأسود » الى اعدام ثلاثة من رهائنهم هم الأميركيان والقائم بالاعمال البلجيكي الذى كان تعاطفه مع اسرائيل أمرا مشهورا • أما سفير العربية السعودية الذى استخدموه كوسيط ، والقائم بالأعمال الأردني الذى كانت زوجته قريبة من المقاومة ، فانه أبقي عليهما بطبيعة الحال • وبعد مساومات مضنية ، سلم أفراد الكوماندوز أنفسهم في ٤ آذار ـ مارس • وبعيد ذلك بساعات ، صدق الملك حسين حكم الاعدام الصادر ضد ابي داود ورفاقه • غير أن الملك عاد تحت ضغط عدة رؤساء دول عربية وبينهم الرئيسان السادات وبو مدين وكذلك أمير الكويت فأجل تنفيذ الاعدام ، ثم خفضه في ١٤ آذار الى عقوبة السجن مدى الحياة • وأخيرا ، وبمناسبة صدور عفو عام في شهر أيلول ، وقبل تشرين أول ـ اكتوبر ١٩٧٣ بثلاثة أسابيع ، أطلق سراح ابي داود وبقية من جرى تجريمهم معه •

غير أن العجيب هو أن ختام « قضية أبو داود » لم يجر في عمان ، وانما في باريس ، حيث استدعاه البوليس الفرنسي ، بعد ذلك بثلاث سنوات أى في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٧ ، متهما اياه بأنه « ارهابي خطر » وبأنه أحد منظمي المحاولة ضد الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٢ • وقد كان سلوك ادارة أمن الأراضي الفرنسية غريبا من أكثر من جهة • فالتهمة الموجهة ضد ابي داود لا ترتكز من جهة أولى ، الا على الادعاءات الاسرائيلية التي لا تستند الى ما يؤكدها • كما أن مسؤول فتح هذا كان

قد زار باريس عدة مرات بعد اء ادة اعتبـاره الـيه في الأردن واستقبـال الملـك لـه دون أن يتعـرض لـه أى متعـرض • صحيح أنه كان يحمل لأسباب أمنية وشأن كافة مسؤولي المقاومة ، جواز سفر باسم مستعار، الا ان السلطات الفرنسية كانت تعرف هويته الحقيقية • لا بل انه كان في طريقه لزيارة وزارة الخارجية الفرنسية في الكي دورسيه ، حـين ألقى البـوليس القبض عليه •

لهذا فان في وسعنا أن نطرح العديد من الأسئلة ، ان لجهة هذا التأويل ، وان لجهة بواعث الفاعلين • وقد سبق أن كشفت قضية بن بركة وجود عناصر خائنة لوطنها داخل المخابرات الفرنسية • وأنا شخصيا مقتنع من جهتي بأن وكالة المخابرات المـركزية الأمـيركية (السي • آى • اى .) والمخابرات الاسرائيلية (الموساد) ليستا غريبتين عن مبادرة بعـض أفراد ادارة الأمـن الفرنسية (دى • اس • تي) تلك ، والتي كان هدفها الرئيسي هو افقـاد سياسة الرئيس جيسكار ديستان الشرق أوسطية الثقة والاعتبار •

وعلى أية حال ، فان مما لا يرقى اليه شك ، هو ان البوليس ــ الذى كان بالغ الخفة في اعتقال ابي داود   لا يظهر حماسا بالغا   لكي لا نقـول غير ذلك ــ في المطاردة عندما يتعلق الأمر بالارهـابيين الاسرائيليين • فقـد ارتكبت العشرات من الاعتداءات ضد المكاتب الفلسـطينية ، وقتـلت أربع شخصيات على الأقل من شخصيات المقاومة في باريس على يد عملاء المخابرات الاسرائيلية ، دون أن يلقى القبض على مرتكبي هذه الاعتداءات أو عـلى أحدهم •

واغتيال محمود الهمشرى وباسل القبيسي هما أشهر هذه الاعتداءات • أما الأول فقد كان الممثل الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ورجـلا سياسيا كل نشاطاته علنية • وقد قتل بواسطة صاروخ موجه • وكان الهمشرى متزوجا من فرنسية ويحيا حياة وادعة ويستفظع كافة أشكال التعصب والعنف • وكذلك الأمر بالنسبة لباسل القبيسي ، الأستاذ في الجامعة العراقية ، الذى أطلق عليه الرصاص في حي المادلين في وسط باريس •

ثم أن لائحة الجرائم التي ارتكبها الارهابيون الصهاينة ، تظل طويلة على التعداد • غير أنني أود أن أشير الى أن كافة الشخصيات التي استهدفتها لم تكن متورطة ، لا من قريب ولا من بعيد ، في النشاطات العنيفة للمقاومة :

فغسان كنفاني كان كاتبا وأيديولوجيا وقتل في بيروت في شهر تموز — يوليو ١٩٧٢ ، وأما بسام أبو شريف ، المسؤول عن الدوائر الاعلامية في الجبهة الشعبية ، والدكتور أنيس صايغ ، المؤرخ ومدير معهد الأبحاث الفلسطينية ، فقد تشوها كلاهما بطردين ملغومين تلقياهما في بيروت في تموز — يوليو ١٩٧٢ وأما وائل زعيتر ، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في ايطاليا ، فقتل برصاصات أطلقت عليه في شهر تشرين — أول اكتوبر من ذات السنة ، بينما كان عائدا الى شقته المتواضعة في روما متأبطا بعض الكتب وبعض الخبز . كان زعيتر رجلا يساريا قريبا من الحزبين الاشتراكي والشيوعي في ايطاليا ويعارض الارهاب بكافة صوره وأشكاله معارضة شديدة، لأسباب سياسية وأيديولوجية

ثم أن الأمور كانت تجرى كما لو أن الاسرائيليين لا يسعون وراء ازاحة انصار العنف ، بل المعتدلين والرجال السياسيين الذين أخذوا على أنفسهم توضيح عدالة قضيتنا للرأى العام العالمي ، ممن لم يكن لديهم أية وسيلة للدفاع عن أنفسهم • غير أن فظاعة الاغتيالات ، تظل في نهاية التحليل ، أقل اغاظة من المجازر الجماعية التي يرتكبها الجيش الاسرائيلي ضد شعبنا • فالقصف العشوائي للتجمعات السكنية الفلسطينية ولمخيمات اللاجئين ، والذى يقتل بدون تمييز المئات بل الآلاف من المدنيين نساء وأطفالا وشيوخا ، نادرا ما أثر لسوء الحظ ، في الرأى العام العالمي الذى نجده ، على سبيل المثال ، أكثر اسراعا الى السخط والاستنكار لدى خطف طائرة تعرض حياة بضع عشرات من الأشخاص للخطر •

وما يزيدني راحة وحرية في اصدار هذا الحكم ، هو أنني أنا نفسي ، شأن مجمل قيادة فتح ، نعادى خطف الطائرات عداء صلبا حازما لأسباب سياسية وانسانية في آن معا • وباستثناء حادثتين اثنتين تقريبا ، فان منظمتنا ادانت كافة أعمال القرصنة الجوية التي قامت بها مختلف الفصائل الفلسطينية

منذ نحو من عشر سنوات • أما الحالتان اللتان بدتا لنا مبررتين (الأولى عام ١٩٦٩ والثانية عام ١٩٧٢) فتتعلقان مباشرة بالاسرائيليين وتدخلان لذلك ، في نظرنا ، ضمن فئة أعمال الحرب المشروعة • فبقدر ما نأبى ونرفض تعريض حياة الأبرياء وحياة مواطني دول غير ضالعة ضلوعا مباشرا في النزاع العربى - الاسرائيلي ، تتردد او تتحفظ في مهاجمة عسكريي ومسؤولي الدولة اليهودية الذين ما انقطعوا عن محاربة وقمع الشعب الفلسطيني •

والمصير الذى يتعرض له آلاف الفلسطينيين الرازحين في السجون الاسرائيلية ، هو أحد مشاغلنا الرئيسية • فمن المعروف أن التعسف والاستبداد الكاملين يسودان الأراضي المحتلة • اذ يجرى توقيف الناس على أساس تخمين مبتسر أو وشاية ما • كما أن المحاكم العسكرية تطبق على هواها ووفق ما تمليه اللحظة ، ثلاثة تشريعات قمعية : التشريع البريطاني الموروث عن زمن الانتداب ، والتشريع الأردني الذى استن في سنوات الخمسين بعد ضم الملك عبد الله للضفة الغربية ، والتشريع الاسرائيلي المطبق منذ غزو حزيران ١٩٦٧ • هذا دون أن نذكر القوانين المصرية التي لا تزال مطبقة في منطقة غزة •

وتقدم السلطات الاسرائيلية قرارها القاضي بعدم توقيع عقوبة الاعدام بالفدائيين ، كفعل انساني متحضر • غير أن العقوبة الموقعة برجال المقاومة أشد سوءا من الموت . فهم يعلمون حين يدخلون السجن بأنهم سيبقون فيه حتى نهاية حياتهم ، اللهم الا اذا حدث ما لا يحتمل حدوثه ، عنيت قيام تسوية نهائية للنزاع • والواقع هو أنهم محكومون بصورة عامة ، بعقوبات جسيمة تصل الى ١٠ ، ١٥ أو عشرين سنة ! وأما من يتوصلون الى قضاء عقوبتهم ، فانه يحجر عليهم « اداريا » وفقا للقانون الصادر في زمن الاستعمار البريطاني• وما الذى يمكن أن يكون أكثر اثارة لليأس بالنسبة لرجال يعانون من التنكيل الدائب ، فضلا عن السجن وعن اوضاع اعتقال ، هي باعتراف المسؤولين الاسرائيليين أنفسهم ، أوضاع يرثى لها . كما يتعرضون عند الاقتضاء للتعذيب ، وما الذى يمكن أن يكون أبلغ تبديدا من هذا للمعنويات وخاصة

بالنسبة لمقاتلي المقاومة الذين يعرفون مقدما المصير الذى سيلاقونه اذا ماوقعوا في الأسر •

لقد كان هذا العامل النفسي يطرح ولا يزال على قادة المقاومة مشكلة عويصة • فلا بد لهم من العمل لاطلاق سراح قسم من الأسرى على الأقل ، ليظهروا بذلك ان للتعسف الاسرائيلي حدوده • والواقع هو أنه تم بذل كل ما يمكن بذله في هذا السبيل ، ولكن دون طائل • فمحاولات الهرب المنظمة ، أجهضت الواحدة بعد الأخرى • والمداخلات الدولية المختلفة الأنواع ، لم تفض الى أية نتيجة • وواجهت اسرائيل النداءات والمساعى المتكتمة التى قامت بها الهيئات الانسانية كالصليب الأحمر ، والدول العظمى والصغرى وهيئة الأمم المتحدة والبابا ومختلف المؤسسات الدينية ، بجدار من اللا مبالاة وعدم التحسس • ومن هنا كان اللجوء الى القوة والى خطف الطائرات من قبل بعض الفصائل الفلسطينية •

الا أنه تبين أن سلاح اليأس النهائي هذا ، غير فعال هو الآخر • فباستثناء أول عملية اختطاف طائرة عام ١٩٦٩ ، أى تلك العملية التي أخذت اسرائيل على حين غرة ، فان المسؤولين الاسرائيليين رفضوا رفضا قاطعا اجراء أية تسوية مع الخاطفين • بل ثمة ما هو أسوأ من ذلك . اذ كانوا يبذلون قصارى جهدهم ، لدى كل مواجهة ، للاقضاء الى نهاية دموية بهدف تأليب الرأى العام العالمي ضد الفدائيين • وهكذا فانه سريعا ما ظهر لنا ، ان خطف الطائرات لا يخدم قضيتنا ، بل يضر اضرارا فاحشا بمعنى معركتنا التحريرية نفسه •

ولهذا السبب ذاته ، أدانت فتح بلا هوادة مختلف العمليات الأخرى مثل تلك المغامرة الخرقاء التي قام بها أولئك الذين احتلوا في أيلول ــ سبتمبر ١٩٧٣ ، سفارة العربية السعودية في باريس ليأخذوا بعض الدبلوماسيين كرهائن أو العملية ــ التى تفوق هذه شبهة ــ والتى قام بها المغامر كارلوس في كانون أول ــ ديسمبر ١٩٧٥ ، حين هاجم مقر منظمة الدول المصدرة للنفط ــ أوبيك في فيينا ، لحساب ما يرجح أن يكون قوى خفية تعمل على المسرح الدولي للنفط • ولقد طالما تردد بهذا الصدد ذكر اسم العقيد القذافي الذى حاكت

الصحافة الدولية حوله اسطورة أظهرته فيها (كسوبر ـ ارهابي) أو ما فوق ارهابي • الا أنني أستطيع أن أوكد من جهتي وبناء لمعرفتي بالوقائع ، بأن الرئيس الليبي ظل بعيدا كليا عن كل عمليات العنف التي نظمت في السنوات الأخيرة تقريبا •

وبالمقابل ، فان فتح لم تندد بالعملية التي قامت بها « أيلول الأسود » في العاب ميونيخ الأولمبية في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٢ • وقد يدهش المرء لهذا الموقف اذا لم يعرف بواعث وأهداف وسلوك القائمين بها ، والأحداث التي أفضت الى الخاتمة الدموية التى انتهت اليها • وبما أنني أعرف جيدا المعرفة كلا مسؤولي مجموعتي المغاوير الذين قاموا بالعملية ، مصالحه وشي غيفارا ـ وفقا لاسميهما القتاليين ـ وبما أنني استجوبت مطولا الناجين الثلاثة من المجموعة والذين يعيشون حاليا في بيروت ، أجد نفسي في وضع يتيح لي أن أقدم سردا بالقدر ، الذى تسمح به القواعد الأمنية ، من التفصيل •

في مطلع عام ١٩٧٢ ، وجهت منظمة التحرير الفلسطينية رسالة رسمية الى اللجنة التي تدير الألعاب الأولمبية مقترحة اشتراك فريق من الرياضيين الفلسطينيين بالالعاب • وبما أن العرض ظل بلا جواب ، فان المنظمة أرسلت رسالة ثانية ، لم تلق هى الأخرى غير الصمت التحقيرى • فكان من البديهي ، أننا غير موجودين بالنسبة لهذه المؤسسة المحترمة التى تدعي ان ليس لها طابع سياسي ، أو أننا ـ وذلك احتمال أفدح سوءا من الاحتمال الأول ـ لا نستحق الوجود •

وقد أثارت هذه الاهانة ـ التي جاءت بعد مرور أقل من ستة أشهر على ابادة الفدائيين في جرش وعجلون ـ سخط وغضب مقاتلينا الشباب • فقررت قيادة « أيلول الأسود » أن تأخذ هذه القضية بيديها ، وأن تضع مشروعا يستهدف ثلاثة أهداف : تأكيد وجود الشعب الفلسطيني ازاء الكافة وضدهم الافادة من الانتشار الخارق للوسائل الاعلامية في ميونيخ لتعطي قضيتنا دويا عالميا ، بالمعنى الايجابي أو السلبي ما هم ! وأخيرا التوصل الى اطلاق اسرائيل لسراح مقاومين ، حدد عددهم الأولي بمائتين •

وينبغي لي أن أقول أننا لاحظنا ، وبالعظم كآبتنا حينها ، أن قسما هاما من الرأى العام العالمي تأثر لتوقف العرض المسرحي ، الذى تمثله الألعاب الأولمبية بالنسبة اليه ، لمدة أربع وعشرين ساعة ، بأكثر مما تأثر للمصير المأساوى الذى عاناه الشعب الفلسطيني طوال أربع وعشرين سنة ، أو من النهاية البشعة التي انتهى اليها المغاوير الخمسة ورهائنهم التسعة •

وقد جرى الاعداد للعملية بجدية ودقة مثاليتين • والمسؤولان اللذان جرى اختيارهما قبل العملية بثمانية أشهر ، هما من المناضلين المجربين الذين شاركوا في معارك الأردن ، في عمان ـ في أيلول ١٩٧٠ ، وفي جرش ـ عجلون في تموز ١٩٧١ • كان عمر مصالحه ، سبعا وعشرين سنة • وكان قد غادر مسقط رأسه حيفا وهو طفل بصحبة ذويه ، وهم من الفلاحين الفقراء ، الى الضفة الغربية • كما كان يحمل درجة التبريز في الجيولوجيا ويتمتع بشخصية مؤثرة بالنظر الى قامته المهيبة وذكائه الوقاد ، واختار الالتحاق بصفوف منظمة فتح حيث عهد اليه بوظيفة مفوض سياسي • وبالنظر الى اجادته فوق هذا كله، للغة الالمانية ، فانه كان في وضع يؤهله لتولي قيادة المجموعة ، شأنه في ذلك شأن صديقه وشريكه شي غيفارا ، المتمرس بالأساليب الفدائية برغم حداثة سنه (٢٥ سنة) وبرغم دراسته الحقوقية في باريس •

ووفقا للأهداف السياسة الثلاثة المعينة للمحاولة فانه أوكل اليهما القيام بأربع مهمات واضحة : رسم خطة تفصيلية لسير العملية ، اختيار ستة فدائيين آخرين يشتركون معهم في المحاولة ، الحصول على الأسلحة الضرورية وايصالها الى داخل القرية الأولمبية ، وأخيرا الاضطلاع بتنفيذ الخطة ، بما في ذلك المساومات التى ستدور لمبادلة الرهائن الاسرائيليين بالمساجين الفلسطينيين • وبطبيعة الحال ، فان مصالحه وشي كانا يتمتعان بحشد من المعاونين والمنفذين لايصال مشروعهم الى غايته •

ولم يكن اختيار أفراد المجموعة بالأمر اليسير • ففى الفترة الأولى ،جرى اختيار خمسين فدائيا شابا ممن تتراوح أعمارهم بين ١٧ و ٢٠ سنة ليتلقوا تدريبا مكثفا • وكانوا يتحدورن جميعا من مخيمات اللاجئين في (لبنان

وسوريا ثم من الأردن بخاصة) ، وينتمون في معظمهم الى عائلات متواضعة ويحدوهم جميعا حافز ارادة تحرير أفراد عائلاتهم المسجونين في السجون الاسرائيلية • وكانوا يجهلون كل شيء عن المهمة التى ربما أوكلت اليهم ، الا أنهم كانوا يتحرقون لكي يكونوا بين المختارين المحظوظين وقد أثار الاختيار النهائي بعض المآسي • فقد استبعد أحد الفدائيين اليافعين لأنه سبق لاثنين من أشقائه أن سقطا في ساحة الشرف • فسخط الشاب الصغير واحتج وتضرع وانفجر باكيا • ثم راح يهدد بالانتحار اذا لم يضم الى مجموعة المغاوير • فانتهى الأمر بالمسؤولين الى الاذعان وضموه الى المجموعة • فكان أحد أوائل من سقطوا برصاص قوات الأمن الالمانية •

وقبل أن ينتشر المصطفون الستة في مختلف البلدان الأوروبية ، حيث ينبغي لهم أن يعتادوا نمط الحياة الغربية ، فان مصالحه وشي ذهبا الى ميونيخ على سبيل الاستكشاف • وتمكن أولهما ، بعد أن غير ملامحه بأن اصطنع ، بين جملة ما اصطنعه ، شعرا مستعارا ، من أن يجد عملا كخادم مقصف في القرية الأولمبية حيث كانت الاستعدادات للحدث الرياضي تجرى على قدم وساق • واستغل هذا الوضع ليقوم بتفتيش الأمكنة وتحريها بانتظام وذلك لجهة ترتيب الأجنحة وخاصة الجناح الاسرائيلي ، ولجهة المنافذ والمخارج الممكنة • ثم راح يستفيد من جملة صلات الصداقة التي أقامها مع عدد من المستخدمين الألمان وسواهم وكذلك مع شابة أسيوية شغفت به ، ليجمع كمية من المعلومات راح يبلغها شيئا فشيئا الى شي الذى استقر في بلد أوروبي مجاور • وهكذا فان هذه العملية التي استغرقت أربعة أشهر ، أفضت الى مخطط عمل واضح ومتماسك •

الا أن عقبة طرأت في اللحظة الأخيرة ، طرحت مشكلة جدية على المنظمين ففي الموعد المضروب لتسليم الأسلحة الى المغاوير ، بلغهم أن الرقابة البوليسية تعززت فجأة في ألمانيا على المراكز الحدودية والطرق والمحطات وخاصة في المطارات وذلك في حين كانت المهلة المتبقية أقصر من أن تتيح استخدام وسيلة نقل أخرى غير الطائرة •••

فقرر المنظمون أن يلعبوا رهانهم كاملا • وكدست الأسلحة المودعة في أحد البلدان العربية بدون علم حكومته ، في ثلاث حقائب وعهد بها الى مناضلة والى أحد أعضاء « أيلول الأسود » بعد أن عقد « قرانهما » لهذه المناسبة بواسطة جوازات سفر مزورة • وسافر « الزوجان » الى بون مصحوبين بحقيبتين اضافيتين تحتويان على أمتعتهما الشخصية • ولدى خروجهما من المطار طلب اليهما موظف الجمارك وكان محاطا برجال أمن ، أن يفتحا حقائبهما غير أن الرجل عاند وأبى ، معلنا أنه يشعر بالاهانة ازاء هذه المعاملة • فهو رجل أعمال وسائح كبير ، كما زعم ، ولم يحدث له أن عومل كشقي أو أهين بهذه الطريقة • وباختصار ، فانه تذرع بحجج غير مقنعة تنحصر قيمتها الوحيدة في كسب الوقت ، في وضع كان يبدو يائسا بصورة ظاهرة •

وأصر موظف الجمارك على أنه لا يستطيع أن يخرق قانونا يطبق على كافة المسافرين • أما ممثل « أيلول الأسود » فانه راح يتردد أمام سبيلين ممكنين • فاذا استمر في رفضه فتح حقائبه فانه سيضطر للرحيل في أول طائرة تغادر بون بحيث أن عملية ميونيخ ستلغى في هذه الحال • ولهذا فانه اختار البديل الثاني وطلب باستكانة الى موظف الجمارك أن يعين له الحقيبة التي يريد تفتيشها من بين الحقائب الخمسة التى كانت كلها متشابهة • وفتح الحقيبة المعينة ثم نشر ••• الملابس الداخلية النسائية التي كانت فيها • فارتبك الجمركى وراح يغالي في الاعتذار مرحبا بهما في ألمانيا الاتحادية •

ووصلت الأسلحة الى مقصدها قرابة الخامس والعشرين من شهر آب ـ أغسطس ، أى قبيل بدء الألعاب الأولمبية بعشرة أيام تقريبا • وفي بون ، بودلت حقائب « الزوجين » بحقائب مماثلة ، ولكن خاوية ، وتولاها مناضلون آخرون فقاموا بوضع الأسلحة ـ وهي عبارة عن رشاشات وقنابل يدوية وسواها ـ في صناديق ودائع الأمانات في محطة ميونيخ حيث سيأتى أفراد مجموعة المغاوير لطلبها كل بمفرده وبمفتاحه الخاص في ساعات مختلفة ، قبيل دخولهم الى الحرم الأولمبي •

وسبقهما مصالحه وشي ودخلا من البوابة الكبرى بفضل بطاقتى الدخول

اللتين نجحت صديقة أولهما بالحصول عليها . أما رفاقهما الستة فكان عليهما أن يتسلقوا السياج المحيط بالقرية الأولمبية والذى يبلغ علوه مترين •وضرب لهم موعد مع الرجل الذى سوف يقودهم الى هناك ويستخدمونه كمرتكز أو كمرقاة عند طرف السياج • وقبيل وصولهم كانت احدى المناضلات اللاتي لا تعوزها الوسامة قد ذهبت الى المكان لتدخل في محادثة مع موظف الامن الألماني الذى يقوم بالحراسة • واذ تمكنت بذلك من الهائه ، فان افراد المغاوير نجحوا في القفز عن السياج بدون أن يعيقهم أى عائق • وبعيد ذلك بساعات، كانت الفتاة والدليل قد غادرا ألمانيا بالطائرة •

كان الجناح الذى يقيم فيه الرياضيون الاسرائيليون يبعد مسافةخمسين مترا عن السياج • وقد اصطدمت المجموعة ــ التي كانت تلقت تعليمات دقيقة بعدم احداث ما يريق الدم الا في حالة الدفاع الشرعي عن النفس ــ بمقاومة عنيفة من قبل اثنين من مدربي الفريق الرياضي ، فنشب أثر ذاك عراك انتهى بمقتلهما • أما الرياضيون التسعة الذين أخذوا كرهائن فقد عوملوا معاملة حسنة، بل أكثر من حسنة• وأبلغهم مصالحةوشي خاصة بأنهمسيبادلون بمعتقلين فلسطينيين •

وخلال مدة الاحدى وعشرين ساعة من محاصرة المبنى على يدالبوليس الألماني ، دارت بين الفدائيين ورهائنهم مناقشات ودية طويلة • كانت أعمار هؤلاء الآخرين تتراوح بين ١٨ و ٣٠ سنة وكانوا في معظمهم مهاجرين جدد وفدوا الى اسرائيل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ورومانيا وبولونيا وليبيا وفقا لما ستذكره الصحافة الدولية • وينتمي كثيرون منهم الى أطر وكوادر الاحتياط في الجيش الاسرائيلى . وقد أوضح لهم الفدائيون بأن مكان فلسطين في الألعاب الأولمبية ، قد أسند ظلما الى اسرائيل ، التي كان ينبغي على كل حال أن تطرد من هذا التجمع العالمي شأنها شأن جنوب افريقيا وروديسيا •

وقد أكد مصالحه ــ الذى تزوج أحد أقاربه الأقربين من يهودية ــ للرياضيين ، بأن الفلسطينيين لا يكنون أية كراهية لليهود أو حتى للاسرائيليين

الذين هم شأن الفلسطينيين وان بصورة مختلفة عنهم، ضحايا المغامرة الصهيونية وبالرغم من أن الرهائن كانوا مهتمين بالحوار ، الا أنهم أصروا على أن السياسة ليست مركز اهتمامهم .

وظهر ان المفاوضات مع المسؤولين الالمان ـ الذين عملوا كوسطاء بين الفدائيين واسرائيل ـ هي بالصعوبة التي كانت متوقعة . وكان عناد السيدة غولدا مئير رئيسة الحكومة الاسرائيلية في تلك الأثناء غير طبيعي تماما ، من حيث أنها لم تظهر أية ارادة في انقاذ حياة الرهائن . أما المغاوير الذين كانت التعليمات الصادرة اليهم توصيهم بألا يقتلوا أسراهم ، فانهم راحوا يمددون فترة الانذار ساعة بعد أخرى ، على أمل أن تقدم لهم صيغة تسوية ما . كانوا يعلمون مقدما أنه لا يمكنهم الحصول على اطلاق سراح المئتي معتقل الذين أعدت لائحة بأسمائهم وفقا لعددهم ونزعاتهم السياسية ، وتوزعهم على العشرة آلاف سجين المعتقلين في السجون الاسرائيلية . الا أنهم كانوا مستعدين عمليا لمبادلة رهائنهم التسعة بخمسين أو عشرين أو حتى بتسعة معتقلين فلسطينيين. غير أن أملهم خاب ولم يقدم لهم المفاوضون الألمان والاسرائيليون أى عرض مضاد ، اللهم الا تقديم مبلغ غير محدد من المال أو « شيك على بياض » ـ كما لو كانوا مجرد أشقياء ـ وذلك في مقابل اطلاق سراح الرهائن وتقديم جوازات مرور للثوريين الستة .

وفي اللحظة التي وصلت فيها المساومات الى مأزق خطير ، قامت سفارة عربية بايصال اقتراح الى مصالحة يمكن أن يكون موضوع اتفاق سرى : وقوام الاقتراح هو أن يجرى اطلاق سراح الرهائن الاسرائيلين واستبدالهم بمتطوعين ألمان يقتادهم الفدائيون الى أحد البلدان العربية. وبعد ذلك بشهرين أو ثلاثة أشهر تقوم اسرائيل باطلاق سراح خمسين سجينا سرا بعد ان تتولى عدة دول عظمى ضمان احترام الدولة الاسرائيلية لتعهداتها هذه . كانت الصيغة مغرية . فهي تمتاز بأنها ترضي الجانب الفلسطيني وتنقذ ، في الحين نفسه ، ماء وجه القادة الصهاينة.

وقرر مصالحه ، وهو المناضل المنضبط ، أن يعرض هذا الاقتراح على

رؤسائه التسلسليين الذين لم يحسبوا حساب مثل هذا الاقتراح لدى وضع مخططهم • وكان عليه أن يلجأ في الحالات الشبيهة بهذه الحالة الى شخص ، اسمه القتالي طلال ــ كان قد أعطى رقم هاتفه في تونس قبل البدء بالعملية • ولسوء حظ الجميع ، فان طلال هذا ، كان محجوزا في مطار تونس بسبب اهماله الحصول مقدما على تأشيرة دخول •

غير أن الشخص الذى أجاب على مصالحه بالهاتف ، يدعى هو أيضا طلال • وكان طلال الحقيقي هذا يسكن لدى والده السفير الأردني السابق فرحان الشبيلات الذى أقام في تونس بعد اقالته من منصبه بسبب تعاطفه مع المقاومة • ولم يكن يتوقع زيارة صديقه المنتحل لاسم طلال • ومنذ ذلك، حدث التباس لا يصدق على الهاتف بين مصالحه وبين ابن السفير الذى لم يفهم لماذا يخابرونه من ميونيخ ليفضوا اليه بحديث ملغز غير مفهوم • ولم يكن يعرف حتى أن صديقه الفلسطيني قد انتحل لنفسه بهذه المناسبة اسم طلال • أما مصالحه فانه دهش هو الآخر من جهته لوقوعه على طلال آخر غير ذلك الذى يعرفه ، ويجهل كامل « الشيفرة » المتفق عليها كوسيلة تشاور • ولما كان يعرف أن خط الهاتف الذى وضعته السلطات الألمانية بتصرفه مراقب ، فان رئيس المجموعة اكتفى بالقول أنه سيعاود الاتصال به بعد ساعة • وخلال الاتصال الهاتفي الثاني ، لم يكن طلال المنحول قد وصل الى منزل السفير شبيلات بعد • ثم أن مصالحه لم يعاود الاتصال بعد هذا ، وابلغ أصحاب اتفاق التسوية برفضه للاقتراح •

ولست أدرى ما اذا كان هذا الاقتراح سيلاقى يومها القبول في اسرائيل أم لا • ولكننى متأكد ، بالاستناد الى محادثة أجريتها مع طلال المنحول ، بأن مسؤولي « أيلول الأسود » كانوا سيقبلون به كمخرج مشرف للمأزق • لكن من يسعه أن يدرى ؟ فلو أن طلال لم يصل متأخرا جدا الى منزل السفير شبيلات ، أو لو ان احدى محاولاته العديدة في الاتصال هاتفيا بمصالحه أفلحت فلربما أن أعضاء مجموعة المغاوير ورهائنهم كانوا جميعا اليوم أحياء سالمين !

أما الخاتمة المفجعة التى أفضت اليها هذه الحكاية نتيجة لازدواجية

الحكومة الألمانية المشؤومة ، فمعروفة . فقد انتهكت هذه الأخيرة الاتفاق المعقود والعهد المعطى وأمرت نخبة قناصتها بفتح النار على أفرادالكوماندوز كان مصالحه وشي قد هبطا لتوهما من طائرة اللوفتهانزا بعد أن فتشاهاليتوجها نحو طائرات الهليكوبتر التي تضم الرهائن المنتظرين فيها ، فكانا أول المصابين وقد ردا على النار بشجاعة قبل أن يسقطا في بركة من الدم ثم زحفا وهما في طور الاحتضار نحو بعضيهما وتصافحا مصافحة أخوية قبل أن يلفظا أنفاسهما الأخيرة . ثم أن مقاتلا ثالثا كان يقوم بالحراسة سقط قتيلا هو الآخر . ولم يشاهد انفجار طائرتي الهيلوكوبتر الا بعد موت أفراد المجموعة الرئيسيين الثلاثة وبعد انتهاء تبادل اطلاق النار . وعلى هذا ، فان الفدائيين اللذين كانا يرافقان الرياضيين الاسرائيليين ـ واحد في كل طائرة ـ لم يعمدا الى قتل رهائنهما والانتحار معهم ، الا بعد أن لاحظا أنه لم يبق لديهما ما يأملانه . أما الأعضاء الثلاثة الباقون ، فانهم جرحوا فسلموا أنفسهم .

وبالاجمال ، فان تضحيات أبطال ميونيخ لم تذهب هدرا . فاذا كانوا لم يتوصلوا كما كانوا يأملون الى تحرير رفاقهم السجناء في اسرائيل ، الا انهم بلغوا الهدفين الآخرين المرسومين للعملية : فقد أطلع الرأى العام العالمي على المأساة الفلسطينية بفضل دوى الألعاب الأولمبية . كما فرض الشعب الفلسطيني حضوره على هذا التجمع الدولي الذى كان يسعى لاستبعاده . أما الخاتمة ـ المجزرة ، فتتحمل حكومتا جمهورية المانيا الاتحادية وحكومة اسرائيل خاصة، المسؤولية الراسخة الجسيمة فيها .

ثم أن السلطات الألمانية راحت تسعى مدفوعة بشعور بالذنب أو ربما بدافع من الجبن ، الى التخلص من الفدائيين الأسرى . وجاءتها الفرصة بعد ذلك بشهرين في ٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٢ عندما قامت مجموعة مغاوير فلسطينية باختطاف طائرة بوينغ تابعة لشركة لوفتهانزا تعمل على خط بيروت ـ فرانكفورت الى زغرب . وطالبت بالافراج عن الناجين من عملية ميونيخ ، فأفرج عنهم للفور ليعودوا جنودا مجهولين في صفوف المقاومة .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا الطارىء المأساوي ـ الهزلي أفضى الى

أزمة دبلوماسية . فقد حمل سفير ألمانيا الغربية في تونس تسجيل المحادثات الهاتفية بيديه وتقدم باحتجاج حاد الى الحكومة التونسية مطالبا بتسليم مسؤولي « أيلول الاسود » الموجودين في تونس . وبعد عمليات أخذ ورد طويلة ، تم الاتفاق على عدم اشاعة القضية . ومع هذا فان السفير شبيلات وسائر أفراد عائلته طردوا من تونس بعد ان كانوا يتمتعون بحق اللجوء فيها .

أما مصالحة ، فانه أدى مهمته بأن احتمى بموقف الانكفاء الوارد في المخطط الذي كلف بتنفيذه . ذلك أنه ، ازاء تصلب الاسرائيليين اقترح ، كحل نهائي ، أن يسافر الفدائيون ورهائنهم الى القاهرة . وانما وضع هذا الحل البديل، كمحاولة اضافية لتلافي اعدام الرهائن بدون الاضرار بمصداقية «أيلول الاسود » . فمصر ما كانت ستسمح مطلقا بأن تمرغ سيادتها على أرضها . وعلى هذا فان الرهائن الاسرائيليين كانوا سيحتجزون بصفتهم رعايا لبلد عدو ، فلا يطلق سراحهم الا اذا قبلت السلطات الاسرائيلية بالمبادلة . أو بعبارة اخرى ، فان مصيرهم لم يكن سيختلف ، في أسوأ الافتراضات ، عن مصير المقاومين الفلسطينيين المعتقلين في سجون الدولة اليهودية .

غير أن المستشار ويللي براندت كان يطمح بالحصول على المزيد . فقد اتصل هاتفيا برئيس الحكومة المصرية عزيز صدقي وأبلغه آخر اقتراحات مصالحة ، طالبا اليه العمل بحيث يجري اطلاق سراح الرياضيين الاسرائيلين وطردهم لدى وصولهم الى القاهرة بصحبة الفدائيين ، بعد أن تقوم السلطات المصرية بتحييد هولاء الآخرين . وبطبيعة الحال ، فان عزيز صدقي الذي أبلغني المحادثة كلمة كلمة ، رفض اقتراح المستشار موضحا أنه لا يليق بشرف حكومته أن تخون ثقة الفدائيين على هذا النحو .

ولست ادري ما اذا كان المستشار براندت عارفا أم لا ، بأن السلطات الالمانية كانت تتآمر ، ابان هذه المحادثة وبتعاون وثيق مع المخابرات الاسرائيلية ، من اجل اغتيال الفدائيين . وقد جرى اعداد عدة مشاريع قبل أن يقر القرار على أن ينصب الكمين للفدائيين في مطار فيورشتنفيلد بروك العسكري ، حيث كان يفترض أن يطير المغاوير والرهائن من هناك على متن

طائرة لوفتهانزا باتجاه القاهرة .

أما المسؤولون الاسرائيليون فانهم حاولوا من جهتهم تقنيع جريمة بجريمة أبشع منها . فبعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على مجزرة ميونيخ ، قام الطيران اليهودي بدك نحو من عشرة مخيمات من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان دكا وحشيا ، قاتلا أو جارحا مايزيد على مئتي برئ . وفي اليوم ذاته كشف ايبا ايبان القناع مصرحا أن اسرائيل ستولي الأولية بعد الآن للصراع ضد الارهاب على السعي وراء السلام .

تواصلت « حرب الظلمات » أو حرب الاشباح كما يسميها البعض وهى تزداد كما وكثافة . ووجهت مخابرات الدولة الصهيونية بطرود ملغومة الى جمهرة مناضلينا في عدد من العواصم والحاضرات بينها بيروت والجزائر (حيث أصيب ممثل منظمة التحرير الفلسطينية أبو خليل بجراح جسيمة) وطرابلس (حيث أصيب مصطفى عوض زيد ممثل منظمة التحرير بالشلل والعمى) والقاهرة (حيث أرسل طردان الى اثنين من قادة فتح ، فاروق القدومي وهايل عبد الحميد ، أفلتا منهما سالمين) وستوكهولم (حيث فقد عمر صوفان مدير الصليب الاحمر اصابع يديه) وبون (حيث أصيب عدنان أحمد من اتحاد الطلاب الفلسطينيين بجراح جسيمة) وكوبنهاغن (حيث فقد الطالب أحمد عبد الله ذراعه) . وبعد مقتل ممثلي منظمة التحرير في روما وباريس ــ زعيتر والهمشري ــ جاء دور ممثل المنظمة في نيقوسيا حسين أبو الخير حيث اغتيل في ٢٥ كانون الثاني ــ يناير ١٩٧٣ .

وقد ردت « أيلول الأسود » بقدر ما في وسعها ، مضاعفة من عملياتها . فبعد مقتل أبي الخير بثلاثة أيام ، قامت بقتل عمل اسرائيلي في قلب مدريد كان يتسمى باسم باروخ كوهن في حين أن اسمه الحقيقي هو مويس هنان ايشي . ولما كان حائزا على عدة جوازات سفر فانه غالبا ما كان يتنقل تحت هويات مختلفة بين عاصمة أوروبية وأخرى وخاصة باريس وبروكسل وروما. كان من البديهي أن كوهن يشغل وظائف هامة داخل مخابرات الدولة اليهودية . فقد شكل ، بين جملة ماشكله ، شبكة من الطلاب الفلسطينيين في

اسبانيا ، كان افرادها في معظمهم من مواليد الضفة الغربيـة وغـزة ، مسندا اليهم مهمات الاثارة والاستفزاز والتجسس . وكانت احـدى مهماتهـم الاستعلام عن الفلسطينيين المقيمين في اسبانيا وخاصة لجهة ميولهم وانتماءاتهم السياسية . وكانت احدى مهامهم الأخرى هي جمع المعلومات والاستخبارات في البلدان العربية ــ كمصر ولبنان مثلا ــ البلدين اللذين كان بعض هؤلاء المجيشين يزورونهما أثناء العطل المدرسية . وفي مرحلة لاحقة ، أنشأ كوهن خططا لمهاجمة مؤسسات أسبانية يملكها يهود أو أن لها علاقات تجـارية وأعماليـة وثيقة مع اسرائيل وذلك بهدف الحط من اعتبار الفلسطينيين في نظـر الرأي العام ، والتسبب في طردهم من اسبانيا .

غير أنه كان يجهل أن العديد من هؤلاء المجيشين ، أعضاء في « أيلول الأسود » وأنهم يتظاهرون بالتعاون معه بناء على طلب هذه المنظمة . وانما تقرر اعدامه عندما بدأ يشك جديا بأمانة ووفاء هؤلاء الذين لم يكـونوا يقـومون بتنفيذ المهمات التي أوكلها اليهم ، متذرعين بذرائع مختلفة . وبات اعـدامه أمرا ملحا عندما أعلن بعيد مصرع محمود الهمشري في باريس ، بأنه نقل الى وظائف أخرى . فقد كان كوهن وفقا لمعلومات « ايلول الأسود» أحد مدبري أغتيال ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا .

ثم أن كوهن نفسه حدد موعد اعدامه عندما أبلغ « صلته » الفلسطيني في مدريد بأنه سيلاقيه في ٢٨ كانون الثاني ـ يناير في مدريد للمرة الأخيرة . وذهب الطالب وفق ما هو متفق عليه الى مقصف (بار) يقع في أحد شرايين العاصمة الرئيسية . والواقع أن ثلاثة من أفراد « ايلول الأسود » كانوا على الموعد . فبخلاف محـادث العميل الاسرائيلي ، فانه كان هنـاك رجـلان مسلحان ، احدهما داخل المقصف والآخر خارجه ينتظران اللحظـة المواتيـة للشروع بالعمل .

وبعيد وصوله الى المقصف ، أبلغ كوهـن الطـالب بأنه سيقدمه الى خليفته ودعاه الى أن يتبعه . فكان ذلك نعمة غير مأمولة . لكن الطالب الذي كان يتمنى ارجاء الاعدام لكي يتمكن من معرفة العميل الاسرائيلي الجديد ،

لم يجد أية وسيلة لتحذير شريكيه . وقد قلق هذان الآخران عندما شاهدا كوهن وصاحبه يغادران المقصف فجأة . فهذا الانتقال غير متوقع ، بحيث أن الرجل المستهدف قد يفلت منهما ويختفي فجأة في زحام المشاة كعادته . وفتح احدهما النار عن كثب فأردى كوهن قتيلا ، بينما اطلق الآخر النار في الهواء ارهابا ، بحيث أن المغاوير الثلاثة سيتمكنون من الضياع في الزحام قبل أن يغادروا الأراضي الاسبانية بالطائرة .

وهكذا فان « أيلول الأسود » رمت برمية واحدة فأصابت المخابرات الاسرائيلية (الموساد) اصابتين . ذلك ان اعدام كوهن أدى الى تصفية مجمل الشبكة الاسرائيلية في اسبانيا . اذ لما كانت المخابرات الاسرائيلية تجهل أي « مجنديها » الفلسطينيين هو قاتل عميلها ، فانها اضطرت ، من قبيل الحكمة والاحتراس الى قطع علاقاتها بكافة أعضاء المنظمة التي كونها كوهن بصبر واناة .

وفي هذه الاندفاعة ، قتلت « أيلول الأسود » في اذار ـ مارس ، ١٩٧٣ ، عميلا اسرائيليا آخر هو سمحا غيرلتزر في نيقوسيا ، وبعد ذلك بشهر تقريبا أي في ٩ نيسان ـ أبريل جرت محاولتان في العاصمة القبرصية ، احداهما ضد مقر سفير الدولة الصهيونية والثانية ضد طائرة تابعة لشركة العال كانت جاثمة في المطار . على أن ما وصف بأنه رد اسرائيل ، كان صاعقا . فغداة اليوم الثاني لهذا الهجوم المزدوج الذي يتصادف مع الذكرى الخامسة والعشرين لمجزرة دير ياسين نزلت وحدة مغاوير اسرائيلية في بيروت واغتالت ثلاثة من قادة المقاومة الرئيسيين هم : يوسف النجار (أبو يوسف) ، كمال عدوان وكمال ناصر .

كنت وثيق الصلة بكمال ناصر فبخلاف اجتماعاتنا السياسية ، فاننا كنا نرى بعضنا مرة على الأقل في اليوم ، مؤثرين أن يكون ذلك في الليل عندما يتوفر لكلينا الوقت ، فنتحادث ساعات طويلة . كان كمال شاعرا مجيدا يشع ذكاء وحساسية وطيب مزاج ، ويعرف كيف ينشد يأس شعب منهك ، وكيف يغني آمال المقاومة ، وكان انسانا تأتلف فيه الروحانية والدعابة . وكنت أحب فيه

نزاهته العميقة وأماناته كمناضل • فقد كان بعثيا في قناعاته ، وانفصل عن حزبه عندما اعتبر أن الحزب لا يتصرف دائما وفقا للمبادىء التى يؤمن بها •

وبرغم تعاطفه مع فتح الا أنه لم ينتسب اليهـا لأنه لم يكن يتفـق مع حركتنا اتفاقا دائما كاملا • وانما كان يمارس وظيفته كناطق وحيـد باسـم منظمة التحرير الفلسطينية ، بصفته شخصية مستقلة •

كانت محادثاتنا التي لا تنتهي تدور في الغالب حـول مشـكلة تمسك بشغاف قلوبنا : عنيت وحدة الحركة الفلسطينية •فكان هذا يقودنا الى اثارة مزايا وعيوب المقاومة ووسائل تصحيح الانحرافات أو الأخطاء المرتكبة • وكم من مرة لعبنا دور الوسطاء أو دور الساعين بالمصالحة •

وقبيل الغارة الاسرائيلية التي أودت بحياة كمال ناصر ويوسف النجار وكمال عدوان بنحو من عشرة أيام ، كنا بضعـة اشخاص ــ بينهم هـؤلاء الثلاثة وياسر عرفات ــ مجتمعين في شقة كمال • وكان الشـهداء العتيدون الثلاثة يقطنون نفس المبنى : كمال عدوان في الطابق الثـاني وكمال ناصر في الثالث ويوسف النجار في السادس • فهـل تراني توجست يومذاك غيابهـم المأساوي • يبقى أني حين لاحظت لدى وصولي عدم وجود حـرس أو أي تشكيل أمني ، فاني قلت لهم بلهجة تتراوح بين الجد والهـزل : « أما انكم لمتهورون ! ولن تلبث أن تحط طائرة عمـودية (هيليـوكوبتر)اسرائيلية في الأرض البور المواجهة لمبناكم ثم تختطفكم ثلاثتـكم ! » وانقلب قولي الى ممازحة قبل أن يعود عرفات الى الموضوع ليطلب اليهم أن يسهروا بصـورة أكثر جدية على أمنهم • فأجابوا بأنهم لا يريدون ازعاج الجيران باقامة حماية ملفتة للنظر كثيرا في المبنى •

وتشاء الصدف أن يقرر مجلس منظمة التحـرير المركزي ، الذي كنـا ننتمي اليه خمستنا ، أن ينعقد بصورة استثنائية في بيروت ــ وليس في دمشق كالعادة ــ في يومي ٩ و ١٠ نيسان ــ أبريل (تاريخ الغارة الاسرائيلية) وطال اجتماع يوم ٩ الى ساعة متأخرة من الليل نمت بعدها ، كما كان يحـدث لي كثيرا ــ لدى كمال ناصر • وعلى أثر جلسة صباح اليوم التالي ، عرض النجار

وعدوان وناصر على أن آتي فاتغذى معهم في مطعم على شاطىء البحر اشتهر بطيب السمك فيه • والحال هو أنني كقاعدة عامة ، اتلافى ، لأسباب أمنية ، ارتياد المحلات العامة • ولا أدري أية نزوة دفعتني ذلك اليوم الى قبول الدعوة : وعلى كل ، فقد أحسست بحاجة الى أن لا أنفصل عن رفاقي الثلاثة ولو لساعتين • وبعد أن تناولنا وجبة كانت لذيذة على نحو خاص ، وسادها طيب المزاج ، ذهبنا معا الى المجلس المركزى الذى تنتهى مداولاته في الساعة التاسعة مساء •

وعاد يوسف النجار وكمال عدوان الى منزلهما • فعرضت على كمال ناصر أن ننهي السهرة في شقته • الا أنه اجابني ، أمام عظيم دهشتي ، بلهجة مزاح : « أفضل أن أموت على أن استقبلك عندي ! » ثم راح يوضح لي بعد ذلك بجدية أن عليه أن ينظم مرثاة في الشاعر عيسى نخلة الذي مات لتوه ،وأنه متيقن من أن وجودي سيمنعه من العمل • واذا فقد تركته آسفا • ثم تذكرت أن على أن أزور الناجين الثلاثة من عملية ميونيخ ، فقررت أن أذهب لأسمع حكاية مغامرتهم • وحين وصلت الى مقصدى ، لاحظت وجود هرج قتال في الشارع حول المبنى الذي تحتله الجبهة الشعبية الديمقراطية التي يرأسها نايف حواتمه ، والذي يقع على مبعدة نحو من عشرة أمتار من المبنى الذي ينزل فيه الفدائيون الثلاثة • وحين سألت بعض مناضلي الديمقراطية عن سر الهرج قالوا لي أن مغاويرهم مستنفرون بسبب الهجوم الوشيك الذي ستشنه الجبهة الشعبية التي يرأسها الدكتور جورج حبش على مكاتبهم • واستشطت غضبا ، وعبرت لهم عن رأيي في هذا الخلاف الأخرق بين منظمتين من منظمات المقاومة ، ممن تقضي طبيعة الأمور عليهما بأن يكرسا جهودهما لمحاربة العدو • وبطبيعة الحال فاني لم أكن أعلم في تلك اللحظة كم أن الأحداث ستصوب قولي • فقد كانت الساعة التاسعة والنصف ، ولم يكن في تخيل أحد ، أن المغاوير الاسرائيليين ،وليس مغاوير الجبهة الشعبية، سيقومون بعد ثلاث ساعات بمهاجمة مبنى الجبهة الديمقراطية • غير أن أنصار نايف حواتمه كانوا قد وضعوا في هذا المبنى المؤلف من تسعة طوابق ، دوائرهم الادارية والمالية والاعلامية وجزءا هاما من محفوظاتهم ، منتهكين بذلك أدنى القواعد الأمنية

الأولية .

ثم أن المحادثة التي أجريتها بعيد ذلك مع الناجين الثلاثة من عملية ميونيخ ، أبعدتني عن مشاغلي الآنية المباشرة . فالتفاصيل التي زودوني بها عن سير العملية شغفتني . كما ان السرد الذي سردوه لي عن التعذيب الذي لاقوه في السجون الالمانية بلبل خاطري . ذلك أن التنكيل الذي نزل بأحدهم، أورثه عاهة جنسية دائمة . ثم أن الثلاثة راحوا بدورهم يسائلونني عن الاوضاع السياسية . وفجأة سمعت صوت عيارات نارية. فنظرت الى ساعتي فوجدتها تشير الى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل . ووجدتني اغضب مرة ثانية وأنا أفسر لصحابتي أن المعركة الجارية هي على الأرجح معركة بين أنصار حبش وحواتمه .

وتكاثفت الطلقات ، ثم جاءت أصوات انفجارات قوية لتزرع الريبة في رأسي . فقد كان ثمة مطر منهمر من القذائف التي تتساقط على مبنى الجبهة الديمقراطية . وقلت في نفسي أنه من غير المحتمل بل من المستبعد أن يلجأ المهاجمون الى مدافع الهاون ، وبدأت أخمن الحقيقة عندما برز بواب المبنى الذي كنا فيه ، فجأة الى شقتنا وهو يصيح بصوت مخنوق : اليهود اليهود هنا ! . وكان يرتجف من رأسه الى أخمص قدميه بحيث أنه لم يستطيع أن يضيف على هذه الكلمات شيئا .

واذا ، فان التنبوء الذي تنبأت به لعشرة أيام خلت ، بدون أن أكون كثير الايمان به ، قد تحقق . فالاسرائيليون قائمون على ابوابنا بالمعنى الحرفي للكلمة . وقلت في نفسي أنهم اذا كانوا عرفوا أن يحددوا مقر الجبهة الديمقراطية ، أفلا يعرفون كذلك أن فدائيي ميونيخ الثلاثة يقطنون المبنى المجاور لمقر الديمقراطية ؟ وأن ياسر عرفات يقطن هو الآخر في منزل يقع على بعد بضعة امتار من مبنى الجبهة الديمقرطية

ولما كنا مسلحين بمسدسات جيب بسيطة ، فانه لم يكن في وسعنا — صحابتي الثلاثة وأنا — أن نفعل شيئا يذكر ، اللهم الا أن نلجأ الى قفص أو

بئر سلم المبنى على موازاة الطابق الرابع . وأوصل أحدنا المصعد الى الطابق الخامس ثم جمده هناك بأن فتح بابه • وهكذا يصبح المهاجمون مضطرين للصعود على أقدامهم والتعرض لنيراننا •فقد كنا عازمين على المقاومة حتى آخر طلقة نملكها •

ثم أن حريقا قويا تبعته سلسلة من اصوات القصف والتحطم جعلتنا نفترض أنمبنى الجبهة الديمقراطية قد تعرض للنسف • ثم تباطأت أصوات تبادل العيارات النارية • ونزل صحابتي الى الشارع يتجسسون على المغاوير الاسرائيليين بينما كانوا ينسحبون مغطين انسحابهم باطلاق نار متقطع • كان أعداؤنا يرتدون لباس الفدائيين ولكنهم كانوا يتبادلون الكلام بالعبرية • ثم نزلت بدوري الى الشارع فتعرفت على الجثث الممددة على أرض المبنى والتي تعود الى المناضلين الثلاثة الذين ينتمون الى الجبهة الديمقراطية والذين وبختهم قبل ذلك بثلاث ساعات عندما علمت أنهم يتأهبون لقتال مغاوير الجبهة الشعبية • أما رفاقهم الذين كانوا في المبنى لحظة الهجوم فانهم سلموا في غالبيتهم ذلك أنهم لحسن الحظ ، غادروا المبنى قبل تدميره ليردوا على المهاجمين •

واجتزت الشارع وذهبت الى منزل عرفات الذى كان سليما هو الآخر• وعلمت أن الاسرائيليين قصفوا المبنى الذى يقيم فيه ، غير أنهم ، بالنظر الى عدم تيقنهم من وجوده به ، فانهم لم يلجوا في القصف خاصة وأن حرسه قاوموا مقاومة صريحة • وأفرج عن بعض الفدائيين الذين كانوا مسجونين في الطابق الذى يقع تحت أرض المبنى لارتكابهم بعض المخالفات ، وسلحوا في بداية المعركة فأسهموا في رد الجنود الاسرائيليين • أما عرفات فتابع المعركة من سطح المبنى وهو يصدر تعليماته للمقاتلين •

ولما كان قد بلغ عرفات أنى كنت ابان المعركة موجودا في مبنى مجاور ، فانه كان مقتنعا بأني قتلت • ولهذا فانه حين تلقاني احتضنني طويلا بين ذراعيه• كان بادي الانفعال ، وأطلعني على الأخبار التي وصلته : فالمغاوير الاسرائيليون الذين نزلوا في الجنوب قرب صيدا وفي بيروت شنوا هجماتهم على عدةأهداف

فلسطينية في آن معا . وأضاف عرفات : على أن أجسم ما في الأمر ، هو أنهم دخلوا شقة يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر ، ولكنه لا يدرى ما اذا كان هؤلاء قد اختطفوا أم قتلوا . وبعيد ذلك بدقائق بلغنا النبأ الصاعق : رفاقنا الثلاثة قتلوا حقا وصدقا .

وقررت لفوري أن أذهب الى شارع فردان حيث يقع مبنى الشهداء الثلاثة . وبالنظر الى المخاطر التي كانت لا تزال قائمة بالنسبة للتنقل في المدينة فان عرفات حاول أن يردعني عن ذلك ولكن دون جدوى . وكان أن أصابني المشهد الذى كان ينتظرني في مسكن كمال ناصر بالهلع . فقد رأيت صديقي ــ عبر غيمة من الدخان المتولد عن صاروخ أطلقه الاسرائيليون قبل اقتحامهم المنزل بلحظات ــ ممددا في وضعية المصلوب . وكان وجهه يبدو وكأنه مخرم بخمس عشرة رصاصة على الأقل . فقاتلوه لم يهملوا الرموز ، في عجالة مهمتهم المشؤومة . ولم ينسوا ان كمال مسيحي الطائفة وناطقا باسم منظمة التحرير الفلسطينية . وبخلاف ذلك فان المهاجمين رشوا بالرصاص سريره والسرير الموضوع في غرفة الجلوس الذي كنت آوي اليه عادة ، وذلك لاستخراج كل من يمكن أن يكون قد التجأ تحتهما .

كان كمال يلبس (بيجاما) ، مما يشير في الظاهر الى أن الهجوم فاجأه في نعاسه في اللحظة التي كان يهم فيها بالرقاد. وكان شباك نافذته مفتوحا والستائر البندقية اللون منتزعة ، كما لو أنه كان حاول الفرار في البداية . ثم أنه رد بعد ذلك بواسطة مسدس جيب وجدناه الى جانبه . الا أن مقاومته لم تطل لأن المسدس كان ينقص رصاصتين فقط . وعندها تذكرت أني كنت كثيرا ما أناكده وأقول له : « ان أنت الا شاعر ولن تستخدم السلاح في حياتك مطلقا ! » ولعلي لم أخطىء كثيرا في ذلك .. أفلم يمت في اللحظة التي كان ينظم فيها مرثاة ؟!

ونحن نعرف ظروف اغتيال رفيقينا الآخرين معرفة أوفى ، بفضل شهادات أفراد أسرتهم . فقد قتل المغاوير الاسرائيليون الفدائي الوحيد الذى كان يحرس مدخل البناية بواسطة مسدس كاتم للصوت ، قبل أن يصعدوا بالمصعد

الى الطابق السادس • ونسفوا بوابة مدخل بيت النجار بواسطة قنبلة بلاستيكية • وكان رفيقنا ، وهو الذى يحب التبكير في الرقاد ، قد نام ، في حين أن أبناءه وهم صبي عمره ست عشرة سنة اسمه يوسف ، وأربع بنات ، يذاكرون دروسهم في غرفهم • وركض يوسف الى مدخل البيت وواجه المغاوير الاسرائيليين الذين صرخوا فيه بالعربية : « قل لنا أين أبوك » ؟ فاستبد الرعب بالصبي وأسرع الى غرفته ثم خرج من النافذة وهبط الى الطابق الخامس متسلقا على قسطل ، والتجأ هناك • خلال ذلك استيقظ النجار على الهرج وأقفل على نفسه باب الصالون الذي يفصل غرفته عن المدخل • وبينما كان المغاوير يحاولون اقتحام الباب طلب الى زوجته أن تناوله مسدسه • ودوت بعض الطلقات خلف الباب فانتهى به الأمر الى أن انفتح • وأصيب النجار اصابة خطرة فراح يترنح وهو يشتم المعتدين عليه صائحا : « جبناء خونة » وحاولت امرأته أن تحميه بأن وضعت نفسها بين زوجها وبين الاسرائيليين • لكن هؤلاء واصلوا اطلاق النار ببرود وقتلوا الزوجين معا •

خلال هذا الوقت ، احتلت شقة كمال عدوان الواقعة في الطابق الثاني • وكان كمال عدوان لا يزال يعمل ، فتنبه الى وجود ضجيج مشبوه على السلم • ولم يكد يمسك ببندقيته الرشاشة حتى بدأ المهاجمون باقتحام باب الدخول • وحتى قبل أن يتمكن من الرد تلقى عدة رصاصات في رقبته ، ذلك أن مجموعة ثانية من المغاوير الاسرائيليين تسللت اليه من نافذة المطبخ متسلقة على المجارير الخارجية ، وأطلقت عليه النار في ظهره • أما زوجته وولده اللذان كانا يشاهدان المشهد البشع عاجزين عن اتيان أي أمر ، فأن الاسرائيليين أبقيا عليهما ، ثم توجهوا نحو الطابق الثالث ليقتلوا ضحيتهم الثالثة ، كمال ناصر •

ومن البديهي أن مغاوير الجنرال دايان ــ الذي كان حينذاك وزيرا للدفاع ــ ما كانوا سيستطيعون القيام بعملية استغرقت قرابة ثلاث ساعات في قلب بيروت ، بدون أن يعترضهم رقيب ولا حسيب ، لولا تمتعهم بتواطؤ شركاء محليين هامين • فجيش الدولة اللبنانية ودركها وأمنها العام لم يحاولوا

التدخل مجرد محاولة • وقبيل الهجوم على مبنى فردان ببضع دقائق ، حدث انقطاع غريب تماما في التيار الكهربائي ، غمر الحي كله بالظلام • وكان المهاجمون يتنقلون ، ان في بيروت أو في الجنوب ، بسهولة لا يوازيها قدراً ، الا معرفتهم التفصيلية بالأمكنة • ولم نكن نملك في ذلك الحين أى برهان نؤيد به شكوكنا • الا ان التعاون الوثيق بين الأحزاب اليمينية اللبنانية وبين اسرائيل كما ظهر ، ابان الحرب الأهلية ، بعد ذلك بسنتين ، قد بدد آخر أوهامنا بصدد التواطؤ الذى سهل عملية ١٠ نيسان ـ ابريل ١٩٧٣ •

وعامة القول ، هو أن اسرائيل تتمتع في صراعها ضد الشعب الفلسطيني، بوسائل هامة لا سبيل الى مقارنة اتساعها بوسائلنا نحن •• فقد كان في وسعها أن تعتمد في « حرب الظلمات » على ملاكات هامة حسنة التنظيم ، جيدة التجهيز ، وعلى تكنولوجيا متقدمة ، وعلى عدد من السفارات في الخارج تستخدمها كمحطات لوجستيكية ، بدون أن ننسى المساعدات المطلقة التى يؤديها لها أفراد الطائفة اليهودية المنتشرة في العالم • غير أن الفلسطينيين المحرومين من اية دولة وحتى من ملاذ أمين ، والذين يواجهون ليس عداوة اسرائيل وحسب ، وانما عداوة مختلف القوى الأجنبية بما في ذلك بعض البلدان العربية ، تمكنوا بالرغم من هذا كله أن يسجلوا بعض الانتصارات الباهرة في هذه المعركة غير المتكافئة •

ولا ريب في أن الاسرائيليين لم يتراجعوا عن مشروعهم القاضي بتصفية قادة الفدائيين لاعتقادهم أنهم يستطيعون بذلك تدمير الحركة الوطنية الفلسطينية • ولا ريب في أنني أظل أحد أهدافهم الأولية • فطوال سنوات ، غذت المخابرات الاسرائيلية ــ وشريكتاها الأردنية والأميركية ــ حملة صحفية تهدف الى اظهارى ليس كرئيس « أيلول الأسود » وحسب ، وانما كمدبر لعدد من العمليات الارهابية ، مع أن عدة منظمات أخرى قد أدعت القيام بها • وقد أحبطت عدة محاولات لاغتيالي في السنوات الأخيرة في بيروت ودمشق • غير أنني أعترف بأن محاولة أكثر أرابة وبالتالي اكثر جدية أوشكت أن تكلفني حياتي وحياة أفراد عائلتي في آب ــ اغسطس ١٩٧٣ •

فقد أبلغني أحد حراسي حينها ، وكنت مارا بالقاهرة حيث تقيم زوجتي وأولادى الستة في منزل استخدمه كذلك كمكتب خاص ، بأن شابا يريد رؤيتي على عجل مؤكدا أنه يحوز على معلومات يريد أن يفضي بها الي على انفراد • فلم يكن في وسعي الا أن استقبله • وقال لي أنه مكلف بقتلي • واثباتا لأقواله فانه فتح حافظة وثائقه وقدم الي مسدسا مزودا بكاتم صوت • ثم تابع قائلا : ولما لم أكن أريد أن أخاطر بأن أقتل أو أعتقل ابان محاولة الاغتيال المرسومة ، فانني فضلت أن أعترف اليك ثم طلب الي في مقابل ذلك أن أوفر له الأمان موضحا أنه يتمنى أن يعيد بناء حياته في أحد البلدان العربية في افريقيا الشمالية ، أو في احدى دول المعسكر الاشتراكي ، اذا تعذر ذلك •

وقال أنه فلسطيني من الضفة الغربية وكلفه ضابط استخبارات اسرائيلية ذكر لي اسمه ، باغتيالي • غير أنه بعد أن اجتاز نهر الأردن ليذهب الى عمان ويركب الطائرة من هناك ، أوقفه البوليس الأردني وأخضعه لاستجواب صارم • وبعد أن كشف طبيعة مهمته ، فان أحد ضباط الملك حسين ، فالح الرفاعي، وعده بمكافأة اضافية اذا أفلح في قتلي • وقد أثارت هذه المعلومات اهتمامي خاصة وأني كنت أعرف فالح الرفاعي ــ الذى كان يدير حينذاك دائرة المخابرات الأردنية المولجة بمكافحة فتح ــ معرفة جيدة •

وذكر لي محدثي الشاب أيضا أن تل أبيب وعمان تملكان مخططا تفصيليا عن مكان اقامتي وانهما زودتاه هناك بمعلومات دقيقة عن العاملين معي وعن التشكيل الأمني الذى أقامته دوائر الأمن المصرية ، وعن تنقلاتي الاعتيادية • وأضاف : وهكذا ، فقد كان في مقدوره تماما أن يقتلني قبل ذلك بيومين على عتبة دار الاذاعة ، حيث كنت قد ذهبت الى هناك بالفعل في الساعة التي أشار اليها بمناسبة برنامج اذاعي فلسطيني • وشكرته بحرارة وسألته عن اسمه وعنوانه كي أتمكن من الاتصال به في وقت لاحق • وهكذا عرفت أنه نزل في فندق متواضع ، هو فندق اللوتس ، ثم غادرني بعد أن ترك لدي حافظة وثائقه ومسدسه بطبيعة الحال •

الا أنني من قبيل الحيطة ، طلبت من المخابرات المصرية القيام بتحقيق حوله • فأبلغوني بعيد ذلك بقليل ، انهم وجدوا الكثير من العنت في تحديده• ذلك أن رجلنا تسجل في فندق اللوتس باسم غير الاسم الذى أعطاني اياه ، وغير الاسم المكتوب في جواز سفره • وبخلاف ذلك فان المحققين المصريين عثروا في غرفة زائري أثر قيامهم بعملية تفتيش متكتمة ، على حقيبة مقفلة بالمفتاح لم يتمكنوا من تفحص محتواها •

وبعد ذلك بثلاثة أيام، وفي الساعة السابعة صباحا ، أيقظني أحد حراسي ليبلغني أن ذات الرجل يلح ليراني فورا • واذ استولى علي الفضول فانني وافقت على استقباله • وبمجرد أن دخل الصالون ، لاحظت أنه يحمل بيده الحقيبة الصغيرة التي وصفها لي رجال البوليس المصرى • فطلبت اليه أن يفتحها فأ حمر وتلعثم ثم انتهى الى الانهيار• واعترف بأن الحقيبة تحتوي على عبوة ناسفة تكفي لتدمير منزلي وقتل زوجتي وأطفالي الستة • ووفقا للتعليمات التي تلقاها ، فانه كان ينبغي له أن يخفي عبوته تحت أحد المقاعد قبل أن ينصرف • أما زيارته السابقة و « اعترافاته » الأولى ، فلم تكن تهدف الا الى كسب ثقتي قبل أن يعمد الى هذه المرحلة الثانية والنهائية من العملية كما تصورتها المخابرات الاسرائيلية والأردنية • ورفضت عرضه لفتح الحقيبة ثم ما لبثت أن سلمته الى البوليس المصرى • وهو لا يزال منذ ذلك الحين في أحد سجون القاهرة •

وقد جرت محاولات أخرى للاعتداء على حياة أقاربي • فقد تلقى أولادي مرتين علب شوكولاتة كانت في الحقيقة ملغومة • ولحسن الحظ فاننا علمناهم ــ زوجتي وأنا ــ على أن يكونوا متيقظين • وهم على جانب من الحذر بحيث أنهم يمتنعون حتى عن فتح طرود الحلويات التي أبعث بها اليهم حين أكون في الخارج •

ومع أنني مهدد دائما ، الا أنني لا أخشى الموت • وأنا مؤمن دون أن أكون صوفيا • والرعاية الالهية التى أبقت علي حتى الآن ، لا تعفيني من اتخاذ حد أدنى من الاحتياطات لأومن سلامتي وسلامة ذوي •

ولما كنت من الجهة الثانية ، شديد النفور والكراهية لاراقة الدم ، فانني جاهدت أبدا لأمنع شباب المقاومة المتحمسين ، من القيام بمحاولات اغتيـال اعتبرها غير مجدية أو مضرة بقضيتنا .

غير انه كان من نتائج حرب تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ، أنها قـدمت السياسة على العنف ، تقديسا مؤقتا على الاقل .

الفصل السابع

شرارة الثورة

كانت المرة الأولى التي سمعنا فيها كلاما عن الحرب الوشيكة التي لم ينفك السادات يعلن عنها منذ شهور • ففي شهر آذار ــ مارس ، أى قبل غارة المغاوير الاسرائيليين على بيروت بحوالي شهر • كنا اربعة حين استقبلنا رئيس الدولة المصرى : ياسر عرفات ويوسف النجار وأبو جهاد وأنا • وقبل المحادثة ، أفضى لنا ضباط من كبار ضباط الجيش ، ان موعد المعارك قد تحدد في شهر أيار ــ مايو • غير أن السادات تحدث الينا بلغة أخرى تماما • فهو لم يكتف بعدم اثارة احتمال قيام نزاع بل أنه راح يشتكي مطولا من تردد الاتحاد السوفياتي في شحن الأسلحة ذات الأهمية الحاسمة • ثم كرس جزءا هاما من المحادثة لاستعراض تاريخ العلاقات المصرية السوفياتية والعداوة التي يوليها له قادة الكرملين في رأيه •

وفي أواسط شهر آب ــ أغسطس ، طلبنا ــ فاروق القدومي وأنا ــ مقابلة الرئيس المصرى لمناقشة بعض القضايا الراهنة معه • فأجابنا بأنه مستعد للتحادث مع واحد منا فقط على انفراد • واذ اثار ذلك استغرابنا فاننا ألحينا على الا ننفصل ، موضحين ان أحدنا لا يكتم عن الآخر سرا • وهكذا ، فقد دعانا السادات الى مقابلته في قصره برج العرب الواقع على الطريق من الاسكندرية الى الحدود الليبية على بعد بضعة كيلو مترات عن شاطىء المتوسط • واستقبلنا رئيس الدولة المصرى وهو بلباس صيفي وبوجه هادىء ، تحت شرفة مقره وبدأ حديثه معنا بترهات ، ثم اتبع ذلك بطرح أسئلة حول وضع المقاومة الفلسطينية العام • الا أنه بدا لنا شارد اللب ، يولي أجوبتنا اهتماما ضئيلا • ولم نلبث أن عرفنا سبب ذلك • ذلك أنه غير الموضوع فجأة وأعلن علينا بلا مواربة ، أنه سيشن الحرب ضد اسرائيل « قبل نهاية هذه السنة » • ثم أشار ضمنا الى الموعد التقريبي عندما أضاف أنه سيبلغنا بصورة أوفى بالموعد ، بعد « قمة » البلدان غير المنحازة الذى سوف يعقد في مطلع أيلول ــ سبتمبر « اى قبل بدء الاشتباكات بقليل » • وأنه قد أطلق اسم « الشرارة » على هذه العملية التي سوف تخاض بالاشتراك مع سوريا • ثم بادر مضيفا : وهذه الحرب لن تكون كاملة ، بل سيكون هدفها اخراج المشكلة العربية الاسرائيلية من المأزق • ثم أضاف بكل هدوء ، وكما

لو ان المسألة بديهية : « وبعد هذا نذهب معا الى مؤتر السلام ! »

واعترف أننا لم نول كثيرا من الانتباه ، لا القدومي ولا أنا ، لهذاالتأكيد الاخير ، ذلك أن فكرة الحرب ضد اسرائيل كانت تثير لدينا حماسا بالغا . فمصر وسوريا ، بلدا ساحة المعركة الرئيسيان ، قد فهمنا أخيرا ضرورة الكفاح المسلح ! وبطبيعة الحال فاننا أكدنا للسادات تضامننا الكامل وسألناه عما يتوقعه من جانبنا . فأجابنا بأنه يتمنى أن يكون في وسعه التصرف بأكبر عدد ممكن من الفدائيين ومن وحدات جيش التحرير الفلسطيني لتشترك فيالمعركة. ثم طلب الينا أن نتكتم بأقصى قدر ممكن ، حتى في محادثاتنا مع الرئيس السورى حافظ الأسد الذى لا ينبغي أن يطلع على هذه المحادثة . ثم استدعى بعد ذلك عبد السلام توفيق ، الذى كان تعين لتوه على رأس المكتب الثاني ، وطلب اليه أن يستقبلنا لتسوية المسائل العملية التي تطرحها مشاركتنا في المعركة .

وحسب الاتفاق ، فان السادات استقبلنا ــ عرفات والقدومي وأنا ــ غداة مؤتمر الدول غير المنحازة ، وبالتحديد في ٩ أيلول ــ سبتمبر ، عشية الاجتماع الذى كان سيعقد بين الأسد وحسين . ولم يبح الرئيس المصرى لهذا الأخير بأية كلمة حول مشروعه بصدد الحرب . فالهدف الرئيسي لهذه القمة ، هو اعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وسوريا وبين الأردن ، بعد أن كانت قطعت بعيد المجزيرة التي تعرض لها الفلسطينيون في جرش وعجلون. فمن شأن هذه العودة بالعلاقات الى طبيعتها ، أن توجد أوضاعا أكثر مؤاتاة على الجبهة الشرقية خلال المعارك المقبلة .

وقدم لنا السادات ابان محادثاتنا معه في ٩ أيلول ــ سبتمبر ، عرضا مفصلا لمشروعه ، الا أنه ألح هذه المرة ، على مرحلة ما بعد الحرب . وأشار الى أنه هو نفسه سيدعو الى عقد مؤتمر سلام . ولم يسم جنيف كمكان للاجتماع ولكنه عدد البلدان التي ستتمثل فيه ، فكانت تقريبا نفس البلدان التي شاركت في اجتماع المدينة السويسرية في شهر كانون الاول ــ ديسمبرمن

السنة نفسها : أي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي واسرائيل ومصر وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية .

وعندما سألنا نحن بدورنا السادات بأي صفة سوف يدعى الأردن الى الاجتماع ، فانه قدم لنا تفسيرات لا تقنع كثيرا . وأما بصدد مشاركتنا الخاصة فيه ، فاننا لم نعرب له عن أي رأي ، لأن علينا أن نعود في هذه المسألة الى الهيئات القيادية في المقاومة . فالمسألة الأساسية القوية بالنسبة لنا ، هي مسألة تحديد الشروط والأوضاع التي سنشارك من خلالها بالمعركة .

وفي ١٢ أيلول ـ سبتمبر استقبل السادات لهذا الغرض ، عرفات حيث أكد لرفيقنا قبل أن يفترقا ، بأنه سيبلغه بالموعد المحدد للاشتباكات في حينه .

ولدى عودتنا الى بيروت ، عقدنا على التوالي اجتماعين للمجلس الثوري وللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية لاطلاعهما على نوايا القادة المصريين وذلك بأقصى ما يمكن من ابهام في الكلام وغموض في التعابير . الا أن ذلك لم يترك أثرا على غالبية رفاقنا بسبب أن الريبة والتشكك كانا يخيمان في تلك الحقبة على جدية التهديدات التي كان رئيس الدولة المصرية يطلقها علنا .

وفي ٣٠ أيلول ـ سبتمبر ، أي قبل اندلاع المعارك بستة أيام ، تلقيت رسالة من سفارة مصر في بيروت تطلب مني أن أسافر الى القاهرة على عجل . وأبلغت ممثلي مختلف المنظمات الفدائية الذين كنت مجتمعا معهم موضحا بأنني اعتقد أن لهذه الدعوة علاقة بالحرب الوشيكة . فأثارت ملاحظتي قهقهات صاخبة . وقال لي أبو أحمد اليماني من الجبهة الشعبية (جورج حبش) : أراهنك على خروف كامل بأن السادات لن يحارب ! فقبلت الرهان . الا أنني لما كنت لا أعتقد أن النزاع قريب الحدوث ، فانني لم أغادر بيروت الى القاهرة الا يوم الخميس ٤ تشرين الاول ـ أكتوبر حيث وصلتها مساء .

ووجدتني أمام حدث غير اعتيادي ، ذلك أن ضابطا كبيرا كان ينتظرني في المطار . وما لبث أن قادني الى وزير الحربية المشير أحمد اسماعيل علي

الذى قال لي : « سنهاجم بعد غد . لقد تأخرت في المجيء ولابد من اخطار باسر عرفات فورا » . ولم أشأ ، من قبيل التروى والحكمة ، أن أرسل رسالة « بالشيفرة » بل كان لا بد من العهده بالرسالة الى موفد ، الا أنه لم يكن ثمة طائرة تطير الى بيروت في ذلك المساء . وهكذا فقد حررت مذكرة واضحة وضعتها في ظرف مختوم وسلمتها في صباح اليوم التالي الى أحد أفراد المقاومة وطلبت منه اتلافها في حال اختطاف الطائرة الى اسرائيل أو سواها .واندهش الرسول . اذ لماذا كل هذه الأسرار والاحتياطات . فاخترعت له على البداهة تفسيرا ، بدا له لحسن الحظ مقبولا : فالمغلف الذى سيوصله الى عرفات يدا بيد ، يتضمن كتاب استقالتي من الحركة ، التي لا أريد أن أفشيها قبل أن تقبل .

وليس من السهل في العادة الاتصال بعرفات في آجل قصير . وعلى هذا فان حامل الرسالة لم يستطع أن يسلمها له الا في ساعة متأخرة من مساءالجمعة. وبعيد ذلك بساعات كانت كافة قوات المقاومة قد وضعت في حالة استنفار . وفي الغداة ستنطلق القوات المصرية لغزو قنال السويس ، في حين أن الجيش السورى سيقتحم سهول الجولان ثم مرتفعاته .

وفي يوم الهجوم ، طلب الينا ــ فاروق القدومي وأنا ــ أن لا نغادر منزلينا ، اذ يجب أن نظل على اتصال بالرئيس السادات الذى يحرص على أن يرانا . وعرفنا بارتياح ببدء الاشتباكات في الساعة الرابعة عشرة من الاذاعة . وفي السابعة عشرة أبلغنا بأن رئيس الجمهورية سوف يستقبلنا في الساعة التاسعة عشرة تماما ، في قصر الطاهرة بمنشية البكرى في ضواحي القاهرة .

وبدا المقر الرئاسي الصغير نسبيا والمزخرف بذوق ، على هيئة القلعة . فهو محاط بالمدرعات والرشاشات الثقيلة وبعديد وافر من الجند المسلحين بعد أن تحول الطابق الأرضي منه الى ضرب من مقر قيادة أركان عسكرية . واستقبلنا السادات في صالون مجاور ببزة مارشال (لأنه يحكم الدستور ، القائد الأعلى للقوات المسلحة) . وعلى عتبة الباب راح يقول لنا بلهجة المنتصرين وبعينين تلتمعان من السرور : « ألم أقل لكم انني سأحارب ؟ فهل

تصدقوني الآن ؟ » ولم يسبق لي أن شاهدت السادات في مثل هذه الحالة من النشوة • فقد كان يشع بالرضا الذاتي ويفيض فرحا ويزخر حماسا : «لقد عطلنا خط بارليف عمليا ، والجسور البرمائية قيد الانشاء • ثمة جسر واحد يسبب لنا بعض الانشغال لأنه ليس صلبا بما فيه الكفاية • » كان السادات يطلعنا على الوضع العسكرى ، أولا بأول ووفقا للرسائل التي تصل الى غرفة العمليات أو على أثر تلقيه مكالمة هاتفية قصيرة • وقد راح يصيح وهو يزداد تهيجا وحماسا : « أول دباباتنا عبرت قنال السويس للتو والمدفعية تليها بعد قليل » •

وحدثته عن الفرحة التي انفجرت في شوارع القاهرة لدى اعلان الهجوم وأضفت ان الشعب المصرى وكافة الشعوب العربية تأمل في أن تمحو العار الذى أوقعته بها اسرائيل في حرب الأيام الستة بحزيران ــ يونيه ١٩٦٧ • وأصغى الي السادات جذلا وقال لي : « يا لجمال القوة ! نحن أقوياء ! وسنربح ! » وطوال ساعات ذلك المساء لم يتحدث الا عن العنف والفتح • وكانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة التي لا أسمعه يلفظ فيها كلمة السلام أو المفاوضة • واعترتنا الدهشة عندما صرح لنا قائلا : « ان جيوشي ستندفع حتى ممري متلا والجدي (نقاط السيطرة على سيناء) ثم أترك بعد ذلك للفدائيين مهمة مواصلة حرب العصابات ! »

كانت النجاحات الأولى تغذي فيه التفاؤل • وبعيد عبور الجيش الثالث القنال في الساعة الحادية والعشرين والنصف ، قال لنا : انه شيء خارق عجيب فقد توقعنا أن تكلفنا هذه المرحلة عدة آلاف من القتلى • وقد علمت لتوى أننا فقدنا أقل من مائتين • أليس رائعا • »

وحوالي الساعة الثانية والعشرين والنصف ، أوصلوا له برقية فاظلم وجهه فجأة • وقرأ الرسالة ثم أعاد قراءتها وبدا أن الحزن والغضب يجتاحانه• وارتسمت عليه بادرة تبرم وقال لنا : « اني لا أتمكن من التصديق • فالسوفيات يبلغونني أن حافظ الأسد طلب من سفيرهم في دمشق العمل

للتوصل الى وقف لاطلاق النار » فجعلنا النبأ نتردى بدورنا في حيرة عظيمة. فالعقل لا يتصور ـ من جهة أولى ـ أن تكون موسكو اخترعت هذه القصة ولفقتها تلفيقا . ولماذا ؟ ـ من الجهة الثانية ـ يطلب الأسد يا الهي وقف المعارف في حين أن جيشه يمضي في الجولان من نصر الى نصر !

وفي هذه اللحظة التي كنا نطرح فيها هذا السؤال أفلتت من السادات على غير ارادة منه ، جملتان لم تنفكا تتسلطان علينا وتلاحقاننا منذ ذاك . فقد قال : « مع أننا اتفقنا أنا والأسد مع فيصل (ملك العربية السعودية) على أن نواصل الحرب عشرة أيام على الأقل ! لأنه يحتاج الى هذه المهلة على الاقل ليمهد الطريق أمام حظر النفط . »

وبقينا ـ القدومي وأنا ـ فاغري الفاه أمام جسامة هذا الاعلان . واذا فان هدف الحرب لم يكن تحرير سيناء وانما تسهيل ممارسة الضغوط الاقتصادية على الغرب . وعلى هذا فانها كانت محكومة بأن تكون جزئية حتى قبل أن تبدأ .

ولم يلبث السادات أن اطمأن . فبعيد تسليمه الرسالة السوفياتية ،تلقى في حضورنا مكالمة هاتفية من الأسد عبر له فيها عن ارادته في مواصلة القتال. وراح يؤكد له بقوة : كلا لم أطلب وقف اطلاق النار من سفير الاتحاد السوفياتي في دمشق . ولم تسنح لي من جهتي الفرصة لأسائل اصدقاءنا السوفيات حول هذا الموضوع ، الا أن في وسعي أن أعرض رواية الرئيس السورى كما أبلغني اياها في محادثة لي معه جرت في كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٨ .

فقد سخط الأسد واستنكر عندما رويت له حديث السادات عن اتفاق سري معقود مع الملك فيصل . (وكذلك مع الولايات المتحدة ، في رأيي ، لأنها جنت من عدة نواحي مكاسب سياسية واقتصادية عظيمة من حرب تشرين ـ أكتوبر) وقال لي الرئيس السورى أنه اتفق مع السادات ، فقط على أن يطلبا وقف اطلاق النار معا بعد فتح الجولان وسيناء حتى ممرى متلا والجدى .

ثم راح يبدي التعجب قائلا : « ولو كنت أعلم أن الجيش المصرى سيتوقف على مسافة بضعة كيلو مترات وراء القنال ، لحددت لجيشي أهدافا أكثر تواضعا فأوفر عليه خيبات الأمل التى حدثت له بخطأ السادات ! » والواقع هو أن توقف الهجمة المصرية أتاح لاسرائيل أن تصرف قوات هامة وتوجهها الى الجبهة السورية .

وفهمت عندئذ لماذا طلب الينا السادات في آب ــ أغسطس الا نكرر على مسامع الأسد ما أفضى لنا به حول الأهداف المحدودة للهجوم الذى يعتزم القيام به . فقد قال لنا حينها ليحضنا على التكتم أن الرئيس السورى يكرهنا، ويكره عرفات بخاصة ، فلن يعجبه بالتالي أن نشرك بصورة وثيقة بمشروعهما المشترك . كانت حرب تشرين في نظر السادات « شرارة » فعلا كما أشار أمامنا في شهر آب وليست الحريق الكاسح الذى كان يأمله العالم العربي كله .

دامت محادثتنا مع السادات مساء ٦ تشرين الاول ــ أكتوبر أربع ساعات متواليات . وقد شعرنا بالضيق ــ فاروق القدومى وأنا ــ لاستغلالنا وقت رئيس الدولة الثمين ، خاصة وانه كان مستغرقا بمهمة عصيبة . الا أنه كان يلح علينا كلما حاولنا الاستئذان والانصراف أن نبقى برفقته . ولم نفهم حينها مرد لياقته ازاءنا . وعندما استرجع ذلك الآن وأعيد النظر فيه ، يراودني الاعتقاد بأنه كان يسعى الى ضمان تأييد الفلسطينيين له في حالة خسارته للحرب ــ الأمر الذى كان كارثة بالنسبة لمستقبله السياسي ــ أو في حالة ربحه لها . وأعتقد ، من منظار هذا الاحتمال الأخير ، أنه كان يأمل أن يكسب ثقتنا لكي يتمكن من جعلنا ننخرط في مسار السلام الذى ينوى السير فيه . ثم تركنا ننصرف في النهاية في الساعة الثالثة والعشرين عندما جاء من يعلن عليه زيارة اثنين من المقربين له : نائب رئيس الجمهورية السابق حسين الشافعي ورئيس مجلس الشعب الحالي (البرلمان) سيد مرعي .

ودارت حرب تشرين ــ أكتوبر ــ دون أن نسمع كثيرا من الكلام عنا . فالبيانات العسكرية التي كانت تبثها القاهرة ودمشق كانت تذيع الانتصارات المصرية والسورية ، ولكنها كانت تغفل في غالب الأحيان أن تشير الى صنائعنا

أو حتى الى حضورنا برغم أنه كان فعالا على كافة الجبهات • فقد نقلت عدة وحدات من جيش التحرير الفلسطيني بالطائرات العمودية (الهيلوكوبتر) منذ اليوم الأول للقتال وأنزلت وراء الخطوط الاسرائيلية ، فاستولت على أربعة تلال من تلال القنيطرة بالجولان • وعبر مغاوير من الفدائيين الحدود اللبنانية القريبة وهاجموا مؤخرة الجيش الصهيوني في الجليل الأعلى • وقام آخرون بقصف عدة كيبوتزات فيما وراء الحدود اللبنانية • ومنذ اليوم السادس من تشرين ــ أكتوبر ، قام نحو من ٧٠٠٠٠ عامل فلسطيني في الضفة الغربية وغزة يعملون في مؤسسات اسرائيلية بالاضراب عن العمل • وبالاجمال فقد قمنا خلال الأسبوع الأول من الحرب ــ باعتراف السيدة غولدا مئير نفسها ــ بأكثر من مئة عملية •

غير أننا لم نكن نملك منفذا الى الخط الفاصل بين الأردن والضفة الغربية وطلبنا من السادات أن يتوسط لصالحنا لدى الملك حسين • لكن هذا الأخير أجاب بالسلب على طلب مكتوب من الرئيس المصرى • ثم قام موفد من القاهرة بمحاولة جديدة في عمان، الا أنه اصطدم بدوره برفض حسين • وغضضنا النظر فاروق القدومي وأنا ، عن الماضي وقمنا بمسعى لدى سفير الأردن في القاهرة مؤكدين له استعدادنا لطي الصفحة السوداء في تاريخ علاقاتنا ، اذا سمحت حكومته ، فقط بمرور الفدائيين عبر الأراضي الاردنية • وتوجه وفد من منظمة التحرير الفلسطينية يقوده أبو داود الى عمان ليحث الملك حسين على دخول الحرب ، ولكن عبثا •

واذ ضغطت عليه عدة بلدان عربية ليفتح جبهة ثالثة مع اسرائيل ، فان الملك أرسل في ١٣ تشرين أول لواء مدرعا الى سوريا ، ولكنه رفض أن يوافق على الترخيص بمرور الجيش العراقي في أراضيه أو السماح له باستخدام المطارات الأردنية • وقد برر القادة الاردنيون ، موقفهم السلبي هذا ، بحجة عدم استعداد قواتهم وضعف دفاعهم المضاد ، الذى يعود بدرجة أساسية وفقا لما أكدوه ، الى عدم ابلاغهم بمشروع مصر وسوريا الحربي • غير أن الأمر لم يكن الا ذريعة ، لأن عدة قوى عربية وغير عربية قد عرضت على الاردن تقديم الدعم العسكري الذي يحتاج اليه •

بيد أن تاريخ حرب تشرين ـ أكتوبر ، لم يكتب بعد ، برغم ذلك العدد من المؤلفات الجيدة التي كرست له • فالواقع أن بعض الحقائق لاتزال في الظل ، كما أن عددا آخر منها يشكل الغازا لم تفك رموزها بعد • وأحد هذه الألغاز ، وهي ليست أصغرها شأنا ، هو بلا نزاع ، عبور رجال الجنرال شارون قنال السويس بواسطة عملية اختراق ستقلب مجريات الأحداثوتنهي انتصار الجيش المصرى •

فما زلت الى اليوم أجد في سلوك القيادة المصرية العليا ، وفي سلوك السادات نفسه ، ازاء محاولة الجنرال شارون أمرا يعصى على التصديق • وليحكم من شاء على ما سأقول • ففي العشرين من تشرين الأول ، أى قبل أربعة أيام من قيام وحدات المغاوير الاسرائيلية بعبور القنال عند نقطة ، تعرف باسم الدفرسوار ، قريبة من البحيرة المرة الكبرى (التمساح) ، قام عملاء المخابرات المصرية المتنكرين بثياب بدوية ، بارسال اشارة الى القاهرة (بواسطة أجهزة ارسال) تفيد مرور جسور ودبابات برمائية في العريش • فطبيعة هذا العتاد نفسه ، هي بحد ذاتها برهان على أن الجيش الصهيوني سيحاول اجتياز القنال وتطويق الجيش الثالث المرابط على الضفة الشرقية للقنال • كما أن قيادة الأركان في القاهرة تملك في ملفاتها عدة مخططات ، أعدت منذ أيام عبد الناصر أو منذ عهد قريب ، بهدف تلافي حدوث عمليات اختراق في أربع نقاط ضعيفة على الأقل ، بينها نقطة الدفرسوار بالتحديد • واذن فانه ليس في الخطة الاسرائيلية شيء غير متوقع • فماذا فعلت القيادة المصرية العليا ؟ لا شيء • كما أن المعلومات التي وردت من العريش في ١٠ تشرين الاول لم تبلغ في ظاهر الأمر للسادات •

وبعيد ذلك بيومين ، وبعد أن وصلت طليعة قوات الجنرال شارون الى منطقة الدفرسوار ، جاء النفير الثاني ، ولكن من جانب ممثلينا هذه المرة •فقد قام قادة جيش التحرير الفلسطيني ووحدات فتح المكلفة مع الجيش الكويتى بالدفاع عن الدفرسوار ، بابلاغ القاهرة بالهجوم الاسرائيلي الوشيك • الا أن المسؤولين المصريين لم يقوموا بأى رد فعل ولم يرسلوا بتعزيزات للدفاع عن هذه النقطة الحساسة • وفي يوم ١٤ تشرين الاول انتقل الجنرال شارون

الى الهجوم وتمكن من تسريب بضع دبابات وراح يحاول توسيع الثغرة • فقاتل رجالنا ببطولة وسقطوا في ساحة الشرف بالعشرات • كان الوضع عصيبا ولكنه لم يكن يائسا • فلا يزال في الوقت فرصة لكي تتخذ القيادة المصرية العليا اجراءات ترد العدو على أعقابه • ولكنهم تركوا الأمور تجرى على هواها • أما السادات الذى ألقى في ١٦ تشرين الاول خطاباً متلفزاً تحدث فيه عن نجاحات جيشه ، فانه لم ينبس بكلمة حول المعارك الجارية على ضفتي القنال • وهو لا يمكن الا ان يكون على علم بالكارثة لأني أنا نفسي كنت على علم كامل بالوضع •

فكيف نفسر سكوت وسلبية قيادة جيشه العليا ؟ ان السر لا يزال كاملا • ان العيب الرئيسي في حرب تشرين ، هو أن السادات رسم لها أهدافا محددة ، دون أن يدرك أنها لا تستطيع بلوغ هذه الأهداف الا اذا مضى بهجمته الى غايتها • بيد أنه برغم تحفظاتنا فقد دعمنا دعما كاملا هذا المشروع الذى ظهر طابعه الوطنى عبر الحماس والتفاني اللذين أظهرهما الجنود المصريون والسوريون • فقد قاتلوا بشجاعة ومحوا الى الأبد صورة الشعوب العاجزة عن السيطرة على التقنيات الحديثة ، تلك الصورة التي ساهمت اسرائيل مساهمة واسعة في نشرها منذ قتال عام ١٩٦٧ • فتقدم المدرعات السورية الصاعق في الجولان ، واحتلال الجيش المصرى لخط بارليف ، سيسجلان في رصيد الأمة العربية الايجابي برغم النكسات التي تلقتها بعد ذلك •

ولكنه لا بد بالمقابل من أن يسجل في رصيد الدول العربية السلبي ، قصورها وعجزها عن استخدام سلاح النفط الذى تملكه استخداما كاملا • فبرغم الفوائد المالية الهائلة التي جنتها من الحظر ، الا انها أنهته بصورة سابقة للأوان ، وقبل بلوغ الهدف الذى رسمته لنفسها ، عنيت تحقيق جلاء اسرائيل الكامل عن الأراضي المحتلة • فهل كانت مهددة بتدخل عسكري أميركي ؟ ان هذا ممكن ! وهل عقدوا صفقة تنقذ الولايات المتحدة بموجبها الجيش المصرى الثالث المحاصر من قبل القوات الاسرائيلية على الضفة الشرقية للقنال من التدمير ، مقابل رفع الحظر ؟ ان هذا معقول • ومهما يكن من أمر ،

فان من المؤكد أن ضغوطا غربية شديدة ـ أميركية وأوروبية ـ قد مورست ، وأن مصر وسوريا لم تستطعا مقاومة هذه الضغوط • ثم أن السادات الذى سبق له أن أعلن في خطابه بتاريخ ١٦ تشرين الاول ، عزمه على ألا يفاوض على تسوية قبل جلاء آخر جندى اسرائيلي من الأراضي المحتلة ، عاد فترك نفسه ينساق الى شرك المساومات الذى نصبه له وزير الخارجية الأميركية الدكتور هنرى كيسنجر •

ولم تكد الحرب تنتهي ، وبينما كان الجيش الثالث لايزال محاصرا ، حتى كان السادات يريد أن يبدأ التفاوض مع اسرائيل • وفي ٢٦ تشرين الاول ، أى بعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على وقف اطلاق النار الثاني ، حدد لنا محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير الاهرام ، الذى كان أحد مستشارى الرئيس المصرى المسموعين في تلك الحقبة ، موعدا لمقابلة هذا الأخير في اليوم نفسه • واستقبلنا السادات في قصر الطاهرة • وقبل أن نتمكن من الجلوس ـ فاروق القدومي وأنا ـ سألنا فجأة : « واذا • هل تقبلون بالاشتراك في مؤتمر السلام ؟ » •

كان السادات يبدو قلقا ونافذ الصبر في آن معا • ففي خطاب ١٦ تشرين الاول ، أشار الى أن « الفلسطينيين » يجب أن يشركوا بالضرورة في عملية السلام • أما اليوم فانه يريد أن يعرف ما اذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية توافق على تمثيل الفلسطينيين حول الطاولة المستديرة • وقلت له أننا لا نستطيع الاجابة على سؤاله قبل أن نطلع اطلاعا واسعا على حيثيات الموضوع • ونحن نريد أن نعرف ماذا سيكون مؤتمر جنيف بالضبط ، ووفق أية شروط سوف ندعى الى حضوره والمشاركة فيه • وقدم لنا الرئيس المصرى بعض التوضيحات: فقد كتب الى الحكومتين الأميركية والسوفياتية ليعرض عليهما المشاركة في الاجتماع وليقترح مشاركة فرنسا وبريطانيا كذلك ، الى جانب مصر وسوريا والاردن والفلسطينيين ، ثم وبطبيعة الحال ، اسرائيل • واضاف في رسالته أن المؤتمر يجب أن ينعقد تحت رعاية الأمم المتحدة في نيويورك أو في جنيف حيث تملك الامم المتحدة مكانا لهذا الغرض • ثم أردف من باب طمأنتنا : وأى سوء

في هذا ! طالما ان الدبلوماسيين العرب يقابلون عادة ممثلي اسرائيل في مختلف محافل المنظمة الدولية •

واعترضنا قائلين أن منظمة الأمم المتحدة مكلفة بتطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى جرى تبنيه في ٢٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر عام ١٩٦٧ ، وهو القرار الذى نرفضه نحن لانه لا ينص على حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة ولهذا فان ذهابنا الى جنيف او الى نيويورك ضمن هذه الشروط ، يعني أننا نقبل التفاوض على اعادة حقوق « اللاجئين » كما يشير اليهم القرار ٢٤٢ • وراح السادات يحاول ابعاد اعتراضنا بالاعلان علينا : « ليس عليكم الا أن تتجاهلوا هذا القرار • تعالوا واعرضوا وجهة نظركم واعرضوا مطالبكم ، أية كانت هذه المطالب • دافعوا اذا أردتم عن اطروحتكم حول ضرورة تفكيك دولة اسرائيل كمقدمة لاقامة فلسطين ديمقراطية متعددة الطوائف • فالأمر الضرورى هو أن تكونوا حاضرين في مؤتمر السلام • »

فوعدناه بأن نعرض اقتراحه في أقصر مدة ممكنة على الهيئات العليا في المقاومة • وبانتظار ذلك ، فاننا طرحنا عليه عدة أسئلة حول الوضع العسكرى لماذا قبل بوقف اطلاق النار بمثل هذه السهولة ؟ هل كانت ثغرة الجنرال شارون بمثل هذا القدر من الخطورة والتهديد ؟ وحاول السادات أن يقلل من أهمية الثغرة مؤكدا ان الجيش الثالث ليس مهددا بالابادة • غير أنه ذكر بالمقابل قيام الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بشحنات من الأسلحة البالغة التطور خلال المرحلة الأخيرة من القتال ، و « تخلي » الاتحاد السوفياتي الذى يرفض تزويده بالسلاح الضرورى لمواصلة الحرب • وبدت لنا الحجة التي أدلى بها لاقناعنا بعجزه ، حجة مشتبهة • فالقوات المصرية شنت القتال ــ أولا ــ بسلاح سوفياتي ذي كم وكيف ، أكثر من كافيين • وثانيا ــ لأنني كنت أنا نفسي أسكن قرب مطار الماظة الحربى (في ضاحية القاهرة) وتمكنت أن ألاحظ بعيني اتساع وكثافة شحنات الأسلحة السوفياتية طوال حرب تشرين • ووفقا للمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن ، وهو لا يمكن أن يتهم بمحبة السوفيات ، فان الجسر الروسي الذى أقيم مع مصر وسوريا اشتمل على ٩٣٤ رحلة طيران ذهابا وايابا • هذا دون أن نحسب الشحنات التي تمت

بطريق البحر وافرغت في الموانيء المصرية . ودون أن نتكلم عن الموارد الالكترونية التى أشركتها موسكو في جمع المعلومات عن تحركات القوات الاسرائيلية . وفي يوم ٢٦ تشرين الاول ، أى في ذات اليوم الذى أجرينا فيه المحادثة مع السادات ، كشف هنرى كيسنجر النقاب عن أن الاتحاد السوفياتي قد عزز تعزيزا عظيما أسطوله الحربي في المتوسط ، ووضع عدة وحدات مجوقلة (محمولة جوا) في حالة استنفار . فكان الروس بذلك يريدون ردع اسرائيل عن مواصلة هجومها ضد الجيش المصرى الثالث .

واشتكى السادات كذلك بمرارة من العقيد القذافي الذي أخذ عليه الاخير علنا السلوك الذى سلكه في الحرب ولاهداف لمحدودة التي رسمها لها . هذا مع أن الرئيس الليبي لم يدخر وسعا في تقديم معونته المالية والاقتصادية والعسكرية له ، على الرغم من عدم اتفاقه معه . فهو لم يقدم لمصر عملات صعبة بالنقد السائل ونفطا وحسب ، بل وكذلك طائرات « ميراج » اشتراها من فرنسا وسبعين طائرة ميغ ٢١ ، بينها ٢٦ طائرة اشتراها ابان الاشتباكات وأرسلت مباشرة من الاتحاد السوفياتي الى الجبهة المصرية . ومنذ الساعات الأولى للحرب ، أرسل القذافي الى القاهرة عضوين من أعضاء مجلس الثورة هما الرائد عبد المنعم الهوني والرائد عمر الميحشي ، وظلا هناك تحت تصرف السادات ، تحسبا لحالة احتياجه اليهما . وكذلك فانهما أخطرا طرابلس « بثغرة » شارون موضحين أن هذه النكسة قد نالت كثيرا من الرئيس المصري . فما لبث الرائد عبد السلام جلود ، رئيس الوزراء الليبي أن ركب الطائرة الى القاهرة وأبلغ القذافي اثر محادثة مع السادات بأن هذا الأخير « منهار » معنويا .

وقام الرئيس الليبي بدوره بزيارة القاهرة حيث وجد السادات ملازما سريره ويعاني من أوجاع في المعدة وعاجزا ، فيما يبدو ، عن خوض محادثة متماسكة . وعرض القذافي وهو يتحرق تبرما وعيلان صبر ، بأن يذهب بنفسه الى المقر العام للقوات المسلحة ، لمتابعة تطورات المعارك . فرفض السادات رفضا قاطعا مؤكدا له أن جنرالاته أهل تماما للقيام بمسؤولياتهم . والحقيقة

هي أنه لم يكن يريد له أن يتدخل بمشروع ندد به بشدة .

وواقع الأمر هو أنه لم يسلف للرجلين أن تفاهما تفاهما حسنا . فقد كان القذافي يكن لسلف السادات اعجابا لا حدود له . كما أن عبد الناصر كان يكن الكثير من المحبة لمنافسه الشاب . وقد قال لنا عبد الناصر أن لدى معمر كراهية هاجسية للشيوعية . فقد استبد به ذات يوم حين ذهبنا معا الى الخرطوم ، غضب مسعور وهو يرى المتظاهرين يرفعون الاعلام الحمراء ! وروى لنا عبد الناصر أيضا وهو يتشكى هازلا من بخل القذافي ، أن هذا الأخير طالب أن تدفع القاهرة اجرة القوات المصرية المرابطة في ليبيا بالعملة الصعبة . وقال عبد الناصر كذلك ، ان الملك السابق ادريس كان يظهر كرما أكبر ويدفع لمصر المعونات كلما طلبتها منه .

وقد عرفت من جانبي الرئيس الليبي معرفة حسنة ، وعلاقاتي معه وثيقة وتعود الى حين تسلمه السلطة . فقد كنت أشارك في المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة عندما علمنا في أول أيلول ــ سبتمبر بقلب ملكية السنوسيين على يد مجموعة من الضباط الشباب . وذهبنا ــ بضعة رفاق وأنا ــ بعيد ذلك بأربعة أيام الى طرابلس حيث قابلت القذافي للمرة الأولى فأعطاني انطباعا جيدا برغم عدم معرفته بالمشاكل العربية . غير أنه كان يظهر حماسا مفرحا للقضية الفلسطينية . أفلم يختر ككلمة سر للثورة اسم القدس؟

وكان حماسه لرئيس الثورة المصرية يصل الى حد أنه قال لي بعد ذلك بسنة ، عندما علم بانضمام الرئيس الى مخطط روجرز من أجل تسوية سلمية مع اسرائيل : « لئن خان عبد الناصر القضية أو لم يخنها ، فانني باق الى جانبه أبدا . » ولكنه تبنى موقفا مقابلا تماما ازاء السادات ، معاكسا على وجه العموم المواقف التي يتخذها هذا الأخير الذي يعتبره غير جدير بخلافة عبد الناصر .

وثمة حكومات عربية أخرى شجعتنا على الانضمام الى مسيرة السلام . فوزير الخارجية الجزائرية عبد العزيز بو تفليقة مثلا ، فسر لي ــ ابان زيارته

لي في منزلي بالقاهرة عندما مر بها في نهاية تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٧٣ ــ ان الحرب التي انتهت لتوها ، ستشرع ، ببديهة الحال ، باب مرحلة دبلوماسية طويلة . وأضاف أن هذه الحرب لن تكون ولا ريب آخر حرب عربية اسرائيلية ، الا أنه يبدو له من الضروري أن نحدد خلال ذلك مواقف واضحة من امكان قيام تسوية متفاوض عليها . ولم يقل شيئا صريحا ، الا انني أعتقد انني فهمت أنه كان يتمنى أن يرانا تتخذ موقفا مسؤولا ازاء مؤتمر السلام . وكان بو تفليقة يضيف دائما ــ شأن الرئيس بومدين الذي قابلته في وقت لاحق بعد ذلك ــ بأن الجزائر ستظل الى جانب المقاومة الفلسطينية طالما واصلت الكفاح المسلح . ولابد من القول أن مواقف القادة الجزائرين كانت دائما مطابقة لأقوالهم ازاءنا :ووفاء منهم لمبدئهم في عدم التدخل في شؤون الغير ، يقومون بدعمنا كائنا ماكان خيارنا : الحرب أو السلام .

وعندما عدنا الى بيروت غداة محادثتنا مع السادات في ٢٧ تشرين الاول ــ أكتوبر ، كنا نعلم اذا ، أن الدول العربية كانت برغم منطلقاتها المختلفة وتبايناتها التكتيكية أو الاستراتيجية ، تؤيد بشكل عام انخراطنا في اللعبة الدبلوماسية التي كانت قد بدأت على المسرح الدولي .

كان علينا أن نحدد موقفا واضحا كما طلب منا الرئيس المصري . فدعونا الى اجتماع موسع لقيادة فتح لهذا الغرض ، في يوم وصولنا الى بيروت ، ودار فيه نقاش طويل . ولم نلبث أن أدركنا أن السادات يضعنا في وضع صعب ، ان لم نقل أنه مستحيل . أولا : لأن الدولتين العظميين ذاتهما لم تعطيا موافقتهما بعد على مشروع الريس . وثانيا ، وخاصة ، لأننا لم نتلق بأية صورة ، ووفق أية شروط سوف ندعى اذا ما دعينا . ونحن لا نستطيع أن نغض الطرف عن كون وقف اطلاق النار تم على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والذي ــ أعود فأكرر ــ ينكر على الفلسطينيين أدنى حقوقهم البديهية .

واذا فقد اتخذنا قرارا بعدم الاجابة على مؤتمر السلام لا بنعم ولا بلا ، بانتظار أن تتلقى دعوة حسب الأصول . ولن يكون في وسعنا أن نحدد موقفنا

بصورة واضحة دقيقة الا لدى استلام شيء ملموس •

وفي ١٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر ، أي بعد مداولاتنا في قيادة فتح ، باسبوعين بالضبط ، استقبل السادات ياسر عرفات الذي كان مكلفا بأن ينقل اليه جوابنا على السؤال الذي طرحه علينا في ٢٦ تشرين • وقد دهش رئيس منظمة التحرير من موقف رئيس الدولة المصري • ذلك أن هذا الأخير بدا متحفظا نائيا ، بل شبه لا مبال ازاء القرار الذي اتخذناه • وخرج عرفات بانطباع واضح بأن السادات لم يعد مهتما باشتراكنا باجتماع جنيف • فهو لم شر حتى احتمال توجيه دعوة الينا في مرحلة مقبلة محتملة من مراحل السلام• ولم يفهم رفيقنا في تلك الفجاءة الأمر الذي حدا بالرئيس المصري الى قلب موقفه خلال خمسة عشر يوما •

غير أن ثمة حدثين كانا قد وقعا خلال هذه الحقبة ، يسعهما ، على ضوء ما سوف يحدث بعد ذلك ، أن يفسرا سلوك السادات الغريب : فعشية لقاء ١٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر ، كان قد جرى توقيع اتفاق اسرائيلي ــ مصري أولي في الكيلو متر ١٠١ في سيناء تحت رعاية هنري كيسنجر الذي تحادث قبل ذلك بخمسة أيام ــ أي في ٦ تشرين الثاني ــ مع الرئيس المصري للمرة الأولى منذ نهاية الحرب • واذا ، فانه بدأ سريان مفعول سياسة « الخطوة خطوة » و « الاتفاقات الجزئية المؤقتة » العزيزة على وزير الخارجية الأميركية• وبدأ يتضح تدريجيا وبجلاء أن كيسنجر أقنع رئيس الدولة المصري باستبعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن مسيرة السلام التي لا تهدف الى تيسير تسوية شاملة في الشرق الاوسط ، وانما الى خداع البلدان العربية المعنية بالحصول من اسرائيل على اعادة جزء فقط من الأراضي التي غنمتها عام ١٩٦٧ •

ولم نكن بعد الا في بدايات «دبلوماسية المكوك» التى ستتيح لكيسنجر أن يضعف العالم العربي بتقسيمه وأن يعد للصدمات الدامية في لبنان والتي تهدف الى شل المقاومة الفلسطينية ، ثم بنهاية التحليل ، الى خدمة ــ ان لم يكن مصالح الامبريالية الأميركية دائما ــ فالمطامع الامبريالية لدى الدولة

الصهيونية على الأقل •

ولم تكن حرب تشرين بالنسبة الينا نحن الفلسطينيين ، كما بالنسبة لمجمل الأمة العربية ، الا انقشاعة قصيرة الدوام • وبدلا من أن تشق طريق تحرير الأراضي المحتلة فانها عززت النفوذ الأميركي في الشرق الاوسط ويسرت مؤامرات تصفية المقاومة الفلسطينية • وبالمقابل فان الحرب ونتائجها أثارت في صفوفنا وعياً صحيا سيساعدنا على تكييف أهدافنا على الحقائق ، وعلى اتخاذ قرارات جريئة تضع حدا نهائيا لسياسة « كل شيء أو لا شيء » •

الفصل الثامن

تحدي السلام

القاعة مكتظة ساخنة متوترة تكاد تنفجر حماسا . والخطباء يتتالون ويلقون بمطولاتهم الملتهبة . وكلمات الكفاح المسلح ، والثورة ، والفتح والتحرير تتردد بلا انقطاع ، وأنا أتأمل اليافطات والملصقات التي تثير مني الابتسام ــ على جدران مدرج جامعة بيروت العربية من المنصة التيأجلس عليها ، حيث سأكون الخطيب الرئيسي في هذه الندوة التي نظمتها الجامعة . فعلى كل راية وملصقة ترتسم ذات الكلمة مكتوبة بحروف ضخمة : « لا ! » لا للتفاوض ، لا للتسوية لا للاستسلام ، لا للدولة الفلسطينية ...

وقد نظمت الندوة خصيصا لمناقشة مزايا ومساويء اشتراك المقاومة المحتمل في مسيرة السلام التي بدأت غداة حرب تشرين ــ أكتوبر . فدعوة السادات الى مؤتمر يضم الاسرائيليين والعرب بهدف التوصل الى تسوية نهائية شاملة مبنية على الاعتراف باسرائيل داخل حدود عام ١٩٤٨ ، صدمت الرأي العام الفلسطيني وأضلته وقسمته . فمنذ أسابيع ، والمجادلات المتقدة تدور في مخيمات اللاجئين وفي الصحافة . والمنظمات الفدائية المنقسمة الى معسكرين ، تتبادل الاتهامات والقدح . فمنظمات « جبهة الرفض » التي ستتكون في صيف عام ١٩٧٤ ــ تندد بالموقف « الاستسلامي » بل «الخياني» الذي تقفه فتح والجبهة الديمقراطية التي يرئسها نايف حواتمة ، المنظمتان المشبوهتان بتأييد مؤتمر جنيف وبتأييد تسوية تعطي الفلسطينيين « دويلة » في الضفة الغربية وغزة .

كان قادة مختلف التنظيمات الأعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية مدعوين من قبل جامعة بيروت العربية ، لعرض وجهات نظرهم خلال سلسلة اجتماعات متتالية . وكان جورج حبش (من الجبهة الشعبية) وجبريل من (القيادة العامة) ونايف حواتمة (الجبهة الديمقراطية) قد سبقوني الى الكلام . فكان علي في أمسية العاشر من شباط ــ فبراير ١٩٧٤ هذه أن أفسر وأبرر موقف فتح .

كان رئيس الجلسة يجهل بصورة ظاهرة الخط الذي قررته قيادة فتح بالاجماع ، أو أنه اشتبهت عليه وجهة نظري الشخصية . ذلك أنه قدمني الى

آلاف المناضلين المحتشدين في القاعة كـ « بطـل الرفض » ! حتى أنني كنت سأعرض وفقا لدعواه ، الأسباب التي ينبغي أن تدفع الفلسطينيين الى الاجابة « بلا قاطعة » على كافة « الشبهات » المعددة على جدران المدرج •

وحين نهضت لآخذ الكلام ، استقبلني الجمهور بهتافات « يسقط الحل السلمي » و « يسقط سلام الاستسلام » « عاشت الثورة المسلحة حتى تحرير فلسطين » ! وواجهت لفوري القاعة وأنا أبتسم ابتسامة واسعة ، وأقول : « اني أوشك أن أخيب أملكم » ثم أضفت : « ولعلي لن ألق التصفيق » • ولكنني خلافا لليافطات المحيطة بنا ، أجيب «بنعم» على بعض المسائل المطروحة على المقاومة • وبدأت كلامي في قاعة يلفها صمت كصمت القبور •

وقلت أن حرب أكتوبر ـ كائنا ما كانت تحفظاتنا عليها ، وانتقاداتنا لها، كانت حربا وطنية أساسا أوجدت وضعا جديدا في الشرق الآوسط يستدعى قرارات جديدة مبتكرة • ونحن نرتكب خطأ مأسويا اذا أدرنا عيوننا عن الحقائق التي نواجهها • ولكل من هذه الحقائق طبيعة مختلفة • فنجاحات الجيش المصري والسوري ، والتضامن العربي المستجد والزلزال النفساني الذي هز اسرائيل ، كل ذلك أسهم في وضع الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة في حزيران ـ يونية ١٩٦٧ على جدول أعمال الساعة • وبين هذه الآراضي المحتلة تمثل الضفة الغربية وغزة اللتان تعودان الى الشعب الفلسطيني بلا جدال

والمسألة المطروحة اليوم ، هى مسألة معرفة ما اذا كنا برفضنا لقبول أي شيء آخر غير تحرير فلسطين كاملة ، مستعدون لأن تترك جزءا من تركتنا الى فريق ثالث • وهل من المعقول أن ندع الملك حسين ، يتفاوض باسم الفلسطينيين ؟ وهل يحق لنا ألا نبالي بمصير أهالي الضفة الغربية وغزة اللتين تعانيان من تنكيل المحتلين •

وتابعت أقول أنه تستحيل علينا الاجابة على هذه الأسئلة دون أن نأخذ

بعين الاعتبار ميزان القوى المحلي والدولي • فالحركة الفلسطينية لا تتطور في الخلاء • فلها في العالم أعداء وأصدقاء • فلا بد لنا اذ ذاك من أن نقيس بدقة طاقتنا على التأثير على الأحداث بدون أن نخدع أنفسنا • والحال هو أن كافة أصدقائنا تقريبا ومعهم عدد من الدول العربية ، والمعسكر الاشتراكي ــ وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي ــ وبلدان العالم الثالث يحضوننا على التسوية أو على الاقل على مراعاة المراحل • وبن غوريون والزعماء الصهاينة الآخرون قبلوا عام ١٩٤٨ باقامةدولة اسرائيل على جزء من فلسطين التي يطالبون بها جميعا شأننا نحن • وقادة الثورة الفيتنامية قبلوا أثناء مؤتمر جنيف لعام ١٩٥٤ تقسيم وطنهم الى دولتين باتنظار أن يواتيهم ميزان القوى • وتلك أيضا هى حالة الكوريين الشماليين والجنوبيين • ولينين نفسه ضحى بجزء كبير من الأراضي السوفياتية في معاهدة برست ليتفوسك ، لينقذ ما هو أساسي ، أي السلطة البلشفية •

مذ ذاك باتت الأسئلة التي أطرحها على المستمعين ، أسئلة فظة في بساطتها هل ترانا سندعي أننا أكثر ثورية من القادة السوفيات والفيتناميين والكوريين أو الألمان ؟ وهل نوافق على أن نحرم أنفسنا من هامش المرونة والمناورة الذي استأثرت به الحركة الصهيونية طوال تاريخها ؟ وبيديهة الحال ، فان علينا أن نميز بين التسوية والتفريط ، وأن نعرف أن نأخذ الى حين ما يقدم لنا دون أن تتخلى عن هدفنا الاستراتيجي ، أي عن اقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين ، يعيش فيها العرب واليهود كمواطنيين متساويين •

وصحت هاتفا : ينبغي أن ننتهي من سلبية ومزايدات الماضي ! فال «لا» التقليدية في الحركة الفلسطينية ليست ثورية وجوبا ، ولا ال « نعم » شكل من أشكال الخيانة ضرورة • بل قد يكون الرفض على العكس ، طريقة في الهروب من المشاكل وفي التزيي بزي النقاء العقائدي المنحول •

ثم ختمت كلمتي ــ التي كثيرا ما قوبلت بتصفيق حاد ــ بأن عددت القرارات التي اتخذتها قيادة فتح : عدم التخلي عن حقوق الشعب الفلسطيني القاطعة في حق تقرير المصير وفي تحرير وطنه • ومنع الملك حسين ، خلال ذلك

من السيطرة على الضفة الغربية وغزة ، اقامة سلطة وطنية على كل جـزء يتم تحريره من فلسطين •

والحقيقة هي أن هذه المواقف تشكل الخلاصة التي أفضت اليها مسيرة طويلة وتفكير بدأ في مطلع سنوات النضال • ففي التحـليل الذي قمنا به في سنوات الخمسين والستين لسلوك من سلفونا على رأس الحركة الفلسطينية ـ والذي قدمت خلاصته الأساسية في الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ تبين لنا وجود ضرب من السلبية أردنا أن نتلافاها في ممارستنا الخاصة • فقد ووجه أسلافنا بين عامي ١٩١٧ و ١٩٤٧ باقتراحات متتالية تهدف الى تسوية النزاع فاطرحوها جميعها ، وبحق • ذلك أنه لم يكن بينها أي اقتراح يستجيب الى معيار العدالة ، والى تطلعات الشعب الفلسطيني • وكان خطؤهم هو انهـم كانوا يرفضون أخذ أي شيء ، اذا لم يحصلوا على كل شيء • فساهموا بذلك في تيسير المشروع الصهيوني ، أي في الاستيطان السكاني الذي سيؤدي على مـر السنين الى حرمان الشعب الفلسطيني من أراضيه ومن جزء يزداد اتساعا من وطنه • ويقينا أن مخطط التقسيم الذي أعدته الأمم المتحدة ، كان غـير مقبول في مبدئه • لكن لماذا لم يقبل القادة الفلسطينيون حلا مؤقتا على غرار المسؤولين الصهاينة ، يكون قوامه تأسيس دولة على جزء من الاقليم الوطني الذي أسندته اليـهم الامم المتحدة ؟

وحين طرحت هذا السؤال على الحاج أمين الحسيني قبل وفاته بثلاثة أشهر ، قدم لي الزعيم الفلسطيني عدة أسباب برر بها عجزه ، كما قال ، عن انقاذ جزء على الأقل من تركتنا الوطنية • فالدول العربية المعنية أعاقت من تلقاء نفسها أو تحت ضغط الانكليز ـ الذين كانوا يكرهونه كرها خاصا كما ذكر ـ تأسيس دولة في الضفة الغربية وغزة ، أي في الأراضي التي لم يفلح الجيش الصهيوني في احتلالها وببديهة الحال ، فان ملك الأردن عبد الله ، لم يكن يؤيد اقامة كيان فلسطيني لأنه كان ينوي ضم الضفة الى مملكته • وهذا مافعله على كل حال بعد حرب عام ١٩٤٨ •

أما الملك فاروق ، فانه لم يكن يسعى من جانبه الى الحاق غزة بمصر •

وسمح في ايلول ـ سبتمبر ١٩٤٨ بعقد مؤتمر فلسطيني في مدينة غزة ، أفضى الى تعيين حكومة يقودها أحمد حلمي باشا ، كان هدفها الرئيسي ـ وفق رأي الحاج أمين الحسيني ـ اقامة سلطتها الفعلية في غزة والضفة الغربية . غير أن الحكومة المصرية منعته حتى من الاقامة في غزة بحجة أن الجيش الاسرائيلي « سيستفز » بذلك وقد يحتل القطاع . وعلى هذا فانه بات على الحكومة الفلسطينية أن تقيم في القاهرة حيث راح رئيسها أحمد حلمي باشا وهو مصرفي ممتهن ينصرف الى أعماله بأكثر مما ينصرف الى وزارته الوهمية . وقال الحاج أمين ، أنه بعد أن خانته الدول العربية ، تخلت عنه غالبية القادة الفلسطينيين الذين انقسموا الى فريقين ، واحد يوالي الأردن والثاني يوالى مصر .

وبالرغم من أن تبريرات الحاج أمين تقبل التصديق ، الا انها بدت لي غير مقنعة . ففي تلك الفترة كانت مصر والعربية السعودية معاديتان للأسرة الحاكمة في الاردن ولا توافقان على ضم الملك عبد الله للضفة الغربية . أفلم يكن في وسعه الاعتماد على هاتين الدولتين العربيتين ضد التوسعية الأردنية؟ واذا كان ذلك غير ممكن فلماذا لم يستغث بالعالم العربي كله ، بل وبمنظمة الأمم المتحدة التي قررت التقسيم ، ليطالب بالضفة وغزة ؟ وعلى أية حال فان أي وثيقة من وثائق المحفوظات الفلسطينية التي تفحصناها عن كثب ، لا تعزز اطروحة الحاج أمين الحسيني .

وباختصار فانه كان لهذا للأخير وصحابته حقا رؤية استراتيجية للمستقبل الفلسطيني ، الا انهم كانوا يفتقدون افتقادا طاغيا للصفات الضرورية من أجل القيام بتنازلات تكتيكية . وهذه بالضبط هي الثغرة التي حاولت فتح أن تسدها .

وخلاف للمظاهر وللقناعة العامة ، فاننا لم نقرر اقامة دولتنا على جزء وحسب من فلسطين ، غداة حرب تشرين ـ أكتوبر . فمنذ شهر تموز ـ يوليه عام ١٩٦٧ ، أي بعد شهرين من الهزيمة العربية أو يكاد ـ تقدم فاروق القدومي من اللجنة المركزية في فتح بتقرير سياسي يعرض فيه الاستراتيجية والتكتيك اللذين يجب أن تتبناهما حركتنا . وفي هذه الوثيقة الآنفة نجده

يقترح علينا أن نعلن تأييدنا لقيام دويلة في الضفة الغربية وغزة في حال اعادة اسرائيل لهذه الأراضي التي كانت احتلتها لتوها • وأكد أن هذا الهدف ليس مطابقا على المدى القصير والمتوسط لحق الشعب الفلسطيني في امتلاك أية قطعة من وطنه وحسب ، وانما يستجيب كذلك لتحليل موضوعي للظروف• وبالفعل ، فانه كان من البديهي ، أنه كائنا ما كانت انطلاقة وبأس حرب العصابات ضد الدولة الصهيونية، فانها تظل في المستقبل المنظور ، دولة لا تقهر ولهذا فان عدم توقع المرور بمراحل مؤدية الى الهدف الاستراتيجي الذي هو اقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين ، يكون أمرا من قبيل الوهم والخيال

وبالرغم من واقعية تقرير القدومي وصفائه — وخاصة في الجزء المتعلق منه بالدويلة — فانه اصطدم بمعارضة حادة داخل الأجهزة القيادية في فتح • فلم تكن لدينا حينذاك قواعد شعبية على قدر من الاتساع تكفي لعرض الوثيقة على الأطر والكوادر الوسطى في الحركة ، فضلا عن فتح نقاش عام حول موضوعها • وعلى هذا فقد قررنا احالة تقرير القدومي الى المحفوظات بانتظار مجيء أيام أفضل •

ثم أن الهدف الاستراتيجي — أي هدف اقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين — لم يحظ بموافقة الكافة • ولكن بعد سنة من المداولات والمناقشات ، اتخذنا قرارا باعلانه لأننا لا نستطيع تأجيله أكثر من ذلك • فمن جهة أولى كان الصحفيون يلحون علينا بوابل من الأسئلة حول مغزى كفاحنا ودلالته ، فكان من المضحك أن نجيب بالتملص والمداورة ، ولا سيما بعد النمو الخارق الذي عرفته اثر حرب عام ١٩٦٧ • ومن جهة ثانية ، كان الاسرائيليون يستغلون خرسنا لمصلحتهم مدعين بأن مقصدنا في « تحرير فلسطين من السيطرة الصهيونية» ليس الا تمويها لارادتنا في « رمي اليهود في البحر » (في حين أن احدا منا لم يثر مثل هذا الاحتمال العبثي المتهافت ، لا صراحة ولا ضمنا) •

وبناء على تكليف القيادة لي بعرض وجهة نظرنا ، فانني أعلنت خلال مؤتمر صحفي عقد في ١٠ تشرين الأول — أكتوبر ١٩٦٨ ، بأن هدفنا

الاستراتيجي هو دعم انشاء دولة ديمقراطية على امتداد فلسطين التاريخية ، يعيش فيها العرب واليهود في وفاق وكمواطنين على قدر كامل من التساوي • وأوضحت أنه ليس لدينا أي اعتراض ــ بل بالعكس ــ على التعايش مع اليهود ، الشعب الذي عانى من اضطهادات بشعة ، الا أننا لما كنا غير مسؤولين عن هذه الآلام ، فانه ليست لدينا النية مطلقا في أن ندفع ثمنها • واذا فليس في نيتنا أن نتخلى عن جزء من فلسطين ، أو أن نقر بنظام صهيوني يستبعد في جوهرة العرب ويحرمهم من حقوقهم الطبيعية •

وسألني بعض الصحفيين الحاضرين في المؤتمر : مع أي الاسرائيليين نعتزم التعايش : مع مواليد البلاد ؟ مع المهاجرين ؟ ثم مع أي المهاجرين منهم ، الجدد أم القدامى ؟ فأجبت اجابة غامضة ، ان على التساؤلات وان بصدد المحتوى الدقيق الذي سيكون للدولة الديمقراطية • ومرد ذلك سببان : فمن جهة أولى كنا نعتقد أنه ينبغي لنا أن ننتظر رد فعل جانب الخصم قبل أن ندخل في التفاصيل وتتفاوض على تسوية • والحال هو أنه لا اسرائيل ولا أية دولة أخرى صغرى أو عظمى أبدت حتى هذا اليوم أدنى اهتمام بمشروعنا بأن طلبت الينا على سبيل المثال أن نوضحه • ومن جهة أخرى فان الاقتراح الذي عرضته أثار ، على الرغم من غموض تعابيره ، معارضة عامة ان في صفوف الحركة الفلسطينية بما في ذلك فتح وان بين الحكام العرب • ففكرة مكان الصراعات الدامية ، كانت فكرة اكثر جدة من أن يطيقها كثيرون • فقد كان لا بد من كثير من الشجاعة بل من التهور لنغضي عن الجراح والاحباطات المتراكمة، من كثير من الشجاعة بل من التهور لنغطي عن الجراح والاحباطات المتراكمة، وكذلك عن ذهنية سياسية تكونت عبر عدة عقود من السنين .ولكننا تغلبنا على عبء الماضي حين جعلنا المجلس الوطني الفلسطيني الخامس يتبنى بعد مرور أربعة أشهر على مؤتمري الصحفي (١ ــ ٤ شباط ــ فبراير ١٩٦٩) قرارا يؤكد هدفنا الاستراتيجي •

على أن ذلك لم يجعل قيادة فتح تستبعد من اهتماماتها سياسة المراحل التي تعتزم جعل المقاومة تقبل بها • وانما هي أحداث الأردن المأساوية

(١٩٧٠ ـ ١٩٧١) التي جاءت تفتح أعين المناضلين على الحقائق . فقد كان من البديهي بعد مجازر عمان وجرش وعجلون ، وخاصة بعد طرد آخر الفدائيين من المملكة الهاشمية ، أن الثورة الفلسطينية لا تستطيع الاعتماد على أي بلد عربي لتضمن لنفسها ملاذا آمنا وقاعدة لعملياتها ضد اسرائيل . فلا بد لنا من أجل أن نمضي قدما نحو المجتمع الديمقراطي التعددي الذي نحلم به ، أن نقيم دولتنا الخاصة حتى ولو على بوصة من فلسطين. وقد ازداد انتشار وتقدم هذه الفكرة لدى « قاعدة » الحركة ، بعد أن أعلن الملك حسين في ١٥ آذار ـ مارس مشروعه الخاص « بالمملكة العربية المتحدة » الهادف الى خلق مملكة على ضفتي نهر الأردن ـ تشتمل على اقليمين متحدين هما الاردن وفلسطين . واذا فانه لا بد لنا ، لاحباط مؤامرة الغاصب ، أن نطالب بمايعود الينا . وهكذا فان قيادة فتح اتخذت في نهاية عام ١٩٧٣ ، بعيد حرب تشرين ـ أكتوبر قرارا باعلان سياستها المرحلية وهدفها التكتيكي .

وما لبثت المنظمات الفدائية التي سوف تؤلف بعد ذلك« جبهة الرفض » الجبهة الشعبية التي يرئسها جورج حبش ، أن شنت علينا حملة قدح . فاتهمنا البعض بالانهزامية ، وندد بنا البعض الآخر كاستسلامين . ووقفوا موقفا معاديا من اقامة « الدويلة » في الضفة الغربية وغزة ، ومن الدولة الديمقراطية المستقلة أيضا . فالكفاح المسلح لا يمكن أن يكون في رأيهم الا متواصلا مطلقا ويمضي حتى غايته . أي أنه ينبغي أن يستمر حتى تحرير فلسطين تحريرا كاملا . وحاولوا أن يمارسوا ارهابا ذهنيا بأن راحوا ينددون بانصار التسوية كخونة . وعادت بي الذاكرة حينها الى قراءات شبابي والى النزاع الذي نشب بين لينين وتروتسكي ، فتعززت قناعتي في أننا على صواب .

الا اننا وفاء منا للقاعدة التي استنناها منذ تأسيس فتح ، امتنعنا عن الرد على الثلب بالثلب . فقد لاحظنا بالفعل ان الثورة في أمكنة أخرى من العالم ، قامت بالتهام بنيتها وجرت تسويات حساب فيها تحت ذريعة التباينات الأيديولوجية والسياسة ، أفضت في الغالب وباسم النقاء الثورى دائما ، الى

حمامات دم . وهكذا فاننا أقسمنا على ألا نستخدم اسلحتنا ضد أخصامنا داخل الحركة الفلسطينية . وألا نحل الطعن والتجريح محل العرض التدليلي . وعلى أى حال فاننا نجحنا نجاحا واسعا في ادخال ما نسميه « الحوار الديمقراطي » الى عادات المقاومة .

وكان في عزمنا أن ندعو المجلس الفلسطيني (برلمان المقاومة) الى الانعقاد بعيد حرب تشرين ــ أكتوبر لمناقشة الدور الذى ينبغي أن نضطلع به في المرحلة الدبلوماسية الجديدة البادئة . غير أننا فضلنا تأجيل الاجتماع للتوصل الى اجماع على برنامج مشترك بين كافة المنظمات الفدائية . كان نايف حواتمه ، رئيس الجبهة الديمقراطية متفقا الى حد بعيد مع فتح ــ فهو أحد أوائل الذين بشروا بانشاء « دويلة » في الضفة الغربية وغزة ــ فبدأنا مشاوراتنا مع حبش زعيم الجبهة الشعبية . وكان مما يزيدنا ثقة بالحوار ، هو أننا برغم تبايناتنا العميقة ، نحافظ على علاقات جيدة معه . فخلال فترة « الجزر » التي تبعت مجزرة الفدائيين في الأردن ، قام بين منظمته ومنظمتنا تعاون وثيق في مختلف المجالات ، ولا سيما في الأراضي المحتلة ولبنان . وحبش الذى أعرفه شخصيا جيد المعرفة ، شخص غريب . فهو في العلن دغمائي متصلب خارق في عنفه ، ولا سيما حين يخطب ويطيل في الجماهير . ثم أنه كخطيب متدفق يستولي على المستمعين اليه . أما في الحياة الخاصة ، فانه هادىء رزين يصغي الى محادثيه باتنباه لا يعوزه التواضع ، ويعرب عن أفكار معقولة . وكثيرا ما التقيت به ، ولكن خارج منزله الذى يتكتم حوله تكتما عظيما . وعلى أية حال فانه لم يعد يكثر من الظهور منذ أن أصيب بعارض في قلبه . وحبش انسان بالغ النزاهة ويدافع عن آرائه السياسية باقتناع ، ولكن دون التعصب الذى يظهره بعض من رفاقه أعضاء المكتب السياسي في الجبهة الشعبية .

كانت المحادثة التي أجريناها ــ ياسر عرفات وأبو صالح وأنا ــ في مطلع عام ١٩٧٤ معه ، على أكثر ما تكون من التشجيع . وبدأ متفهما ازاء اقتراحاتنا بل انه اقترح أن يعهد الى شخصيات فلسطينية تعيش في الأراضي المحتلة ، بالمشاركة في المساومات الجارية من أجل ايجاد حل سياسي للنزاع العربى ــ الاسرائيلي . في حين يقتصر دورنا نحن على توجيههم ودعمهم سرا .

ولم يكن لدينا أى سبب يجعلنا نشك بصدقه أو في اعتزامه اللجوء الى المناورة • فالجبهة الشعبية ، شأن جبهة حواتمه ، الديمقراطية ، وبخلاف كافة المنظمات الأخرى ، باستثناء فتح ، هي حركة رفضت دائما وصاية أى بلد عربى عليها • فكانت تعقد التحالفات التكتيكية ثم تنهيها محتفظة باستقلالها الذاتي، برغم المعونة المالية والسياسية التي تتلقاها من الحليف الآني • وقد مرت فترة كان حبش وحواتمه يأخذان علينا فيها تعاوننا مع الأنظمة المدعوة « بالبرجوازية الصغيرة»، الا أن التجربة قادتهما الى تبني موقف عملي (براغماتيكي) مماثل لموقفنا يقضي بالتعاون مع كل دولة مستعدة لدعمهما • غير أنهما كانا يتمتعان في الحقل السياسي بتعاطف فعال من قبل الدول التقدمية كالعراق وليبيا وجمهورية اليمن الديمقراطي (الجنوب) ثم بقدر أقل بتعاطف الجزائر •

ثم أن محادثاتنا خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٧٤ ، مع قادة المنظمات الفدائية الاخرى ، وخاصة مع الصاعقة (الموالية لسوريا) ومع جبهة التحرير العربية (العراقية الولاء) تكللت هي كذلك بالنجاح • وأفضت مفاوضاتنا الى اعداد برنامج ذى عشر نقاط تبناه المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في القاهرة في شهر حزيران ــ يونيه من السنة ذاتها . وكان نجاحا غير مأمول : فقد أعلن ممثلو كافة الفدائيين ، بالاجماع ، ارادتهم في اقامة دولة مستقلة « على كل جزء أو أية أراضي فلسطينية يتم تحريرها » • مضيفين بعد ذلك « ان الهدف الاستراتيجي لمنظمة التحرير الفلسطينية يظل بناء دولة ديمقراطية على كامل الوطن الفلسطيني » •

غير أن هذا الاجماع الرائع لم يدم ، للأسف ، الا قليلا ! فما أن انتهت دورة المجلس حتى انفجرت المجادلات والمزايدات داخل مختلف المنظمات فأخذت العناصر الجذرية على رفاقها أنها وافقت على نص « تصفوي » وبطبيعة الحال ، فان المتطرفين انتصروا على المعتدلين ، مثلما هو الحال دائما في مثل هذه المناظرات • وباستثناء فتح والجبهة الديمقراطية والصاعقة ــ الجبهات اللواتى تتمتع بقيادات متجانسة ــ فان كافة الفصائل الأخرى قلبت مواقفها ؛

وشنت حملة شعواء ضد « الدويلة » وبدأت الملصقات المعادية لسياستنا تظهر على جدران بيروت . ولازلت أذكر ان احداها كانت تعرض خارطة فلسطين وقد اخترقتها عشر رصاصات ، ترمز الى مواد البرنامج المشترك العشر التي تبينت لفورها ... وبعد ذلك بقليل تحالفت رسميا فيما بينها داخل « جبهة رفض » سيكون من شأنها أن تقسم المقاومة قسمة خطرة خلال السنوات القادمات .

وعلى هذا فانه بات لا بد من النزول الى الشارع للتصدى للدعاية المناوئة وتبين أن ذلك مهمة صعبة . فكم كانت دهشتي حين ذهبت الى مخيم اللاجئين في تل الزعتر ـ الذى سيتعرض سكانه بعد ذلك بسنتين الى مجزرة على يد الميليشات المسيحية إبان الحرب الأهلية اللبنانية ـ ورأيت هذا التجمع السكني البائس مغطى بشعارات معادية « للدويلة » الفلسطينية ! وخلال المهرجان الشعبي الذى نظم لي ، كان الحضور ببديهة الحال يؤيدون ، أو يؤيد قسم كبير منهم ، على الأقل ، سياسة أخصامنا المتصلبة . وبدأت كلمتي بتهنئة المستمعين الي على روحهم الكفاحية ، مضيفا أننا شعب لا يروض ، ولكننا الى جانب ذلك شعب غريب . فمنذ خمس وعشرين سنة وأنتم ، كما قلت لهم ، تعيشون في المنفى ، انها خمس وعشرون سنة من الاحباط والمذلات والحرمان، ولكنكم تواصلون رفضكم لكل حل بالتسوية حتى ولو كان مؤقتا ! أليس أنه من العجيب الخارق أنكم تفضلون العيش في أرض غريبة على الاقامة في منطقة محررة من وطنكم الأصلي ؟

والحقيقة هي أن مستمعي الرافضين أبدوا اقليمية محلية ضيقة . فبما أنهم ينتمون بأصولهم الى الجزء الفلسطيني الذى قامت عليه دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم غرباء عن الضفة الغربية ! ويشعرون أنهم غير معنيين « بالدويلة » التي نقترحها ! بحيث أن جبهة الرفض وجدت هناك أرضا خصبة لاطروحاتها « المتطرفة » ولسياسة كل شيء أو لا شيء التي تنادى بها . غير أن جمهورها « الطبيعي » كان يمتد الى فئات أخرى من الأهالي ، بل الغريب أنه كان يصل الى الفلسطينيين الأثرياء أو الميسورين من

فلسطيني المنفى ، وخاصة أولئك المقيمون في بلدان بعيدة عن ساحات المعركة فهؤلاء لا يتعرضون لأية مخاطر طبيعية مادية ، ويعيشون في ظروف اجتماعية مثالية لا يعوزهم فيها أي شيء ، ولهذا فان بوسعهم أن يسمحوا لأنفسهم بترف التصلب دون أن يخشوا الوقوع في النفي الأزلي ! وكذلك الأمر بالنسبة لبعض المثقفين الذين ينصرفون في صالوناتهم الى لذاذات التحاليل المتحذلقة المنقطعة عن الواقع والتي تفضي كلها الى سلبية محزنة .

وما انفكيت من جهتي عن القول أن رفض المتطرفين الفلسطينيين يلحق برفض الاسرائيليين الساعين الى استبعادنا عن كل عملية تسوية قبل أن يدمروننا . ثم أضفت بلا ملال ولا كلال بأن لدى أعدائنا عزما راسخا على ألا يتركوا حتى ولو بوصة من فلسطين التي يحتلونها ، وأننا نخدع أنفسنا اذا اعتقدنا بأننا سنحصل دون اطلاق نار على « فلسطين الصغرى » موضوع مجادلاتنا المشبوبة المتقدة . وخلافا لكثير من رفاقنا ، فانني كنت مقتنعا عام ١٩٧٤ ــ وقلت ذلك وكررته عا مذاك ــ بأن التسوية المتفاوض عليها هي خارج البحث ، وستظل كذلك طالما لم يتغير ميزان القوى بصورة ملحوظة لصالحنا .

وفي ربيع عام ١٩٧٦ ، أى بعد ذلك بسنتين تقريبا ، وبينما كانت الحرب الأهلية تستعر في لبنان ، والجيش السوري يستعد لشن هجمته على الفلسطينيين زارني جورج حبش في بيروت ليقدم لي تعازيه بمناسبة وفاة والدى . وبعد أن تلافى اثارة خلافاتنا ، طرح علي وهو يهم بالانصراف سؤالا يشي بحالته . فقد سألني « هل لا يزال هناك أمل ؟ » قالها ونظراته يشوبها حزن عميق ...

ولم تكن منظمات الرفض المحارب الوحيد الذى يحاربنا عام ١٩٧٤ . فقد كان علينا أن نواجه ، فضلا عن اسرائيل ، كيسنجر الذى كان يحتمي بظل دبلوماسيته السرية ليكيد لنا ويبعدنا عن المسرح السياسي ، متلاعبا بالسادات وبالملك حسين ، ملوحا لهذا الأخير باعادة الضفة الغربية الى التاج الهاشمى . وهكذا فان حسين كان رئيس الدولة العربية الوحيدة الذى امتنع عن تصديق القرار الذي تبنته « القمة » العربية في الجزائر (في ٢٦ ــ ٢٨ تشرين الثاني ــ

نوفمبر ١٩٧٣) والذي يعترف لأول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني • وقد أبقي القرار سرا بسبب هذا الامتناع • وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أى في أول كانون الأول ــ ديسمبر ، صرح الملك علنا بأن من حق الأردن أن يحصل على انسحاب اسرائيلي من كامل الأراضي المحتلة ، قبل اجراء استفتاء يتيح للشعب الفلسطيني أن يختار مستقبله أو بعبارة أخرى فانه يطالب بحق تمثيلنا في مؤتمر جنيف .

أما بقية رؤساء الدول العربية فانهم لزموا الصمت • وببديهة الحال ، فان عددا منهم كان يأسف لتصويته لصالحنا في « قمة » الجزائر • فبعيد ذلك ببضعة أشهر سيلقي السادات بقناعه على أثر زيارة حسين له في الاسكندرية (في ١٨ تموز ــ يوليو) ، عندما سيوقع معه على بيان مشترك يعترف له بحق التكلم باسم الفلسطينيين المقيمين في المملكة الهاشمية (وينيف عددهم عن المليون) • ثم اذا بالصحافة المصرية تفلت في الآن ذاته من عقالها ، مندفعة ضد المقاومة وقادتها ، حتى ان عددا من الصحف ستصفهم «بالمهربين» • ولن يقف من بين كافة الرؤساء العرب سوى الرئيس بو مدين ، الذى أجريت معه محادثة طويلة ، فيلقي خطابا شديد اللهجة بمناسبة انعقاد مؤتمر طلابي في الجزائر ، يندد فيه بالمؤامرة التي تحاك ضد منظمة التحرير الفلسطينية •

واتضح الخطر عندما أعلن عن الاتفاق على « قمة » عربية في الرباط تعقد في ٢٦ تشرين الأول ــ أكتوبر التالي • وكان جدول الأعمال يتضمن بطبيعة الحال ، مشكلة التمثيل الفلسطيني ــ وسريعا ما قررت مجموعة من المناضلين الشباب ــ دون علم من قادة فتح ــ بأن تنتقل الى العمل : فهم سيقتلون الملك حسين اذا ما أقنع نظراءه العرب بقلب الموقف الذى تبنوه خلال اجتماعهم السابق في تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٣ ــ ضد المنظمة الفدائية الأم ، أو « مقسم » الفدائيين كما يسمونها في المغرب • فمنظمة التحرير يجب أن تبقى « الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » مهما كلف الأمر •

واتخذت كافة الاجراءات الممكنة كي لا يفلت العاهل الأردني هذه المرة من العقاب الذى طالما استحقه • فوضعت عدة مشاريع اغتيالات وأوكلت الى

مجموعات مختلفة من المغاوير الذين سيتمركزون في مطار الوصول ، وعلى الطريق التى سيمر بها حسين وعلى عتبة القاعة التي سينعقد بها الاجتماع وفي أمكنة أخرى . ودخل الفدائيون الشباب بصورة افرادية وبمواقيت مختلفة ، الى المملكة الشريفية مزودين بجوازات سفر مزورة لا تحتاج الى تأشيرة مغربية ثم انتشروا في عدة مدن مترصدين الاشارة ليجتمعوا في الرباط . وكما كان الحال في العملية التي جرت ضد الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ ، فان الخطة كانت تقضي بألا تسلم الأسلحة الا قبيل المحاولة بساعات .

كان التشكيل الفدائي قد بات في المغرب عندما التقى مسؤولان من المغاوير عرضا في أحد فنادق الدار البيضاء قبل افتتاح القمة بشهر تقريبا ،برجل أعمال ليبي يعرف أحدهما ، ويشتهر بأنه مناصر متحمس للمقاومة الفلسطينية، كما أنه ــ فوق ذلك ــ يؤيد أعمال العنف . والواقع هو أنه كان يعمل ، بين جملة ما يعمله في المخابرات المغربية . وبعيد ذلك بساعات ، اكتشف مناضلانا علامات غريبة تنم عن ان البوليس يراقبهما . فقررا مغادرة البلاد للحال . الا أنهما ما لبثا أن أوقفا ، وحقق معهما وتعرضا للتعذيب . وخلال ذلك أقام عملاء الأمن في غرفة الفندق التي نزلا بها « ليستقبلوا » الزوار المحتملين ويجيبوا على الهاتف . ولن يلبث مناضل ثالث مكلف بتسليم الأسلحة أن يخابر من طنجه معلنا عن وصوله في المساء نفسه محددا رقم الرحلة . ولأنه تهور وخابر من فندقه ، فان البوليس تمكن من الحصول على اسمه المستعار بسهولة وأوقفه لدى وصوله الى مطار الدار البيضاء . لكن مهمة الأمن المغربي باتت أقل سهولة ، عندما خابر مناضل رابع من غرفة هاتف عامة في أغادير معلنا وصوله بطريق الجو . ولما لم يكن لدى البوليس أية وسيلة لتحديد هويته ، فانه حبس كافة مسافري الطائرة وأخضعهم خلال ثمانية وأربعين ساعة لاستجواب صارم . ولكن صاحبنا الذى يحمل جوازا باكستانيا لم يلبث أن اكتشف أمره عندما تبين المحققون أنه لا يعرف كلمة من لغة « مسقط رأسه » ...وباختصار فان الأمن المغربي تمكن بواسطة حيل عدة ، أن يعتقل أربعة عشر فدائيا من الفريق الذى دخل الى البلاد خلسة .

كان التقرير الذى تلقاه الملك الحسن الثاني من مخابراته مقلقا على نحو

خاص • فقد علم من هذا التقرير ــ خطأ في الحقيقة ــ ان المؤامرة لا تقضي باغتيال حسين وحسب ، وانما اغتياله هو أيضا ، والملك فيصل ملك العربية السعودية والرئيس السادات ورئيس الدولة السودانية ، اللواء جعفر النميرى. وبما أنه لم يتم القبض على أى سلاح ــ كما يضيف التقرير ــ فان خطر قيام محاولات اغتيال يرتكبها شركاء لهؤلاء ، لا يزالون احرارا ، هو خطر لا يزال قائما •

وضع الحسن الثاني قوات الأمن في حالة استنفار ، وأخطر بقية رؤساء الدول المعنيين بالمؤامرة ، واستدعى ياسر عرفات على جناح السرعة ليطلب منه تفسيرا لذلك • وخلال المحادثة التى تمت في منتصف شهر تشرين الأول ــ أكتوبر ، اتهمني العاهل الشريفي ، بالاستناد الى تقرير مخابراته بأني أقف على رأس المؤامرة التي أحبطها • واعترض عرفات ودافع عني ، وأكد للملك أن قيادة فتح ــ بما في ذلك هو نفسه ــ تجهل كل شيء عن القضية • فعرض عليه الملك صور الفدائيين الموقوفين الأربعة عشر ، فلم يتعرف الا على اثنين منهم •

خلال ذلك كان المسؤولون عن المحاولة المجهضة يسعون الى الحد من الأضرار • فالأسلحة المخصصة للفدائيين المعتقلين ، كانت مموهة تمويها ممتازا في شاحنة تجتاز اسبانيا في طريقها الى جبل طارق ، وبات من المفترض أن تسلم بين يوم وآخر في طنجة حيث تواجه خطر الوقوع بين يدي البوليس المغربي الذي سيصبح لديه والحالة هذه أدلة كافية لتجريم رفاقنا • وعلى ذلك فانه كان لا بد من منع الشاحنة من الوصول الى مقصدها بأي ثمن • فكان أن ركب أحد أفراد مجموعة المغاوير ، ممن لم يقعوا في الاعتقال ، الطائرة الى مدريد ليزود هناك المخابرات الاسبانية ، عبر مخابرة هاتفية مغفلة ، بوصف مفصل للشاحنة وحمولتها وللطريق التي ستسير فيها • وهكذا فان البوليس الاسباني توصل الى اعتراض سبيل الشاحنة وتوقيف سائقها ، وتوقيف مناضل آخر يرافقها • غير أن السلطات الاسبانية التى لم تكن تريد أن تتورط في قضية تتواجه فيها المغرب والفدائيون ، أخمدت القضية وطردت الناقلين بعد أن صادرت الشاحنة والأسلحة الموجودة فيها •

وتم اجتماع مجلس وزراء الخارجية العرب الذى انعقد في الرباط قبيل « القمة » ببضعة أيام ، في مناخ من الرعب • فالشائعات المخوفة تملأ العاصمة المغربية : ووفقا لما ذكرته هذه الشائعات فان مئة ارهابي يستعدون للقيام بموجة من الاغتيالات ، بل بمجزرة ، ثم تستشهد بتقرير صادر عن هذه المخابرات أو تلك ــ الأميركية ، الفرنسية ، الألمانية الغربية أو الاردنية ــ لتتنبأ بأهوال قيامية • ولاحظ أعضاء وفد منظمة التحرير المشاركون بأعمال المجلس كيف أن القلق المتزايد راح يؤثر يوما بعد يوم على موقف الوزراء العرب : فحتى أولئك المعروفون منهم بانحيازهم لصالح الملك حسين ، انتهوا بأن اصبحوا مدافعين مستيمتين عن منظمة التحرير الفلسطينية .

وشكلت قمة الرباط بالنسبة الينا ، انتصارا ساطعا كما هو معلوم • ذلك أن كافة الرؤساء العرب ، بما في ذلك الملك حسين ، تبنوا سلسلة من القرارات لصالحنا ، بينها قراران على الأقل يستحقان التذكير بهما : فقد أكدا مجددا « حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه » وكذلك على حقه « في اقامة سلطة وطنية مستقلة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ،بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، على كل قطعة محررة من الأراضي الفلسطينية ، وعلى أن البلاد العربية مطالبة بدعم هذه السلطة لدى اقامتها في كافة المجالات وعلى جميع المستويات • »

وأثار بيان « القمة » النهائي لدى نشره فرحا عارما لدى الفدائيين الأربعة عشر المعتقلين ، اذ اعتبروا ، وبحق ، أنهم بلغوا هدفهم • فهم لم يكونوا يسعون الى اراقة الدم ، لأن الامر الأساسي كان أن تعلن البلدان العربية العدوة أخيرا تأييدها الواضح لحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وللصفة التمثيلية لمنظمة التحرير الفلسطينية • وكنت أشاطرهم فرحهم ، الا أن ارتياحي ظل مشوبا بشائبة المصير الذى يعد لهم • فهم لا يعانون من شراسة أوضاع الاعتقال ولا من التعذيب اللا انساني وحسب ، وانما من تبرؤ الأصوات الرسمية في المقاومة منهم • بحيث باتوا عرضة للبقاء في زنزاناتهم طيلة حياتهم • وكانت الحملات الصحفية الموحى بها من قبل المخابرات المغربية ضدهم ، تصورهم

كلصوص متشردين • في حين أنهم قدموا للقضية الفلسينية خدمة لا تقدر بثمن ، دون ان يريقوا نقطة دم واحدة • ولسخطي على ذلك واستنكارى له ، فانى كنت اتحرق تعجلا وعيلان صبر لكي أقوم بالدفاع عنهم علانية • غير أنه كان علي أن ألازم الصمت حائرا يائسا •

ذلك أن الأوضاع السياسية ومصلحة المقاومة العليا ، لا تسمح لي بأن أتصرف من وحي وجداني • فتبرير عملهم قبل « قمة » الرباط أو أثناءها ، كان سيثير أزمة كبرى بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين البلدان العربية تؤدي بهذه البلدان الى تبني موقف معاد ازاءنا ، فأخرب بذلك الجهود التي بذلت لانتزاع اعتراف رؤساء الدول العربية الذى طالما تمنيناه •

وعندما انتهى اجتماع هؤلاء الرؤساء ، تعرضت مجددا للالحاح واللجاج لأسكت مرة أخرى كي لا ألحق الضرر بالعمل الذى يقوم به أصدقاؤنا في الأمم المتحدة من أجل أن تعترف المنظمة الدولية ، بمنظمة التحرير الفلسطينية • فهذا الهدف جوهرى جدا بالنسبة لمستقبلنا •

وقد أصبت حين تمالكت نفسي • فبعد أسبوعين من « قمة » الرباط ، استقبل ياسر عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة استقبال المنتصر • بحيث أن الترحيب الذى استقبله به ممثلو نحو من مئة وأربعين أمة وهم وقوف ، في ١٣ تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٤ ، كان أحد أكثر اللحظات المؤثرة في تاريخ الشعب الفلسطيني • ذلك أن أمم المعمورة كانت تحيي الصراعات التي خضناها والتضحيات التي بذلناها طوال أكثر من نصف قرن • وشعرنا في ذلك اليوم أننا لم نعد في نظر الرأى العام العالمي مجرد شعب من اللاجئين والحفاة وانما جماعة وطنية ، لا ريب في انها مغتصبة مهانة مذلة ، الا أنها فخورة أبداومستعدة لمواصلة معركتها •

وستتخذ الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد خطاب ياسر عرفات قرارين لا سابق لهما في تاريخ المنظمة الدولية • فهي لم تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وحسب ، ولكنها أولت

منظمتنا كذلك ، بل وبخاصة ، وضع المراقب داخل الأمم المتحدة ، في الجلسات والأعمال التي بات ممثلونا بعد ذلك يدعون اليها • وبهذا فاننا نلنا الامتياز العظيم بأن نكون أول حركة تحرر وطني تشارك رسميا في المنظمة العالمية وتحظى بمركز مماثل مثلا لمركز سويسرا والكوريين والفاتيكان الخ ••• وخلال ذلك اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني « بالسيادة والاستقلال الوطني » •

وقد غمرنا هذا كله • ذلك أننا بلغنا على المسرح الدولي كافة أهدافنا ولم نعد خارجين على القانون و « عصابات ارهابيين » و « قتلة » • وفي هذا الحين بالذات قررت أن أرفع صوتي دفاعا عن الأربعة عشر فدائيا المعتقلين ظلما في المغرب •

واستغليت مناسبة انعقاد مهرجان شعبي في ١٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر في جامعة بيروت العربية ، لأدهش المستمعين الي ، ليس بدفاعي عن هؤلاء الأخيرين وحسب ، بل باعلاني تضامني مع المحاولة التى قاموا بها تضامنا كاملا • وبعد أن أشرت الى الانتصارات الأخيرة التي حققها شعبنا ، وخاصة في «قمة» الرباط وفي الأمم المتحدة ، أعلنت أنه لا يمكن فصل هذه الانتصارات عن معارك ونضال مناضلينا • مضيفا أن المعتقلين الأربعة عشر في الرباط ، انما قاموا بواجبهم • وخلافا لمزاعم الدعاية المغرضة ، فانه لم تكن عندهم النية في مهاجمة كافة رؤساء الدول العربية ، وانما واحدا منهم فقط ، هو الملك حسين • ثم هتفت قائلا أنه اذا كان صحيحا أنهم سعوا الى هذا الغرض فانني أتحمل المسؤولية الكاملة وأدعي شرف دعم هذا العمل ! ثم ذكرت بهذا الصدد بأن الهيئات القيادية في فتح قد اتخذت قرارا أثر مجزرة الفدائيين في ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، بأن تزيل الملك حسين ونظامه •

ثم تعرضت اثر ذلك لمصير المعتقلين الأربعة عشر ، فأعلنت تصميمي على التوصل للافراج عنهم • ونددت بالتعذيب الذى أوقعه البوليس المغربي بهم ، ثم ألمحت الى أنه اذا ما أصم الحسن الثانى أذنيه عن نداءاتي ـ وكنت أرسلت اليه قبل ذلك برسالة شفوية بواسطة شخصية تونسية ـ فان لدينا من

الوسائل ما نجبر بها العاهل الشريفي على الاذعان .

وبينما كنت مندفعا في هجومي على الحسن الثاني ، قاطعني أحد معاوني ليسلمني رسالة . وجحظت عيناى وأنا أحملق في المذكرة الموجزة . ذلك أني قرأت فيها أنه تم اطلاق سراح رفاقنا الأربعة عشر ، وأنهم سلموا الى مصر التي أودعتهم سجن القلعة بالقاهرة . واستأنفت كلمتي وأنا في غاية الضيق لا أدرى كيف سأعدل لهجة خطابي ومضمونه . وغمغمت قليلا ثم رحت أقول أني تسرعت قليلا في الهجوم على الحسن الثاني لأنه في الحقيقة يتحسس مصالح المقاومة الفلسطينية . ثم أعلنت النبأ الذى تلقيته لتوى ، ثم ما لبثت أن استطردت لأتعرض لموقف مصر الشائن التى تبيح لنفسها اعتقال رجال أفادوا لتوهم من تساهل المغرب . وصحت بأى حق ينصب السادات نفسه قاضيا ؟

ولم أكد انتقل من الهجوم على الحسن الثاني الى السادات حتى قوطعت مرة ثانية من قبل واحد من جمهور الحاضرين حين سلمني كلمة حررت بهذه العبارات تقريبا : « ان السادات يدعوك لرؤيته فورا . فأرجوك ألا تنتقده قبل أن تستمع اليه » . وكانت الكلمة موقعة بتوقيع أحد أفراد السفارة المصرية في بيروت ممن أعدهم بين أصدقائي الخلص . فهو كضابط استخبارات سابق ، قدم لنا خدمات كبرى في الأردن ابان مواجهة عام ١٩٧٠ مع جيش الملك حسين فلم يكن أمامي بديل عن الموافقة على طلبه الملح .

واستأنفت خطابي وأنا أكثر ارتباكا وبدأت أتلعثم وأحاول البحث عن كلمات تتيح لي أن انعطف بهدوء ، بأعف عن السادات دون أن أناقض نفسي . وأخيرا توصلت الى أن أقول للجمهور المتحير أن أصدقاءنا المصريين أبلغوني للتو أنباء مطمئنة : فاعتقال الفدائيين الأربعة عشر « اجراء روتيني » وهم يلقون معاملة حسنة . ثم أوجزت حديثي وخلصت بكلام غامض التفاؤل .

وفي اليوم التالي ركبت الطائرة الى القاهرة . ووجدت في المطار ممثلا عن الرئيس السادات ينتظرني ليقودني مباشرة الى القصر الرئاسي ، شأن

ما كانت الحال معه عشية حرب تشرين ــ أكتوبر . واحتضنني رئيس الدولة المصرى وهو يبتسم ويقول : « يبدو أنك كنت تسعى الى اغتيالي ؟ » فلم أحاول حتى أن أعترض ، اذ أن الاتهام بدا لي عبيثا متهافتا . واستطرد السادات مطلعا اياى على التقارير التي تلقاها قبل « قمة » الرباط وعلى زيارة السفير المغربى له وتسليمه اياه نتائج التحقيق المقلقة المخيفة . غير أنه أضاف متحببا بأنه ارتاب في هذه المعلومات وتشكك فيها . أليس أن عائلتي المقيمة في القاهرة تسكن بجوار مقره ؟ أو لسنا أصدقاء قدامى ؟

وعلى أية حال فان ضباط المخابرات المصرية الذين أرسلوا الى المغرب عادوا مقتنعين بأن الملك حسين هو المستهدف الوحيد بالعملية . وقد تباحثوا مطولا مع الفدائيين الموقوفين الذين يعرفون أربعة منهم لأنهم يقيمون عادة في مصر .

وباختصار ، فان السادات وفر على عناء تقديم تفسيرات للماضي لا طائل فيها . وشكرته على الثقة التي يوليني اياها ثم قلت له بفظاظة : أنه لا يليق به أن يجعل من نفسه سجان الوطنيين الفلسطينيين . وأضفت أني سأشعر بخيبة عميقة اذا ظل مناضلونا ساعة واحدة بعد في سجن القلعة . فتوجه السادات الى الهاتف وطلب ممدوح سالم الذى كان حينها وزيرا للداخلية ، وطلب منه الافراج عن المعتقلين الأربعة عشر فورا . وغادرت الرئيس وأنا خلي القلب ، لأعود الى زوجتي وأولادي .

وبعيد ذلك بثمانية وأربعين ساعة، أى في يوم ٢٢تشرين الثانى ــ نوفمبر تلقيت مخابرة هاتفية من اسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصرى الذى طلب الي بصوت مضطرب أن أوافيه في الحال . ثم أضاف بغموض أن القضية عاجلة وخطيرة . ووجدته في مكتبه بصحبة رئيس الوزراء ووزير الداخلية وبعض المساعدين فحدث لدى انطباع بأني أمثل أمام مجلس حرب . فالوجوه منطوية والجو متوتر . وأبلغني اسماعيل فهمى بالمشكلة بايجاز . فقد اختطفت طائرة بوينغ تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية ، هذا اليوم الى تونس (بعد هبوط اضطرارى في دبي) على يد مجموعة فلسطينية تطالب باطلاق سراح

الفدائيين الخمسة عشر المعتقلين في مصر . وكان بين هؤلاء الأخيرين خمسة من الذين ارتكبوا محاولة مطار روما في ٥ نيسان ـ ابريل ١٩٧٣ ، كما كان بينهم ثمانية آخرون هم المسؤولون عن عملية الخرطوم التي جرت في آذار ـ مارس ١٩٧٣ ضد سفارة المملكة العربية السعودية (١) ، أما الاثنان الأخيران فكانا معتقلين في هولندا على أثر القيام بعملية فاشلة هناك . كان الرئيس بورقيبة يريد تلافي حدوث مأساة في مطار تونس ويلح على أن تلبي مطالب قراصنة الجو . وقال لي اسماعيل فهمي : « أننا لا نستطيع الاذعان للابتزاز » . ليسألني بعد هذا : « هل تستطيع مساعدتنا ؟ وأن تتوصل الى تحرير الرهائن دون مقابل ؟ » وينبغي لى أن أعترف بأن الطلب بدا لي غريبا وصعب التلبية . ولكنني كنت أعتبر من جانبي أن قيام مجموعة مغاوير بالمطالبة باخلاء سبيل فدائيين سجنوا بناء على طلب منظمة التحرير، أمرا لا يطاق . فقد كانوا يزايدون علينا ويلقون في وجهنا بتحد لا بد لنا من الرد عليه .

وبينما كنت أتردد في أن أقوم بالعمل بنفسي ، اتصل بي السادات هاتفيا وألح علي بالذهاب الى تونس عارضا أن يضع طائرة خاصة بتصرفي . ووافقت وأوضحت أنني سأكون مستعدا للاقلاع مع بعض معاوني في الساعة التالية . ووصلت الى تونس ، ثم لم ألبث أن توجهت الى برج المراقبة حيث كان علي أن أمضي ثلاثة أيام وليلتين في التفاوض على اطلاق سراح الرهائن . فكانت مهمة من أصعب وأغرب المهمات التي قدر لي أن أقوم بها .

وفي برج المراقبة استقبلني وزير الداخلية التونسي طاهر بلخوجه الذى قابلته هناك لأول مرة وأصبح بعد ذلك أحد أفضل أصدقائي . ثم اسمعني تسجيلا لأول مفاوضات اجراها مع قراصنة الجو . فقد كان هؤلاء منكفئين داخل الطائرة البريطانية ويهددون بقتل كافة رهائنهم . وعندما علموا أني جئت من القاهرة لأكلمهم غمروني بالشتائم وغمروا معي ياسر عرفات وسائر قادة منظمة التحرير الفلسطينية ورؤساء الدول العربية منددين « بخياناتهم » .

كان المسؤولون عن العملية ينتمون «لمجموعة الشهيداحمد عبد الغفور» وأحمد عبد الغفور كان أحد مناضلي فتح قبل أن يلتحق عام ١٩٧٢ بمعسكر

« جبهة الرفض » ، وقبل أن يقتل في بيروت في ظروف غامضة عام ١٩٧٤ . كان متطرفا سياسيا ونصيرا من عتاة أنصار العنف • وبعد أن جمع حوله عددا من المعجبين حصل على دعم ابي نضال ، وهو منشق آخر لاجئ في العراق • وهكذا فانه نظم محاولات دموية مختلفة ولا سيما في روما وأثينا ، قبل أن يقتل نفسه • واذا فاني كنت أواجه أخصام عنيدين ويرفضون فوق ذلك بعناد أن يخوضوا أى حوار معي •

وبالرغم من ذلك فاني استخدمت جهاز الارسال في جهاز المراقبة ، وتوجهت اليهم وأنا أحضهم على الاصغاء الي • فذكرت العلاقات الممتازة التي كانت تربطني بأحمد عبد الغفور قبل أن ينفصل عن فتح • وأكدت لهم أن السلطات التونسية ، وأنا نفسي ، قد اتخذنا قرارا للفور بعدم اللجوء الى القوة وأن همنا الأول هو انقاذ الرهائن والحفاظ على سمعة المقاومة والاستجابة لمطالبهم • وأوضحت أنه ليس في الوارد أن نسلمهم فدائيي عملية الخرطوم الثمانية • وبالمقابل فانني أعد بأن أقوم بكل ما يسعني القيام به للتوصل الى تحرير الفدائيين السبعة الآخرين الذين يطالبون بهم • ثم أسمعتهم أثر ذلك تسجيلا لمؤتمر صحفي عقده ناطق باسم مجموعة الخرطوم في النهار ذاته ، والذى يعلن فيه أنه هو ورفاقه لا يريدون أن يبادلوا برهائن طائرة تونس • ثم خلصت الى القول لمحادثيي المغيبين « فكروا ، وتعقلوا واعطوني جوابا ايجابيا ! » ثم تولى بلخوجة الكلام وعرض بدء المفاوضات • وتناهي صوت أجش يقول : « اننا لا نثق بأبي أياد • فنحن نعلم أنه رجل ماكر » • فراح الوزير التونسي يلح عليهم ويقول لهم أن بوسعهم الوثوق بنا لأننا لا نخون عهدا مقطوعا . وطلبوا منا مهلة نصف ساعة للتفكير • لكن الانتظار طال واستغرق الليل كله ونحن يلفنا صمت كصمت المقابر • وكنا بدأنا نيأس ، حين دوى في الصباح صوت رئيس المجموعة ويدعى مروان ، وهو يطلب الكلام مع « الأخ أبو أياد ••• » وتنهدت تنهيدة ارتياح ، فقد ربحنا نصف المعركة طالما انهم يدعونني وللمرة الأولى باسم الأخ •••

وبدون أن أضيع الوقت اتصلت بالحكومتين المصرية والهولندية لأطلب

اليهما أن يرسلوا لي في اليوم ذاته الخمسة فدائيين من مصر والفدائيين من هولندا . وكانت الطائرة القادمة من لاهاي أول الطائرتين وصولا ، الا أن القنصل الهولندى أبلغني أن الفدائيين لن يغادروا الطائرة الا بعد تحرير كافة ركاب الطائرة البريطانية . أما قراصنة الجو الذين كانوا يريدون أن تسير العملية على العكس تماما ، فانهم ظنوا أننا ننصب لهم في الواقع شركا ،فنرفزوا وهددوا بالبدء باعدام سجنائهم واحدا واحدا . فدعوتهم الى الصبر وشرعت في مفاوضة مملة لأكسب الوقت ، ذلك الى أن يصل الفدائيون الخمسة الآخرون من القاهرة .

ولدى وصول هؤلاء بات في وسعي أن أعرض صيغة تسوية يمكن أن يكون لها حظ من النجاح : وقوامها أن تذهب المجموعة القادمة من مصر لتلتحق « بمجموعة أحمد عبد الغفور » التي تطلق بدورها سراح كافة ركاب الطائرة، وبعد ذلك يغادر الفلسطينيان الموجودان تحت رقابة البوليس الهولندى طائرتهما ليصعدا الى الطائرة البريطانية . ثم يقوم طاقم الطائرة – وهم سبعة – يحملون جميعا الجنسية البريطانية بايصال قراصنة الجو وصحابتهم الى البلد الذى يختارونه بعد استعادة حريتهم .

وقبل أن يصعد فدائيو القاهرة الخمسة الى الطائرة المخطوفة تأكدت من تواطئهم معي . فهم يعرفونني بالشهرة ويقدرون المعركة التي أخوضها . كما أنهم فوق ذلك مدينون لأنني تدخلت لصالحهم لدى توقيفهم . وطلبت اليهم أن يقوموا بكل ما في وسعهم لاقناع قراصنة الجو بقبول اقتراحي ،خاصة بأن يظهروا لهم أنه ليست لديهم أية فرصة لفرض وجهة نظرهم . فهم من جهة أولى معزولون على الصعيد الدولي لأنهم سمعوا الاذاعات ولا بد كما سمعتها أنا ، وعلموا أن كافة البلدان العربية بما فيها ليبيا والعراق واليمن الجنوبية ، أى الدول المتعاطفة مع « جبهة الرفض » قد أدانت المحاولة ادانة قاطعة . ومن جهة أخرى فان ابتزازهم هذا لن يفضي الى شيء لأن جميع الرهائن تقريبا ليسوا بأردنيين ولا بأميركيين . اذ من ذا الذى يقلق لأجل باكستانيين أو هنود أو أى آسيويين آخرين ؟ ان ملاحظة ذلك أمر محزن :

لكن الأوروبيين لا يهتمون الا بحياة رعاياهم ، أما رعايا العالم الثالث فانهم غالبا ما يعتبرون ــ وبل يعاملون ــ كما لو كانوا كائنات أدنى من البشر . واذا فان عليهم أن يقنعوا بتسوية تتيح لهم أن ينسحبوا بثمن مغر ، ذلك اني أقدم لهم مقابل ذلك الأمان والاعفاء من العقاب .

وقد أدى الخمسة مهمتهم ، لكنها لم تكن خالية من الصعوبات ذلك أنها اقتضت منهم بضع ساعات من المساومات والمداولات مع قراصنة الجو . ثم خرج الركاب كما هو متفق ، وهم سبعة وعشرون مسافرا بينهم ثلاثة أوروبيين وأفرج عنهم سليمين معافين . ثم سلم الفدائيان اللذان أفرجت الحكومة الهولندية عنهما ، الى مجموعة « أحمد عبد الغفور » دون حوادث . فأصبح هناك ثلاثة عشر فلسطينيا (بينهم قراصنة الجو الستة) على متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية ، ومعهم أفراد طاقم الطائرة السبعة ، وباتوا مستعدين للاقلاع والذهاب الى البلد المعين لاستقبالهم .

غير أن رئيس المجموعة ، مروان ، طلب فجأة أن يتحدث الي على انفراد. وجرت المقابلة التي أعد لها بدقة ، في مهبط الطائرات وبالضبط في منتصف الطريق الواقعة بين الطائرة وبرج المراقبة. فأبلغني أنه يريد هو ورفاقه الحصول على حق اللجوء السياسي الى تونس مع ضمانة عدم تسليمهم الى منظمة التحرير الفلسطينية . ولم يكن بامكاني أن أقبل مثل هذه الشروط دون الرجوع الى الرئيس بورقيبة الذى رفض رفضا قاطعا أن يستجيب لطلب قراصنة الجو وعندها راح الخاطفون يهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ، فيقتلون بذلك أفراد طاقم الطائرة معهم . فكان علينا أن نعود على بدئنا . وضاعت نصائحي سدى . فعرضت عليهم حينذاك مبادلة الانكليز السبعة بسبعة من معاونيي ، وهكذا يصبح ضحايا هذا الانتحار الجماعي كلهم من الفلسطينيين . وقلت لهم بالمذياع : « وفروا علينا عار اعدام أبرياء انكليز ! » . وكما توقعت فان الرئيس بورقيبة تأثر لاقتراحي ، ثم أنه لما كان لا يريد أن يكون مسؤولا عن مثل هذه الخاتمة المأساوية فانه تعهد بتلبية مطالب مغاوير عبد الغفور . وهكذا فانني نجحت في النهاية ولكنه كان نجاحا « على الحافة » .

وخلال هذه الستين ساعة من المساومات المقلقة المحمومة ، كان هناك رجل قدموه الي على أنه دبلوماسي بريطاني ، يقف على مقربة مني ويتابع تطور المأساة التي تلعب . كان منزويا قليل الكلام ولا يتحدث الا بالانكليزية فلم يكن يخطر في بالي أنه يفهم لغتنا . وكم كانت دهشتي عظيمة حين توجه الي بعربية منقحة ليشكرني بحرارة . وقال لي « نحن مدينون لك بجميل عميق يا أبا أياد لانقاذك حياة رعايانا . ولقد تأثرت بالغ التأثر بروحيتك الفروسية وبعرضك المؤثر بالتضحية بفدائيين بدلا عنهم ... » كان محدثي ، وهو السفير الذى خدم في مختلف البلدان العربية ، مكلفا من قبل الخارجية البريطانية . وأجبته بأنني لم أقم الا بواجبي ، وأنه اذا كان يصر على شكرى، فان بوسع حكومته أن تدفع نصف ثمن طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي أفلحت في انقاذها لصندوق منظمة التحرير الفلسطينية . فانفجر الدبلوماسي ضاحكا ، وبعد ذلك ببضعة أيام ، تلقيت ، لدى عودتي الى منزلي في القاهرة، باقة زهور باذخة من شركة الطيران البريطانية .

غير أن المهمة التي أنجزتها لم تجزني التهاني وحدها . فخلال المؤتمر الصحافي الذى عقدته في تونس غداة تحرير الرهائن ، راح صحفي أميركي يقول لي بفظاظة : « أحسب أنكم لم تكونوا من أمركم في برج المراقبة في يسر ، يامستر أبو أياد ! أليس مكانكم الطبيعى أن تقبع الى جانب الارهابيين في الطائرة ! ؟ فتمالكت أعصابي وأجبته بهدوء : « سيان أكان المكان برج المراقبة أم سواه من الأمكنة ، فاني لا أشعر في أى حيز كان أنني في دارى . لكن أترانا نبالغ في الطلب اليكم — وأنتم الذين لكم وطن ودار ثابتة — أن تراعوا الحد الأدنى من اللياقة ازاء من ليس لهم وطن ولا دار !

وكانت لي من ثم مناقشة متقدة مع قراصنة الجو ، حول موضوع نجحنا في خنقه في المهد حينذاك ، وأثيره اليوم للمرة الأولى — فالواقع هو أن مطالب مجموعة عبد الغفور لم تقتصر على تحرير الفدائيين المسجونين . فقد اشترطوا كذلك استدعاء وفد منظمة التحرير الفلسطينية من الأمم المتحدة . فطلبت من السلطات التونسية ألا تنشر شيئا حول هذا الموضوع قبل التوصل الى جعل

أفراد العملية يتراجعون عنه أثر مفاوضات شائكة معهم . فقد قلت لهم: لكن هل قرأتم خطاب عرفات امام الأمم المتحدة ؟! وعندما أجابوني بالنفي ، رحت أصف لهم مشاهد الفرح التي دارت في مخيمات اللاجئين، موضحا لهم أن الفلسطينيين شعروا بالفخر عندما علموا بأن واحدا منهم عرض أمام العالم أجمع ، قضية طال تجاهلها ، وأن الرجل الذى تكلم باسمنا قد قوبل بالتصفيق من قبل ممثلي شعوب المسكونة كلها . ثم أضفت : ولا ريب في أننا لا نجد في موقف الأمم المتحدة منا طوال تاريخنا ما نرحب به ، كما أنه لا ينبغي لنا كذلك ولا ريب أن نتوهم الأوهام حول سلطان وفعالية هيئة الأمم المتحدة . لكن هل هـذا يعني أن علينا أن نسترذل هذا الانتصار المعنوى والسياسي ؟

واتهى مروان ورفاقه بأن أقروا ، على أثر المناقشة ، بخطئهم ، ثم اعتذروا بارتباك وخجل عما أظهروه من عناء . ومنذ ذلك الحين التحقوا ستتهم بصفوف فتح . ثم أن النقاش الذى أجريته معهم كان مفيدا لي من حيث أنه مكنـني من معاينة المقدار من التأثير الذى تستطيع به الدعاية الديماغوجية التى تمارسها جبهة الرفض ، أن تتركه على الشباب الوطنى ، اذا لم يكلف الواقعيون داخل الحركة الفلسطينية أنفسهم عناء الاجابة بتحليل موضوعي للظرف الذى نواجهه ومما يزيد مهمتنا سهولة ويسرا ، هو أن اطروحات أخصامنا هي اطـروحات لايمكن الدفاع عنها كائنا ما كان المنظور الذى ينظر منه : قوميا أو ثوريا أو ماركسيا . فقادة الجبهة الشعبية يدعون الانتساب الى الماركسية ، ليؤكدوا أن الدبلوماسية هي شكل من أشكال الانهزامية وأن الكفاح المسلح وحده ثورى . ثم يشجبون بمثل هذه الحجة دخولنا الى الأمم المتحدة ، المنظمة التي تضم كافة البلدان الاشتراكية بما في ذلك عملاقا الشيوعية الدولية ! ان هؤلاء الماركسيين المنحولين يجهلون حتى تعاليم لينين الذى كان يوصي البلاشـفة بالتسرب الى كافة المنظمات الجماهيرية واثبـات وجـودهم فيها . ثم تراهم يزعمون لأنفسهم التفوق لغيابهم عن أهم هذه المنظمات الجماهيرية ؛ أى عن تلك التي تضم شعوب الكرة الأرضية كلا وجمعا .

ورئيس الجبهة الشعبية ، الدكتور جورج حبش ، نسي أنه عارض في

تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٤ دخولنا الى الأمم المتحدة كعضو مراقب،فعرض علينا في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٧ أن يقوم وفدنا بطلب استبعاد اسرائيل عنها.. لكن هذا ليس تناقض الدكتور حبش الوحيد ...

وبينما كنا تتجابه داخل الحركة الفلسطينية حول الطريقة التي نرد بها على تحدى السلام ، كان هنرى كيسنجر يعمل بدأب دائب وتكتم بالغ ليعطل النجاحات التي حققناها ، على المسرح الدولي ، وليقسم العرب عامة ، لما فيه مصلحة اسرائيل . كان يعمل ظاهرا كوسيط لا يكل ولا يمل ، ويقوم بسلسلة من الزيارات للشرق الأوسط ذاهبا آيبا ، غاديا رائحا كالمكوك بين تل أبيب والقاهرة ودمشق وعمان والرياض الخ ... وسريعا ما لوحظ أن هدفه ليس التوصل الى تسوية شاملة تذهب الى جذور النزاع ، وانما عقد اتفاقات جزئية سوف تعطي التوسعيين الاسرائيليين فترة راحة طويلة بأن تقيم العرب بعضهم ضد بعض . وقد بدا الاتفاق الاول الذى عقد بين مصر واسرائيل تحت رعايتها ، في ١١ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٣ ، اتفاقا بريئا . أفلم يكن يهدف الى انقاذ الجيش الثالث من الاختناق وربما من الابادة ؟ ولم تعارض منظمة التحرير الفلسطينية ذلك . ولكن عندما شرع كيسنجر برحلة مكوكية جديدة بهدف التوصل الى فك ارتباط عسكرى أول في سيناء ، فان منظمتنا انتقدت انتقادا قاسيا دبلوماسية « الخطوة خطوة » التي لا يمكنها ، ببديهة الحال ، الا أن تفضي الى اثارة الشقاقات داخل العالم العربى . وقد قلقت سوريا بخاصة واستاءت منها . ذلك أنها فهمت أن اتفاقا جديدا اسرائيليا مصريا لا يمكن الا أن يضعف موقعها ازاء الدولة اليهودية .

وقبيل توقيع اتفاق ١٨ كانون الثانى ـ يناير ١٩٧٤ بين القاهرة وتل أبيب ببضعة أيام ، فانني سافرت الى القاهرة لأحث السادات على عدم التورط في هذه الدوامة الخطرة . كانت المفاوضات في نقطة الصفر ، فكنت آمل في أن يتغلب التصلب الاسرائيلي مرة أخرى على ضعف الرئيس المصرى وموقفه الانهزامي ... غير أنني وجدت السادات مغضبا ، ليس ضد الدولة الصهيونية أو ضد كيسنجر ، بل ضد ... منظمة التحرير الفلسطينية . وأبدى لي انتقادات مرة ثم هاجم ياسر عرفات بعنف بسبب البيان الذى نشرته اللجنة

التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية بصدد التوجه الذى تتجه الدبلوماسية الأميركية فيه ٠

وأظهرت الكثير من الصبر محاولا تهدئته واعادته الى الصواب ٠ فقد كنت أريد تلافي حدوث قطيعة في لحظة كنت لا أزال فيها آمل باكتسابه الى وجهة نظرنا ٠ الا أنه لم يتراجع ولا قيد أنملة ثم احتد وقال لي : « ولو قدم ني كيسنجر في الغداة مترا مربعا واحدا من سيناء أخذته منه ! ولن أتراجع عن الخط الذى رسمته لنفسي أبدا ! » فأبديت بأنه ينبغي على كل حال أن يأخذ بعين الاعتبار موقف سوريا ، حليفته في حرب تشرين ـ أكتوبر ٠ وانتهى بأن قبل بعد كثير من التردد بالتباحث مع الرئيس حافظ الذى كنت تباحثت معه قبل ذهابي الى القاهرة ٠ وتمت المقابلة بينهما بعيد ذلك في الرياض ، الا أنها لم تفض الى نتيجة لأن السادات واصل الطريق التى رسمها له كيسنجر ،حتى عقد اتفاق سيناء المشؤوم الثاني من أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٥ ، وهو الاتفاق الذى سيخرج مصر من معسكر بلدان ساحة المعركة ، ويعمق الهوة المحفورة بين القاهرة ودمشق ، ويسهم اسهاما عظيما في تغذية نيران الحرب الأهلية في لبنان ٠

وقد انفجرت الصدامات الأولى بين المسيحيين والمسلمين في لبنان ، وبين الأحزاب المارونية وبين الفلسطينيين ، في الأيام الاولى من عام ١٩٧٥٠ ولم يكن في وسعي وأنا مستغرق بالكامل بالمشاكل المطروحة على الحركة الفلسطينية أن أغادر مركزى في بيروت ٠ غير أنني استغليت الهدأة الخادعة التي سادت في شهر تموز ـ يوليو ، وقررت القيام بأول انتقال لي خلال سبعة أشهر الى الخارج ٠ والواقع هو أنني كنت تلقيت خلال ذلك دعوة لزيارة المغرب بهدف التصالح مع الحسن الثاني ٠ ولم أكن أريد أن أقوم بزيارة رسمية أو علنية مخافة ألا يفضي اللقاء الى نتائج ايجابية ٠ وعلى هذا فقد تم الاتفاق على أن أسافر مع زوجتي وأولادي لنمضي اجازة في تونس ، ومن هناك أسافر سرا الى المغرب ٠ كنت مسرورا لتمكني من الافلات من مسؤولياتي المنهكة في لبنان لبضعة أيام ، خاصة وأني أكن مودة خاصة

للتونسيين ورئيسهم الحبيب بورقيبة • وبخلاف ذلك ، فاني كنت محتاجا ، بالنظر الى أنني لم أنل قسطي من الراحة منذ سنوات ، الى أن آخذ اجازة بصحبة أطفالي الذين لا أراهم الا نادرا •

وفي العاشر من آب ـ أغسطس لحقت بي عائلتي الى تونس ، وبعيد ذلك بنحو من عشرة أيام قادتنا طائرة مغربية خاصة بصورة بالغة التكتم الى الدار البيضاء ، يصحبنا ضباط من المخابرات المغربية ، والفدائيون الثلاثة المشتركون بعملية تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٧٤ ، ضد الملك حسين ، والذين أفرج الملك الحسن الثاني عنهم • ذلك أنى كنت حريصا بالفعل على تقديمهم الى العاهل المغربي لاقناعه بأنهم ليسوا بالمتشردين اللصوص كما وصفتهم مخابراته •

وأنزلت في مقر فخم بالدار البيضاء ، وبقيت فيها خمسة أو ستة أيام قبل أن يقتادوني الى الرباط لأقابل الملك • وهناك جرت المقابلة وفقا لقواعد وأبهة البلاط الشريفي • اذ وصلت الى القصر في عربة فخمة تتقدمني الدراجات النارية ويرافقني حشد من الحرس • واستقبلني رئيس المراسم الملكية ثم أدخلني الى مكتب فسيح شاهدت في طرفه الأقصى الحسن الثاني جالسا الى طاولة عمله • وما أن دخلت حتى نهض واقفا وتقدم الى وسط الغرفة ليحييني • الا أنني لاحظت أن مودته لا تصل الى حد احتضاني على الطريقة العربية • وكان ذلك طبيعيا باعتبار أننا لم نسو بعد الخلاف الذى يفصلنا • وعلى أى حال فان سيرته هذه تتناسب مع سيرتي تماما • ذلك أني انفر بالفعل من العواطف المصطنعة فلا أعانق شخصا ألقاه للمرة الأولى ، أو شخصا لا أحمل له عاطفة ما •

وتبعني الفدائيون الثلاثة الذين يرافقوني ثم حيوا الملك وانسحبوا ليتركونا وحدنا • وما لبث الحسن أن بدأ المحادثات بقوله : « فلننس الماضي ، اذ أن من الخير في تقديري أن نفتح صفحة جديدة في علاقاتنا » • فأثنيت على قوله ثم استأذنته في أن أثير نقطة واحدة على الأقل ، تهمني على نحو خاص ، عنيت الاتهامات الظالمة للفدائيين الذين اوقفوا قبيل « قمة » الرباط بقليل •

وقلت له : « كيف أمكن أن تصدقوا يا جلالة الملك أن عدة رؤساء دول ، أنتم بينهم كانوا مستهدفين بالعمليات شأن الملك حسين ؟ » وعددت الجرائم التي ارتكبها العاهل الاردني ضد الشعب الفلسطيني وذكرته بأنه هو نفسه كان قد اقترح منذ سنوات أن يتخلى حسين عن السلطة للمقاومة • ثم قلت له بصراحة فظة بأننا لن نكل في المستقبل عن ملاحقة حسين اذا لم يتخل هو نهائيا عن أوهامه بصدد استعادة الضفة الغربية لحسابه الخاص أو باسمنا نحن • فالقضية ليست قضية مبدأ وحسب ، وانما هي مشكلة حساسة عصيبة ترتهن مستقبل شعبنا •

وأصغى الي الحسن الثاني باتنباه ، ثم قال لي ، أن الشعب الفلسطيني يستحق أن يمارس حقه في تقرير المصير ، الا أنه عرض أن يقوم بمساع حميدة لاعادة الحوار بين المقاومة والملك حسين • ثم أثرنا بعد ذلك النزاع الذي كان اندلع لتوه بين المغرب والجزائر حول الصحراء الغربية • وعرض لي العاهل المغربي وجهة نظره ، ثم اقترح على صيغة تسوية وكلفني بنقلها الى الرئيس بو مدين الذي كنت سأقابله قبل عودتي الى بيروت • وقد أتاحت لي هذه المحادثة التي راحت تزداد حرارة ،أن أقيس مدى ما يتمتع به الحسن الثاني من أرابة ومهارة ، ومعرفة واسعة بالمشكلات الدولية •

ثم سألني قبل أن نفترق ، عن مشاريعي ، فأبلغته بعزمي على مغادرة المغرب من الغداة فعارض وأصر على أن أبقى حتى أول أيلول ــ سبتمبر على الأقل • لكن لماذا أول أيلول بالذات !؟ وأجابني احد معاونيه عندما سألته في ذلك بعد انتهاء المقابلة ، بألغاز اذ قال : « لأن أطفالك يريدون ذلك » • كنت أجهل أنهم يعدون لي دون علمي احتفالا بعيد ميلادى الذي يصادف في ٣١ آب ــ أغسطس ، والذي كنت نسيته بالكامل • غير أنني بقيت في الدارة الجميلة التي وضعوها بتصرفنا قرب الشاطيء خلال فترة الثلاثة أو الأربعة أيام الباقية ، والتي استغليتها لأقابل مختلف شخصيات المعارضة •

وستظل سهرة الواحد والثلاثين من آب محفورة في ذاكرتي كاحدى أجمل سهرات حياتي • ذلك أنه لم تتح لي ، وأنا المستغرق في انهماكاتي أو في تنقلاتي ، أن أجد نفسي وسط أسرتي في مناسبة كهذه • ووجدتني محاطا

بأطفالي الستة وزوجتي والمناضلين الفلسطينيين الثلاثة وبشخصية كبيرة من البلاط الملكي ، امام وليمة شهية وكعكة ميلاد ضخمة مزدانة بعدد من الشموع يوافق عددها عدد سني عمري • وغنينا أناشيد فلسطينية ومغربية يصاحبها نقر على العود ، حتى ساعة متأخرة من الليل •

وفي الغداة ، علمت من الاذاعة في الجزائر أن مصر واسرائيل عقدتا اتفاقا جديدا ، وهاما هذه المرة ، حول فك ارتباط عسكري في سيناء • كنت أجهل التفاصيل ، وأجهل بخاصة البنود السرية في البروتوكول الملحق بالاتفاق — والذي لن يكشف مضمونه الا بعد ذلك بعدة أشهر — الا انني توجست بأن يكون حقا وصدقا ، مرحلة تنحو نحو معاهدة صلح منفرد مطابقة لاستراتيجية اسرائيل الدبلوماسية •

وحين سألني الصحفيون الجزائريون عن هذا الاتفاق ، فاني كنت أول قائد فلسطيني يشجب تفريط السادات • فاتهمته بأنه يسدد طعنة نجلاء للتضامن العربى وللقضية الفلسطينية ثم وجهت نداء الى الرأى العام العربى كله ليتخذ الموقف نفسه الذي اتخذته من هذه الخطوة •

ثم أني عرضت على الرئيس برمدين حين استقبلني في اليوم التالي ، الوضع في الشرق الأوسط كما أراه والمخاطر التي يشتمل عليها اتفاق سيناء بالنسبة للقضية العربية وللسلام الأهلي في لبنان • فأعرب رئيس الدولة الجزائري عن اقتناعه بأن التفاهم الاسرائيلي المصري سيؤدي الى تفاقم الشقاقات بين القاهرة ودمشق ، ثم أضاف بأنه لا يستبعد أن يقوم الأميركيون بتشجيع الصداقات الدموية في لبنان اضعافا للحركة الفلسطينية • وكان يرى أن حياة القادة الفلسطينيين في خطر ، وأنه ينبغي لنا أن نتخذ احتياطات اضافية • وعلى هذا فاني اقترحت عليه أن يتخذ موقفا علنيا مناهضا لاتفاق سيناء • الا أنه أجابني بأن على منظمة التحرير الفلسطينية أن تتخذ مثل هذا الموقف بادئا ، والا فان اعلانا بهذا المعني من جانبه سيكون سابقا لأوانه وغير مناسب •

وما لبثت لدى عودتي الى بيروت في الخامس من أيلول — سبتمبر أن

ذهبت الى اجتماع تعقده لجنة فتح المركزية لتفحص وامتحان اتفـاق سيناء بالذات • ثم أصدرنا على أثر مداولاتنا بيانا ينتقد التفاهم المصري الاسرائيلي وهنري كيسنجر الذي أوصى به ، انتقادا شديدا • لكن غالبية البلدان العربية لزمت الصمت ، اما موافقة منها على الاتفاق ، واما مداراة لمصر أو مراعـاة لجانب الولايات المتحدة أو لكليهما معا •

ومذ ذاك ، صار في مستطاع الجنون الدموي أن ينفلت من عقـاله في لبنان ، دون أن يعيقه معيق •

الفصل التاسع

الشرك اللبناني

بدأت الحرب الأهلية اللبنانية على ما تقتضيه « الاصول » أي بمذبحة. ففي بعد ظهر الثالث عشر من نيسان ـ أبريل ١٩٧٥ ، كانت سيارة تقل (أوتوبيس) تقل عددا من الفلسطينيين واللبنانيين ، تجتاز حي عين الرمانة ذي الغلبة المسيحية • ولم يكن في وسع هذه السيارة أن تسلك طريقا آخر انتقل ركابها من مخيم صبرا حيث كانوا يشاركون في مهرجان شعبي ، الى أماكن سكنهم الواقعة في مخيم آخر ، هو مخيم تل الزعتر • فكان أن تعرضت لنيران غزيرة في ذات الحين الذي كان رئيس حزب الكتائب بيير الجميل ، يدشن فيه كنيسة في عين الرمانة • ولم يكن في حيازة هؤلاء الركاب وبينهم عدد من النساء والأطفال أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم فكان أن سقط عدد منهم لدى بداية اطلاق النار ، بينما راح المهاجمون يجهزون على البقية الباقية من الجرحى • وهكذا فان قوات الأمن وجدت لدى وصولها الى مكان الحادث ثلاثين جثة ممدودة داخل الاتوبيس • وبهذا ستكون بداية أحد أفظع النزاعات المسلحة في التاريخ ، ليتواصل ويزداد اضطراما ـ خلال ثمانية عشر شهرا ـ اللهم ما خلا هدنة خداعة في شهري تموز ـ يوليو وآب ـ أغسطس من عام ١٩٧٥ •

والحقيقة هي أن مذبحة عين الرمانة فقأت دملا لم ينفك تقيحه عن التنام منذ ما يقرب العقد من السنين • وهي الى ذلك تشهد على تدهور العلاقات الفلسطينية برغم بعض الفترات من الوفاق الظاهر • فسلطات بيروت بدأت تعارض عمل المقاومة كما اشرت في فصل سابق ، منذ اطلاق فتح للكفاح المسلح في كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٦٥ ، فتعتقل وأحيانا تعذب الفدائيين الذين يحاولون اجتياز الحدود اللبنانية للذهاب الى الأراضي التي تحتلها اسرائيل• وكان لهزيمة عام ١٩٦٧ من الآثار في بيروت ما كان لها في العواصم العربية الاخرى اذ وجدت الحكومة اللبنانية نفسها مكرهة على تبني موقف لين ازاء المقاومة ، القوة الوحيدة التي لم تستكن الى الهزيمة في العالم العربي وامتشقت السلاح في وجه عدو اشتهر بأنه لا يقهر • وأما الفلسطينيون المقيمون في لبنان فانهم استردوا من جانبهم ثقتهم بأنفسهم ثم أكبوا في غمرة الحماس على تحطيم قيودهم في بلد كان يعاملهم كمواطنين من الدرجة الثانية•

وتحولت مخيمات اللاجئين التي جعلتها القوانين والقيود والاجراءات الادارية اشبه بالسجون ، الى قلاع • وتطوع الرجال والنساء بالآلاف في التنظيمات الفدائية أو في ميلشيات الدفاع الذاتي • وأنشأ مقاتلونا قواعد عسكرية في الجنوب ، ثم راحوا يشنون انطلاقا منها عملياتهم ضد الاهداف الواقعة داخل الأراضي الفلسطينية •

أما المسؤولون اللبنانيون فانهم راحوا يراقبون ، عاجزين ، تطور وتنامي نشاطاتنا المستقلة • ولم تظهر أولى بوادر الضيق في بيروت الا بمثل ما ظهرت في عمان ــ أي اثر تظاهرة التشييع المهيبة التي نظمناها في نيسان ــ أبريل ١٩٦٨ لأحد مناضلينا من التابعية اللبنانية ، عز الدين الجمل ، الذي استشهد خلال عملية داخل اسرائيل • فقد راح آلاف الفدائيين المسلحين ، يتقاطرون في أرتال داخل شرايين العاصمة الرئيسية • صحيح أن ممثلين عن كافة الهيئات والأحزاب اللبنانية ، اليمينية منها واليسارية ، وعن الدولة ، أصروا على المشاركة في التشييع تعبيرا عن التضامن ،الا أنه كان من البديهي ان الانتشار العلني لقواتنا قد صدم عددا كبيرا منهم • وأما نحن ، فانه كان من الصعب علينا من جانبنا أن نصادر الحرية التي استعادها شعبنا ،والأمل الذي استرده في تحرير الوطن المغتصب واللذين كان حمل السلاح يرمز اليهما •

وبعد جنازة عز الدين الجمل بستة أشهر ، بدأت التوترات بالاحتدام اثر اشتباك أول حدث في الجنوب بين مجموعة مغاوير فلسطينيين وبين دورية تابعة للجيش اللبناني ، تلته في الأشهر التالية صدامات دموية • وفي شهر تشرين الاول ــ أكتوبر ١٩٦٩ ، دارت معارك عنيفة في عدة مناطق من البلاد ، اثر محاولات السلطات فرض اشراف وقيود على تنقلات ونشاطات الفدائيين • فقد تبنى رئيس الجمهورية شارل حلو تحت ضغط الأحزاب المارونية مواقف معادية لنا ، بينما جاهد رئيس الحكومة رشيد كرامي في الحفاظ على مصالح المعسكرين • وفي حين أن الأهالي كانوا بالاجمال مؤيدين لنا ، الا أن الشرخ الطائفي عاود الظهور معاودة خطرة ، الى حد أن رئيس الدولة أفضى الى أحد المقربين اليه ، بأن البديل الوحيد للتسوية هو تقسيم لبنان الى دولتين ،

احداهما مسيحية والأخرى مسلمة • وفي هذه الظروف بدأت المفاوضات في القاهرة تحت رعاية الرئيس عبد الناصر ، الذي عرض وساطته ، على الفريقين بحيث أنها أفضت في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر الى اتفاقات لا تزال تحكم الى اليوم علاقات المقاومة بالدولة اللبنانية •

ومع أن « اتفاقية القاهرة » لم تنشر علنيا بناء لطلب السلطات اللبنانية الي كانت تخشي ردات فعل المعارضة البرلمانية ، الا انها تعرضت لحرب شديدة من قبل رئيس الكتلة الوطنية ريمون اده ، وهو سياسي على جانب عظيم من النزاهة أكن له شخصيا ، برغم الاختلافات التي لاتزال تفصل بيننا الى اليوم ، مودة كبيرة • الا أنني لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن بيير الجميل وكميل شمعون ، زعيمي حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار اللذين حملا السلاح لالغاء اتفاقية القاهرة ، التي وافقا عليها دون تحفظ •

ولم تكن علاقاتنا بزعماء اليمين المسيحي سيئة في ذلك الحين • بل لقد كنا نطمح الى اقامة علاقات صداقة وتعاون مع كافة التشكيلات ، وخاصة مع الطائفتين الرئيستين من السكان • وكثيرا ما كان القادة الفلسطينيون ،وعرفات بخاصة ، يلتقون مع بيير الجميل وكميل شمعون في جو يسوده الود ، بل التقدير المتبادل • كان شمعون يظهر خلال هذه الاجتماعات وفي مواقفه المعلنة، اعتدالا مثاليا • في حين أن سلوك الزعيم الكتائبي كان يحيرنا • فهو في الاجتماعات الخاصة متفهم ومعقول دائما ، مستعد للتسوية أبدا ، الا أنه لا يلبث ، فور انتهاء المحادثة ، أن يصدر أو يفضي بتصريح معاد معاداة واضحة للفلسطينيين • وحين أبدينا له ذات يوم دهشتنا من هذه الازدواجية في اللسان فانه فسر لنا ذلك بعدم قدرته على أن يفعل غير ذلك ، بالنظر الى مشاعر أنصاره ومحازبيه الذين لا يفهمون كنه الحوار القائم مع رؤساء المقاومة • وانما فهمنا بعد ذلك بكثير ان الكتائبيين كانوا يعبئون الرأي العام منذ ذلك الحين ، استعدادا للصدام مع الفلسطينيين • يبقى أن سنوات ١٩٧٠ — ١٩٧٢ ظلت هادئة نسبيا • ولا ريب في أن مشكلات عديدة ظهرت ، الا أنها حلت حبيا بفضل وسائل الاتصال التي أفلحنا في الحفاظ عليها مع الزعماء الموارنة ومع الدولة اللبنانية التي كانوا يغلبون عليها •

وانما فسدت الامور في ربيع عام ١٩٧٣ • فغداة الغارة الاسرائيلية على بيروت في ١٠ نيسان أبريل واغتيال زعماء منظمة التحرير الفلسطينية الثلاثة ، اندلع النزاع بصدد تقصير قوات الأمن • ففي حين أن القادة المسلمين ، وعلى رأسهم رئيس الحكومة صائب سلام ، طالبوا بفتح تحقيق حول سلبية الجيش، وبانزال العقاب بالمسؤولين وعزل قائد الجيش العماد اسكندر غانم ، فان الرئيس فرنجية طالب ، مدعوما من قبل الأحزاب المسيحية الرئيسية ، بدخول القوات المسلحة الى مخيمات اللاجئين للدفاع عنها • وبطبيعة الحال ، فاننا أطرحنا طلبه الذي يسير في عكس وجهة « اتفاق القاهرة » • ثم راحت الحوادث تتوالى ، ويتوالى معها توقيف المناضلين الفلسطينيين •

على أن سيرة الجيش ظلت تسترعى انتباهنا • ففي الحين الذي كنا تتخذ فيه اجراءات لتهدئة الأوضاع ، تبين لنا أن قيادة الجيش العليا تضاعف الاستفزازات كما لو أنها تريد سفك الدم وبلوغ نقطة اللارجوع • وهكذا فان المعارك الدامية التي اندلعت في بيروت في مطلع شهر مايو ـ ايار ، امتدت بسرعة الى بقية البلاد • وتدخل الطيران اللبناني للمرة الأولى في الثالث من أيار ـ مايو ليقصف مخيم برج البراجنة • في حين تعرضت التجمعات الفلسطينية الأخرى لقصف المدفعية •

وقد أتيحت لي فرصة اللقاء بقادة الجيش خلال المفاوضات التي جرت في أواسط شهر مايو ـ أيار مع امين الحافظ الذى قد تعين لتوه رئيسا للحكومة• ولم أكن أتخيل في تلك الفترة أن هؤلاء الضباط سيظهرون انذاك تعصبا حاقدا ، ان ازاء اللبنانيين المسلمين وان ازاء الفلسطينيين • فالعماد اسكندر غانم ، الذي سيتمنطق بصليب ابان الحرب الأهلية في سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، كان قليل الكلام ابان محادثاتنا مع رئيس الوزراء • وتولد لدى وأنا أرى جديته ووجهه الغامض وكياسته ، انطباع بأنه عسكري محترف لا يحمل آراء سياسية مسبقة• أما العقيد جول بستاني والعميد موسى كنعان الرئيس المساعد لهيئة الاركان ، فبديا لنا أكثر ودا وعذوبة فقد كانا يوليانا وهما اللذان لا يعوزهما الذكاء ولا الدراية الكاملة بالوضع العسكري والسياسي ، بآراء بالغة التعقل • ثم أن كنعان كان يتمتع فوق ذلك بحس دعابة فيظهر أكثر حبورا

وبل أكثر ودا ازاءنا .

وعلى أثر المباحثات ، وبسبب الضغوط المتضافرة التي كانت تمارسها مصر وسوريا حرصا منهما على استتباب السلام الأهلي في لبنان تحسبا للحرب التي تعدان لها في شهر تشرين الاول ــ أكتوبر ، فاننا توصلنا الى عقد اتفاق ملكارت في ١٧ أيار ــ مايو . وهكذا فان هذه التسوية التي كان قوامها انشاء وسائل تهدف الى تيسير تطبيق « اتفاقية القاهرة » تطبيقا أفضل ، قد أفلحت في اجاد تعايش بين الفلسطينيين واللبنانيين سيدوم حتى مطلع عام ١٩٧٥ .

الا اننا ظللنا نسعى الى اقامة تعاون على أسس وقواعد أكثر صلابة . وعلى هذا فان وفدنا ترأسته شخصيا ويمثل التنظيمات الفدائية الرئيسية ، أجرى طوال شهر حزيران ــ يونية سلسة من المحادثات مع العديد من أعضاء المكتب السياسي في حزب الكتائب ، ولاسيما مع أمين الجميل ــ ابن بيير الجميل ــ وجوزيف شادر وكريم بقرادوني . فكانت مناقشاتنا على جانب فقط من الصراحة فقد اتهمنا محادثونا بأننا تتصرف كما لو كنا في اراض محتلة وبأننا أقمنا دولة داخل الدولة ، ووضعنا آلاف الفدائيين الهاربين من الاردن بعد مجازر ٧٠ ــ ١٩٧١ ، سرا في بيروت . فأكببنا على الرد على انتقاداتهم بهدوء محاولين طمأنتهم بحجج عقلانية . فليس صحيحا أننا أدخلنا الى لبنان مناضلينا الأردنيين لانهم لجؤا في غالبيتهم الى الساحة السورية . واذا كان صحيحا أننا جعلنا من بيروت مركز اتصالاتنا مع الخارج ، ومركزا لبث صوت المقاومة ، الا أن قادة الحركة الفلسطينية منتشرون في كافة أرجاء العالم العربي ، ولا سيما في دمشق ، كما أن نشاطاتنا ليست متركزة كما يحسب محادثونا في بيروت . ونحن لا ننوي بأية حال من الاحوال أن نحل سلطاننا مع سلطان السلطات الشرعية اللبنانية ، أو أن تتدخل في شؤون لبنان الداخلية . فمن مصلحة الحركة الفلسطينية أن تظل بمنأى عن أي اطار له علاقة بالدولة كي تتمكن من مواصلة نضالها التحرري الوطني .

وبدا لنا أن محادثاتنا أفضت الى تفهم متبادل والى نتيجة ملموسة : ألا وهي صيغة تصريح مشترك يعبر عن تقارب وجهات نظرنا السياسية وخاصة

فيما عنى جنوب لبنان •

فقد جاء في بيان بهذا الصدد أن بواعث الاعتداءات الاسرائيلية ضد القرى الحدودية لا تعود الى تواجد الفدائيين في هذه المنطقة بل الى مطامع الدولة الصهيونية في الأراضي اللبنانية • وكان يفترض في هذه الوثيقة التي وقعها جوزيف شادر وأنا في شهر حزيران ــ يونية ، أن تنشر في شهر أيلول ــ سبتمبر بمناسبة الاحتفالات التي ستقام بمناسبة ذكرى تأسيس حزب الكتائب • غير أن قادة الحزب راحوا يتعللون عندما جاء شهر أيلول ، بمختلف الذرائع لكي لا يذيعوا التصريح المشترك علانية •

ثم أن حرب تشرين ــ أكتوبر بادئا ، والمساومات الدبلوماسية التي جائت بعد ذلك ، امتصت كافة طاقاتنا خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٧٣ ، وخلال عام ١٩٧٤ • ثم انه لم يكن لدينا أي سبب يدعونا للقلق من الوضع الداخلي اللبناني لأن كافة قادة البلاد من المسلمين ومسحيين ، كانوا يظهرون لنا التعاطف والدعم • وكثيرا ما يجري اغفال واقعة كون الرئيس سليمان فرنجية قد ذهب محاطا بكافة رؤساء الجمهورية السابقين بمن فيهم كميل شمعون ، الى نيويورك في شهر تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٤ ليرعى عملية قبول عضوية منظمة التحرير الفلسطينية كعضو مراقب في الأمم المتحدة •

على أن النشوة التي أثارها هذا الحدث ، لم تدم طويلا • فقد راح الجميل في خطابين ألقاهما في شهري كانون الثاني ــ يناير ، وشباط ــ فبراير ١٩٧٥ يتهم الفلسطينيين باستغلال الضيافة اللبنانية ويطالب باقامة سلطة الدولة اللبنانية على امتداد الأراضي اللبنانية أولا ، ثم تنظيم استفتاء حول التواجد الفلسطيني في لبنان • ثم راحت الحوادث تتسارع بعد ذلك • ففي شهر اذار ــ مارس تولى الجيش قمع اضراب للصيادين في صيدا فكان أن سقط نائب المدينة السابق معروف سعد قتيلا • ثم أن مظاهرات الاحتجاج التي تلت ذلك ضد شراسة الجيش ، الذي يقوده كما نعلم لواء ماروني ، قد عمق الهوة بين المسيحيين والمسلمين وبين اليمين واليسار وبين المعاديين للفلسطينيين وبين الموالين لهم وغير ذلك من الشروخ التي سوف تيسر عمل هواة الحرب الأهلية •

وفي هذا الاثناء ، ووسط هذه الظروف ، جاءت مجزرة ١٣ نيسان ــ أبريل بضحاياها الفلسطينيين واللبنانيين الذين سقطوا في سيارة الأتوبيس وهي تعبر حي عين الرمانة المسيحي •

كان كل شيء يشير ، في الظاهر على الأقل ، الى أن حزب بيير الجميل قد أعد العملية ونفذها • وعلمنا بين جملة ما علمناه ان اثنين من القتلة كانوا كتائبيين • لكن الغريب هو أن مسؤولي الحزب سلموهما في اليوم التالي الى البوليس • ثم أن الشك بدأ يتسرب الى نفسي عندما عرض على عدة أعضاء من المكتب السياسي في حزب الكتائب وخاصة كريم بقرادوني وجوزيف شادر ــ اللذين لا يرقى الى نزاهتهما كمثقفين شك ــ انشاء لجنة تحقيق محايدة لتحديد المسؤوليات • كما اكدا لي في الحين نفسه وبصورة قاطعة بأن قيادة حزب الكتائب بريئة بالكامل من هذه الجريمة التى آدانوها بلا هوادة •

وانما عرفت الحقيقة بعد ذلك بعدة شهور ، فكان ان اعتراني الذهول • فبعد تفكك الجيش اللبناني في ربيع عام ١٩٧٦ ، وضع ضباط لبنانيون مسلمون من المكتب الثاني اللبناني بين يدي وثائق دامغة • وتبين من الوثائق أن مجزرة عين الرمانة قد نظمت ونفذت بصورة مشتركة بين المكتب الثاني اللبناني الذي يرأسه العقيد جول بستاني وبين حزب الوطنيين الاحرار الذي يرأسه كميل شمعون !

وأما القاتلان اللذان سلمهما حزب الكتائب الى البوليس فكانا في واقع الامر عضوين في حزب الوطنيين الاحرار واندسا في صفوف الكتائب مموهين انتماءهما السياسي • كان تدبير الجريمة قد جرى بحيث تكون جريمة كاملة ، الا أن أصحابها لم يتوقعوا حدوث « التسرب » الذي وقع نتيجة الظروف الاستثنائية التي استجدت في لبنان ، بحيث ينهتك القناع عن وجوههم • وقد شاءت الصدفة أن ألتقي العقيد بستاني بعيد اكتشافي هذا • فكان أن رفض كافة الادلة التي أملكها حول اداناته • غير أن مخابرات دمشق ، زودتني بعد أن تحسنت علاقات المقاومة مع سوريا ، بمعلومات تؤكد المعلومات التي حصلت عليها من الضباط الذين انشقوا عن المكتب الثاني •

وقد زاد من وقع الصدمة التي أثارها في نفسي استفزاز ١٣ نيسان ١٩٧٥ الدموي ، انني كنت ابعد من أن اتخيل كميل شمعون يرتكب جريمة نكراء كهذه . وقد أتيحت لي فرصة التحدث مع رئيس الجمهورية اللبنانية السابق هذا ، أربع مرات على الاقل خلال شهر حزيران ـ يونيه ١٩٧٥ . وخلال اللقاء الاول الذي تم في منزل مسيحي فلسطيني بحضور ياسر عرفات ، راح شمعون يتدفق ويفيض رقة وعذوبة حديث حول المقاومة ، متكلما بكلام لا يقوله الا قومي عربي ! فرحت أراقبه من جانبي في صمت . وأعترف بأن هذا الهرم الوقور ذي الشعر الفضي الذي يستطيع ، وهو يلاعب يتأنق بنظارتيه ذات الاطار الكثيف ويتكلم بهدوء واعتدال ، أن ينزع الريبة من نفس أي مرتاب .

والتفت نحوي فجأة وقال لي على سبيل المناكفة : « هل تراك فقدت النطق يا أبو أياد ؟ اني أحب أن أسمع رنين صوتك ... » فابتسمت وأنا أجيبه : « اسمح لي أيها الرئيس أن أطرح عليك سؤالا لا يزال يوسوس في بالي منذ بداية هذه المحادثة : هل تعتقدون أن مجزرة عين الرمانة هي حادث عارض أم أنها بداية لتنفيذ مؤامرة يحيكها حزب الكتائب ضد المقاومة ؟ » وحين استرجع ذلك ، أرى في شمعون ممثلا حاذقا . فقد اصطنع سمة المستلهمين وضبط نظارتيه وعقد حاجبيه واستغرق في تفكير عميق . ثم رفع عينيه بعد ذلك بدقائق ليقول لي : « انه من الصعب علي يا بني أن أعطيك جوابا للتو لان عناصر الاجابة تعوزني . ولا بد لي من خمسة عشر يوما لأجمع المعلومات وأصدر حكما . وبانتظار ذلك فاني لا أستبعد شأنكم أنتم ، فرضية المؤامرة ... » وسوف نعلم بعد ذلك ببضعة أشهر ، أن رئيس حزب الوطنيين الاحرار ، كان في اللحظة التي يحادثنا فيها ، يستورد السلاح بكميات كبيرة ويجهز ميليشياه ، ويبيع الفائض لقاء أرباح ضخمة ، الى مختلف فصائل اليمين المسيحي المتطرف ، بما في ذلك حلفاؤه الكتائبيون .

ولم نفهم لعبة شمعون الا بالتدريج . والواقع هو ان استراتيجيته كما تظهر بوضوح في سيرته الذاتية على ثلاثة أهداف متتالية . الهدف الاول (وهو

الهدف الذي كان يصبو اليه حين التقيناه في حزيران ـ يونيه ١٩٧٥) هو أن يؤمن القبول به كزعيم وطني متحسس لمطالب المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين، والثاني أن يحتل مركزا ممتازا داخل الحكومة يتيح له المناورة من أجل بلوغ مطمحه الأقصى : الحلول محل سليمان فرنجية على رأس الدولة •

ولم أكن أعرف رئيس الجمهورية اللبنانية في ربيع عام ١٩٧٥ الا لماما ، ذلك أني قابلته عرضا في القاهرة في شهر آب ـ أغسطس من عام ١٩٧٠ بعيد انتخابه لرئاسة الدولة • وكنا في تلك الفترة في غمرة النزاع مع الملك حسين ، فعرضت له مصاعبنا في الاردن فأصغى الي ثم أعلن علي بأنه مقتنع بأن شيئا من هذا لن يحدث في لبنان في عهده لانه سيسمح للمقاومة الفلسطينية ، كما قال ، بأن تواصل عملها في اطار اتفاقية القاهرة • وينبغي لي القول أنني كنت أعرف حسن استعداداته من رفيقنا يوسف النجـار ومن الزعيم الاشتراكي كمال جنبلاط الذي التقاه قبل انتخابه • ذلك أن منافسه الياس سركيس بدا ، حين سئل حول موضوعنا ، أكثر تحفظا بكثير • وعلى هذا فأن منظمة التحرير الفلسطينية دعمت معنويا ترشيح سليمان فرنجية ، ولعلها ساهمت في انتصاره• ثم ان تأثير اللبنانيين الفلسطينيي الاصل ليس بالتأثير الحاسم عموما ولكنه أبعد من أن يكون كما مهملا كذلك •

وفي ١٧ أيار ـ مايو استقبل فرنجية ياسر عرفات لوضع حد للمعارك العنيفة التي اجتاحت البلاد أثر مذبحة عين الرمانة ، لكن المداولة لم تفض الى أية نتيجة بالنظر الى أزمة الثقة التي كانت تواجه ما بين الرجلين • ثم ان الوضع راح يزداد سوءا ، فكان ان استدعانا رئيس الجمهورية ـ عرفات وأنا ـ الى القصر الرئاسي في ٢٣ حزيران ـ يونيه • واعترتنا الدهشة على الفور حـين وجدنا سفيري مصر والعربية السعودية الى جانب الرئيس فرنجية ، اذ كانت تلك واقعة لا سابقة لها ، ومخالفة لقواعد البروتوكول في مثل هذه اللقاءات •

ثم جاء حدث غريب ثان : اذ ما كدنا نجلس حتى بدأ عدد من كبـار ضباط الجيش اللبناني ـ وجميعهم من المسلمين ينضمون الينا ، بناء لطلب فرنجية ، الواحد بعد الآخر • كان مضيفنا يبدو عصبيا الـى أقصي حـد •

فسحنته صارمة وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة • ثم افتتح الحديث بأن قال لنا : لعلكم لاحظتم أني المسيحي الوحيد في هذا الاجتماع • فقد دعوت سفيري مصر والسعودية وضباطا من جيشي لا تستطيعون الارتياب بهم ولا الادعاء بعدائهم المطلق للحركة الفلسطينية ، لكي يكونوا شهودا على مداولاتنا • ان اللبنانيين لا يستطيعون احتمال سلوككم • فمنذ مدة كنت أتنقل بصحبة زوجتي في الجبل ، فصدمت وأنا أرى حيطان التجمعات المسيحية مغطاة بالملصقات التي تمجد كفاح الفدائيين المسلح • ان المسؤول عن هذه الدعاية السفيهة هو بلا ريب اصدقاؤكم اليساريون • فلا تندهشوا والحالة هذه من وقوع مجازر مثل مجزرة عين الرمانة ••• »

واذ لم يعد في وسع عرفات احتمال المزيد ، فانه قاطعه ليعلن عليه ان الحقيقة هي غير هذا ، وأن الاحزاب اليمينية المسيحية تعد منذ فترة طويلة لحرب ابادة ضد الفلسطينيين وأنها تلقت كميات ضخمة من السلاح لهذا الغرض ••• فاحتدم سليمان فرنجية واحتد وقال : « هات البراهين ! أعطنا براهين ! فلتكن شريفا ولو مرة واحدة وأعطني الوثائق التي تؤيد ادعاءاتك! »

واستشعر عرفات الاهانة بألم كبير ، خاصة وأنها جاءته أمام عدة شهود• واغرورقت عيناه بالدمع وأقفل دفتر الملاحظات الذي يستخدمه عادة كمفكرة بصورة مباغتة ثم قال وهو يتميز من الغيظ والغضب : « اني لا أسمح أن أكلم على هذا النحو • فأنا مقاتل • وانما انتخبت بصفتي هذه في قيادة الحركة الفلسطينية وليس بفضل أغلبية صوت واحد في مجلس أعيان ! » • ملمحا بذلك الى عملية الاقتراع البرلمانية التي حملت فرنجية الى سدة السلطة •

ولا ريب في أن الرد كان فظا الا أنني رأيته ملائما ومبررا • ولو أن عرفات لم يرد على هذا النحو لكنت أنا حينذاك أكثر قسوة • اذ ليس في الوارد ولا في التصور ، أن نسمح لأي كان بأن يهين مسؤولي الشعب الفلسطيني • وعلى أي حال فقد كان لرد عرفات الساخط أثر شاف في أنه هدأ فرنجية الذي ما لبث أن اعتذر معلنا انه لم يكن يقصد اهانتنا • ولكنه يحرص فقط ، على أن تكون الحجج التي ندلي بها مدعمة بأدلة لا ترد •

عند ذلك روى له عرفات أننا علمنا قبل أن نصل الى القصر الرئاسي بأن ضباطا مسيحيين من الجيش اللبناني سلموا لتوهم ستة آلاف قطعة سلاح ناري الى الميليشيا الكتائبية ، كانت الدولة اللبنانية قد اشترتها من بلغاريا وبولونيا ، وأن هذا التحول غير المشروع عن الاسلحة تم بواسطة وثائق مزورة صنعها المكتب الثاني. وقال فرنجيه انه يجهل كل شيء عن هذه الصفقة، الا أنه يبدو له من الطبيعي أن يتسلح المسيحيون اللبنانيون ، شأنهم شأن الفلسطينيين . ثم أوضح قائلا : « لقد أصدرت الامر الى وزير الداخلية لكي يسلم رخصة حمل سلاح لكل مسيحي يتقدم بطلب الحصول عليها » . ثم أضاف الرئيس اللبناني قائلا : « لقد سمحت لكم ، لا بل شجعتكم على تحصين مخيماتكم وعلى استيراد كافة الاسلحة التي تحتاجونها للدفاع عن أنفسكم ضد الاعتداءات الاسرائيلية . وهكذا فقد تجهزتم بالمدافع الثقيلة ، والمدافع المضادة للطائرات وحتى بصواريخ أرض ـ جو وأنا أطلب منكم اليوم بالحاح ، وبحضور سفيرين عربيين صديقين أن تلزموا حدود مخيماتكم وتجمعاتكم . أما ما تبقى من لبنان فلا يعنيكم . وبما أننا مختلفون حول هذا الموضوع ، فاني أقترح أن ندعو الينا ضباطا من البلدان العربية لنحكمهم في نزاعنا . فيحكمون أي من الطرفين ـ أنتم أم نحن ـ هو الذي ينتهك « اتفاقية القاهرة » .

ولما كنت ملازما الصمت منذ بداية الجلسة ، فانني طلبت الكلام . وطال العرض الذي عرضته أكثر من ساعة متواصلة. وبدأته بامتداح الرئيس فرنجية مذكرا برعايته لدخول منظمة التحرير الفلسطينية الى الامم المتحدة ، مترافعا بشخصه مدافعا عن القضيةالفلسطينية فيمنتصف شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر من السنة السابقة ، متكلما باسم الامة العربية . فاذا تجاوزنا هذه النقطة ، فانه ليس من الضروري « تعريب » مجمل النزاع اللبناني بدعوة ضباط عرب وتحكيمهم في خلافنا . بل لا بد لنا ، على العكس من ذلك ، أن نتفاهم بمنأى عن أي تدخل أجنبي .

واستطردت أقول : صحيح ان الفدائيين ارتكبوا أخطاء مست حساسيات

اللبنانيين الوطنية ، ونحن لا ننكر ذلك ، الا أن الرئيس فرنجية يرتكب بدوره خطأ اذا ما خلط بين الاعمال الذميمة التي يرتكبها أفراد ، وبين سياسة رؤسائهم . فقادة الحركة الفلسطينية ليسوا بمتشردين ولا بفوضويين . بل أن لهم ذات المصلحة التي للمسؤولين اللبنانيين في استتباب النظام ، واتساق التعايش اللبناني الفلسطيني وبقاء معركة تحرير فلسطين بمنأى عن النزاعات الهامشية التي تعيقها أو تنعطف بها عن هدفها . ولا بد للرئيس فرنجية من أن يفهم بأن من الصعب علينا أن نضبط كافة أعمال وتصرفات مناضلينا المتحدرين من شعب جرد واضطهد وأذل عشرات السنين .

ومضيت أقول ، أن أحزاب اليمين المسيحي في لبنان تحتقرنا وتواصل العمل لتحقيق أهداف شائنة . وقد حاولنا طوال سنوات أن نقيم حوارا معها وأن نتفاهم واياها على قواعد وأسس تكون مفيدة لها ولنا . ولكن عبثا . وليس صحيحا ما تزعمه هذه الاحزاب من أننا سعينا الى التحالف مع المسلمين اللبنانيين ومع اليسار ضدها . فمثل هذا الاتهام المزدوج غير منطقي على أية حال . اذ ليس بوسعنا أن نكون مسلمين متعصبين وتقدميين في آن معا . بل الحقيقة هي أننا حاولنا اقامة توازن متساو بين كافة الطوائف اللبنانية وذلك لان من مصلحتنا اقامة علاقات حسنة مع كافة الاهالي أولا ، ولان الحركة الفلسطينية هي حركة علمانية بصورة قاطعة ، ثانيا . ومن المشهور الذائع ان الفلسطينيين لم يصابوا بالمكروب الطائفي ابدا ، وأنهم ما عرفوا التمييز بين المسلم والمسيحي . بل ان التمييز غريب عن عقليتنا بحيث أن بعض أبرز القادة الفلسطينيين كجورج حبش ونايف حواتمه هم من ابناء الطائفة المسيحية .

وقد عرضنا دوافعنا العميقة لزعماء اليمين المسيحي مرات عديده . فنحن وطنيون فلسطينيون مطاردون خائفون . ولسنا نخجل بالتسليم بخوفنا وقلقنا . والدولة اللبنانية التي يؤطرها الموارنة ويقودونها تخيفنا . ولهذا نريد التفاهم مع الاحزاب المسيحية التي هي أدوات السلطة . الا ان هذه الاحزاب أطرحتنا ورفضتنا . فاذا كنا أقرب الى المسلمين والى اليمين الاسلامي الذي

يمثله رجالات كصائب سلام ورشيد كرامي ، فلأننا لا نخشى شيئا من جانبهم . فاليمين الاسلامي محكوم لاسباب انتخابية وسياسية ومحلية ـ وأسباب أخرى تتعلق بالمنطقة ـ أن يدعم حركتنا . وكذلك الامر بالنسبة لليسار الذي لا يمكن أن يضربنا لاسباب مماثلة . فالزعيم الاشتراكي كمال جنبلاط كان لدى تسلمه وزارة الداخلية أقسى علينا من القادة المسيحيين . الا أننا كنا نعلم أنه لا يذهب الى حد طعننا في الظهر .

ثم أن الرئيس فرنجية الذي كان يصغي الي بكثير من الاهتمام ، قاطعني معترضا وهو يقول : « ومع هذا فأنكم أيدتم قرار اليسار الذي اتحل لنفسه اسم الحركة الوطنية ، بمقاطعة حزب الكتائب مطالبين باستبعاده عن الحكومة وبحله . وتلك خطيئة من الكبائر . لان الكتائبيين يمثلون قسما له شأنه من المسيحيين وعلى اية حال ، فانه لن يكون لقراركم من أثر سوى توسيع نفوذهم ... »

ودافعت عن موقفنا ما وسعني ، الا أنني كنت أقرب الى الارتباك والاحراج . فلم يكن في وسعي أن أعترف للرئيس فرنجية أني كنت أجهل في اللحظة التي أكلمه فيها ما يعنيه بالضبط قرار مقاطعة الكتائب الذي أيدناه تضامنا مع « الحركة الوطنية » ومع كمال جنبلاط بأكثر مما أيدناه اقتناعا . وكيف يسعنا أن نكون أقل من اليسار صرامة وقسوة ازاء حزب الكتائب الذي عزم على هلاكنا ، والذي نظم ـ كما كنا نعتقد حينذاك ـ مجزرة عين الرمانة ؟

كانت الساعة قد بلغت الواحدة ، اذ أن محادثتنا مع فرنجية دامت أربع ساعات متتالية . فطلبنا ـ ياسر عرفات الذي لم ينبس بكلمة بعد مشادته مع الرئيس ، وأنا ـ الاذن بالانصراف .. الا أن فرنجية أمام عظيم دهشتنا أبى وأقسم الايمان المغلظة أنه لا يدعنا نغادر قبل أن نتغدى بصحبته . وعلي أن أقول ابراء لمضيفنا أنه اذا كان من الصحيح أن ثقافته العامة أقرب الى أن تكون محدودة ، وأنه لم يكن دائما على مستوى مسؤولياته ، الا أنه لم تكن تعوزه المروءة ولا اعتاد أن يلجأ الى مراوغة وازدواجية كميل شمعون .

وكان الغداء الذي دعانا اليه الرئيس ضربا من الوليمة • فأنزل عرفات في صدر المائدة بمواجهته ، بينما تحلق السفيران العربيان والضباط اللبنانيون المسلمون الكبار الذين حضروا المحادثة ، وكذلك الضباط المسيحيون الذين ظلوا خلالها ، بناء على طلب فرنجية في ردهة الصالون • وتغير مزاج الرئيس اللبناني بالكامل ، فبات وديا وأحيانا بشوشا فكها ، مقبلا على شرب العرق مظهرا ضيافته العربية الانموذجية مقدما لهذا قطعة لحم طرية ولهذا قطعة حلوى رخصة • ثم انضم الينا ابنه طوني ـ الذي سيغتاله الكتائبيون وزوجته وطفلته معا في حزيران ـ يونية ١٩٧٨ ـ قبيل انتهاء الغداء الذي طال أكثر من ثلاث ساعــات •

وبالاجمال فان محادثاتنا كانت ايجابية للغاية • واتفقنا على استبعاد التحكيم العربي وعلى أن تتولى لجان مختلطة لبنانية فلسطينية مؤلفة مــن عسكريين من الجانبين ، اتخاذ الاجراءات المناسبة لوضع حد للمعــارك • وتعهدنا ببذل جهودنا لحمل « الحركة الوطنية » على الاعتدال بحيث تخفف ضغطها على حزب الكتائب • واتفقنا أخيرا على أن يتوجه ياسر عرفات برسالة الى الشعب اللبناني يحثه فيها على الوحدة الوطنية • وقد صيغ نص هــذا النداء الذي حرره فريق من الفلسطينيين المختصين بالشؤون اللبنانية لطمأنة المسيحيين بخاصة الى نوايانا وعزمنا على عدم التعرض للبنى الطائفيــة والسياسية والاقتصادية اللبنانية •

غير أننا لم نكن واثقين في أن نكون تحاشينا شياطين اليمين المسيحي خاصة واننا كنا ـ عرفات وأنا ـ قد أجرينا محادثة طويلة مع اثنين من قادة الرهبانية المارونية ـ الاب بولس نعمان والاب قزي ـ اللذين صدمانا صدمة عميقة • ففي بداية اللقاء الذي جرى في منزل مسيحي فلسطيني في بـيروت، أطلعنا الكاهنان على وثائق تشهد بدعم الكنيسة المارونية للقضية الفلسطينية في السنوات الاولى من نزاعنا مع المشروع الاستيطاني الصهيوني • الا انه لم يكن لهذا العرض التمهيدي الذي تقدم به محادثانا من هدف ، ســوى التنديد بعد ذلك « بنكراننا للجميل » ثم القول بعدها اننا لم نعد « **أهــلا** » لتعاطفهم •

ثم عمدا بعد ذلك الى اعطائنا درسا في التاريخ . مؤكدين ان الموارنة قاتلوا تاريخيا من أجل التوصل الى استقلال جبل لبنان ثم الحفاظ عليه وأخيرا الدفاع عنه حتى اخر رجل ضد ما أسموه بالاستيطان الفلسطيني . ثم قالا انا : « نحن شعب من الفلاحين العنيدين والمحاربين وسندفع أي ثمن كان لطردكم من هنا » .

ثم ان الاب بولس نعمان ، عميد كلية الفلسفة في جامعة الكسليك المارونية ــ والذي كنا نحسب انه رجل دين وانساني برغم هيئته التي تشبه هيئة الثور ــ جعلنا نستشعر البرد في ظهورنا حين راح يعلن علينا بكل برود : « لقد ذبحت بيدي هاتين مسلما لبنانيا وفلسطينيا على سبيل التحذير . وأقول لكما جيدا أنني ذبحتهما ثم جمعت الرهبان ورؤساء الميليشيا التي شكلناها بقيادتي لأطلب اليهم أن يحذو حذوي على اسم الله وباسم الكنيسة المقدسة» .

وظللنا ، عرفات وأنا ، فاغري الفاه لا ندري ما اذا كنا عدنا القهقرى الى الحروب الدينية السالفة . وعندما استعدت القدرة على النطق ، لم أجد ما أقوله سوى أنني لا أؤمن بتبجحات الاب بولس نعمان ولا بالتصريحات العنيفة التي يطلقها أبو أرز زعيم ميليشيات « حراس الارز » الذي كان يدعو اللبنانيين حينذاك الى أن يتولى كل واحد منهم قتل فلسطيني واحد على الاقل ، ولا بالنداءات والدعوات الى القتل التي كان يوجهها المطارنة من على كراسيهم الرسولية . الا أننا اكتشفنا بعد ذلك أن ريبتنا لم تكن لسوء الحظ في محلها وأن الفظاعات التي ارتكبتها ميليشيات اليمين المسيحي تتجاوز وبكثير ، ما أطلق من تهديدات .

لكن لماذا كل هذا الحقد ؟! على هذا السؤال الذي طرحته على الاب نعمان أجابني الكاهن بقوله : انكم لا تفهمون من تاريخنا ومن عقليتنا شيئا . فنحن كما ذكرت لكم مشدودون الى جبل لبنان بأوتار جسدنا كلها . وقد استحالت كافة اديرتنا الى قلاع وترسانات . كما أننا جمعنا أموالا تبلغ خمسين مليون ليرة لنشتري بها المزيد من السلاح . »

لكن الاب نعمان لم يكن يخبرنا فيما عنى هذه النقطة الاخيرة بشيء جديد . فمنذ عام ١٩٧٠ ، أي بعيد مجزرة « أيلول الاسود » في الاردن ـ لاحظنا أن الكتائبيين بدأوا يمدون مخيماتهم العسكرية ويطورون وينمون ميليشياتهم . كما تم حينها ارسال شباب من الكتائب ومن حزب الوطنيين الاحرار ليتدربوا في الاردن والمانيا الغربية . وبفضل التبرعات التي جمعها المغتربون اللبنانيون ، فان الاسلحة بدأت تتدفق بكميات متزايدة ابدا منذ مطلع عام ١٩٧٣ . وكانت هذه الاسلحة تشترى من بلجيكا وسويسرا والولايات المتحدة وفرنسا وتسلم بصورة عامة في جونيه بعد أن تمر في الموانيء المغربية . ثم أن هذه الصفقات التي كانت تعقد بواسطة رجال اعمال عرب ، كانت تتمتع بضمان الحكومات الغربية . على أن الكتائب لم يكونوا يحاولون ، بخلاف الشمعونيين ، تمويه استعداداتهم العسكرية . فقد دعاني أمين الجميل ، الابن البكر لزعيم الكتائب مرتين عام ١٩٧٣ لزيارة مخيم تدريب تابع لحزبه حيث أمكنني أن ألاحظ حجم ميليشياته وكفاءتها . وقد أكد لي الجميل أن هذه الاستعدادات ذات طابع دفاعي صرف . وحين سألته : « لكن ضد من ستدافعون عن أنفسكم . » فأجابني : ضدكم . ضد الفلسطينيين .

وقد أدركنا في تلك الفترة عيب الاعتقاد بصدق كلام أحزاب اليمين المسيحي وبأقوالها حول عدم اعتزامها المبادرة الى النزاع المسلح . ولولا هذا لما كنا انتظرنا بدايات الحرب الأهلية لندرب ميليشيات فصائل اليسار ونسلحها والواقع هو أننا ظللنا حتى غاية مجزرة عين الرمانة في شهر نيسان ـ ابريل ١٩٧٥ ، نكتفي بمساعدة سكان المناطق الحدودية في جنوب لبنان على تنظيم أنفسهم ليقاوموا هجمات الجيش الاسرائيلي . وكذلك فاننا لم نبدأ بتحسين مخيمات اللاجئين تحصينا جديا ونسارع في تكوين وتشكيل الميليشيات الفلسطينية الا بعد الغارة الاسرائيلية في نيسان ـ ابريل ١٩٧٣ على بيروت ـ والتي اغتيل خلالها ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية . الا أننا عمدنا الى التحصين والتدريب تحسبا للعدوان الاسرائيلي ليس الا . اذ لم يكن يدر في خلدنا مطلقا أننا سنضطر ذات يوم لأن ندير أسلحتنا صوب اللبنانيين .

وفي مطلع عام ١٩٧٥ ، توافرت لدينا عدة مؤشرات واستخبارات تشير الى أننا لسنا مهددين من قبل قوى محلية وحسب ، وانما من قبل مؤامرة دولية حقيقية . فقد كان ثمة أسلحة تتدفق وتباع في لبنان ثم ما تلبث أن تتحول سرا وخفية الى الميلشيات المسيحية . بل عرفنا بما هو أسوأ من ذلك. فثمة شركات ورجال أعمال عرب ، يمولون مشتريات الكتائبيين والشمعونيين من السلاح ، بكرم بالغ . وكان ثمة بادرة آخرى مقلقة : فبعض بلدان الخليج العربي ، توقفت أو تأخرت في دفع معوناتها لفتح والمنظمات الفدائية الأخرى . وهكذا فقد قررت في شهر كانون الاول ـ ديسمبر ، ١٩٧٥ ، وفي غمرة الحرب الاهلية ، أن أقوم بجولة في البلدان النفطية في المنطقة ، بادئا بالكويت .

وقد ألقيت خلال اقامتي التي امتدت نحوا من عشرة أيام في هذا البلد ، عدة خطب في اجتماعات نظمها مكتب منظمة التحرير الفلسطينية هناك . واستغليت هذه المناسبة لانتقد بقساوة موقف بعض البلدان العربية التي كان موقفها ازاءنا غامضا ، ان لم يكن صريح العداء . ثم هاجمت كذلك الأثرياء الفلسطينيين الذين تباطؤا من جانبهم في دفع مساهماتهم الى صناديق منظمة التحرير . وصحت قائلا أنهم سيدفعون طوعا أو كرها ! بحيث أن التهديد كان شبه صريح . ذلك أنه لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك في لحظة كانت المقاومة فيها تجتاز أزمة عصيبة . وقد كنت مصيبا حين أشهرت العصا ذلك أن مليونيريينا عمدوا أثر اجتماع عقدوه في الغداة ، الى دفع مبلغ ضخم لحركتنا .

وبعد مرور ثلاثة أشهر على عقد الاتفاق المصرى ـ الاسرائيلي حول سيناء ، باتت للأمريكيين ـ وعملائهم في الشرق الأوسط ـ كل المصلحة في ضرب المقاومة والزامها الصمت واصابتها بالشلل . وتوفر لدى الدليل الملموس على ذلك خلال جولتي في الخليج حيث قام ممثلو الولايات المتحدة ، بمن فيهم عملاء وكالة المخابرات المركزية الأميركية ، بعمل متقن اذ أنهم أفلحوا في انهاض القادة الذين لا يخشون شيئا مثل خشيتهم لانتشار الشيوعية ـ

ضدنا . فقد كان بعضهم ممن لا يمكن أن نقول فيه أقل من آنه تعوزه ملكة ادراك التلاوين يرى في الاشتراكي كمال جنبلاط زعيما « أحمر » جعل من نفسه ، طائعا أو غير طائع ، اداة في مؤامرة ماركسية واسعة . وهكذا فان بعضا من محادثي راحوا يتوسلون الي ألا أقع ضحية الشرك الشيوعي فنوقف تضامننا مع الحركة الوطنية . هذا بدون أن يدركوا أنهم يطلبون الينا عمليا ، أن نضع أنفسنا تحت رحمة الأميركيين وحلفائهم الاسرائيليين والعرب في المنطقة .

وعادت بي الذاكرة لدى عودتي الى بيروت في منتصف شهر كانون الثاني ـ يناير الى محادثة جرت لي في شهر تموز ـ يوليو ١٩٧٣ مع جوزف شادر، أحد الأعضاء الرئيسيين في المكتب السياسي لحزب الكتائب . فقد كان يخصني ببعض الود والتعاطف منذ أن قلت له ذات يوم أنني أشعر بأنني قريب اليه بسبب أصوله الأرمنية . ثم أضفت قائلا له : « أنتم ونحن ننتمي الى الأقليات المضطهدة سنة وتقليدا » . وخلال لقائنا في تموز ـ يوليو ١٩٧٣ ، أفضى الي سرا بأن لدى بوب أوكلي ، وهو دبلوماسي أميركي يعمل في بيروت ويتردد عليه ، ملفا ضخما حول شخصي يضم وثائق خطيرة . ذلك أن هذه الوثائق تظهر أني « ارهابي خطير » و « مفاوض أريب » في آن معا .

وفي لحظة أخرى من لحظات المحادثة ، أفضي الي بنبأ تبين أنه صادق النبؤة . فقد علم من « مصدر موثوق » أن حربا عربية اسرائيلية ستنشب « قريبا » (وستقوم مصر وسوريا بمهاجمة اسرائيل بعيد ذلك بشهرين) وأن مؤتمرا للسلام سوف يعقد أثر ذلك بقليل « ثم أضاف وهو يؤكد كلماته :» « وستدعى منظمة التحرير الى مائدة المفاوضات ، الا اذا جرت تصفيتكم قبل ذلك » . فسألته وقد عرتني الدهشة عما يقصد بكلمة « تصفية » فأجابني اجابة مراوغة بأنه ينبغي لنا أن نتروى وتتعقل اذا كنا نريد فعلا أن نشارك في مؤتمر السلام .

كنت أقول في نفسي في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ ، أننا لم نكن ولا ريب ، على قدر كاف من « التروى والتعقل » : فقد أبدينا تحفظات

جدية على الطريقة التي قيدت بها حرب تشرين ـ أكتوبر ، وشجبنا دبلوماسية كيسنجر المدعوة بدبلوماسية « الخطوة خطوة » ، وقاومنا مد النفوذ الأميركي في الشرق الاوسط ، كما وقفنا أخيرا ضد اتفاقية سيناء المعيبة • ثم ان تعيين غودلي كسفير للولايات المتحدة في بيروت قبيل الحرب الأهلية بقليل لم يكن أمرا عارضا • فقد كان مهندس أو منفذ عدد من الانقلابات الشريرة عبر العالم ولا سيما في تشيلي وفيتنام • ولذا فان كافة الأوساط البيروتية كانت تتساءل بقلق عن الكارثة التي تم التخطيط لها •

وأبادر فأقول أنني لست من السذاجة بحيث أعتقد أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (السي • أي • أي) تلعب بوجه مكشوف ولا أعتقد بأن عملاء أميركيين ذهبوا الى بيير الجميل وكميل شمعون طالبين اليهما ابادتنا • كما أنه ليس بالأمر الذى يقبله التصور أن يكون مرتكبوا العملية الدموية في عين الرمانة قد تلقوا أوامرهم مباشرة من واشنطن • ذلك أن الأمور تسير في هذا النطاق بصورة أكثر حذاقة ودقة • وذلك ليس لأن الولايات المتحدة تعاني من نقص أو عوز في العملاء المأجورين في لبنان أو سواه ، أو أنها لاتملك التدخل عبر المخابرات الاسرائيلية أو الأردنية أو سواهما • فالأمر الاساسي هو أنها تحوز على الكثير من الوسائل التي تمكنها من بلوغ أهدافها مستفيدة على سبيل المثال من ظرف مؤات • فاذا كانت ليست من أطلق ماديا عقال الحرب الأهلية في لبنان ، الا أنه لا شك ولا ريب في أنها أسهمت اسهاما واسعا في تغذية النزاع ونفخ ناره حتى تشتعل •

ثم أن عددا من البلدان العربية عملت عامدة أو غير عامدة في ذات الاتجاه والتحليل الأكثر ذيوعا في الصحافة الدولية لأسباب الحرب الاهلية ـ يتهم الفدائيين بدفع أحزاب اليمين المسيحي ـ عبر افراطاتهم وتجاوزاتهم ـ للنهوض ضد الفلسطينيين • غير أن غالبية الاستفزازات التي يستشهدون بها ويرجعون اليها ، انما ارتكبت من قبل تنظيمات فدائية على الأرض اللبنانية • فاذا ما صدر مقال لا يسر العراق في مجلة « الحوادث » الاسبوعية ، فان جبهة التحرير العربية صنيعة حكومة بغداد ، تتكفل بتفجير مبنى الصحيفة مودية بحياة

عشرة أشخاص . غير أن الصحافة المذكورة لا تتهم العراق ولا جبهة التحرير العربية بل تشجب « ارهاب الفدائيين » . واذا ما قامت منظمة الصاعقة ـ الموالية لسوريا ـ باختطاف لبنانيين ينتمون للبعث الموالي للعراق، اتهمت منظمة التحرير الفلسطينية بالتدخل بالشؤون الداخلية اللبنانية . واذا ما قررت ليبيا وضع يدها على معارض ، كالوزير السابق مصطفى بن حليم ، فانها تجد فصيلا فلسطينيا لانجاز المهمة . وفي وسعنا أن نضاعف هذا الضرب من الأمثلة الى ما لا نهاية .

وهذا الأمر الواقع يضع قادة منظمة التحرير الفلسطينية في وضع مؤلم . اذ يقال لنا ، اذا كنتم لا توافقون على هذه التصرفات والأعمال واذا كنتم مقتنعين بأنها تلحق الضرر بالمقاومة ، فلماذا لا تفعلون شيئا لوضع حد لها . وهنا أيضا يظهر منتقودنا جهلهم أو انهم يتصنعون البراءة . فمن البديهي ، أولا ، أننا لسنا مطلعين بالضرورة على هوية كافة مرتكبي المحاولات التي تجري . ثم وحتى لو كنا مطلعين،أفلا يكون عملا انتحاريا من جانبنا أن نفرض استتاب النظام باستعداء كافة الأنظمة العربية علينا ؟ فهل نستطيع على سبيل المثال ، أن نبيح لنفسنا ترف قطع علاقاتنا مع سوريا أو مع السعودية ؟

ويزيد من موقفنا دقة أن الحوادث « غير المنضبطة » في لبنان ، هي وليدة الصراعات المستورة بين مختلف الأنظمة العربية . فمن المعروف الشائع أن لبنان كان دائما مركز انطلاق مخابرات الدول الأجنبية ، العظمى منها أو الصغرى ، والعربية والأوروبية والاميركية والاسرائيلية . وثمة كثير من الهجمات بالقنابل والاختطافات والاغتيالات التي ارتكبت ابان الحرب الأهلية ـ وعزيت بشيء من التسرع الى المقاومة او الى اليسار ـ لم تكن في الحقيقة سوى واجهة « لحرب المخابرات » ووسيلة كسواها من الوسائل ، لدفع النزاع من قبل الحريصين على استمراره . وقد كان ذلك ولا يزال مأزقنا ومأساتنا .

وقد كان اللبنانيون ـ عنيت أولئك الذين لم يكن لتحركهم خلفيات سياسية ـ محقين موضوعيا في أن يجدوا في هذا الوضع حالة لا تحتمل . الا

أنهم لم يكونوا يصدقوننا عندما كنا نوضح لهم أننا ضحايا شأنهم هم • فحتى الذين كنا نعتبرهم اصدقاءنا ، كانوا يعبرون عن ريبتهم وتشككهم ازاء الحجج التى نسوقها • فلا بد لمن يريد أن يفهمنا أن يضع نفسه مكاننا • وكما قلت لقادة اليمين المسيحي وأعدت عليهم القول مرارا فانه ليس للفدائيين بعد طردهم من الأردن من ملاذ غير لبنان• فاذا كانوا سيخضعون فيه فان مكتسبات عدة عقود من النضال ستضيع • ولا ريب في أن الثورة الفلسطينية ستنتهي أبدا الى الانبعاث والديمومة • الا أن هزيمة حاسمة لها في لبنان ستعرضها للخطر طويلا • فنحن في مثل وضع القائد العسكرى العربى طارق بن زياد الذى أحرق مراكبه وقال لقواته حين نزل في اسبانيا : « العدو أمامكم والبحر من ورائكم » ولقد طالما طلبت من جهتي الى المسؤولين الموارنة بألا يلجؤوا الى العنف ويدفعوننا الى آخر معاقلنا لأنهم لا يتركون لنا في هذه الحال من خيار آخر غير القتال حتى آخر رجل •

غير أن قادة اليمين الماروني تصرفوا بصلافة • فقد طرحوا أنفسهم مراءاة ونفاقا كمدافعين عن السيادة الوطنية وانطلقوا الى الحرب ، وصليبهم على صدورهم ليحرروا مواطنيهم كما زعموا من الفلسطينيين ، ثم بصورة أعم ، من العرب • لكن من ذا الذي غازل الانظمة العربية وسمح لها بأن تتدخل في الشؤون اللبنانية ؟ من ذا الذي أفاد من الرساميل واليد العاملة والاسلحة الوافدة من البلاد العربية ؟ يقينا أنهم ليسوا الفلسطينيين كبش الفداء الذى اختارته خيانات وصغارات حفنة من الرجال الذين لا وازع لهم •

ثم اننا كنا أكثر تصميما على القتال لعلمنا في بداية الحرب الأهلية بأننا نقاتل كذلك العدو الصهيوني المندس وراء راية الصليبيين اللبنانيين •والواقع هو أننا لاحظنا بين جملة ما لاحظناه ، ان النظام الدفاعي المقام حول بعض المعسكرات المارونية ، شبيه بذلك المعتمد بالنسبة للمستوطنات العسكرية الاسرائيلية • وكذلك الأمر بالنسبة لمختلف التقنيات الحربية التي يطول بنا مقام عرضها هنا ــ والتي نقلت الى لبنان ببديهة الحال بواسطة ضباط الدولة الصهيونية •

ولم يعد ثمة حاجة اليوم الى البرهنة على التعاون الوثيق الذى قام بين اليمين المسيحي وبين اسرائيل طوال الحرب الأهلية • فقد اعترفت بذلك حكومة مناحيم بيغن رسميا ابان صيف عام ١٩٧٧ مشيرة الى اتساع حجم المعونة المقدمة الى حلفائها اللبنانيين • ثم أن هؤلاء الأخيرين تبجحوا في مرات عدة بتحالفهم مع الصهاينة مبررين ذلك بضرورة تأمين بقائهم • فالمقدم سعد حداد ، المسؤول عن الميليشيات المارونية في الجنوب لم يعد أكثر من عميل مأجور • كما أن بشير الجميل قائد القوات الكتائبية أقر أمام شهود بأنه ذهب الى بلدة نهاريا الاسرائيلية للتشاور مع مسؤولي تل أبيب • ولدينا كذلك الدليل على أنه التقى بصحبة داني كميل شمعون ـ ابن رئيس حزب الوطنيين الأحرار ـ بضباط اسرائيليين مرات عدة • وكانت المباحثات بينهم تجرى في وسط البحر على متن مركب سياحي خاص، عندما لا تدور على الأرض اللبنانية ولا سيما في مرفأ جونيه ، مقر قيادة اليمين المسيحي • وفي جونيه أيضا نزل شمعون بيريز في نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ عندما كان وزير الحربية في وزارة رابين ، وذلك لاجراء محادثات مع شمعون وقادة مسيحيين آخرين • ولم يمتنع عن الاتصال المباشر بالاسرائيليين ، سوى الرئيس سليمان فرنجية وبيير الجميل زعيم حزب الكتائب تاركا هذه المهمة لاتباعه •

ولا أعتقد فيما يعنيني أنه كانت لقيادة حزب الكتائب في مطلع الحرب الاهلية صلة ما مع اسرائيل • وبالمقابل فان لدى بعض الأسباب التي تجعلني أعتقد أن كميل شمعون ومعه عدد من ضباط المكتب الثاني اللبناني ، كانوا يقيمون علاقات وثيقة مع المخابرات الاسرائيلية والاميركية والبريطانية • فمجزرة عين الرمانة لم يخطط لها وترتكب من أجل اشعال الاشتباكات وحسب بل ولجر الكتائب الى النزاع أيضا • فليس من قبيل الصدفة أن تقع المذبحة في اللحظة التي كان فيها بيير الجميل يدشن كنيسة في حي عين الرمانة ، وأن يكون اثنان من مرتكبي العملية من أنصار كميل شمعون المندسين بين صفوف الكتائب •

والواقع هو أن المعونة المتعددة الاشكال المقدمة من الدولة الصهيونية

كانت مغرية . فقد كانت الأسلحة اميركية الصنع البالغة التطور تتدفق على جونيه الى حد انه جرى استجواب حكومة الرئيس فورد في مجلس الشيوخ بالنظر الى أن التحول غير المرخص به من العتاد العسكري الى بلد ثالث هو أمر ممنوع في تشريع الولايات المتحدة كما هو معلوم . وبخلاف ذلك ، فان عددا من المراكب التي كانت تنقل الأسلحة الموجهة الى المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني قد اعترضتها البحرية الاسرائيلية واقتادتها الى جونيه حيث سلمت شحناتها الى الميليشيات المسيحية .

وقد استخدمت هذه الأسلحة في ارتكاب أفظع الجرائم التي عرفها لبنان والتي تشهد على الطابع الفاشي للميليشيات المارونية . وقد لاحظت بعد عودتي من جولتي في الخليج الى بيروت في ١٠ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ أن الحرب اتخذت منعطفا جديدا من هذه الناحية . فقبل ذلك بأسبوع طوق مخيم تل الزعتر الفلسطيني وتعرض لحصار صارم ومنع أهله من التموين . وبعد وصولي بأربعة أيام اقتحم الكتائبيون ومغاوير « حراس الأرز » مخيم ضبيه المأهول بالفلسطينيين المسيحيين الذين ظلوا على هامش النزاع . وبرغم ذلك فان المخيم دمر وذبح أهلوه . وبعد ذلك بأسبوع ، أى في ١٩ كانون الثاني ـ يناير مسحت أحياء الكرنتينا عن وجه الارض بواسطة جرارات . فكانت الحصيلة ألف قتيل مثّل بكثير منهم تمثيلا وحشيا . ثم أن جنود بيير الجميل وكميل شمعون احتفلوا بإنتصارهم بشرب الشمبانيا . فوق أكوام الجثث ، وبالعزف على قيثاراتهم وصلبانهم على صدورهم أبدا . وقد بثت صور احتفالهم هذا على مختلف أقنية التلفزيون في العالم . أما الناجون من المخيم ، فانهم طردوا من مساكنهم بالرشاشات وراحوا يتكدسون في مخيمات أخرى للاجئين سيستأصلها الجنود الموارنة بعد ذلك في وقت لاحق .

وطرحت علينا هذه المجازر خيارا خطيرا . فنحن لا نريد من جهة أولى ، أن نتدخل بصورة واسعة في النزاع طبقا للقرار الذى اتخذناه في مطلع الحرب الأهلية والقاضي بألا نتزلق الى الشرك المنصوب لنا . غير أنه كان من الصعب علينا من الجهة الثانية ألا نرد على التحديات التى تلقيها أحزاب اليمين المسيحي

في وجهنا . فقد كان من شأن الهجمة الدموية أنها وجهت ضربة معنوية شديدة الى الفدائيين ، والى الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين الذين بدأوا يستنكرون سلبيتنا . فكان لا بد لنا من استعادة المبادرة .

وقررت القيادة العسكرية المشتركة للمقاومة الفلسطينية والحركةالوطنية اللبنانية أن تحتل الدامور ، البلدة المسيحية الواقعة على بعد عشرين كيلو مترا جنوب بيروت . وقد تعين اختيار الدامور لعاملين : الاول هو أنها تحتل موقعا استراتيجيا على محور الطريق التى تصل العاصمة بمدينة صيدا وبالتالى بالجنوب المسلم الموالي للفلسطينيين . والثاني هو أن أهاليها الذين يؤيدون في غالبيتهم كميل شمعون أقاموا الحواجز على الطريق التي سقط عليها عشرات المسافرين الأبرياء من فلسطينيين ولبنانيين برصاص القناصة .

وبرغم الغضب الذى كان يسود صفوفنا بعد فظاعات ضبيه والكرنتينا، فاننا اتخذنا مختلف الاجراءات للمحافظة على الأهالي المدنيين في الدامور . فقد استمر قصف البلدة ثمان واربعين ساعة من أجل اتاحة الفرصة لاهاليها باللجوء الى مكان آخر . وبالفعل فاننا حاصرناها حصارا جزئيا وتركنا فيها منفذا يؤدى الى السعديات ، البلدة التى يقع فيها قصر كميل شمعون . كما امتنعنا كذلك عن اطلاق النار على المراكب التي ركبها بعض الأهالي طلبا للهرب . وهكذا فانه عندما اقتحمنا الدامور في ٢٠ كانون الثاني ـ يناير كان نصف الأهالي تقريبا قد أفلحوا في مغادرة البلدة سليمين معافين .

وأعطينا جنودنا أوامر صارمة بعدم التعرض للمدنيين وخاصة العجز والنساء والأطفال . غير أن الحرب هي الحرب وخاصة عندما تنخاض في جو من الهياج ، وعندما تكون كثير من الافراطات والتجاوزات قد ارتكبت وكثير من الأبرياء قد قتلوا . ثم كيف الى التمييز بين الميليشيات المسيحية وبين غير المقاتلين ؟ ثم هل اذا كان لا بد لنا من أن نطلق النار على قناص يسكن في منزل، من وسيلة تحول دون تدمير المنزل بمن فيه حتى ولو كانوا من النساء والأطفال؟ ان الاجابة على هذه الأسئلة بالايجاب كما تفعل أحزاب اليمين المسيحي من أجل أغراض الدعاية ، هو أمر ينم عن نفاق كامل .

وقد رفضت أن أذهب الى الدامور بعد فتحها حين دعيت الى ذلك ، لسببين ، الأول سياسي والثاني انساني • فأنا من جهة أولى لا أريد أن أقدم البيعة للافراطات والتجاوزات التي ارتكبت ، وان تكن تمت بصورة غير مقصودة بالتأكيد • ثم أني من جهة أخرى ، لم أكن أجد أى سبب يدعوني للفرح بانتصار عسكرى لا أعتبره انتصارا لنا • فموضع الفلسطينيين لا يجب أن يكون في ساحات المعارك اللبنانية ، وانما في الأراضي التي تحتلها اسرائيل •

وكان لا بد لنا من أن نحتل بعد الدامور البلدتين المجاورتين الجيه والسعديات حيث يتحصن كميل شمعون في قصره هناك ـ وفقا لما أذاعته اذاعة الانفصاليين الموارنة • كان لدينا ألف سبب وسبب لقتل الرجل الذى أهرق الكثير من الدم والذى كان السوريون يتهمونه حينذاك بأنه عميل وكالة المخابرات المركزية الأميركية والمخابرات الاسرائيلية • غير أن شخصيات عديدة صديقة للمقاومة وعلى رأسها كمال جنبلاط وصائب سلام تدخلت لصالحه • وهكذا فقد اتخذ القرار بارسال وفد يمثل كافة المنظمات الفدائية وأحزاب اليسار اللبناني لتقديم تصريح بالمرور اليه •

واستقبل أعضاء الوفد من قبل داني شمعون الذى أبلغهم بأن أباه غادر البلدة منذ بضعة أيام على متن طائرة مروحية (هيليوكوبتر) • وهكذا انهارت اسطورة بطولة كميل شمعون الذى كان يقال أنه يفضل الموت وسلاحه بيده على الهرب أمام تقدم القوات الفلسطينية التقدمية •

غير أن قصر السعديات نهب ودمر على يد الفلاحين الساخطين الذين جاؤوا من قرى الجنوب • وزعم شمعون أنه تألم لسرقة لوحة تمثل المرحومة زوجته • فكان أن أسرع ياسر عرفات بأصدار أمرا بفتح تحقيق ، ثم استرجع الصورة من القرويين الذين سطوا عليها لقاء خمسة آلاف ليرة لبنانية •

وفي هذه الفترة جاءت أول بادرة سورية واسعة النطاق لوضع حد للمعارك في لبنان • فقد وصل وفد سورى هام يقوده عبد الحليم خدام من

دمشق الى بيروت في ٢١ كانون الثاني ـ يناير واتصل بكافة أطراف النزاع وتوصل الى تطبيق وقف لاطلاق النار ـ كان وقتيا عابرا ـ مبني على تسوية، تضمن سوريا بموجبها تقيد منظمة التحرير الفلسطينيةالصارم الدقيق «باتفاقية القاهرة» بمقابل أن تقوم الأحزاب المسيحية بمد يد المعونة للوسطاءالسوريين فقد كان الرئيس الأسد يحاول منذ فترة أن يتخذ موقفا محايدا بين المعسكرين. فمع تقديمه مساعدة متعددة الأشكال وخاصة من الناحية العسكرية للمقاومة وللحركة الوطنية ، الا أنه وجه الدعوة لبيير الجميل في ٦ كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٧٥ لزيارة دمشق حيث استقبل استقبال رؤساء الدول ، الامر الذي أثار غضب كمال جنبلاط .

ثم أن استياء زعيم اليسار اللبناني تزايد بعد زيارة رئيس الدولةسليمان فرنجية في ٢ شباط ـ فبراير لدمشق ، ثم وبخاصة ، بعد أن أعلن هذا الأخير في ١٤ شباط ـ فبراير خطة تسوية تشتمل على ١٧ نقطة نالت موافقة الأسد وعرفت منذ ذاك بالوثيقة الدستورية . فأما منظمة التحرير فانها لزمت الصمت معتبرة أن مشروع التسوية بين اللبنانيين هو أمر لا يعنيها . ووافق اليمين واليسار على الخطة دون ادنى حماس اذ أن كلا المعسكرين كان يعتبر أن الخطة تتطلب منه تنازلات مسرفة . وكان اعتقاد كمال جنبلاط ، أن سوريا تخلت مرة أخرى عن الحركة الوطنية ، وأنه كان في وسع هذه الحركة أن تفرض جزءا على الأقل من برنامج الاصلاحات الاقتصادية والمؤسسية والاجتماعية فيما لو ان دمشق دعمت استراتيجية اليسار العسكرية بأطول مما فعلت بقليل . أما الرئيس الأسد فكان على العكس من ذلك ، يرى أن متابعة المعارك توشك أن تصلب اليمين وتثير تدخلات أجنبية وخاصة من جانب اسرائيل . وباختصار فان المقاومة الفلسطينية وجدت نفسها متجاذبة بين ضرورة الابقاء على حسن صلاتها بحليفها السورى وبين داعي عدم قطع تضامنها مع اليسار اللبناني .

ثم جاءت الأزمة داخل الجيش لتعقد علاقاتنا مع دمشق . وكان رئيس الحكومةرشيد كرامي قد تمكن من تلافي تفجر الجيش وتمزقه منذ بدايةالأزمة

حين عارض استخدامه في عمليات المحافظة على الأمن والنظام • ذلك أن ثمة خطرا كبيرا في أن يؤدي تدخل الجيش، الذي يؤطره ويقوده ضباط مسيحيون يتعاطفون في معظمهم مع اليمين ، الى أن يتخذ طابعا حزبيا ، تكون ردة الفعل عليه بين العسكريين المسلمين هي أن يتوجهوا في الاتجاه المعاكس • غير أن سليمان فرنجية انتهى ، بتحريض من كميل شمعون ، الذى نجح في تسنم وزارة الداخلية ، الى استخدام الجيش في بعض المرات ، وخاصة في ١٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ ، للدفاع عن الميليشيات المسيحية •

وكان أن وقع المحتوم بعيد ذلك ببضعة أيام : اذ انشقت بعض الوحدات بقيادة أحمد الخطيب عن الجيش ، بادئة بذلك عملية التفكك• وراحت الحركة تنتشر من ثكنة الى ثكنة ، بحيث أن الجيش انقسم الى فريقين متمايزين أحدهما مسيحي والآخر مسلم • وتمكن فريق أحمد الخطيب الوالي لنا من التمركز في القسم الأكبر من جنوب لبنان مدعما بذلك مراكزنا القريبة من الحدود الاسرائيلية •

وبطبيعة الحال ، فان اليمين المسيحي والسوريين أخذوا علينا أننا دبرنا عملية أحمد الخطيب • والحق هو أن مبادرة هذا الأخير كانت تسرنا تماما • الا أننا في المطلق ، كنا نفضل أن يكون الجيش موحدا وقويا تلافيا لاتساع الفوضى ومنعا لاثارة التدخلات العربية التي تتسبب لنا بأضرار كثيرة •

ولهذا فاننا عرضنا مساعدتنا على العماد حنا سعيد ـ الذى خلف اسكندر غانم في قيادة الجيش ـ مقترحين ، كاجراء تهدئة ، أن يجرى العفو عن الضباط المتمردين • غير أن سليمان فرنجية اطرح اقتراحنا وأصر على توقيع عقوبات شديدة على كافة الذين شاركوا في مشروع أحمد الخطيب •

وفي هذه الأثناء ، وفي التاسع من آذار ـ مارس بالتحديد ، عقد في حضوري اجتماع صاخب بين وفد رسمي جاء من دمشق بقيادة عبد الحليم خدام ، وبين ممثلي الحركة الوطنية وعلى رأسهم كمال جنبلاط • وكان للوسطاء السوريين هدفان واضحان : التوصل الى توحيد الجيش على أساس اصدار

عفو عام ، وتشجيع قيام حكومة اتحاد وطني تتولى مهمة تنفيذ الوثيقة الدستورية ذات السبع عشرة نقطة التي سبق أن أعلنها رئيس الدولة .

كان رئيس الأركان السورى اللواء حكمت الشهابي بادى الغضب ، متيبسا في بزته العسكرية ، متجهم الوجه ، ثم راح يخضع كمال جنبلاط لاستجواب حقيقي ويطرح عليه أسئلة عدوانية ويسجل الأجوبة على دفتر صغير : « هل صحيح أنكم تؤيدون الخائن أحمد الخطيب . » فكان الزعيم الاشتراكي يجيبه ، وهو الرجل المرهف الذى يستخدم الكثير من التلاوين في تعابيره ، بنفس اللهجة : « الخطيب وطني كبير ، بل مفخرة قومية . أماالمسؤول عن تفكك الجيش فهو نظام سليمان فرنجية الفاسد الذى تدعمون » . وظل عنف الكلام الى تصاعد . ولخشيتي من وصول الأمر الى ما لا تحمد عقباه ، فانني دعوت عبد الحليم خدام واللواء ناجي جميل نائب وزير الدفاع السورى الذي كان حاضرا أيضا للحاق بي الى غرفة مجاورة ، حيث لفت انتباههما الى الطريقةالمهينة التي يعاملان جنبلاط بها وخاصةأمام اخرين . ونصحتهمابالنفراد برئيس الحركة الوطنية لمواصلة النقاش في جو هادىء . وهذا ما فعلاه بنجاح ، ذلك أنهما خرجا بعد نصف ساعة والابتسامة تعلو الشفاة . اذ لم يعدهم جنبلاط بتقديم المساعدة لاعادة تكوين الجيش وحسب ، بل أنه قدم اليهم أسماء أربعة شخصيات تمثله في حكومة الاتحاد الوطني . غير أن الوسطاء السوريين كانوا يجهلون في تلك اللحظة أن الزعيم الاشتراكى عين لهمالمرشحين الذين كان يعلم أن الرئيس فرنجية لن يقبل بهم ...

وفي غداة اليوم التالي ، أى في الحادى عشر من شهر آذار ــ مارس ،يوم انقلاب الزعيم عزيز الأحدب ــ الذى اتهمت بالايحاء به ، رأيت أعضاء الوفد السورى مرة أخرى . وقال لي عبد الحليم خدام حينها وهو متجهم : « ان فرنجية شخص مغيظ . فهو يرفض تشكيل حكومة اتحاد وطني قبل أن سرح قيادة الجيش العليا المؤيدة لاصدار قرار العفو ، كلها » . ومضي وزير الخارجية السوري يقول : « ان الوضع خطير . لان ثمة انقلاب وفق معلوماتنا قيد الاعداد » . وكان لدي شخصيا معلومات دقيقة حول هذا الموضوع :

فسحبت من جيبي قصاصة ورق كتب عليها أسماء خمسة ضباط كبار ، يعزو اليهم من أبلغوني هذه المعلومات نية القيام بحركة انفصالية في الجيش • وكان الاسم الثالث على لائحتي هو اسم عزيز الأحدب ، قائد موقع بيروت الذى كان يبدو بالنسبة الينا الشخص الأكثر احتمالا بالنظر الى دياناته (مسلم سني) وبالنظر الى التعاطف الذى يحظى به في الأوساط المارونية • كان يمثل بمعنى من المعاني محصلة تركيبة البلاد • غير أن أحدا منا لم تكن تراوده أية أوهام حول فرص نجاح « انقلاب عسكرى » في بلد فيه من الميليشيات بقدر ما فيه من الطوائف • ويعصى عمليا على كل اشراف من قبل الدولة • أما السوريون فانهم كانوا يخافون الانقلاب لاسباب سياسية أساسا • ثم غادر الوسطاء السوريون بيروت وهم قلقون • وبعيد ذلك بساعة ونصف على أكثر تقدير ، قاد الأحدب حركة انشقاقه العسكرى • وقبيل الساعة الثامنة والنصف مساء ، ظهر أبو حسن سلامة وهو ضابط استخبارات في فتح ، في مكتبي بغتة ليعلن علي أن الزعيم الأحدب سيقرأ خلال دقائق اعلانا من التلفزيون يطالب فيه باستقالة سليمان فرنجية • ثم راح يزودني بتوضيحات أمام نحو من عشرة أشخاص كانوا موجودين في مكتبي ، بينهم ياسر عرفات وزهير محسن ،رئيس منظمة الصاعقة (الفدائية الموالية لسوريا) وعلي المدني ، رئيس الاستخبارات العامة في سوريا • وقال لنا سلامة ، أن عزيز الأحدب مقتنع بأن حكومة دمشق وقيادة الجيش اللبناني العليا ستؤيد حركته ، بهدف التخلص من رجل ، (أى من رئيس الجمهورية فرنجية) ، بات عائقا في وجه المصالحة الوطنية • ثم قال لنا أخيرا أنه زود الزعيم الأحدب بثلة من فتح واكبته حتى مبنى التلفزيون • وبطبيعة الحال فان هذه المحاباة الأخيرة ـ والتي قلت له أنها في غير موضعها ـ هى التي غذت الاشاعات التي جعلتني شريكا متآمرا مع عزيز الأحدب • لكن ، لو كان الأمر كذلك حقا ، أفكان يعقل أن يحدثني سلامه بالأمر بمثل هذه الحرية وأمام شخصيات قريبة من الرئيس الأسد ! وهل كنت أقدم أنا نفسي اسم الأحدب لخدام كأحد المرشحين الممكنين للحركة الانقلابية •

غير أنه يبقى أن مغامرة الزعيم الأحدب الفاشلة ، أحدثت أول صدع في

العلاقات بين سوريا وبين المقاومة . ولما كان الرئيس الأسد مقتنعا بأننا نسعى الى تخريب مخطط التسوية الذى أعده بالاشتراك مع سليمان فرنجية ، فانه دعا وفدا من منظمة التحرير الفلسطينية للذهاب الى دمشق . وقد استمر اللقاء الذى جرى في ١٦ مارس — آذار نحوا من اثنتى عشرة ساعة ! وقد لاقينا — ياسر عرفات وأنا — أشد العناء في اقناع الرئيس الأسد بحسن نوايانا . اذ أنه ظل يرتاب ويتشكك بحججنا مرددا أنه لا يستطيع مواصلة التعاون مع رجال يخونون ثقته ويزعمون فوق هذا أنهم أصدقاء . ذلك أنه كان حريصا بالدرجة الأولى على عدم التخلي عن سليمان فرنجية ، الذى يمثل في نظره رمز الشرعية وعامل الاستقرار في لبنان . غير أن عصبا وزمرا كثيرة في الجيش اللبناني ومعها الأغلبية البرلمانية والرأي العام كانت تطالب باستقالة فرنجية . وأخيرا رضخ الرئيس السورى للأمر الواقع وانتهى الى القبول بصيغة حل

وسط يهدف الى ايجاد مخرج يؤاتي محميه اللبناني ، وقوامه أن يقوم مجلس النواب اللبناني بتعديل المادة ٧٦ من الدستور لكى يتاح انتخاب رئيس جديد للجمهورية قبل نهاية ولاية الرئيس فرنجية ، بحيث يتمكن هذا الأخير من الانسحاب بكرامة في الأيام التي تلي ...

وكان يبدو أن الأمور كلها سويت ، حين جاءت للرئيس الأسد رسالة هاتفية تبلغه تصريحا لكمال جنبلاط ، يندد الزعيم الاشتراكي فيه بالتدخلات السورية في الشؤون اللبنانية . واذ استولى الغضب على رئيس الدولة السورى فانه طلب من اللواء الشهابي الذى كان جالسا الى جانبه أن يخابر الرئيس سليمان فرنجية في الحال لطمأنته الى دعم الجيش السورى له في وجه الذين يطالبونه بالاستقالة . فعادت الأمور على بدئها ... وتدخل نايف حواتمه رئيس الجبهة الديمقراطية الذى كانت علاقاته بالأسد ممتازة ، ليوضح بدوره للرئيس السورى أنه يرتكب خطأ جسيما باستعداء زعيم سياسي له من المهابة والنفوذ ما لكمال جنبلاط ، الذى يستطيع فضلا عن جر الحركة الوطنية معه أن يجرف الطائفة الدرزية ايضا . وتوصلنا في النهاية الى اقناع الأسد بالتباحث مع جنبلاط لتبديد الخلافات وسوء التفاهم الذى يفصل بينهما نهائيا .

وبرغم الهجمة التى شنتها القوات المشتركة (الفلسطينية التقدمية) ضد القرى التي يسيطر عليها اليمين في المتن الأعلى فان الأسد استقبل جنبلاط في ٢٧ آذار ــ مارس • ولم يفض اللقاء الذى دام ثماني ساعات الى شيء ، اللهم الا الى التعجيل في القطيعة بين سوريا واليسار اللبناني • ووفقا لما قاله الرئيس السورى ، فان جنبلاط تمسك بمواقفه ورفض أن يضع حدا للمعارك• بل على العكس ، فان رئيس الحركة الوطنية ، وفقا لما قاله الأسد أيضا ــ راح يستشهد بالتاريخ ليدعو الى قيام الدروز بذبح الموارنة • وهكذا فان الأسد الذى أقسم ألا يستقبل جنبلاط طالما هو رئيس للجمهورية ، لن يعود الى استقبال الزعيم الاشتراكي أبدا • ذلك أن جنبلاط الذى بدأ التنديد به منذ غداة اليوم التالي للقائه مع الأسد ، « كعميل أميركي » و « كخائن » سوف يغتال بعد ذلك بسنة •

غير أننا لم نيأس من مصالحة سوريا مع اليسار اللبناني • وهكذا فقد ذهب وفد من منظمة التحرير يضم ياسر عرفات وأنا ونايف حواتمه وزهير محسن ، الى دمشق في ١٦ ابريل ــ نيسان حيث أجرينا محادثة جديدة طويلة مع الأسد • وبديهة الحال فان الرئيس السورى لم « يغفر » لنا أبدا لا حركة الأحدب ولا مواصلة المعارك في الجبل المسيحي ، بعد أن جعلنا مسؤولين عن الامرين معا • كما أنه كان يرتاب كذلك ــ برغم انكارنا واحتجاجاتنا ــ باقامتنا علاقات مشبوهة مع الرئيس السادات برغم قيام هذا الأخير بعقد الاتفاقية الشهيرة حول سيناء • ومذ ذاك ، راح الأسد يعزز تعاونه مع «جبهة بيير الجميل وكميل شمعون اللبنانية » مبررا ذلك بسلوك جنبلاط الذى اعتاد على وصفه « بتاجر ثورة وتقدمية » من جهة ، وباهتمامه هو بالحفاظ على وحدة وسلامة أراضي لبنان من جهة أخرى •

ورغم هذا كله ، فاننا توصلنا في ١٦ نيسان ــ ابريل الى عقد اتفاق من سبع نقاط مع الرئيس الأسد ينص أساسا على وقف اطلاق النار في لبنان ورفض تقسيم البلد ورفض « تعريب » النزاع ، أى استبعاد مصر وحلفائها عن تسوية موضوعات النزاع اللبناني • على أن بروتوكولا ملحقا بالاتفاق، قررنا ألا نذيعه ، كان يشترط سحب سوريا لجيشها من الأماكن الحدودية التي

احتلتها ، كمقابل لتعهداتنا . لكن جنبلاط الذى شاورناه لدى عودتنا الى بيروت رأى أن التسوية غير مرضية ولم يقبل بالموافقة على وقف اطلاق النار الا كارها .

وبعيد توقف المعارك تنفيذا للهدنة التي لم تدم أكثر من سابقاتها الا قليلا ، جاءني غسان تويني ليبلغني رسالة من الممثل الشخصي لهنرى كيسنجر، السفير دين براون الذى كان وصل الى لبنان قبل ذلك ببضعة أسابيع .وقال لي التويني — وهو الوزير السابق وصاحب جريدة النهار — أن براون يريد أن يعرف ما اذا كانت المقاومة تستطيع أن تضمن احترام الحركة الوطنيةلوقف اطلاق النار . اذ دون ذلك فان الولايات المتحدة لن تعارض تدخلا عسكريا سوريا في لبنان .

واعتبرت هذا المسعى غريبا ، كما بدا لي التدخل الأميركي أمرا لا يطاق. لكن جوابي جاء غامضا مهذبا . وقلت للتويني أن هذا الأمر لا يعود الي ،وأنه ليس لي أن أسير في متاهة دسائس ومكائد كيسنجر . فضلا عن أن عقدة المشكلة لا تقع في معسكرنا ، وانما في معسكر الانفصاليين الموارنة الذين لم يتوقفوا عن انتهاك اتفاقيات وقف اطلاق النار الموقعة في السابق .

وخلال محادثتنا بتاريخ ١٦ نيسان — ابريل مع الأسد ، فان الرئيس السوري تناول موضوعا رئيسيا آخر متوسلا اليه مواربة عبر المساءلة . فقد سألنا : « من هو مرشحكم لرئاسة الجمهورية اللبنانية ؟ » . كان مجلس النواب اللبناني قد عدل المادة ٧٦ من الدستور قبل ذلك بأسبوع ، ووافق سليمان فرنجية تحت ضغط السوريين ، على أن ينتخب خليفته في أول أيار مع احتفاظه بحق البقاء في السلطة حتى نهاية ولايته في شهر آب — اغسطس .

وأجبت الأسد بأننا أكثر احتراما لسيادة لبنان من أن يكون لنا مرشح لرئاسة الجمهورية . الا أننى أكن الكثير من التقدير لصديقي ريمون اده الذى أقدر فيه استقامته برغم تبايناته العميقة مع المقاومة . ثم أضفت أن الآراء منقسمة داخل الحركة الوطنية حول ريمون اده ، ولكن الحركة قررت تأييد ترشيحه ضد ترشيح الياس سركيس الذى يؤيده اليمين المسيحي وسوريا .

ثم خلصت الى القول بأنه لا ينبغي للرئيس الأسد الركون الى المظاهر :فريمون اده يتمتع باحترام كبير وحب بالغ داخل « الأكثرية الصامتة » وبين المسلمين والمسيحيين وداخل المحافظين والتقدميين •

وأجابني الرئيس الأسد : « على رسلك • انه ليس لسوريا مرشح في الانتخابات الرئاسية اللبنانية لأنها لا تعتزم التدخل في الشؤون اللبنانية • » ثم تكلم بعبارات عامة عن سركيس واده • الا أنه كان من البديهي أنه يتعاطف مع الأول وأنه ليس شغوفا بعميد الكتلة الوطنية الذى كان لا يترك مناسبة دون أن يندد بما لا يزال يسميه الى اليوم « مطامع سوريا التوسعية » •

كنت أعلم مقدما أنه ليس لريمون اده الا قليل حظ في النجاح في الانتخابات • ذلك أنه لم يكن يواجه عداء « الجبهة اللبنانية » وسوريا وحسب ، بل الولايات المتحدة أيضا • فقد عجم دين برون عيدان المرشحين عبر المحادثات التي أجراها مع سركيس واده طارحا عليهما سلسلة من الاسئلة حول ما يعتزم كل منهما عمله في حال انتخابه • فكانت الردود التي قدمها اده ــ وفق ما رواه لي ــ أجوبة لا يمكن الا ان تفقده الحظوة وتحط من شأنه في نظر الاميركيين •

أما قادة المقاومة فكانوا أقرب الى الارتباك بشأن الموقف الذي ينبغي لهم اتخاذه • فهل كان ينبغي منع انتخاب رئيس جديد والدخول بذلك في نزاع مع سوريا • أم أنه ينبغي على العكس من ذلك التخلي عن اليسار اللبناني باتاحة انتخاب سركيس • كنا نطفو في بحر من التخبط • فقد كان هناك جزء هام من «الحركةالوطنية» يؤيد قراراته في انتخاب سركيس،ولكنه قرر الاقتراع ضده تحديا لسوريا • وكان ثمة جناح من « الجبهة اللبنانية » يفضل اده ، لكنه انضم الى جانب سركيس للحيلولة دون فوز مرشح اليسار • أما كميل شمعون فقد اتخذ موقفا أكثر غرابة : ذلك أنه طلب ثمنا مرتفعا لأصوات مجموعته البرلمانية •

وأمام هذا الخيار الصعب ، اختارت المقاومة في النهاية صيغة معتدلة

بحيث أن الفدائيين سيقصفون المبنى الذي سيجتمع فيه النواب في ٨ أيار ــ مايو (وبالفعل فان الجلسة كانت تأجلت اسبوعا) بنيران كثيفة من مدافع الهاون ، وبقدر يكفي لاظهار انزعاجهم ، ولكن ليس الى حد الحيلولة دون انتخاب رئيس جديد ... ذلك أن الرأي السائد كان يقضي بألا نستعدي سوريا حتى لو كان صحيحا أن ريمون اده سيستطيع اذا ما انتخب وضع حد للحرب الأهلية ، والغاء كافة الميليشيات الحزبية واعادة توحيد الجيش وتأمين وحدة البلاد على أسس جديدة .

غير أن سركيس يظل في نظرنا رجلا حسن الاستعداد ووطنيا يستطيع ــ اذا ما توفرت له الوسائل ــ أن يخدم مصالح البلاد العليا . أو ذلك ، على الأقل هو الانطباع الذي خرجت به اثر عدة محادثات أجريتها مع مرشح اليمين هذا قبل وبعد اختياره للرئاسة .

لكن انتخاب سركيس لم يحل المشكلات القائمة بل أنها على العكس من ذلك ، راحت تزداد تفاقما . فاليمين المنتعش ظل يناوشنا لاسترجاع مواقعه المفقودة . واليسار والمقاومة فتحا ابتداء من ١٢ آيار ــ مايو « جبهة جبل » . كما أن الهزائم التي لحقت بالميليشيات المارونية كانت تقلق السوريين الى أقصى حد ، لأنهم كانوا يرون أن انتصارا فلسطينيا ــ تقدميا صريحا لا يمكن الا أن يؤدي الى تدخل عسكري أجنبي ، اسرائيلي أو أميركي .

فكان لابد من اجراء مشاورات جديدة مع الرئيس الأسد . وهكذا فقد ذهبنا ــ ياسر عرفات وأنا ــ الى دمشق في ١٥ أيار ــ مايو حيث كان ينتظرنا رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود الذي كان يطرح نفسه في تلك الحقبة كوسيط .

وراح جلود يستشهد بالمحادثة التي أجراها مع الرئيس الاسد راويا لي ان الرئيس السوري قال ان فتح سلحت ودربت في لبنان ثلاثين الف شخص من أفراد الميليشيات الشيوعية ، وأن غالبية رؤساء البلديات الذين انتخبوا في عهد قريب في الضفة الغربية المحتلة بدعم من منظمة التحرير الفلسطينية هم من

الشيوعيين أيضا . وأننا نسفنا اتفاقيات وقف اطلاق النار المعقودة في لبنان بصورة منتظمة . وأن المقاومة ، أخيرا ، تعارض توحيد سوريا ولبنان في دولة واحدة . وأمام فداحة وضخامة هذا كله ، فانني طلبت ونجحت في أن أجعل عبد السلام جلود يحضر مقابلتنا مع الرئيس الأسد .

وبطبيعة الحال ، فان المحادثة مع الرئيس السوري كانت ، محادثة عاصفة . فقد رد علينا الرئيس الاسد حججنا واحدة أثر الأخرى ، وأبلغنا عزمه بارسال جيشه الى لبنان لاعادة النظام اليه . وهكذا فان مرافعتنا ونصائحنا ذهبت سدى . وبعد ذلك بأسبوعين بدأ ستة آلاف جندي سوري ، سيصل عددهم بعد ذلك الى ٣٠٫٠٠٠ ، مدعومين بمئات الدبابات والمدافع الثقيلة ، باجتياز الحدود اللبنانية .

وبينما كانت القوات السورية تتقدم على محورين شمالي يتجه صوب صوفر والثاني جنوبي يتجه نحو صيدا ، علمت من أحد قادة الصاعقة المقربين من رئيسها زهير محسن ، أن المنظمة السورية الاتجاه ستقوم في ٦ حزيران ــ يونيه باستفزاز يهدف الى شل كافة التشكيلات الفدائية في بيروت . وستقوم باقتحام مكاتب أحزاب اليسار ومغاوير « جبهة الرفض » . في حين تقوم وحدة سورية ترابط في المدينة الرياضية بالتحرك لفصل المشتبكين في الظاهر وللسيطرة على جهاز فتح العسكري والسياسي في الحقيقة . وقد وصلتني هذه المعلومات في ٣ حزيران ــ يونيه ، فكان في وسعي استغلال مهلة الثلاثة أيام الباقية لاتخاذ تدابير دفاعية .

وبالفعل ، فان الصاعقة بدأت قبيل ظهر يوم ٦ حزيران ــ يونيه هجومها . فما لبث مغاويرنا أن طفقوا يحتلون قواعد ومكاتب المنظمات الموالية لسوريا وينزعون سلاح ميليشياتها ويوقفون رؤساءها . وانتهت العملية التي دامت ست ساعات بعد أن تكللت بالنجاح . والصحيح هو أن أخصامنا لم يبدوا مقاومة حقيقية بحيث أن كثيرين منهم سلموا أسلحتهم طواعية . اذ لم يكن في كلا المعسكرين أحد يشعر بالفرح ازاء هذه المرحلة الجديدة من الحرب الأخوية التي ستهرق الكثير من الدم لسوء الحظ على غير طائل . وكان

تقديرنا هو أن أخواننا السوريين أوقعوا أنفسهم في الشرك الأميركي ، شرك هنري كيسنجر الذي يفضل ألف مرة وقوع مواجهة سورية فلسطينية على حدوث هدوء يتيح للعرب أن يراقبوا عن كثب دسائسه الرامية الى تيسير مصالح اسرائيل والولايات المتحدة في المنطقة .

وعلى أساس مثل هذا التحليل ارتكبت الجريمة الغبية النذلة في ١٦ حزيران ـ يونيه . ففي هذا اليوم كان سفير الولايات المتحدة الجديد في بيروت فرنسيس ميللوي ولم يكن مضى عليه في منصبه هذا سوى شهر،يرافقه المستشار الاقتصادي في السفارة روبرت وارنغ في طريقه لمقابلة الياس سركيس الذي لم يكن قد بدأ يضطلع بعد بمهمته الرئاسية بانتظار نهاية ولاية سليمان فرنجيه.وكان لا بد للدبلوماسيين من سلوك طريق المتحف،الطريق الوحيد التي تصل القطاعين المتناحرين من بيروت ، عنيت القطاع الغربي الذي تقع فيه السفارة الأميركية ، والقطاع الشرقي الذي تسيطر عليه الميليشيات المارونية ويقطنه الرئيس المنتخب .

ووصلت سيارة السفير تتبعها سيارة الحرس الى الخط الفاصل بين القطاعين . ولدى وصولها الى مدخل شارع المتحف انعطفت سيارة الحرس متخلية عن السيارة التي يستقلها السفير ومستشاره الاقتصادي.ولكن لماذا ؟ ان السر لا يزال يكتنف هذه القضية ولم يكتشف حتى الآن . يبقى ان سيارة السفير اختفت قبل أن تصل الى حاجز المراقبة الواقع على نقطة تقاطع القطاعين. وبعيد ذلك بساعات اكتشفنا جثث فرنسيس ميللوي وروبرت وارنغ وسائقهما اللبناني زهير مغربي وقد اخترقها الرصاص . وقد نددت كافة المنظمات الفدائية بهذا الاغتيال الثلاثي وشجبته . غير أن حزب العمل الاشتراكي العربي وهو فصيل لم يسبق لنا أن سمعنا به قبل ذلك أعلن تأييده لهذا العمل دون أن يدعي مسؤوليته عنه . وهذه هي كافة الوقائع التي تناهت الى علم الرأي العام قبل أن يطوى ملف القضية .

وقررت من جانبي القيام بتحقيق حول الحادث . وبعد ثمانية أيام من البحث والتحري ، أبلغت بوجود سيارة السفير في مرآب ، فقامت مجموعة فدائية باقتحام المبنى وعثرت فيه على السيارة كما وجدت هناك شابا في

السادسة عشرة من عمره يتولى حراستها • ولم يكن المراهق أكثر من مثل مساعد (كومبارس) الا أنه زودني ببعض الاشارات حول مسير العملية • وهكذا فقد علمت أن القتلة اتصلوا بزهير مغربي ، السائق الشخصي للسفير، قبيل تنفيذ جريمتهم ببضعة أيام لتأمين تواطئه معهم • فأكدوا له أنهم يريدون خطف رب عمله للحصول على فدية ثم يطلقان سراحه وسراح راكبي السيارة الآخرين • وكان خادم السفارة الأميركية الوفي الهرم هذا ، يعيش حياة هي أكثر بؤسا وضنكا من أن تحول دونه ودون أن تراوده الرغبة في الحصول على نصيب من الفدية يضمن له ولعائلته الأمان المادي لسنوات طويلة • وهكذا فقد قبل أن يلعب دور الأداة في يد الخاطفين • فأوقف السيارة عند نقطة اتفق عليها معهم • بحيث يتمكن الخاطفون من الاستيلاء على ضحاياهم بدون اطلاق نار وبعد أن جرى استجواب ميللوي وو ارنغ استجوابا لا يستطيع مخبري أن يفيدني عنه بشيء ، فانه جرى اعدامهما واعدام مغربي معهما بكل برود • ثم غادر القتلة لبنان بعيد ذلك بساعات دون أن يتركوا أي أثر •

لكن ما دام هؤلاء لم يطلبوا فدية ، ولا تقدموا بأية مطالب سياسية أو سواها ، فماذا كان هدفهم اذن ؟ ان المراهق الاتف الذكر روى لي أنه استمع عرضا الى محادثة بين القتلة سمعهم يقولون فيها أنهم كانوا يأملون أن يترتب على عمليتهم ، حدوث انزال أميركي في لبنان ! واذا كان هؤلاء يرثون شأننا جميعا لاقتتال الاخوة الفلسطينيين والسوريين ، فانهم كانوا يتصورون أنه سيسعهم وضع حد لها بتحويل لبنان الى فيتنام جديدة وتطوير الحرب الأهلية الى حرب تحرير وطني ! ولا ريب في أنه يحق لنا أمام منطق بمثل هذه البساطة الشائنة ، أن تتساءل عما اذا كان مرتكبوا هذه العملية الغبية أشخاصا حمقى أم عملاء مأجورين •

وبعد عملية الاغتيال الثلاثية بستة أيام ، بدأت معركة تل الزعتر ، أطول معارك الحرب الأهلية وأكثرها مقتلة • فقد فرض اليمين المسيحي الحصار على مخيم اللاجئين منذ شهر كانون الثاني ــ يناير ثم شن في ٢٢ حزيران ــ يونيه هجوما واسع النطاق على تل الزعتر وعلى التجمعين المجاورين له ، جسر

الباشا والنبعة . وبدأت القذائف والصواريخ تمطر هناك بلا انقطاع من الفجر الى المغيب على مدى اثنين وخمسين يوما متتالية . ويقدر عدد القذائف التي سقطت على تل الزعتر والذي التجأ اليه ٢٠٫٠٠٠ فلسطيني و١٥٫٠٠٠ لبناني مسلم بحوالي ٥٥٠٠٠ قذيفة .

وبدأ بضع مئات من افراد الميليشيات المارونية ـ هي ميليشيات كميل شمعون التي عاد الكتائبيون بعد خمسة أيام ، فانضموا اليها بعد تردد ـ بمحاصرة المخيم بعد دخول الجيش السوري الى لبنان بعشرة أيام.وببديهة الحال ، فانهم انتظروا مبادرة دمشق ليقوموا بهذه المذبحة . ودليلي على ذلك هو رد فعل اليمين المسيحي على عرض التسوية الذي قدمته المقاومة وكمال جنبلاط اليهم في ٢٥ أيار ـ مايو ، أي قبل التدخل السوري بأسبوع . وكان هدف الصيغة المقترحة هو بالضبط ، منع تدخل دمشق العسكري . فقدعرضنا الانسحاب من كافة المناطق التي فتحناها في الجبل على أن تتركها تحت اشراف قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار . لكن الجيش السوري كان الكتائبيين . وسلم هذا الاقتراح الذي حررت صيغته في رسالة بيدي الى بيير الجميل بواسطة معاوني أبو حسن سلامه . الا أن رئيس الكتائب لم يرد على رسالتي اذ كان ينتظر خشبة الخلاص الدمشقية وفرصة تحقيق انتصارات عسكرية .

والحقيقة هى أن انتصار تل الزعتر كان مشروع ابادة بالأسلوب الفاشي الصرف . وقد كان بيير الجميل وكميل شمعون يعرفان أننا لا نملك أية وسيلة فعالة لتحرير مخيم اللاجئين المطوق مع التجمعين المجاورين له تطويقا كاملا بواسطة حزام مسيحي يسيطر عليه الانفصاليون . وكان لدينا ، في المطلق ، قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار . لكن الجيش السوري كان لا يزال ، برغم اتفاق وقف اطلاق النار الذي عقدناه معه قبل ذلك ببضعة أيام، يشل حركتنا في شمال لبنان وفي جنوبه معا ، بحيث أن سحب المقاومة لقواتها من المراكز التي تحتلها في مواجهة القوات السورية ، كان سيشكل كارثة .

غير أننا أسهمنا في الدفاع عن المخيم بقصف محاصريه وبمحاولة تدمير

مدافعهم المبعثرة في المدينة ، وعلى التلال المجاورة. حيث كنا تتمكن من تحديد مواقعها بفضل المعلومات اللوجستيكية التى كان المسؤولون العسكريون في تل الزعتر يزودونا بها بواسطة الراديو . وبفضل هذا « الحزام النـاري » الذي أنشأناه ، لم يتمكن المحاصرون من اقتحام المخيم .

غير أن المخيم كان مهددا من الداخل بأكثر مما كان مهددا من الخارج . ذلك ان الحصار الذي دام أكثر من خمسة اشهر أفضى بالاهالي الى عتبة المجاعة بل ان ما كان أكثر من ذلك قسوة وفظاعة هو نقص الماء وشحه . بعـد أن نجحت الميليشيات المسيحية في تفجير شبكات المياه لم يبق أمام أهـالي تـل الزعتر سوى بئر ملوثة شحيحة المياه . وكان البئر معرضا لسيل من القذائف المنهمرة على المخيم فكان لابد من ارسال حملات بالمعنى الحقيقي للـكلمة ، للبحث عن الماء .وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تذهب بحياة شخصين أو ثلاثة بحيث أن الناس في تل الزعتر اعتادوا على أن يقولوا أن كأس المـاء تساوي فعلا كأسـاً من الدم .

وقد نال ذلك من صغار الأطفال منالا عظيما. وبطبيعة الحال ،فانه لم يكن في الوارد تزويد الرضع بالحليب . كما أن كمية الخبز والماء الموزعـة عـلى العائلات ، كانت أقل من أن تكفي صغار السن ، حتى أننا كنا نسمع عندمـا نتحدث الى مسؤولي المخيم بالراديو أنين وعويل الأطفال الصارخـين : « أنا عطشان يا أمي » . وعلى هذا فقد مات ، بخلاف البالغين ، حوالي ثلاثماية طفل ورضيع جوعا وعطشا ابان فترة الحصار .

ولم نكن ندرك خطورة الوضع في بداية المعركة ، الى أن اتصل بنا ذات يوم طبيبان من أطباء المخيم لطلب النجدة . وكانوا يصرون على الحديث مع مسؤولين سياسيين من المقاومة وليس مع مسؤولين عسكريين . وأحسست بغيظهم وهيجان نفوسهم عندما قالوا لي بلهجة جافة : «فاذا كنتم لا تستطيعون التوصل لوضع حد لهذه المجزرة ، فجدوا على الأقل وسيلة لتموينا بالمـاء والغذاء ! » وما لبثنا أن كونا مجموعات صغيرة تتألف كل واحـدة منها من قبضة من الرجال وذلك لمحاولة التسلل وراء خطوط العدو والوصول الى تل

الزعتر • فكان على هذه المجموعات وهي تلتف على المحاصرين • أن تزحف ليالي بكاملها على الهضاب المجاورة للتل وعبر الحقول والغابات • وكان يستحيل على افرادها أن ينقلوا الماء • كما أن اسلحتهم وذخائرهم لم تكن تتيح لهم أن يحملوا كميات هامة من الأغذية • وكثير منهم استشهد في الطريق • وأما الآخرون فلم يكونوا يقدمون للمحاصرين أكثر من تسكين مؤقت : أنهم لاضطرارهم الى البقاء في المخيم كانوا يزيدون عدد الأفواه المحتاجة للغذاء •

وفي اليوم الخامس من القتال جاءني الأب يواكيم مبارك — وهو كاهن ماروني مفعم بالمشاعر الانسانية ومعاد فوق ذلك للتدخل العسكري السوري، ليقدم لي اقتراحا بوضع حد للمعارك • ويقضي الاقتراح بأن يستسلم فدائيو تل الزعتر بأسلحتهم الى ممثلين عن الصليب الأحمر الدولي ، ينتظرونهم عند أبواب المخيم وبعد ذلك يتم اخلاء الاهالي ضمن أفضل الشروط الممكنة • فرفضت اقتراحه للفور لأنه بدا لي غير لائق بمقاتلين في مثل بسالة مقاتلينا • وتقدمت باقتراح مضاد يقضي باخلاء الجرحى والنساء والأطفال فقط — أو على الاقل الاطفال بدون أمهاتهم — بينما يظل الرجال جميعا يواصلون المقاومة في داخل المخيم ، فرفض • ثم تلقينا عدة عروض أخرى بعضها اذل من بعض اذ كان القوم يسعون الى جعلنا نستسلم استسلاما شائنا مخجلا •

ولا ريب في أننا سنتبنى موقفا أكثر مرونة فيما لو أن المسؤولين السياسيين والعسكريين في تل الزعتر ، أو فيما لو أن المحاصرين فيه عامة ،أبدوا مثل هذه الرغبة • لكنهم على العكس من ذلك كانوا أكثر تصلبا منا • وكانوا يقولون لنا أن تل الزعتر بعد فلسطين ، هو وطننا « بالتبني » • وأنهم لن يغادروه الا محمولين على الألواح • وعندما تفاقم الوضع وفقد فيه كل أمل ، ذهب أبو محسن — الرئيس السياسي للمخيم — الي ولده مصحوبا بكافة أفراد العائلة يتضرع اليه في رفع العلم الأبيض • فكان أن استشاط محسن غضبا ، وطرد أباه باحتقار ثم أبى أن يكلمه الى أن انتهت المعركة •

وقد دق احتلال مخيم جسر الباشا الفلسطيني (في ٢٩ حزيران — يونيه)

ثم احتلال حي النبعة اللبناني ـ المسلم بعـد ذلك (في ٦ آب ـ أغسطس) ناقوس تل الزعتر . فتم عقد اتفاق بواسطة ممثل الجامعة العربية في ١١ آب ـ أغسطس حول أشكال الاخلاء التي ستطبق من الغداة. وكانت الشروط مشرفة نسبيا من حيث أن المحاربين سيغادرون المخيم مع المدنيين في آن معا ، دون أن يستسلموا للميليشيات المارونية ، بل تتكفل بهم « قـوة السـلام » العربية والصليب الاحمر اللذين يزودانهم بوسائل النقل اللازمة .

غير أن اعداءنا دفعوا غدرهم الوحشي الى غايته ، وذلك : عندما فتحت ميليشيات كميل شمعون وبيير الجميل النار على جميع سكان تل الزعتر وهم يغادرون مخيمهم عزلا من السلاح وفقا للاتفاق المعقود ، حاصدين بضع مئات من الأشخاص . بينما انقض آخرون على داخل المخيم وراحوا يطلقون النار على كل من يصادفون ، وبينما راح سواهم يوقفون الناقلات التي تراكم فيها الناجون على الحواجز المنصوبة على الطرقات ، وينتزعون من داخلها بعضـا منهم ، وخاصة الحديثي السن الذين يشتبهون في كونهم فدائيين ، ثم يقتلونهم بوحشية أو يقتادونهم الى جهات مجهولة . وهـكذا فان ميليشيـات اليمين المسيحي اغتالت في يوم واحد عددا من الأشخاص يزيد على عـدد ما قتـلوه خلال الأثنين والخمسين يوما من حصار تل الزعتر . وبالاجمال فان عمليتهم هذه اوقعت حوالي ٣٠٠٠ ضحية . في حين أن الألف فدائي الذين كانوا في المخيم لم يستشهد منهم سوى عشـرة فقط ، وسـلم البـاقون بعـد أن أفلحوا في الفرار عبر الغابات والهضاب المجاورة مستفدين من الفجور الدموي الذي ساد في ذلك اليوم المقدور ـ يوم ١٢ آب ـ أغسطس .

ولا يخالطنا الشك في أن المدافعين عن تل الزعتر أضافوا صفحة مجيدة الى تاريخ الشعب الفلسطيني . وستظل بطولاتهم وبطـولة سـكان المخيم أسطورة حية تلهم شعبنا أبدا على مدى الأجيال القادمة .

لكن جلجلة تل الزعتر افادت في أنها أظهرت مرة أخـرى ، أنه ليس في وسعنا الاعتماد على غير أنفسنا . فقد أدار العالم « المتحضر » عينيه بخفـر

واحتشام عن المجزرة ••• ولا ريب في أنه وجد في أوروبا رجال ونساء سخطوا واستنكروا ونظموا الاجتماعات ومظاهرات الاحتجاج ، الا أن عملهم هذا ظل أكثر تواضعا من أن يؤثر على مجرى الأحداث •

غير أن الفضيحة الحقيقية وقعت في موضع آخر ، عنيت في العالم العربي الذي لم ترفع فيه دولة صديقة ولا عدوة أصبعها لتنقذ الخمسة وثلاثين ألف « أخ » من أبناء تل الزعتر • وليس في وسع أحد أن يقنعني أن مئة مليون عربي يعجزون عن كسر حصار فرضه بضع مئات من الأشخاص ، أو عن أن يرفعوا صوتهم ليمارسوا به الضغوط ، ان لم يكن على الميليشيات ، فعلى سوريا التي تحميهم ، على الأقل •

وكما قلت في مستهل هذا الفصل ، فان الدول العربية لم تكن تخشى شيئا خشيتها لانتصار القوات الفلسطينية ـ التقدمية • ولأنهم كانوا مكرهين برغم كل شيء نتيجة للرأي العام عندهم على دعمنا من طرف ألسنتهم ، وأحيانا على دفع معونات سخية لنا ، فانهم كانوا يمولون ويشجعون المشروع السوري في لبنان في آن معا بهدف تأمين الغلبة لليمين المسيحي • وحتى عندما كانوا لا يتمنون ازالة فتح ، فانهم كانوا يحرضون على تدمير الجناح اليساري في المقاومة • وخلافا لما يمكن أن يعتقده البعض ، فان شاغلهم لم يكن حماية المعتدلين بين الفدائيين لأنهم كانوا يمدون دعمهم الى التشكيلات الفاشية داخل « جبهة الرفض » •

ثم أن العديد من البلدان العربية ـ التي لم تكن تؤمن بوجود « خطر أحمر » في لبنان نتيجة لأنها أكثر اطلاعا وعلما ـ كانت تواصل ، كل على حده، سياسة لا ترمي الى الدفاع عن المقاومة الفلسطينية وانما عن مصالحها الأنانية الضيقة • فمصر مثلا كانت تؤيدنا تأييدا مطلقا بل وتحضنا على أن نكون أكثر تصلبا لأنها لم تكن ترمي الا الى تعميق الهوة بين المقاومة ومنافستها سوريا • أما العراق فكان يفعل الأمر نفسه في حين أن ليبيا كانت تسعى على العكس من

ذلك ، الى عزل مصر لصالح سوريا . وأما الجزائر فانها مع معونتها لنا ، لم تكن تأخذ أية مبادرة جسورة لأنها لا تستطيع ، كما كانت تقول لنا ، أن تصرف طاقاتها في لحظة ينبغي لها أن تكرسها فيها لتحرير الصحراء الغربية .

وبالغا ما بلغت غرابة ما سأقول ، فانه حتى موقف اسرائيل نفسها لم يكن يخلو من اللبس . فهي ترسل بالعتاد العسكري الى اليمين المسيحي ، الا أننا لاحظنا أنها تغمض أحيانا عينيها وهي تعترض مراكب تشحن الأسلحة الى المقاومة أو الى اليسار اللبناني . وببديهة الحال ، فان الدولة الصهيونية لم تكن تريد لحرب أهلية تفيدها بقدر عظيم من الفائدة ، أن تتوقف قبل الأوان نتيجة لاعواز السلاح ...

اما بين الدول الكبرى التي كنا نعدها بين أصدقائنا ، فانه كان للاتحاد السوفياتي موقف ايجابي نسبيا . فهو لم يفهم في البداية طبيعة الحرب الأهلية فهما جيدا وحسبها حربا «طائفية» . وبرغم توضيحاتنا وتوضيحات الشيوعيين اللبنانيين المتواصلة ، الا أن السوفيات ظلوا ينصحوننا بألا « نزج بأنفسنا في شأن عائلي » . وانما بدأوا يدركون أبعاد النزاع بعد مجازر ضبيه والكرنتينا في كانون الثاني ــ يناير ١٩٧٦ . ووقفوا الى جانبنا صراحة بعد التدخل العسكرى السورى في لبنان . ويقينا أن بياناتهم وصحفهم لم تنتقد الحكومة السورية الا تلميحا . الا أن الرئيس الأسد أفضي لي بأن موسكو أوقفت شحن قطع الغيار للجيش السورى منذ شهر حزيران ــ يونية ١٩٧٦ . كما أنه تلقى بموازاة ذلك رسائل من القادة السوفيات تحثه على اعادة الجسور الى سابق عهدها بينه وبين اليسار اللبناني والمقاومة .

الا أن موسكو ، لعظيم أسفنا ، لم تتخذ أي اجراء لكسر الحصار الذي فرضته علينا اسرائيل والانفصاليون وسوريا في البحر والبر . وهكذا فان الأسلحة التي كنا نستلمها عبر سوريا توقفت عن الوصول الينا . وفي اللحظة التي كان يعوزنا فيها كل شيء بما في ذلك الحليب والوقود ، فان الاتحاد

السوفياتي لم يحاول أن يرسل الينا مركب تسوين حتى ولو تحت رايـة غير رايته .

ولهذا فاني لم أمنع نفسي في المؤتمر الصحفي الذى عقدته ابان حصار تل الزعتر عن انتقاد الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الأخرى حـول هذا الموضوع . ولكنهم أصموا آذانهم . وعندما تعود بي الذاكرة الى ذلك فاني اعتقد أن موسكو لم تكن تريد أن تتورط في نزاع قد يؤدى بها الى المواجهة مع الولايات المتحدة ، واحسب أن دواعى الأمن ومقتضيات الانفراج تغلبت على رغبتها في مساعدتنا .

واذا كان السوفيات قد أبطأوا حتى أدركوا كافة مضامين النزاع اللبناني، فان اصدقاءنا الصينيين لم يفهموا منه شيئا . فقد ظلوا يعتقدون حتى النهاية بأن الحرب اللبنانية ليست سوى حرب ديانات . أو لعلهم كانوا مستغرقين في الأزمة الداخلية الكامنة في بكين . يبقى أنهم امتنعوا عن دعمنا في كافة المجالات سياسيا ، ثم وبخاصة عسكريا .

وعلى هذا فاننا كنا قد بتنا لوحدنا عمليا ، حين شن السوريون في ٢٨ أيلول ـ سبتمبر هجوما ضخما في المتن الأعلى بهـدف ازاحـة القـوى الفلسطينية والتقدمية عن المراكز التي احتلتها . وكانت الذريعة التي تذرع بها القوم لتبرير انتهاك وقف اطلاق النار الساري المفعول ، هو الهجوم الذي شنه أربعة فلسطينيين قبل ذلك بيومين على فندق سميراميس في دمشق واسترهنوا فيه رهائن . وقد قتل أحدهم خلال العملية بينما شنق الثلاثة الآخرون في الغداة في احدى الساحات العامة . وأقول أن الأمر كان ذريعة لأن أصحاب العملية كانوا أعضاء في احدى منظمات جبهة الرفض ذات الميول العراقية ، ولم تكـن لهم أية علاقة بقيادة المقاومة . بل على العكس من ذلك فانهم كانوا مناوئين لخطنا السياسي . ومن الصحيح كذلك ان نائب وزير الدفاع السوري اللواء ناجي جميل كان قد طلب منا خلال اجتماع في صوفر في ١١ أيلول ـ سبتمبر أن نسحب كافة قواتنا بدون قيد أو شرط وأن ننكفيء الى المواقع التي تبيحها

لنا « اتفاقية القاهرة » • الأمر الذى رفضته حينذاك بسبب معارضة حليفنا كمال جنبلاط •

وبرغم بعض التباينات التكتيكية التي كانت بيننا وبين جنبلاط من حين لآخر ، الا أننا كنا نكن أعظم الاحترام لرئيس « الحركة الوطنية » • فقد كان جنبلاط ــ تغمده الله بالرحمة ــ وطنيا صادقا عظيما وقائدا سياسيا عبقريا • وكانت له دراية عميقة وفهم فطري للبنان واللبنانيين الذين يحبهم بكل جوارح وجوده • الا أنه لسوء الحظ لم يكن يدرك دائما تعقيد الظرف العربى واللعبة التي تدور على المسرح الدولي •

كانت تحليلاتنا وتحليلاته تتباين بالنسبة لهذاالموضوع حول نوايا سوريا ومقاصد الولايات المتحدة • فالسفير دين براون الذى كان يعمل بناء على تعليمات هنرى كيسنجر ــ رئيس مجلس الأمن القومي الأميركي حينذاك ــ أكد له بأن حكومته تعارض تدخل دمشق عسكريا في لبنان ، وأن الجيش السورى لن يجرؤ على أية حال أن ينطلق الى ما وراء مدينة صوفر • وصدقه كمال جنبلاط • ومن هنا كان رفضه العنيد لسحب قواته من المتن الاعلى •

وكنا نتوقع هجمة سورية مؤيدة من الولايات المتحدة ومن بعض البلدان العربية • وكان في تقديرنا كذلك أن تدخل سوريا قلب موازين القوى لصالح الانفصاليين • وقد حذر مسؤولونا العسكريون كمال جنبلاط بأنه اذا كان من الصحيح أن في وسعنا الصمود للميليشيات المسيحية الى ما لا نهاية ، الا أن أية مقاومة للجيش السورى الذى يتمتع بمدفعية ثقيلة ودبابات وصواريخ أرض ــ أرض ، ستكون عملا انتحاريا •

وهكذا فان قيادة المقاومة بالاجمال ، كانت تؤيد انسحاب القوات الفلسطينية التقدمية المشتركة خاصة وأنها تريد تلافي مواجهة مع سوريا توشك أن تكون مضرة على المدى الطويل • غير أن بعضا منا كان يرى أن علينا أن نعمد الى الجلاء دون تأخير متجاوزين اعتراضات جنبلاط ، بينما كان آخرون، وأنا

من جلتهم ، يدعون الى مواصلة الحوار مع الزعيم الاشتراكي لاقناعه بصحة تحليلنا . وكنت أقول أنه لا ينبغي لنا بأى حال من الأحوال كسر تضامننا مع « الحركة الوطنية » اللبنانية . وذلك لسببين : الأول سياسي والثاني معنوى . وكان تقديرى أن الوفاء يقتضي ألا نخل بالتزاماتنا ازاء تشكيلات سياسية أيدتنا بأمانة منذ نهاية سنوات الستين ، وازاء جزء من الشعب اللبناني الذى رضي أن يتحمل تضحيات جسيمة وهو يقاتل الى جانبنا طيلة الثمانية عشر شهرا التي استغرقتها الحرب الأهلية . وبخلاف ذلك فاننا نرتكب خطأ سياسيا خطيرا اذا ما قطعنا صلاتنا بالجماهير التي تثق بجنبلاط .

وأخيرا انتهت قيادة المقاومة الى أن حددت موقفها بصيغة تسوية . فقد رفضنا مطالب دمشق ، ولكن الأوامر صدرت للمسؤولين العسكريين في المتن الأعلى بسحب قواتنا منه بمجرد أن يبدأ الهجوم السورى . وهكذا تلافينا وقوع خسائر لا طائل منها ، وأفلحنا في جعل الفدائيين كلهم تقريبا ومعهم رفاقهم اللبنانيين ينجحون في الانكفاء سالمين الى مراكز جديدة .

الا ان سوريا عاودت هجومها في ١٢ تشرين الأول أكتوبر على أثر المفاوضات غير المثمرة التي دارت بين ممثلي المقاومة وبين ممثلي دمشق .ولكن على جنوبي لبنان هذه المرة . وفي غداة اليوم التالي دفعت بدباباتها لفتح بحمدون وعاليه اللتين كانت القوات الفلسطينية ـ اللبنانية متحصنة فيهما بعد معركة المتن الأعلى . وبينما كانت قواتنا تبدى مقاومة ضارية وبطولة نادرة في بحمدون ، كان ياسر عرفات يخابر مختلف رؤساء الدول العربية ليرجوهم التدخل . الا أنه لم يستطع الاتصال بأى منهم .فقد كانوا جميعهم «مشغولين» بأكثر من أن يتمكنوا من الرد عليه . وعلى أثر مكالمة اجراها في ١٤ تشرين الاول ـ اكتوبر مع الأمير فهد ولي عهد العربية السعودية ،قال له الامير « امهلني بضع ساعات فأسوى المشكلة . » وفي غداة اليوم التالي صدر بيان رسمى نشر في الرياض ويعلن عقد اجتماع « قمة » مصغرة في العاصمة السعودية . وفي اليوم نفسه أوقف الرئيس الأسد هجومه وأعلن وقف اطلاق النار على كافة الجبهات . وعندما وجد ياسر عرفات نفسه غير قادر على مغادرة لبنان

بوسائله الخاصة ، فانه قبل أن يأخذ الطائرة التي قدمها له الرئيس الأسد للذهاب الى مطار سورى حيث تقله من هناك طائرة سعودية ...

وخلال ثمان وأربعين ساعة تسكن ستة رجال من وضع حد للحرب الأهلية اللبنانية : الملك خالد ، ملك العربية السعودية وأمير الكويت الشيخ صباح والرؤساء الأسد والسادات وسركيس وعرفات . وقد استنفذت الجلسة الاولى في المهاترات والملاومات العنيفة التي تبادلها السادات والأسد . غير أن الرئيسين المصرى والسورى عادا الى الجلسة الثانية ، بعد أن وضع العاهل السعودى بكل ثقل نفوذه السياسي والمالي في الميزان ، وهما مبتسمين منشرحين ، وسعيدين « بصداقتهما » المستجدة . وتلك احدى خصائص العالم العربي : فالمصالحات فيه بمثل سرعة المشاجرات . ذلك أن هذه شأن تلك ... عنيت أنها مصطنعة ... أو سطحية .

وكانت القرارات المتخذة في الرياض تناسبنا تماما : وقف اطلاق النار ، واحترام تطبيق « اتفاقية القاهرة » في علاقاتنا مع الدولة اللبنانية ، اعادة تأكيد الدعم العربي لمنظمة التحرير الفلسطينية ثم ، أخيرا ــ الأمر الذى أرضانا غاية الرضى ــ استبدال الجيش السورى بما سيسمى « قوة الردع العربية » . التي ستتألف من وحدات عسكرية تابعة لمختلف البلدان العربية .

الا أن فرحتنا كانت عجولة بعض الشيء . فقد اكتشفنا بذهول بعد ذلك بأسبوع خلال « القمة » الموسعة في القاهرة ، أنه ليس ثمة بلد عربي ــ غير سوريا ــ على استعداد لارسال وحدات عسكرية الى لبنان . فالعراق برر رفضه بالتوتر القائم بينه وبين سوريا ، وأما الجزائر فأدلت بحاجتها الى كافة قواتها لمواجهة الوضع في الصحراء الغربية . وأما المغرب فأعلن أن جيشه لا يمكن أن يستخدم خارج حدوده الا في « تحرير القدس » الأمر الذى لن يمنع الحسن الثاني من ارسال قوات الى زائير للدفاع عن نظام موبوتو . وأما ليبيا فاحتجت بخطر العدوان المصري عليها ، بينما تعللت مصر بالمقابل باحتمال قيام ليبيا بمهاجمتها . وباختصار ، فان قوة الردع العربية (٣٠٠٠٠ جندي) ستتكون بكاملها تقريبا من الوحدات السورية التي ستنضم اليها وحدات

رمزية من العربية السعودية والسودان واليمن الجنوبي والامارات !

واذا كان لابد من تفسير لرفض البلدان العربية هذا ، فانني أقول أن بعضا منها لم يشأ ادخال أصبعه في وكر الزنابير (الصفن) اللبناني ، وأنغالبيتها كانت تتمنى في قرارة نفسها أن تتولى سوريا وحدها مهمة تحجيم المقاومة واليسار اللبناني •

أما كمال جنبلاط الذى لم يتوقف عن العمل من أجل تعريب النزاع اللبناني ليتخلص من الحضور السورى ، فانه اغتم غما عميقا • فقد خاب أمله في نتائج « القمة » العربية وبات قلقا على مستقبل الحركة الوطنية في آن معا • فكان أن عقد مؤتمرا صحفيا دعاني اليه • وفي حين أنني رفضت من جهتي أن أدلي بأي تصريح — اذا ماذا يمكن لي أن أقول دون أن أناقض نفسي ؟ — فان الزعيم الاشتراكي أعلن مستكينا موافقته على مقررات الرياض ، لكن مع الاصرار على أن القوة العربية هي قوة « أمن » لا قوة ردع • فكانت تلك الانتفاضة الأخيرة لرجل مهشم منهوك سيقع غيلة برصاصات مجموعة من الرجال نصبت له كمينا على طريق مقره في المختارة بالشوف وذلك بعد دخول القوات السورية (تحت غطاء الردع) الى بيروت بأربعة أشهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما •

وخلال دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني (برلمان المقاومة) الذى انعقد في القاهرة وصلنا خبر اغتياله في ١٦ آذار — مارس ١٩٧٧ ، وذعرنا ذهولا وألما • واذ كان ياسر عرفات أكثر انفعالا من أن يتمكن من الكلام ، فانه كان علي أن أرثيه أمام المجلس • وقلت ما مفاده : ان الذين دبروا اغتيال كمال جنبلاط ، قد سددوا طعنة نجلاء للبنان ولفلسطين وللعالم العربي • ثم أضفت قائلا وسيندمون على ذلك ذات يوم ، لأن جنبلاط الوطني اللبناني والقومي العربي كان ضربا من الرمز والضمانة للتحرر الوطني والكرامة •

ولا ينبغي للفراغ الذى تركه رئيس الحركة الوطنية أن يصرفنا عن الحقائق التي نواجهها • واحدى هذه الحقائق ، بل والرئيسية بينها ، هي المكانة

البارزة التي باتت تحتلها سوريا في لبنان . فقوات سوريا انتشرت سلميا في البلاد تحت راية قوة الردع العربية ... وياسر عرفات والرئيس الأسد تعانقا في « قمة الرياض » المصغرة وضربا من حيث المبدأ صفحا عن الماضي . وقد أعاد كافة رفاقي في قيادة فتح بناء جسورهم مع الرؤساء السياسيين والعسكريين السوريين فكنت عمليا المستبعد الوحيد عن هذا التلاقي الذى أملته المصلحة العليا لكلا الطرفين .

وينبغي لي أن أقول أن حالتي كانت بمعنى من المعاني استثنائية . فازاء غياب بقية أعضاء قيادة المقاومة فانني كنت أنا الذى اتخذ في ٦ حزيران ــ يونيه ١٩٧٦ ، القرار المؤلم بالتصدى للتدخل العسكرى السورى بالسلاح . وغالبا ما كنت أنا أيضا من يعقد المؤتمرات الصحفية ويضاعف التصريحات التى تندد بسلوك المسؤولين في دمشق . وفي غمرة العمل وحماسه وتحت تأثير الألم والهوى الذى يثيره اهراق الدم ، فان أحاديثي كانت مشوبة بعنف لا يمكن الا أن يستقطب غضب الرئيس الأسد ويمحوره علي .

ولما كنت أنا نفسي موضوع حملات وسائل الاعلام السورية طوال الحرب الأهلية ، فانني لم أكن في أفضل الأوضاع التى تمكنني من التصالح مع رئيس الدولة البعثي . فمنظمة الصاعقة ، السورية الولاء ، أفرطت في نشر المنشورات في لبنان التي تندد فيها بشخصي كعميل « سعودى » بل وأميركي وخاصة بعد حركة الأحدب . بل أن بعض صحف دمشق حسبت أنها عرتني نهائيا عندما راحت تؤكد أن والدتي يهودية وأن اسمها راشيل ، بينما راحت صحف أخرى تتهمني بأني أعيش حياة منحلة وأن عشيقتي هي يهودية أيضا وتدعى جانيت ...

وبعد معانقات الرياض ، قلق رفاقي على مصيرى . فمكتبي في بيروت يقع على بعد بضعة أمتار من احدى الوحدات السورية ، وأنا أتجول في الشوارع وأعبر الحواجز التى تشرف عليها قوات دمشق . ثم أنني كمسؤول اصبحت بحكم العاجز عن القيام بأي شيء لعدم وجود حوار بيني وبين النظام البعثي . وكان تقدير رفاقي أن هذا الوضع العقيم والخطر في آن معا ، لا يمكن أن

يستمر الى الأبد وانتهوا الى أن وضعوني أمام واحد من خيارين : فاما أن أذهب من تلقاء نفسي لأقر بذنبي جهارا ، وأما أن أغادر لبنان « بأجازة » غير محدودة .

ووجدتني لأول مرة في حياتي أنتهك قواعد الانضباط المعمول بها في فتح . اذ رفضت الاقتراحين بعناد . فقد كنت من جهة أولى اعتقد أن الكرامة تأبى علي ، وأن العدل لا يرضي لي أن أتوسل « بلاط الحيرة » ، وألقي باعتذاريات النابغة ، كما أنني من الجهة الأخرى لم أكن اريد أن أرضي خصومي وأهرب من مسؤولياتي . واذا فقد قررت ألا أغادر بيروت ولو الى القاهرة لأزور زوجتي وأولادي الذين لم أرهم منذ أكثر من سنة . وانما ذهبت الى العاصمة المصرية ، على كره ، بمناسبة دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الذى أشرت اليها آنفا .

ولدى عودتي الى بيروت استدعاني الرئيس سركيس ليقول لي أنه لا بد من اعادة علاقاتي الى طبيعتها مع القادة السوريين . ثم أخذ المبادرة لمفاتحة الرئيس الأسد بذلك ، بعد أن أطلعه على التقدير الذى يكنه لي . وأخيرا فان الصداقة التي أكنها للرئيس اللبناني والجهود التي بذلتها عدة شخصيات، انتهت بأن حملتني على الذهاب الى دمشق ، حيث أعلن الرئيس الأسد عن استعداده لاستقبالي .

وذهبت في يوم جميل من أيام نيسان ــ ابريل بصحبة ثلاثة من قادة فتح ــ أبو جهاد وأبو صالح وأبو ماهر ــ الى العاصمة السورية حيث استقبلنا المحادثون الذين ألفناهم أيام الحرب الأهلية : عبد الحليم خدام وزير الخارجية ، واللواء ناجي جميل نائب وزير الدفاع ، واللواء حكمت الشهابي رئيس الأركان العامة . ودار حديث تسوده المجاملة على موضوعات هامشية لا أهمية لها ، الا أنه أتاح ترطيب الأجواء . ثم قادنا الثلاثة الى القصر حيث حيث كان الرئيس الأسد ينتظرنا .

وما كدنا نجلس في أحد الصالونات ، حتى طلب منا رئيس التشريفات ــ

أمام عظيم دهشتنا ـ بأن نسلمه أسلحتنا قبل أن ندخل الى مكتب الرئيس ! وبعد لحظة انفعال ، أجاب أبو جهاد بهدوء بأنه لا يحمل سلاحا • وأما رفيقاى الآخران ، فانهما ألقيا بمسدسيهما على الطاولة بحركة سخط واستنكار • أما أنا فرفضت أن أضع سلاحي وقلت بلهجة مسعورة ، بأنه يعود الى الرئيس الأسد أن يقرر ما اذا كان يثق بي ويطمئن الي أم لا • ولم أكن أسعى الى التميز بنفسي عن صحابتي مطلقا • الا أن تقديرى كان هو أني أرتكب ـ من منظور المواجهة المقبلة ـ خطأ تكتيكيا . اذا ما أذعنت واستسلمت أمام أول تحد • واختفى رئيس التشريفات بضع لحظات ثم عاد يقول : « تفضلوا واتبعوني الى مكتب الرئيس ••• »

وعانقنا الأسد واحدا بعد الآخر على الطريقة العربية • ثم شرع يحادث رفاقي الثلاثة بأعصاب باردة هادئة ، محادثة حول موضوعات لا يجمع بينها جامع ، فيسألهم مثلا بأدب عن صحة أولادهم • وكان ثمة اشارتان لا يدركهما الا من يعرفهما مثلي تترجمان مشاعر الأسد الحقيقية نحوي : الأولى هي أنه لم يوجه الكلام الي ، وراح يتصرف كما لو لم أكن موجودا • فالرئيس السورى مثلي ، لا يستطيع أن ينظر الى شخص لا يتعاطف معه • الا أنه برغم ذلك رأى أن يخفف من جو التوتر المخيم بأن راح يسأل أبا صالح: «كيف حدث أن ابيض شعر شاب مثلك • » • ففسر أبا صالح له ذلك بقوله أنها ظاهرة وراثية • لكن الأسد راح يعلق على ذلك وهو بين الجاد والهازل : « كلا • بل هى معاشرة أبو أياد جعلتك تهرم قبل الأوان ••• »

وحلت نكتته على محل الدعابة ، وأخذت الكلام لأستشهد له ببيت الشاعر العباسي ، البحتري الذي يقول :

اذا احتربت يوما فسالت دماؤها   تذكرت القربى فسالت دموعها

وانكسر الجليد • فاغتنمت ذلك لأقول له أن كلا منا تصرف حسب ضميره : هو حين أرسل جيشه الى لبنان ، وأنا حين قاومته ، والتاريخ هو الحكم في أي القرارين هو الصواب ! وبانتظار ذلك فاني أحرص على تبيان

صغار وضحالة أجهزة دعايته • وقلت له : « لقد حسبوا أنهم يشتمونني حين ذكروا أن أمي يهودية • لكن سوء الحظ يشاء أنها ليست كذلك • وأقول سوء الحظ ، لأن يهوديتها كانت ستساعدني مساعدة أفضل على الدفاع عن هدفنا الاستراتيجي القاضي بانشاء دولة يهودية ــ عربية في فلسطين • أما الأقاويل المتعلقة بحياتي الخاصة ، فانها حقارات أفضل عدم الرد عليها •

ثم أضفت أقول : « وعلى أى حال فانني أتمنى أن أطوى هذه الصفحة لنناقش مستقبل العلاقات السورية ــ الفلسطينية • »

وقدم لي الرئيس الأسد عرضا ضافيا دام ثلاث ساعات • قال أن جيشه تدخل في لبنان لأنه تبين أن كافة المحاولات الاخرى لوقف الحرب الاهلية غير فعالة ، ولأنه ينبغي الحؤول دون تدويل النزاع • ثم أوضح أنه داخلته الريبة في مناورات كما جنبلاط التسويفية لأنني حذرته من أن الزعيم الاشتراكي هو في الحقيقة عميل أميركي • وهتفت مستنكرا : « ان ذلك غير صحيح ! فأنا لم أقل هذا مطلقا ! » وذكرته بأن ما قلته هو مجرد الاشارة الى أن كمال جنبلاط يثق بدين براون وأن هذا الأخير يفسد عليه أفكاره • الا أن الأسد ظل على قناعته لا يتزحزح عنها ، بحيث أن النقاش الطويل حول هذه النقطة لم يفض الى اية نتيجة •

ثم أنه أثار استنكارى وسخطي مرة ثانية عندما ذكر خلال عرضه بأننا ، خلافا للمظاهر ، نؤيد الاتفاق الذى عقده السادات حول سيناء ، وأن الاتصالات السرية التي قام بها بعض الفلسطينيين مع الشخصيات الاسرائيلية كانت موجهة في الحقيقة ضده وضد سياسة سوريا • ووثبت من مقعدى وأنا أقول : « ان ثمة حدودا لما أستطيع احتماله ! فالحركة الفلسطينية هى المستهدفة ، في مجملها ، بمثل هذه الادعاءات الظالمة ! لقد كنا أول من ندد في العالم العربى باتفاق سيناء ، وأول من قاتله ومن عانى منه ، لأن هذه التسوية المشينة أفضت الى الحرب الأهلية اللبنانية • لكن اسمحوا لي أن أطرح عليكم سؤالا أيها السيد الرئيس : كيف حدث وأخلى الأميركيون بينكم وبين ما تريدون في لبنان ، في حين أن تحذيرا بسيطا من واشنطن في أيلول ــ سبتمبر عام ١٩٧٠ ، أجبركم على سحب قواتكم من الأردن بعد ثلاثة أيام من دخولها اليه •

وأجاب الأسد وقد لدغه الكلام ، أنه اتخذ قرار التدخل في لبنان بكل استقلالية ، وبرغم التحذيرات والضغوط التي مورست عليه ، ليس من الولايات المتحدة وحسب وانما من الاتحاد السوفياتي كذلك . ثم أضاف : واذا كنت في ريبة من ذلك فان في وسعي أن أضع في تصرفك الوثائق التي تثبت أقوالي . وانها كشف النقاب عن أن السوفيات أوقفوا شحن قطع الغيار المخصصة للقوات المسلحة السورية .

وبلغت المناظرة بيننا عتبة القطيعة ، عندما تطرق الرئيس الأسد الى موضوع عام ، هو موضوع التعاون بين سوريا والمقاومة . فقد قال لي : «لقد قررنا ألا نولي اعتبارنا بعد الآن الا للقضية الفلسطينية وليس لمسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية الذين يزعمون انهم يدافعون عن هذه القضية . فمنذ بعض الزمن وأنا أطرح على نفسي الاسئلة بصدد جديتكم وطاقتكم على قيادة الحركة الفلسطينية . لقد قدتم شعبكم الى المجزرة خلال أحداث الأردن في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ وفعلتم الأمر نفسه في لبنان . وتشاجرتم مع الأنظمة العربية . اني قلق على مستقبل القضية الفلسطينية لأنكم ببديهة الحال لستم على مستوى المسؤولية . »

كان ذلك أكثر من أن يطاق . فنهضت مرة جديدة وأنا أرد بغضب مغيظ : « أنكم محقون أيها السيد الرئيس في الحكم علينا على هذا النحو . لكنه كان عليكم أن تضيفوا بأن الحكومات العربية بمجملها ، بما في ذلك أنتم ، تقف عاجزة أمام المشكلة الفلسطينية . ولأنها ليست أهلا ، ولم تكن على المستوى المطلوب لحل هذه المشكلة ، فان المقاومة وجدت . وستظل موجودة وستبقى تنمو وتتطور ! » .

كان قد مضى خمس ساعات على بداية محادثتنا : خمس ساعات من المآخذ والملاومات والمواجهات العنيفة . غير أن هذا اللقاء لم يكن سلبيا بل أتاح تصفية ملف خلافات جسيمة وايضاح موضوع الأخذ والرد السوري ـ الفلسطيني . وهكذا فقد قال لي الرئيس الأسد وهو يودعني : « أنا أحترمك ولكني لا أحبك . » فقلت له : « أقول ما قاله عمر بن الخطاب : لمن

بدأه بهذا القول نفسه : انما تفتش عن الحب النساء • وأنا لا يهمني حبك أيها السيد الرئيس ، بل يهمني ألا أقوم بما يفسد احترامك لي أو يسيء الى العلاقات السورية ــ الفلسطينية • »

وهكذا فقد فتحنا صفحة جديدة في التعاون السورى ــ الفلسطيني ، الذى لا غنى عنه في الدفاع عن القضية العربية • ثم أن الدسائس الأميركية ــ الاسرائيلية لخنق حقوق الشعب الفلسطينى ، لن تلبث أن تطرح علينا أحد أعظم تحديات تاريخنا •

الفصل العاشر

مبادرة السادات

من الوهم إلى الخيانة

اليوم يوم ١٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٧ وطائرة البـوينغ الرئاسية تحط بهدوء في مطار تل أبيب ، وأنا جالس أمام جهاز التلفزيون في بيروت ، أراقب الجمهور الكثيف من الشخصيات الاسرائيلية ذات الوجوه ، المألوفة مني أو غير المألوفة ، وهي تنتظر وصول السادات • واستقرت الطائرة اخيرا وبدأ المصورون ، والأشخاص المجهولون ، ورجال الأمن المرتدين للثيـاب المدنية ، والموظفون يهبطون مسرعين • وكوكبة من القادة الصهاينة يتقـدمهم مناحيم بيغن واقفون كالخشب المسندة على قدم سلم الطائرة ونظراتهم مسمرة على بابها الفاغر • وأنا يغمرني أمل مجنون في أن السادات لن يخرج من الباب! لأنه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يأتي الى اسرائيل !

وتلقيت الصدمة في أحشائي وأحسستها تشنجا في حلقي • ذلك ان الرئيس المصرى ظهر تحت أضواء كاشفات الضوء كالتماعة النور في الدكنة ، وهـو يصافح أيدي جلادي شعبنا وهم يتتالون أمام ناظري : بيغن ، دايان ، شارون والجنرالات ببزاتهم • ثم ظهر السادات « المنتصر في حرب أكتوبر » جـامدا أمام علم المحتلين بينما النشيد الوطني الصهيوني يدوى في الأسماع • وانسابت الدموع على خدود عدد من رفاقي • أما أنا فلازمت جهاز التلفزيون دون أن أحول ناظرى عنه طوال أربعين ساعة ، متتبعا زيارة العار والمذلة دقيقة دقيقة•

وفي غداة اليوم التالي ،كان السادات يصغي لكلمة بيغن بمجاملة ومراعاة، ليعود فيرحب به بحرارة • ووجدتني أخجل مرتين • اذ هل يمكن ألا يكـون الرئيس المصرى قد استشعر مثلي الصـفعات التي يكيلهـا رئيس الوزراء الاسرائيلي لنا بخطابه العدواني في قوميته ، المستفز في شوفينيته والمتفوح تعصبا من أول كلمة فيه الى آخر كلمة !؟ ثم أن استشهاده بوعد بلفور جعلني أثب من مقعدى • فالرجل الذى يدعي أنه قاتل الانكليز ، يدلي بحجة الوعد الذى

قطعته الامبريالية البريطانية لينكر حقوق شعب يضرب بجذوره في الأرض الفلسطينية منذ قرون ! وهو يصف نفسه بأنه يهودي « فلسطيني » مبررا ذلك بذات القدر من التبرير الذي كان يبيح لي أن أدعي أني يهودي بولوني! وهو يمتدح المقاتلين الصهاينة الذين « حرروا وطنهم » ، أي وطني الذي تروى بدم الفلسطينيين الذين ذبحهم هو وأمثاله ! وعادت بي الذكرى الى دير ياسين تلك المجزرة التي نظمها ونفذها أنصار بيغن في نيسان ـ ابريل ١٩٤٨ ، يوم بقرت الحوامل وذبح الأطفال والشيوخ ذبح هوام الأرض • واسترجعت في بالي ـ وأنا أستمع الى بيغن يتحدث عما يجرؤ على تسميته « بالملحمة » الصهيونية ـ الرحيل وأرتال الهاربين على الطريق فرارا من جنود المستوطنين، وهجرة عائلتي على المركب المتداعي ، وآلام المنفى • وامامي السادات يهز رأسه أحيانا • أفترى هزة الرأس هذه علامة الموافقة أم آية موات الاحساس!؟

وظللت أمني نفسي وأحاول أن أقنعها طيلة خطاب بيغن ، بأن الرئيس المصري لن يحتمل الاهانة ، الموقعة على الأمة العربية كلها • وتخيلته ، وهو يتوجه نحو المنبر ليعلن : « شكرا لكم على دعوتكم ، بيد أنه بات على أن أعود لفوري الى القاهرة • فرجاء أن تعذروني لأنني أخطأت ولم أفهم الاسرائيليين ••• »

وطوال يوم الاحد ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ، راح السادات قبل اجتماع الكنيست ، يضاعف بادرات المصالحة والتودد الى مضيفيه ، مقدما بادرات سياسية جسيمة الدلالة والمغزى •

وحسبت لسذاجتي أنه سيجزى عليها بتنازلات موازية ، فأنا أستطيع أن أفهم عند الاقتضاء زيارته لنصب ضحايا النازية (ياد فاشيم) • ولكن كيف أمكنه أن يصلي في المسجد الأقصى في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، تحت حماية حراب المحتلين • ولماذا كان عليه أن يضع أكليل زهور أمال تمثال الجندي المجهول الذي نصب تكريما لذكرى الذين قتلوا وهم يقاتلون في حرب لم تنته بعد • وانعكس خطابه في الكنيست مرارة استشعرتها في حلقي • فقد أغفل ، بناء لطلب بيغن ، كما علمت فيما بعد ، أية اشارة الى منظمة التحرير

الفلسطينية • ولم يكن هذا التنازل ، بل ولا يمكن أن يكون . مجرد تنازل شكلي مطلقا • لأنه يشكل تخليا عن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني التي تجسدها منظمتنا ، دون أن يحصل من بيغن مقابل هذا على شيء ، ولو مطلق أى شيء ! حتى ولا على عبارات لياقة مبهمة ! فقد وصل اسرائيل جاثيا على ركبه ، وعاد منها زاحفا على بطنه •

بل انه لم ينل ترضية سماع عبارات مشجعة من جانب المعارضة •فخلال الجدل العلني الذى أجراه مع البرلمانيين الاسرائيليين قبل مغادرته الاراضي الفلسطينية المحتلة بساعات، عبر النواب العماليون عن آراء مشابهة لآراء زملائهم في الليكود ، وان بلغت اقل اظلاما وأكثر تكيفا مع العصر •

وشعرت للمرة الاولى بأن شيئا ما انكسر في داخلي هو الصداقة التى اكنها منذ خمسة عشر عاما للسادات • فقد ظللت احترمه برغم الخلافات التي تفصل بيننا • ذلك ان الأخطاء التي ارتكبها لا تكفي في نظرى لثلم صورة الوطني التي يعكسها • غير أن سلوكه في اسرائيل شأنه بعد ذلك في ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٨ في كامب ديفيد ، تجاوز الحد • فقد زعم انه يتكلم باسم الامة العربية جمعاء وباسم الشعب الفلسطيني ، ولكنه تنازل عن حقوقنا دون أن يستشيرنا ! وأرخص في ثمن ارض لا يملكها على حساب شعب بلا وطن ! وأقر وأنا خجل بأن الصداقة التي كننتها له ، استحالت حقدا • اذ بات من البديهي انه دبر عملية دعائية واسعة النطاق تهدف الى اظهاره للرأى العام العالمى كرجل دولة كبير يعمل بنزاهة وتجرد من اجل السلام •

وقد علمت في وقت لاحق ان فكرة زيارة اسرايل ، جاءت للسادات ، ابان المحادثة التي اجراها في مطلع شهر نيسان ــ أبريل عام ١٩٧٧ في واشنطن مع الرئيس كارتر • فقد راح كارتر يدعو الى عقد لقاء اسرائيلى ــ مصرى على أرفع مستوى ، مؤكدا له انه سيكون للمفاوضات المباشرة من التأثير ما يزيل تصلب الاسرائيليين • ووافق السادات من حيث المبدأ على القيام بمثل هذا اللقاء الذى سينظمه وزيرا خارجية مصر والولايات المتحدة ، يوم كان اسحق رابين لا يزال في السلطة •

وفي نهاية شهر آب ــ اغسطس ، اى بعد انتصار الليكود في الانتخابات التشريعية الاسرائيلية ، قدم وزير الخارجية الاميركية سيروس فانس صيغة بدا انها ستحظى بتأييد الجانبين : اذ يحضر السادات وبيغن دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تعقد في الخريف ويلقيان هناك خطابين وبعد ذلك يدعوهما الرئيس كارتر الى واشنطن حيث يجمعهما معا • لكن الرئيس المصرى رأى أن هذا الاخراج ليس على قدر كاف من المسرحية والابهار • وقال لوزير خارجيته ، اسماعيل فهمي الذى كان العضو الحكومي الوحيد الذى أطلعه على مشروعه والذي وضعه بالاشتراك مع كارتر ، « لماذا ينبغي لي أن أذهب الى واشنطن لأقابل بيغن • ثم اضاف يقول : « بل خير لي أن أذهب الى اسرائيل بصحبة رؤساء الدول الخمس العظمى أعضاء مجلس الامن (أى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين وبريطانيا وفرنسا) • اذ بهذا يكون للحدث دوي أكبر ونجبر اسرائيل على عقد السلام • » غير أن السادات وافق بناء على اقتراح من اسماعيل فهمى ، أن يستشير الحكومة الاميركية مقدما • فجاءه الجواب بالسلب لأن واشنطن ترى أن ثمة خطرا كبيرا في أن لا تفضي الصيغة المقترحة ــ حتى اذا امكن تحقيقها بصورة ملموسة ــ الى أية نتيجة •

وبين أيلول ــ سبتمبر ، وأول شهر تشرين الثانى ــ نوفمبر ، لم يكن السادات يدرى ماذا يعمل • فمؤتمر جنيف الذى يجهد كارتر في عقده ، واقف في طريق مسدود • واسرائيل تضاعف وضع العراقيل في دربه • وسوريا لا تشارك السادات في تصوراته ومفاهيمه للاجراءات التي ينبغي اتباعها • والرئيس الاميركى وجه له رسالة شخصية يعترف له فيها بعجزه ، مقرا بأن هامش المناورة الذى يملكه بات صفرا عمليا ، بسبب ضغوطات الجماعة الضاغطة (اللوبى) اليهودية في الولايات المتحدة • وأضاف يقول له : « أنا في حاجة الى معونتك » •

وفي هذه الفترة التقى موفد من قبل السادات بالجنرال دايان سرا في المغرب • وراح وزير الخارجية الاسرائيلى ينثر الوعود المغرية شمالا ويمينا ، قائلا للوفد المصرى : « سوف نمضي بعيدا وبعيدا جدا في طريق التنازلات

اذا ما زارنا الرئيس السادات » • ثم أن الملك الحسن راح من جانبه يشجع السادات على القيام بهذه الرحلة • وأكد له أنها ستكون حدثا تاريخيا ومبادرة حاسمة ، و « سأكون أول من يؤيدكم » •

كان العاهل المغربى يدافع بذلك عن قناعة عامة سائدة لدى قادة الشمال الافريقيين من تونسيين وجزائريين وحتى ليبيين ، ومفادها ان اللقاءات المباشرة مع الخصم ، هي وحدها التي تؤدي الى نتيجة •

أفلم يقترح على ياسر عرفات في أكثر من مرة، أن يلتقي بناحوم غولدمان، رئيس المجلس اليهودى العالمى سراً ؟

وهكذا فقد اتخذ السادات قرارا بالذهاب الى اسرائيل • ولم يطلع أحدا على ذلك ، حتى ولا اسماعيل فهمي فهمى لعلمه بعداء فهمى لمثل هذه الرحلة• ثم أكب منذ ذاك على تمويه خطاه ومحو معالم مسيرته •

ودعي عرفات بصورة عاجلة الى القاهرة ، فوافاها في الثامن من تشرين الثاني ــ نوفمبر حيث استقبله نائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك، وأبلغه رسالتين من السادات • وقال له أن الرئيس المصرى يدعوه لسماع الخطاب الذى سوف يلقيه في الغداة أمام مجلس الشعب ، ولكنه يرجوه أن يذهب قبل ذلك الى طرابلس للحصول على جواب واضح ودقيق من العقيد القذافي ، حول الطلب الذى تقدم به السادات كثمن للصلح بين البلدين • أما طلب الرئيس المصرى من الرئيس الليبى، فهو أن يزوده بالوسائل التي تمكنه من الحرب ضد اسرائيل! وهو يريد أن تعوض عليه طرابلس كل السلاح الذى تدفق خلال اشتباكات اكتوبر ــ تشرين الاول عام ١٩٧٣ على نفقتها •

واستقبل العقيد القذافي عرفات لقاء حسنا • وأعلن له عن استعداده لتسليم السلاح لمصر • الا أنه أبدى له أنه حتى لو كرس كل موارد بلاده المالية لذلك ، فانه لن يستطيع لوحده تأمين العتاد العسكرى الذى يطلبه السادات • وهو يوافق كذلك على لقاء السادات على « أرض محايدة » على الحدود المصرية ــ الليبية ، ولكن ليس في القاهرة كما يقترح السادات •

واتجه عرفات لدى عودته الى القاهرة الى مجلس الشعب مباشرة حيث كانت الجلسة قد بدأت • وهناك اعتراه بعض الدهشة وهو يسمع المديح وتكرار المديح الذى يجزيه السادات له في خطابه • ولكنه لم يجد الخطاب يشتمل ، فيما عدا هذا التفصيل الفريد ، على أى شيء يبرر ايلاء الطابع الاحتفالي لهذا الاجتماع • فقد سرد الرئيس كالعادة ، الجهود التي بذلها ، عبثا ، من أجل التوصل الى تسوية عادلة للنزاع في الشرق الأوسط • الا أنه، ابتعد بغتة عن النص الذى يقرأه باعثا في المستمعين اليه احساسا مثيرا ، اذ هتف قائلا أنه مستعد للذهاب الى أى مكان كان ، « حتى ولو الى اسرائيل » اذا كان ذلك سيساعد على التوصل الى السلام •

واندلعت تصفيقات حادة في المجلس • وما لبثت كاميرات التلفزيون أن وجهت عدساتها صوب عرفات الذى كان يجلس مكتوف اليدين • وبطبيعة الحال ، فانه لم يعجب مطلقا « بالعبارة الصغيرة » الجامحة التي كان يجهل ، شأن حسني مبارك الجالس الى جانبه ، ما اذا كانت تشكل فورة لا عاقبة لها ، أم تعريضا له مغزاه • غير أن السادات عمد فور انتهاء الجلسة الى تطمينه• اذ راح امعانا منه في المكر يقول وهو محاط بوزرائه وأعيان نظامه ، لوزير خارجيته بحضور عرفات : « ينبغي أن تجد وسيلة يا اسماعيل لاستدراك هفوة لساني المؤسفة تلك ••• »

واذا فان عرفات عاد الى بيروت وهو مقتنع بأن ما كان من أمر السادات، ليس سوى شطحة خطابية • أما أنا فانني من جهتي ذهبت الى أن السادات كان يقوم بعملية دعاية أريبة ماهرة مخصصة لأغراض الاستهلاك الخارجى • وانما نصحت عرفات بالكتابة الى رئيس الدولة المصرى ليطلب اليه تزويده بتوضيحات ، بعد ذلك بأسبوع ، أى عندما أعلن السادات عن عزمه للسفر الى دمشق لمشاورة الرئيس الأسد •

وفي ١٦ تشرين الثانى ــ نوفمبر ، قطع الشك باليقين • فقررت قيادة فتح أن تنشر بيانا معتدلا نسبيا يدعو السادات للنكول عن مشروعه • ولكن بعد أن تمت الزيارة ، انقسمت اللجنة المركزية في منظمتنا الى اتجاهين • فكان

تقدير الاتجاه الأول هو أننا لا نستطيع السماح لأنفسنا بالقطيعة مع مصر لان دور مصر الحاسم في العالم العربي لا يحتاج الى برهان وأنه ينبغي لنا بالتالي ان نقنع بانتقاد مسعى الرئيس المصرى ليس الا ٠أما أنا فاني دافعت عن الرأى المضاد ٠ وقلت أن مصر هي بلا ريب قطعة كبرى في رقعة الشطرنج العربية ، الا أنها لا تكون قوية حقا الا بشعبية وشرعية نظامها ٠ وعلى أية حال فانه لا ينبغي لنا أن نراعي جانبها بأي ثمن كان ٠ وبناء عليه ، فانني رحت أدعو الى خوض هجوم مواجه ومتواصل ضد السادات وضد كافة الدول التي تؤيده ٠ ولاقتناعي بتعاطف ٩٩ ٪ من « قاعدة » المقاومةمعي، فانني رحت أنددبالحسن الثاني وسلطان عمان قابوس ، ثم وبخاصة ، بالرئيس السوداني اللواءالنميرى٠ ذلك أننى علمت أن هذا الأخير بلغ به الحماس «لجملة ٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر الصغيرة ، الى حد أنه ابلغ وزارته في الغداة بأنه قرر استباق السادات الى اسرائيل ! غير أن الوزراء نجحوا ، وان بجهد جهيد ، بردعه عن ذلك ٠٠٠

كنت أعلم أن حملتي ستذهب ــ في مرحلة أولى على الأقل ــ عكس التيار ٠ فالرأى العام العالمي في مجمله، كان بالغ التأثر بجرأة السادات الباهرة٠ وبرغم قناعة العديد من الحكومات ــ ولا سيما حكومة الولايات المتحدة ــ بأن المبادرة المصرية محكومة بالفشل ، الا أن خليفة عبد الناصر ظهر في عيون الأميركيين والأوروبيين ــ بما في ذلك مواطنى البلدان الاشتراكية ــ كبطل السلام ٠ بل أن جزءا من العالم العربى أغري بمسعى الرئيس الذى يعد بتلبية المطامح والتطلعات بوسيلة أخرى غير الحرب ٠

وبدت حسابات السادات في فترة أولى وكأنها صحيحة ٠ فقد كسب الرأى العام العالمي ، وحيد جزءا من الرأي العام العربي ، ودعم مركزه في مصر ٠ ذلك أنه كان قد توصل بالفعل الى اقناع مواطنيه ، بأن كافة الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهونها ستختفي بسحر ساحر ، اذا ما استقر السلام في الشرق الأوسط ٠ فقد استغل بسعنى من المعاني بؤس المصريين وتعبهم من الحرب ليكسبهم الى جانب المغامرة التي يقوم بها ٠ كما امتص النقمة داخل جيشه بأن جعله يعتقد بأن مرد قصور تجهيزه ونقص تسلحه هو سوء

مقاصد ونوايا الاتحاد السوفياتي ، وأنه ليس من خيار آخر امام مصر ، سوى وضع حد نهائي لنزاعها مع اسرائيل •

غير أن التجربة تولت البرهنة على ان السادات بنى استراتيجيته ، في الواقع ، على رمال متحركة • فالتعاطف الذى استثاره لدى الرأى العام العالمي، والاميركى بخاصة ، لم يتمكن من هز السياسة العنصرية التوسعية الاسرائيلية ولا أفلح في انتزاع الشعب الاسرائيلى من تصلب حكامه ،بل على العكس من ذلك ، فانه بذهابه الى القدس صوب رأي بن غوريون الذى كان يقول أن الزمن يعمل لمصلحة اسرائيل ، وان العرب سينتهون الى الاذعان ، فهل توصل، الى ما كان يعتزمه من تدمير « الحاجز النفساني » الذى يفصل الشعبين •
ولو كان الأمر كذلك فعلا ، اذا لأدى لنا خدمة بالغة السوء • اذ ما الذى سيدفع الاسرائيليين بعد أن يشعروا بالأمن والأمان ويرتاحوا الى السلامة ، الى طلب تسوية سريعة • في حين ان جو الانفراج الذى سيركن اليه العرب ، سيؤدى بهم الى الركون ، وينهي حالة التعبئة في صفوفهم •

واعتقادى ان السادات لم يفهم النوابض النفسانية لدى الاسرائيلي والشعب الفلسطيني المتشابهين فيما عانياه من آلام ــ احدهما بسبب النازية والثاني بسبب الاستيطان والاستعمار ــ وفي عزمهما على بلوغ اهدافهما أيا ما كان الثمن ، بل وبتصلبهما القاطع الذى يتجاوز تصلب قادتهما • وقد أخطأ السادات حين ظن ان الاسرائيليين سيكونون اكثر تساهلا من مناحيم بيغن ووزرائه ، أو ان الفلسطينيين يمكن ان يقبلوا بما هو أقل مما يطالب به مسؤولو منظمة التحرير الفلسطينية • ويمكن القول ، في المطلق، ان الفلسطينيين والاسرائيليين وجدا ليتفاهما : الا أنه ينبغي لهما قبل ذلك توعي الحقائق والاعتراف ببعضيهما والتسليم بوجوب التعايش على ذات الارض •

كما أخطأ السادات كذلك حين تخيل لدى توقيعه اتفاقيات كامب ديفيد ان بستطاعه اعداد تسوية دون اشراك منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا • بحيث أنه حين تقدم الى الساحة دون شركائه الطبيعيين ، اضعف مركزه فوق

اضعاف . فقد كان له أن يعلن انه يتكلم باسم كافة العرب . الا أنه لم يكن لدى بيغن أي سبب يدعوه للوثوق به . فاية ضمانة تضمن لرئيس الوزراء الاسرائيلي ان تكون التسوية السلمية مع السادات ، موضع قبول وتطبيق من قبل المحاربين الآخرين ؟ فحتى الملك حسين ، المستعد ابدا لكافة المساومات والتسويات لم يجرؤ على الدخول لتوره في اللعبة . وهكذا فان بيغن اكتفى بتقديم مشاريع يستد تحقيقها على عدة سنوات ، أي المدة التي تتيح له او لخلفائه بأن يستحنوا قدرة الرئيس المصري على فرض ارادته على العالم العربي .

أما بالنسبة لسيناء ، فان اسرائيل عرضت ان تجلو عنها تدريجيا . وأما الجولان فانه وضع بين مزدوجين بانتظار ان تقرر سوريا الجنوح الى التفاوض . وأما الضفة الغربية ، فان حقبة الخمس سنوات التي عرضها بيغن من الاستقلال الذاتي المزعوم لا تنص ، لا على انسحاب القوات الاسرائيلية منها ولا على استقلال اراضيها ، ولا حتى على ربطها بالاردن .

وعندما أصر السادات خلال المحادثات مع بيغن في الاسماعيلية في شهر كانون الاول – ديسمبر ١٩٧٧ ، على أن يعترف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير ، فان رئيس الوزراء الاسرائيلي سأله : « واذا كان علي ان أسلم بمثل هذا الحق ، فماذا تعطوني في المقابل ؟ » فأجاب الرئيس المصري « الاعتراف الحقوقي بدولة اسرائيل » . ووفقا لأقوال شهود عيان ، فان زعيم الليكود هزىء به وقال : « لا حاجة لي باعترافكم ، فاليهود موجودون بلا نزاع وبقوة القانون في أرض اجدادهم ... » بل ان بيغن اجبر السادات – وتلك مذلة ما بعدها مذلة – على أن يتضمن الاعلان النهائي للمؤتمر مصطلحي « يهوذا والسامرة » التوراتيين للاشارة الى الضفة الغربية العربية .

وباختصار فان السادات لم يحصل على شيء ولا كان في مستطاعه الحصول على شيء من بيغن . ليس بسبب ايديولوجية بيغن التوسعية وحسب ، بل ولأن ، ميزان القوى الذى بات مائلا الى مصلحة اسرائيل بفضل الأميركيين ، « اصدقاء » الرئيس المصري ، لم يعد يسمح بذلك . وحول هذه النقطة

الجوهرية والحاسمة افترقنا عن السادات بأكثر مما اختلفنا معه حول مبدأ زيارته لاسرائيل •

وخلافا للقناعة المنتشرة في الغرب ، فاننا لسنا معادين بصورة مطلقة وفي كافة المناسبات والظروف ، للمفاوضات المباشرة • اذ لا ينبغي النسيان بأن هدفنا النهائي هو العيش في وفاق مع اليهود ، داخل فلسطين موحدةديمقراطية• وبديهي أننا لا نستطيع تحقيق هذا الهدف بالتفاوض مع الصخور • والقرار الذى اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني في شهر آذار ــ مارس ١٩٧٧ بهذا الصدد واضح : فنحن مستعدون للتعاون مع اليهود التقدميين والديمقراطيين أى أولئك الذين يعترفون بحقنا في تقرير المصير سواء أأقاموا داخل أو خارج الأراضي المحتلة • وهذا هو قصارى ما نستطيع التسليم به اليوم ، بالنظر الى ميزان القوى المحلي والشرق اوسطي والدولي • اما المضي الى ما وراء هذه الحدود ، فانه لا يمكن ان يقود الا الى الاستسلام كما اثبتت ذلك نتائج مؤتمر كامب ديفيد بوضوح لا مزيد بعده •

وكان على الرئيس المصرى ان يتوقف عن مواصلة التفاوض بمجرد ان وعى نوايا ومقاصد محادثيه • ولو أنه قدم استقالته بعد أن يحرر بيانا بفشله ويندد بتعنت وسوء نية القادة الصهاينة وعجز كارتر عن اكراههم على مزيد من الليونة ، اذن لكان استعاد كرامته وشرفه • ولكنت حينذاك أول من يذهب الى القاهرة لتهنئته ومطالبته بالبقاء في السلطة • فالخطأ أمر انساني ، أما الاستمرار عليه ، في هذه الحالة فهو اجرام • لكن السادات بدفاعه عن مصالح انانية ضيقة فضل التضحية بالسلام ، عنيت السلام الحقيقي ، على مذبح كبريائه •

اما نحن ، فاننا كنا منطقيين ازاء مبادئنا وتحليلاتنا • فرفضنا الذهاب الى «اجتماع الخبراء» الذى عقد في القاهرة في شهر كانون الاول ــ ديسمبر ١٩٧٧ ، قبيل « قمة » الاسماعيلية • ويومها انتقد القادة المصريون رفضنا هذا بمراءاة ونفاق • زاعمين انه يسهم في فشل الاجتماع • وكجواب على ذلك ، أوردفقط ما قاله رئيس الوزراء اللبناني السابق ، رشيد كرامي للسادات : « فاذا كنتم

لم تتوصلوا الى رفع العلم الفلسطيني فوق مينا هاوس (الفندق الذى اجتمع فيه الخبراء) فكيف يمكن أن تؤملوا في جمع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية وممثلي اسرائيل مواجهة ؟ » •

وبالمقابل فاننا وافقنا بحماس على الاشتراك في مؤتمر طرابلس الذى عقد في ٢ كانون الاول ـ سبتمبر بمبادرة من العقيد القذافي ، وبهدف تشكيل جبهة من البلدان العربية المعادية لمبادرة السادات : هي ليبيا والجزائر وسوريا والعراق وجمهورية اليمن الديمقراطية •

غير أن المؤتمر كان يوشك بأن ينتهي الى فشل كبير اذا لم يتوصل المشاركون فيه الى تأليف جبهة موجهة ضد السياسة المصرية • ولهذا فانني جمعت جميع القادة الفدائيين الحاضرين لأحثهم على اعداد برنامج مشترك ، نقدمه الى رؤساء الدول العربية ونطلب اليهم بالحاح الا ينفصلوا قبل أن يخلقوا جبهة تتأسس على اجماعنا • ووافق حبش على أن تدعو الوثيقة الى انشاء دولة فلسطينية « على كل جزء من الوطن المحرر » • ووافقت أنا ، بمقابل تنازله هذا ، على أطروحته التي تقضي بألا تتفاوض منظمة التحرير الفلسطينية مع اسرائيل وألا تعترف بها قانونيا •

وهكذا ولد « برنامج طرابلس » الذى أعلن على أساسه قيام جبهة « الصمود والتصدي » في العاصمة الليبية برغم انسحاب الوفد العراقي احتجاجا •

ونتيجة لخطأ السادات وحلفائه الأميركيين ، فانه لم يكن لنا خيار غير تصليب مواقفنا • وماذا يسعنا أن نفعل غير ذلك ؟ أفنحتذى أمثولة الرئيس المصرى ، انه حتى لو زحف قادة المقاومة جميعا ، وعلى رأسهم ياسر عرفات وجورج حبش ، على قدمي بيغن يتضرعون له بأن يمنحنا دويلة ، فان زعيم الليكود سيلقيهم في السجن ، هذا اذا لم يعدمهم • فمهما فعلنا ومهما قلنا ، فان الصهاينة ينظرون الينا كأعداء خطرين • فهل تراهم يريدون السلام ؟ ! انهم لم يستجيبوا لمطالب الحد الأدنى التي تقدم بها السادات ، مع أنهم يثقون

به • ونحن نعلم أنهم لا يسعون الى عقد تسوية عادلة طالما ظلوا يتمتعون بدعم الولايات المتحدة المطلق ، التي تزود اسرائيل بكل ما تحتاج اليه « من الرغيف الى المدفع » وفقا لتعبير السادات نفسه •

فكيف اذا الى الوثوق بالأميركيين ! ؟ صحيح أن كارتر كان أكثر صراحة ولا ريب من أسلافه فيما عنى حق الشعب الفلسطيني في وطن ، ولكن مصطلح « أرض وطنية » أو حيز وطني الذى استخدمه ، هو مصطلح غامض ــ فلا هو حدد مكان الأرض أو الاقليم الذى سوف يسند الينا ولا نطاقه ولا حدوده ــ ومع هذا فانه لن يلبث أن ينكفىء على عقبيه ويتراجع فلا يتكلم عن حقوقنا ولا عن الحيز القومي ولا عن اشتراكنا في أية مفاوضات محتملة • وسريعا ما أدركنا أنه ليس لنا أن ننتظر منه أى شيء • فالرئيس الاميركى الحالي مقيد بالتعهدات التي قطعها سلفه فورد ، ووزيره كيسنجر ازاء اسرائيل بموجب ثلاثة نصوص سرية أدخلت على شكل ملاحق في اتفاقية سيناء الموقعة في أول أيلول ــ سبتمبر ١٩٧٥ • وتشترط هذه النصوص عدم جواز توسيع مؤتمر جنيف وفتح بابه امام مشاركين جدد ، دون موافقة اسرائيل وبأنه لا يحق للولايات المتحدة من جهة أخرى ، أن تتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية قبل أن توافق المنظمة على القرار ٢٤٢ •

وقد طلب الينا وزير الخارجية الاميركية ــ سايروس فانس ــ خلال جولته في الشرق الاوسط في شهر آب ــ اغسطس ١٩٧٧ ــ بواسطة مختلف البلدان العربية ــ ان نوافق على القرار المذكور كما هو ، مع احتمال ان ننشر اعلانا بتحفظاتنا على محتواه • فاطرحنا العرض ، باعتبار أن مسعى من جانب واحد كهذا ، لن تكون له أية قيمة قانونية • وقد تقدم بعض من رفاقي باقتراح مضاد ينص على تعديل نص القرار بالصيغة التى أقرته فيها المنظمة الدولية الا أن واشنطن رفضت ذلك بدورها • وفيما عناني شخصيا ، فانني كنت ضد هذه المساومة • وكان رأيي هو أنه اذا كان مجرد الحوار مع الولايات المتحدة يقتضي تنازلا منا بحجم قبول منظمة التحرير الفلسطينية بالقرار ٢٤٢ ، فأية تنازلات اضافية أخرى سوف تطلب منا بمقابل القبول بنا في مؤتمر جنيف والاعتراف بحقوقنا الوطنية ! • فالمنحدر هاو ويمكن ان ينزلق بنا بعيدا

جدا •

وكان ينبغي لنا في رأيي ألا نبتعد عن خط مسلك حلفائنا ولا سيما الاتحاد السوفياتي ، والبلدان العربية الصديقة وعلى رأسها سوريا • فنحن نملك القليل من الاوراق في هذه اللعبة • واحدى هذه الاوراق هي « رفضنا الايجابى » للقرار ٢٤٢ ــ ثم أنه اولى بنا أن نخلط أوراقنا بأوراق حلفائنا ، بدلا من أن تتخلى عنها للخصم • فبهذا فقط نستطيع تغيير ميزان القوى تدريجيا لصالحنا • ونحن نجد دائما المتسع اللازم من الوقت لنقوم بتنازلات في ظرف يكون من شأنه ان يجعلها مجزية وذات مردود •

وجاءت « أوراق العمل » التي أعدت في شهر تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٧٧ على يد الولايات المتحدة واسرائيل لفتح الطريق أمام الدعوة الى مؤتمر جنيف ، لتؤكد قناعاتي • فالأميركيون والاسرائيليون سعوا الى تحجيم المشكلة الفلسطينية وتقليصها الى مجرد مشكلة لاجئين وتعويضات وفقا لحرفية وروحية القرار ٢٤٢ •

ولم يكن للاجراءات « الجغرافية » التي توخوها للمؤتمر من هدف سوى اقامة مفاوضات موازية بين الدولة الصهيونية من جهة ، وبين مصر وسوريا والأردن من جهة ثانية • بحيث تقود الى معاهدات سلام منفصلة • وها هي اتفاقيات كامب ديفيد تؤكد تحليلاتنا • وهكذا فان شعار الامبريالية البريطانية، فرق تسد ، بات شعار المستوطنين الاسرائيليين وشركائهم الاميركيين •

ثم انهم استبعدوا الاتحاد السوفياتي ، حليفنا الأول على المسرح الدولي، عن مسيرة السلام لكي يتمكنوا من تحقيق مشروعهم دون أن يعيقهم عائق •• وأنا لست من أولئك الذين يعتقدون ان اسرائيل مجرد جرم يدور في فلك الولايات المتحدة ، أو أن واشنطن ، على العكس من ذلك ، تنفذ سياسة القادة الصهاينة حرفيا • كما لا أعتقد ان مصالح البلدين متطابقة دائما وأبدا ، غير أني أرى ان كارتر مضطر ومكره ، برغم تبايناته مع الصهاينة ، الى أن ينصاع لارادة بيغن • فهو يتعرض من جهة أولى لضغط الجماعة الضاغطة (اللوبي) الصهيونية، بينما يجد من جهة أخرى الدول العربية صاحبة الاحتياطي النفطي تراعيه وتداريه • فقد تعهدت العربية السعودية عام ١٩٧٧ بتموين

الولايات المتحدة بالطاقة لمدة خمس سنوات ، والتزمت بالعمل داخل منظمة البلدان العربية شاءت أو أبت ، لن تلجأ بعد الى سلاح النفط ، الذى استخدمته استخداما ضعيفا عامي ٧٣ ــ ١٩٧٤ .

الا أن استراتيجيي واشنطن يرمون الى أبعد من ذلك بكثير . فهم يريدون انشاء حزام واسع خاضع لسيطرتهم يمتد من ايران الى المغرب مرورا بمصر . والحال هو أن عددا من حكومات هذا الامتداد الجغرافي لا تواتيهم ولا تناسبهم . وهم يحلمون باستبدال شيوخ النفط بأنظمة أكثر عصرية وبالتالي أكثر صلابة بحيث تعمد الى توزيع أفضل للثروة القومية . لهذا فانني لن أدهش اذا ما عمدوا الى تدبير انقلابات ، أو ــ اذا لم يتح لهم ذلك ــ استغلال قوة الجيوش الايرانية والعمانية . وبهذا يتوصلون الى ضمان المصالح الاميركية في هذه المنطقة من العالم لفترة طويلة . ثم في الحين نفسه ، الى ضمان مصالح اسرائيل ، التي تظل مهما قيل عنها وفيها ، الأداة المتميزة للامبريالية الاميركية . غير أن أعظم القوى العالمية هذه ، ليست مطلقة القدرة والسلطان . فهي تملك ، ولا ريب ، وسائل فرض ارادتها على هذه الدولة العربية أو تلك ، وان تؤثر على سياسة رئيس كالسادات أو غيره ، ممن يظل شاغلهم الاولي هو تأمين بقاء انظمتهم أو استقرارها . لكن ماذا تراها تستطيع ان تفعل ضدنا نحن الفلسطينيين ، ونحن لا وطن لدينا ولا دولة ولا نظام ندافع عنه ؟ انها لا تستطيع أن تؤثر علينا لأنه ليس لدينا ما نخسره ، بل على العكس فان من مصلحتنا مواصلة المعركة بأية وسيلة من الوسائل التي نحوزها . أو لسنا نشبه في ذلك الريح ؟ فنحن نعصي على الامساك ، حاضرون في كل مكان وفي لا مكان ، ونكيف في الحين نفسه حرارة الجو المحيط . وانما يخشى جانبنا بالضبط لأن لدينا ملكة ارسال هبات الرياح الساخنة والباردة على مجمل الشرق الاوسط . وبديهي اننا لن ندع كارتر وبيغن والسادات يدبرون سلما مزعوما يصادر مستقبل الشعب الفلسطيني . ولا بد لنا من ان نذكر الاسرائيليين بأنه لا طائلة في استبعادنا من التسوية ، وان نذكر العرب بأن من الخطر التضحية بنا على مذبح مصالحهم الانانية .

وقد كان هذا هو الهدف السياسي المزدوج للعملية التي اطلق عليها اسم « اوتوبيس تل ابيب » والتى انتهت في الحادى عشر من آذار ١٩٧٨ — رغما عنا — بالمذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها مدنيون اسرائيليون ومعهم مناضلونا الفلسطينيون •

وقد كان طابع الهجمة التى اعددناها طابعا عسكريا تماما في الاصل • فكان على نحو من خمسة عشر فدائيا ان ينزلوا سرا على احد شواطىء تل ابيب حيث يفترض ان يلتقيهم اعضاء المقاومة في الداخل • وعندها تتجه المجموعة نحو مخيم تدريب الجيش في الضاحية القريبة وتحاول الاستيلاء على جنود الحامية بهدف مبادلتهم بعدد مواز من المعتقلين الفلسطينيين • غير ان الطبيعة شاءت غير ذلك • ذلك ان عاصفة منعت الزورقين اللذين يقلان فدائيينا من بلوغ مكان الميعاد المضروب بحيث ان احد الزورقين عاد ادراجه بينما حمل الموج الزورق الثاني وأرساه على بعد ٤٠ كيلو مترا الى الشمال من تل ابيب على مقربة من مرفأ حيفا • وهكذا فان الفدائيين لم يبلغوا ساحل فلسطين المحتلة الا بعد تأخير بلغ ثلاثة أو أربعة أيام •

كانت المجموعة المكونة من ١١ شخصا وتقودها مناضلة شابة نجت من جحيم تل الزعتر ، تدعى دلال المغربي • وكانت دلال تناهز العشرين من العمر وتفيض تفاؤلا وفرحا بالحياة وتوقدا • وماكانت تثير المحنة التي مرت بها الا لتعبر عن استفظاعها للحرب • الا انها كانت مقتنعة ايضا بضرورة نقل المعركة الى الاراضي المحتلة • واذ وجدت نفسها تواجه وضعا لم يكن في الحسبان فانه كان عليها ان تضطلع بمسؤولية ارتجال خطة بديلة للعمل الذى ينبغي للمجموعة التي تقودها تنفيذه • وليس لي ان أدلي بحكم على قرارات اتخذت في ظروف استثنائية في صعوبتها ، الا اني استطيع ان اشهد على اساس المعلومات الواضحة التى تلقيناها بأن دلال المغربي وصحابتها ارادوا تلافي أية اراقة للدم • وكانوا يعرفون تماما ان موت المدنيين سيستغل كالعادة ، من قبل اسرائيل لتقديم المقاومة على انها « عصابة قتلة » • غير انهم لاعتقادهم بأن الصهاينة لن يجرؤوا على اطلاق النار على مواطنيهم ، فانهم استولوا

على اوتوبيس وركابه ليؤمنوا لانفسهم جواز مرور حتى تل ابيب •

وقد اسهبت الصحافة العالمية وأفاضت في سرد ما تلى ذلك من احداث : فقد أقامت دوائر الامن الاسرائيلية حواجز على طريق حيفا ـ تل ابيب قبل ان تفتح النار ببرودة اعصاب تامة على الاوتوبيس فتردى بعض الركاب وعددا من الذين كانوا يسرون بسياراتهم في الاتجاه المقابل • وهكذا فقد تسببت بحدوث المعركة ومن ثم بالمجزرة التي تلتها : وكان ان سقطت دلال المغربي وثمانية من صحابتها بعد أن طالت المجزرة ثلاثين من الاسرائيليين •

والحق أن الخاتمة المأساوية التي انتهت اليها المغامرة لم تدهشني •ففي عمليتين مماثلتين سبقتا عملية تل ابيب ـ كعملية الالعاب الاولمبية في ميونيخ لعام ١٩٧٢ على سبيل المثال ـ فضلت الحكومةالصهيونية التضحية بمواطنيها على أن تدعنا نسجل نجاحا سياسيا • وقد فسرت السيدة غولدا مئير في الفترة التي كانت ترأس فيها الحكومة الاسرائيلية ، بواعث هذا السلوك غيرالانساني بقولها انه اذا كان عليها ان تذعن حتى ولو مرة واحدة لابتزاز الفلسطينيين ، فان شيئا ما لن يسنع هؤلاء من المطالبة ذات يوم بأن يسلم رئيس وزراء اسرائيل اليهم مقابل الافراج عن مجموعة من الرهائن •

وقد يكون في المستطاع عند الاقتضاء ان نفهم ان لم نوافق على هذه الحسابات التي لا وازع فيها • الا ان صلافة القادة الاسرائيليين تبلغ شأوا شاهقا عندما تضج باتهامنا بأننا المسؤولون الوحيدون عن موت المدنيين الابرياء أو عندما يطالبون ، كما فعلوا أثر قضية اوتوبيس تل ابيب ، كافة الحكومات الغربية التي اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية بأن تقطع كل علاقة معنا • أو عندما يتبنى الكنيست في آذار ـ مارس ١٩٧٨ بالاجماع (باستثناء اصوات الشيوعيين) قرارا يبيح للدوائر الاسرائيلية قتل الفلسطينيين في كل مكان من العالم تحت غطاء « مكافحة الارهاب » • ان اضفاء الطابع الشرعي والمؤسسي على اغتيال الاعداء السياسيين ، بل وأفراد جماعة قومية مناوئة هو امر لا سابق له في التاريخ حتى في ظل الأنظمة الفاشية ـ اللهم الا السهو والخطأ •

وكذلك فان عملية ١١ مارس ــ آذار اتخذت كذريعة للقيام بعد ذلك بثلاثة أيام بهجمة واسعة النطاق ضد جنوب لبنان. وأقول ذريعة لأننا كنا قد تلقينا قبيل ذلك بشهرين تقريرا من اصدقائنا في الولايات المتحدة يطلعنا على مشروع السيد بيغن بتدمير بنانا التحتية العسكرية والسياسية خلال حرب خاطفة تدوم بين ٢٤ و ٤٨ ساعة . وقد صممت العملية لايقاع هزيمة بالفلسطينيين تكون من التمام والكمال بقدر ما كانت عليه الهزيمة التى اوقعتها بالبلدان العربية في حزيران ــ يونيه ١٩٦٧ . وكنا نعلم كذلك ــ منذ مطلع تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٧ ، ان السلطات الصهيونية تلح على حكومة بيروت لكي لا يدخل الجيش اللبناني الى المناطق الحدودية التي يشرف عليها صنيعتهم المقدم سعد حداد وميليشيات اقصى اليمين المسيحي . ولم تحقق اسرائيل بغزوها وباحتلالها لجنوب لبنان الا جزءا ضئيلا من اهدافها . فقد نجحت ولا ريب في الحفاظ حتى خريف عام ١٩٧٧ على الأقل ، « بحزام امني » على طول الحدود بعرض نحو من عشرة كيلومترات . كما حصلت على مرابطة قوات الامم المتحدة في جنوب لبنان . الا ان بيغن فشل في المسألة الاساسية . فالهزيمة الصاعقة التي حلم بها لم تحدث : ذلك ان اداء فدائيينا كان باعتراف الجنرال غور ــ رئيس الاركان الاسرائيلي يومها ــ اداء ملفتا للنظر وفعالا في أغلب الاحيان . وبرغم الطيران والمدفعية الثقيلة والقنابل الانشطارية والثلاثين الف جندي من المشاة ، فان الجيش الاسرائيلي احتاج الى ثمانية ايام ليستنفذ مقاومة الفدائيين البطولية . ثم ان هؤلاء انسحبوا بانتظام ولم تقع بهم سوى خسائر طفيفة في الارواح والعتاد .

والامر الاساسي هو ان الفلسطينيين لم يلقوا « حزيرانهم ١٩٦٧ » الذي وعدوا به . فقد بقيت قواتهم سليمة لم تمس بشأن وسائل عملهم ، كما تشهد بذلك العمليات شبه اليومية التي لا تزال تنصب على المحتلين منذ ذاك . فلا وجود « القبعات الزرق » في جنوب لبنان ولا الحفاظ على الرقع الانعزالية على طول « الجدار الطيب » مع اسرائيل ، منعت فدائيينا من بلوغ أهدافهم .

وما تسعى اليه اسرائيل في الاساس وقبل كل شيء ، هو استمرار عدم

الاستقرار في لبنان وتواصل النزاعات المسلحة فيه • فمن شأن هذا الوضع في نظرها ، ان يستنفذ اخصامها ــ السوريين والفلسطينيين واليسار اللبناني ــ في معارك هامشية توليها امكانية التدخل باسم « الدفاع عن المسيحية » في كل مرة يواجه فيها بيغن مشكلة سياسية او دبلوماسية شائكة كتلك التي طرحتها مبادرة السادات « السلمية » •

غير ان الرئيس المصري فقد ، قبل ذهابه الى قمة كامب ديفيد ، جزءا هاما من التعاطفات التي اجتذبها والتي أوهمته بأنه سيضع حدا نهائيا للنزاع العربي ــ الاسرائيلي • فزو اسرائيل لجنوب لبنان ، جعله اضحوكة • أفلم يصرح لدى وصوله الى القدس في تشرين الثاني ١٩٧٧ انه لن تكون حرب بعد بين (الدولة الصهيونية) وجيرانها • وها ان المصريين لاحظوا انه لم يف بأي وعد من الوعود التي قطعها وانه ليس ثمة سلام متوقع وان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية لا تني تتدهور في وادي النيل •

ومذ ذاك والولايات المتحدة وعدد من الدول العربية تحاول انقاذه • فقد عرضت العربية السعودية تنظيم مؤتمر « قمة » تحت رعايتها يعيد مصر الى الحظيرة العربية مشجعة على مصالحة السادات مع سوريا ومع منظمة التحرير الفلسطينية • غير أن الرئيس المصري رفض الاقرار جهارا بخطئه ليعلن فشل استراتيجيته الدبلوماسية • الا انه تعهد بعدم الموافقة على اجراء لقاءات مصرية اسرائيلية في القاهرة او في القدس وطرد البعثة العسكرية الاسرائيلية التي كانت مقيمة في العاصمة المصرية •

بيد انه قام بمحاولتين لتلافي القطيعة الافلاسية مع بيغن : جاءت الاولى فى شهر تموز ــ يوليو في مؤتمر ليدز حيث تمثل بوزير خارجيته ، كما جاءت الثانية حين قبل بالاشتراك في اجتماع كامب ديفيد • فالرئيس الاميركي ايضا تراوده أوهام حول عقلية رئيس الوزراء الاسرائيلي • وكلاهما يعتقدان بأن زعيم الليكود ــ الذي تأصل فيه الارهاب والذي لا يؤمن بغير العنف ــ أهل لأن يتحول عن تعصبه المتصوف •

ان اتفاقيات كامب ديفيد تشكل كارثة بالنسبة للقضية العربية الا انها كشفت اقنعة الاميركيين وحلفائهم الاسرائيليين بصورة نهائية • ولعل السادات لن يفقد السلطة قريبا • فأصدقاؤه العرب والاميركيون ووكالة المخابرات المركزية (السي• آي• اي•) بخاصة ، تسهر على أمن نظامه باتنظار ان تجد له بديلا له بعض القيمة • غير أنه ألحق خلال ذلك بالقضية العربية اذى لا يمكن حسبانه وذلك لقيامه ، بين جملة ما قام به ، باستبعاد خيار الحرب • وقد قال لي الفريق الشاذلي ، الذي كان رئيس اركانه ابان نزاع تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٧٣ ، بعد ان تخلى عن وظيفته كسفير لمصر في لشبونة ، في تموز ــ يوليو ١٩٧٨ ، ان الخلاف مع الاتحاد السوفياتي افسد الطاقات العملياتية لدى الجيش المصري ، لجيل واحد على الاقل •

•

الخاتمة

دقت ساعة تقديم كشف الحساب . اذ قد مضت ثلاثون سنة على خروج الشعب الفلسطيني ، وعشرون سنة على تأسيس فتح . ولا بد لي من الاعتراف ، وبعميق المرارة بأن وضعنا اليوم هو أسوأ من الوضع الذي دفعنا عام ١٩٥٨ الى انشاء حركتنا . بل اني أخشى حقا أن يكون لا بد من عود على بدء .

وبالطبع فانني لا أنكر النجاحات المسجلة . فأنا فخور بشعبي بالتضحيات التي بذلها على ساحة المعركة ليحقق انتصارات في ساحة المعركة ضد عدو لم تعد قوته الساحقة بحاجة الى برهان . وأنا اعتز بالمنزلة التي تحتلها منظمة التحرير الفلسطينية على المسرح الدولي . فقد اعترفت بها غالبية الدول كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وانتزعت مقعد مراقب في منظمة الامم المتحدة. فاذا عدينا عن هذا ، قلنا ان قدر شعبنا لا يزال بعد عشرين سنة من الكفاح المضني والدائب لا يزال قدرا موجعا . فهو لا يزال بلا وطن ولا هوية . بل الحق هو أننا عدنا القهقرى . فاسرائيل لم تعد تحتل نصف الأراضي الفلسطينية ، بل كلها وجميعها . والولايات المتحدة ضامنة المشروع الصهيوني ، وسعت نفوذها في العالم العربي وعززته . ومصر أكبر البلدان العربية وأعظمها نفوذا انهارت بالكامل في كامب ديفيد .

ثم ان الحركة الفلسطينية لم تعد تملك الوسائل التي كانت تحوزها عام ١٩٦٧ . فالهزيمة العربية لم تكن تمنعنا حينذاك من مواصلة وتكثيف الحرب الفدائية مفهمين الصهاينة بأن المعركة لم تنته برغم انتصارهم الباهر ، رافعين بالتالي معنويات الجماهير العربية مطلقين بصيص نور في ظلمات الهزيمة والاحتلال . كانت لدينا ملاذاتنا التي نستطيع الانطلاق منها لشن غاراتنا ضد اسرائيل . والمهابة التي كنا نتمتع بها كانت تتيح لنا ان نمارس تأثيرا حاسما في بعض الاحيان على سياسة مختلف العواصم فالانظمة العربية لم تكن تحبنا بالامس بأكثر مما تحبنا اليوم ، الا انها كانت تخشانا يومها على الاقل ،

وتأخذ آراءنا بعين الاعتبار • وأستطيع أن اقول بكل تواضع بأننا أسهمنا في الاعداد النفسي لحرب تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٧٣ واندلاعها ، كما لم نكن غرباء عن نزاع حزيران ـ يونيه ١٩٦٧ •

وقد عرفت فتح برغم التقلبات والعوائق الموضوعة في طريقها ، أن تحافظ على استقلالها الذاتي وأن تتلافى الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه من سبقونا على رأس الحركة الفلسطينية • وبهذا نكون قد سجلنا انتصارا بالنظر الى تبعيتنا المالية واللوجستيكية ازاء البلدان العربية • ثم اننا حرصنا على توزيع مواردنا وعلاقاتنا مستفيدين من التناقضات السياسية الملازمة لوضع المنطقة ، فاننا توصلنا في بعض الاحيان الى ممارسة ارادتنا بحرية •

غير أنه اذا كان من الصحيح اننا تلافينا الكثير من الاخطاء التي ارتكبها من سبقونا ، فان أخطاءنا نحن ، وان كانت أقل جسامة ، قد الحقت بنا أحيانا أضرارا لا سبيل لاصلاحها • فقد عقدنا تحالفات مع انظمة عربية واعتبرناها تحالفات استراتيجية ، لنكتشف بعد ذلك ، وبعد أن ندفع الثمن ، بأنها ليست سوق تحالفات عارضة جدا • فكان أن جرعنا ذلك خيبات أمل شديدة وفشلا غير متوقع • فقد حسبنا مثلا ، ان مصر ستظل الى جانبنا الى الابد !

ويضاف الى هذا التقدير الخاطىء لحقائق العالم العربي حسابات خاطئة • فغالبا ما كنا نعتقد ازاء ظرف من ظروف النزاع في بلد عربي ما ، أن من الخير لنا أن نحافظ على علاقاتنا مع النظام القائم على حساب علاقاتنا بالجماهير الرافضة له ، مزدرين بذلك المبدأ الذي كان ينبغي له ان يقود خطانا ، عنيت المبدأ القائل ان المصدر الحقيقي لقوتنا انما يكمن في التعاطفات الشعبية التي نثيرها بأكثر مما يكمن في الدعم الذي تولينا اياه الحكومات على مضض • صحيح اننا أقمنا احيانا علاقات سرية متكتمة موازية مع حركات المعارضة ، الا انها لم تكن تتناهى الى علم الرأي العام ، فكان يخرج بانطباع مفاده اننا نطبق سياسة انتهازية •

إبل لنقل بصراحة ، ان دخول فتح عام ١٩٦٨ الى منظمة التحرير

الفلسطينية قد أفسد عليها طابعها الثوري • اذ أن اكثر ما كنا نخشاه حينذاك وما كان يثير تحفظاتنا قد حدث : فحركتنا غلبت عليها البيروقراطية • وخسرت من النضالية ما ربحته في « الاحترام » : فقد بتنا نتذوق التفاوض مع الحكومات ورجال السلطة ونأخذ آراءهم وتمنياتهم بعين الاعتبار • ثم اننا أخلينا بين انفسنا وبين الانزلاق في تعرجات العلاقات العربية مشتغلين ،طائعين أو كارهين ، بالسياسة ، بالمعنى السيء للكلمة • ولخشيتنا من ان يتهمنا الدبلوماسيون المحترفون ، الحسنو النوايا الى هذا الحد او ذاك، «بالارهابية» و « التطرف » و « المغامرة » فاننا كنا نسرع لنثبت بأي ثمن كان ، «اعتدالنا» و « مرونتنا » و « روحية التوفيق والمصالحة » لدينا ، ناسين ان ذلك لا يحتل من حيث المبدأ ، مرتبة الأولوية في دعوتنا ورسالتنا •

ومذ ذاك بات الراؤون ينظرون الينا كسياسيين بأكثر مما ينظرون الينا كثوريين • وبطبيعة الحال فأن هذه الطفرة التي حلت بصورتنا قد اضرت بنا في وسط الجماهير العربية التي كانت تنتظر منا شيئا آخر • الا انها لم تعوضنا بتعاطفات لها شأنها بين الاوروبيين والاميركيين • ويقينا أننا بخلاف اعدائنا الصهاينة ، لم نكن نملك لا الوسائل ولا التجارب الضرورية في حقل العلاقات العامة • غير أن السبب الرئيسي لفشلنا انما يكمن في جهلنا للمجتمع الغربي ولتعقيد الآليات الديمقراطية التي تحكمه • فنحن لا نحسن في غالب الاحيان التمييز ــ وخاصة بالنسبة للولايات المتحدة ــ بين السياسة الامبريالية التي تمارسها حكومة من الحكومات وبين البواعث الشريفة في ذاتها ، والتي تصوغ وتقولب موقف الشعب ازاءنا • ان أمثال هذا الخلط والتشوش هو ما يفضي بنا الى اتخاذ مبادرات من شأنها ان تزيد من نفور الرأي العام الغربي منا ، او الى اللواذ بسلبية اليأس •

كما أننا من الجهة الاخرى لم نعرف كيف نوحد الحركة الفلسطينية أو على الأقل ، ان نحد من تجزئها بأقصى ما يمكن • وبطبيعة الحال فان هناك أسبابا موضوعية تمنعنا من تحقيق هدفنا هذا • لقد تصورنا فتح لدى تأسيسها كجبهة تهدف الى تجميع الفلسطينيين بدون تمييز لايديولوجياتهم او

لنزعاتهم السياسية • ولم يكن في وسعنا اكراه قادة أصيلين كجورج حبش أو نايف حواتمة على الانضمام الى صفوفنا او منعهم من انشاء منظماتهم ــ اللهم الا أن نعمد الى استخدام القوة ، الامر الذي لا يمكن ان يرد في تصورنا • غير انه كان في مقدورنا تماما ان نعارض معارضة حازمة وجود فصائل تختلقها الأنظمة العربية اختلاقا لتستخدمها كأدوات سياسية او عسكرية • واذا كان يستحيل اليوم ــ نظرا الى ميزان القوى الحالي ، ان نتطلب استبعاد هـذه الفصائل من منظمة التحرير الفلسطينية أو حلها بالكامل • الا انه كان في وسعنا اظهار معارضة حازمة لدى انشائها بعيد هزيمة حزيران ــ يونيه ١٩٦٧ أي في الفترة التي كانت الأنظمة العربية فيها مهزومة وضعيفة ويصعب عليها مقاومة ارادتنـا •

ثم ان هذه المنظمات ــ الدمى لم تضعف المقاومة الفلسطينية بتقليص تماسكها واضعاف فعالية عملها ، وحسب ، بل انها لعبت في بعض الاحيان دورا سلبيا وحاسما • فقد افلحت ، بالمزايدات التي كانت تمارسها ، والاستفزازات التي كانت تقوم بها ، والدعم الاجنبي الذي كانت تفيد منه ، في اقتيادنا الى مغامرات كان بوسعنا تلافيها • وتلك ظاهرة لها اكثر من مثيل • ويكفي ان نتناول مثالا قريب التناول ، من حقل العلاقات الدولية حتى نجد انه لا يندر ان يتوصل بلد صغير لا شأن له ، الى ان يفرض على قوة عظمى حليفة له سياسة مضرة بها •

صحيح اننا تمكنا في اكثر من مرة ، مقاومة الضغوط التي كنا نتعرض لها • فبعيد دخول قوة الردع العربية الى لبنان في خريف عام ١٩٧٦ مثـلا ، حاولت منظمة الصاعقة السورية الولاء ، ان تقنعنا بتصفية فصائل الرفـض التي كان بعضها مرتبطا بالنظام العراقي • وكان قوام الاقتراح ان تتولى عملية التصفية فتح او الصاعقة أو أن تتولى المنظمتان معا القيام بهذه العمليـة مشتركتين • فرفضنا الصيغ الثلاث المقترحة جميعها ، ليس لاننا لانزال متعلقين بالحوار الديمقراطي بين المنظمات الفلسطينية وحسب ، بل لاننا لا نريد ان نتورط في عمليات تسوية الحسابات بين الانظمة العربية المتنافسة •

ثم اننا نحن العرب سريعون عموما الى الصياح باتهام الامبريالية كلما انفجرت معركة هامشية تنعطف بنا عن هدفنا الرئيسي ، هدف محاربة الصهاينة ، أو بصورة أكثر عمومية عن محاربة الاستعمار . الا ان هذا لا يمنعنا مطلقا لسوء الحظ ، عن الانزلاق بكثير من الخفة الى المعركة التي نندد بالضبط بطابعها المضر . وهكذا مثلا ، فقد تواجه السوريون والفلسطينيون مثلا بالسلاح في لبنان طيلة أشهر ، أمام رضى وارتياح الاميركيين والاسرائيليين العظيم .

غير ان شططنا وعوراتنا واخطاءنا لا تكفي لتفسير الموقف الدقيق الذي تجد المقاومة نفسها فيه . ولا بد ان يقال ابراء لنا اننا اضطلعنا بمهمة لا سابق لها في صعوباتها في التاريخ . فنحن نقود حركة لا يمكن لها ان تتمتع ، بحكم الاشياء ، بقواعد متماسكة . فالشعب الذي نسعى لتعبئته وقيادته هو شعب مبعثر جغرافيا متغاير نفسانيا ، ومتنافر سياسيا . فالفلسطينيون يعيشون في ظل أنظمة سياسية واجتماعية مختلفة وأحيانا متناقضة ، وتؤثر بالضرورة على تصوراتهم : وهم يخضعون للنزاعات التي تقوم بين الدولة والمقاومة بحيث انه ليس لهم في هذه الحالة سوى خيار واحد هو خيار الانضواء طواعية او كرها تحت الاطروحات الرسمية او اللواذ بحياد ظاهر ليفلتوا من ردود الفعل الانتقامية المحتملة .

ونحن مجبرون من جهتنا على مهاودة الحكومات العربية لنعفي مواطنينا من هذه المخاطر ، ومضطرون لاغماض اعيننا عن السلوك غير الودي الذي كنا لولا هذه الناحية سننهض ضده . وهذا الامر يحد بصورة ما من حريتنا في الحركة . وعلى هذا فانه لا ينبغي الاندهاش من حجم ومدى المواقف الظاهرة التناقض التي تتبناها وفقا لهوية من تتفاوض معه من هذا النظام العربي او ذاك . فنحن اشبه بالمسافر الذي ينتقل من نصف المعمورة الى نصفها الاخر فيضطر لاصطحاب امتعة الشتاء وثياب الصيف ليحمي نفسه من المناخات الشديدة الاختلاف . وتلك ليست انتهازية كما يتهمنا البعض ، بل تدابير حماية ذات .

وثمة تجارب مريرة تدعونا الى التروي • وأحب هنا ان اورد كمثال للتدليل على قولي ، حادثا لا يزال يتسلط على ذاكرتي • فعلى اثر نزاع حدث بين عبد الناصر وبين الملك سعود عام ١٩٥٧ ، طلب عبد الناصر من المجلس التشريعي الفلسطيني في غزة الذي لم يكن سوى زائدة ملحقة بالسلطة المصرية ، ان يتبنى قرارا ينتقد العاهل السعودي • فكان ان رد الملك لفوره بطرد المعلمين الفلسطينيين العاملين في مملكته • وهكذا فان ٧٠٠٠٠ شخص بينهم اطفال ونساء فقدوا دورهم ومواردهم مرة اخرى ـ هذا مع ان الملك سعود كان يعلم أتم العلم ان مجلس غزة التشريعي لم يكن اكثر من منفذ للتعليمات الواردة من القاهرة • ولا ريب في ان انتقامه كان سيكون اقسى الف مرة فيما لو ان النقد جاءه من منظمة ذات استقلال ذاتي كفتح • اقول هذا لأشير الى مدى الجهود التي نبذلها لنتلافى الصدام مع هذا النظام العربي او ذاك عندما لا يكون موضوع اختلافنا معه مسألة حاسمة او قضية اساسية بطبيعة الحال •

وقد نكون اقرب الى الافهام اذا قلنا ان كل فلسطيني يطمع قبل كل شيء الى ملاذ أمين بالغا ما بلغ صغره ، والى قنصلية يستطيع اللجوء اليها اذا ما اوذي أو هدد • أفنكون اقل أهلية وأحقية من مواطني امارة من امارات الخليج ؟ ان غالبية الدول العربية ترفض منح مواطنيتها للفلسطينيين • لا بأس• فنحن لا نشكو ذلك ولا نتظلم منه • اذ لعلها تولينا خدمة على غير قصد منها • لانها تسهم بذلك في الحفاظ على اصالتنا وتعزز عزمنا على ايجاد وطن • وفي اليوم الذي نفلح فيه في اقامة دولة في أراضي الضفة الغربية وغزة المحررة ، فاننا سنبدأ بتوزيع بطاقات الهوية • ومن الممكن ان يقرر كثير من الفلسطينين ان لا يقيموا في الدولة الجديدة لاسباب عملية • لكن ما هم ! فهم يستطيعون ان يعيشوا في البلد العربي الذي يختارون بدون قلق ولا عقد ! اذ انهم سيعاملون أخيرا على قدم المساواة مع كافة من يملكون جواز سفر يعرضونه للناظرين • واذا ما شعروا لسبب او لآخر بتهديد يتهددهم ، فانهم يستطيعون أبدا أن يحزموا امتعتهم ويعودوا الى فلسطين حيث لا يعاملون كمنبوذين • ان نصف الشعب اللبناني يعيش خارج وطنه الا ان أحدا

لم ينكر عليه حقه في اقامة دولة •

ان الحجج التي يقدمها اولئك الذين ينكرون علينا هـذا الحـق هي « شبهة » حجج • فهم يقولون ان دويلة فلسطينية ليست سوى كيان غير قابل للحياة اقتصاديا • وهم يتناسون ان عددا من الامم الشابة التي نالت استقلالها منذ نهاية الحرب العالمية الاخيرة لا تملك ما نملكه من نعم ومزايا • فلـــدى الفلسطينيين يد عاملة وفيرة وفائض من التقنيين والكوادر الذين انهـــوا دراساتهم العليا في الخارج ، وبرجوازية غنية بالرساميل ، وهم يستطيعون الاعتماد على معونة مالية ضخمة تأتيهم من الدول المنتجة للنفط • ونحن على أي حال اكثر « قابلية للحياة » من دولة اسرائيل نفسها بكثير •

ويذهب أعداؤنا كذلك الى ان دويلة كهذه ستصبح ضربا من القاعـدة الشيوعية المزروعة في قلب المنطقة ومنطلقا ينطلق منه الارهابيون لمناوشـة اسرائيل وازعاجها • ان هذه الادعاءات مضحكة • فنحن كما يعلم القاصي والداني لسنا بشيوعيين • والماركسيون بيننا قلة قليلة • بل اننا جميعا ، وكائنا ما كانت نزعاتنا السياسية ، وطنيون غيورون يدافعون رغم الكافة وضدها عن الاستقلال والسيادة الوطنية العتيدة •

ثم هل ترانا نشكل تهديدا لاسرائيل • أليس أن من أكثر الامور مفارقة، بادىء ذي بدء ، ان تزعم القوة العسكرية الرئيسية في المنطقة ، والتى تهدد عشرين دولة عربية مجتمعة ، بأن الدويلة الجارة تستطيع أن تتهددها في أمنها ووجودها ؟ بل اني أقول من جانبي انه لن تكون هناك نشاطات تخريبيـــة فلسطينية في اليوم الذي يكون لدينا فيه دولة نقودها ، ثم وبخاصة ، نحافظ عليها • وسيختفي التطرف من صفوفنا ، وحتى من صفوف « جبهة الرفض »• ان جورج حبش مثلا لن ينكل عن افكاره ، ولكن معارضتـه ستحتـــرم المؤسسات وتوقر القوانين التي سيختارها الفلسطينيون • وهو لن يلجأ الى العنف انتصارا لآرائه • ولن يتصرف بصورة مختلفة عن قادة التشكيلات الاسرائيلية التي تنكر الصهيونية مثل الحزب الشيوعي راكح أو التي تنكـر شرعية دولة يهودية (مثل احبار ناتوراي كارتا) • وتلك ليست أمنية تقيـة

أتمناها بل هي كلام عارف مجرب • فأنا لا أعرف عمق الوطنية والحس بالمسؤولية لدى رفاقي وحسب ، بل ولدى أخصامنا السياسيين في داخل الحركة الفلسطينية •

واذا كان للعقل ان يتغلب على مطامع المتطرفين الاسرائيليين في الأراضي، واذا كان السلام ـ اعني السلام العادل لا سلام كامب ديفيد ـ سيقوم ، فان من الطبيعي ان تنفتح الحدود بين اسرائيل وجيرانها العرب • ومن الطبيعي والمنطقي أن يبدأ تيار مبادلات ، ثم ينمي ، بين كيانين يكمل بعضهما بعضا في اكثر من جانب • وكيف يمكن ان يكون الامر بخلاف ذلك ـ فيما يعنيني على الاقل ـ عندما يكون نحو من ٥٠٠٠٠ فلسطيني يعيشون في اسرائيل (داخل حدود عام ١٩٤٨) ويتطلعون الى اقامة جسر مع اشقائهم الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة والمملكة الهاشمية وفيما وراء ذلك في مختلف الدول العربية ؟

ونحن بصفتنا قادة الحركة الفلسطينية ، لسنا معارضين من حيث المبدأ للحدود المفتوحة • فنحن لا نزال أوفياء لمثلنا ـ او لحلمنا وفقا لتعبير ياسر عرفات ـ الذي ينص على توحيد فلسطين في دولة علمانية ديمقراطية تضم اليهود والمسيحيين والمسلمين الذين يضربون بجذورهم في هذه الأرض المشتركة • والحال هو ان الحدود المفتوحة تقود حتما الى الحوار ثم الى التفاهم بهدف قيام مثل هذا التوحيد بحيث يحل بدلا من المواجهة القومية الصراع الطبقي الذي سيواجه بين الجماهير العربية واليهودية من جهة وبين المستغلين والامبرياليين من جهة أخرى : اي بين هذه الجماهير وبين اولئك الذين ولدوا الحقد بين شعبينا قبل أن يقودوهما لى الحرب •

ان العائق الذي يحول دون مثل هذا التطور لا يقف في معسكرنا • لأن من لا يريد السلام الشامل والنهائي هو حكومة اسرائيل • كما ان من يخشى الحدود المفتوحة هم قادتها المتطرفون الذين ينظرون الى هذه الحدود كتهديد يتهدد تماسك الدولة الصهيونية وسياستها التوسعية • وعلى العكس من ذلك،

فانهم بتعميقهم الهوة بين شعبينا وبتعهدهم للتوترات ، يؤمنـون طـواعية الاسرائيليين ويغذون خوفهم ويواصلون في الحين نفسه استيطان واستعمار ما يطلق عليه السيد بيغن اسم « يهودا والسامرة » .

ان ما أوردناه وما أسلفناه لا يبعث على التفاؤل . ويقينا أن دوري كقائد ثوري هو أن أبث الأمل وأعزز بواعث شعبنا على مواصلة المعركة . الا ان واجبي الى ذلك هو عدم خداعه ، وتغذيته بالاوهام التي يفوق خطرها خطر خيبات الأمل الموجعة . وأنا أقولها بصراحة : اني لا أعتقد ان جيلي سيحظى بفرحة رؤية ولادة دولة مستقلة حتى على جزء متناهي الصغر من فلسطين الا اني أوضح بأنني أرى شأن شعبي كله تقريبا ـ بأنه لا يمكن تصور دولة ذات سيادة حقيقية الا اذا أسسها وحكمها اولئك الذين قادوا حركة التحرر الوطني منذ عشرين سنة . كما ولا يمكن اقامة سلام دائم بدون ممثلي الشعب الفلسطيني الحقيقيين .

وبطبيعة الحال ، فانه ليس ثمة أمر محتوم مسبق . فهناك من التقلبات والمتغيرات في الظرف الدولي وفي ظرف المنطقة بأكثر مما يمكننا من التنبؤ بالمستقبل . ولكنني أتمنى أن تكذب الأحداث تشاؤمي على المدى القصير أو المتوسط . واذا كنت لا أستثني امكان انتصار قريب الا انني لا استبعد فرضية حدوث كارثة ايضا : عنيت شلل او تدمير حركتنا وتلك لن تكون اول مرة ولا آخر مرة تنجح القوى الرجعية الجاهلية في اجهاض ثورة .

غير أن شعبنا سيلد ثورة جديدة وينجب حركة أعظم بأسا من حركتنا وقادة أكثر دراية وتجريبا وأشد خطرا ـ من ثم ـ على الصهاينة . فارادة الفلسطينيين التي لا ترد في مواصلة المعركة كائنا ما كانت الظروف ، هي حقيقة لا تأتيها الريبة من بين يديها ولا من خلفها . بل انها ارادة تمليها طبيعة الأشياء . ونحن عازمون على البقاء كشعب وسيكون لنا ذات يوم ـ وطن .

الفهـــرس

الموضـــوع

المقـــدمة 5

تمهـــيد 15

بذور الحقد 19

سنوات الحمل... 35

انفجار التيار 59

المـــد 91

الجـــزر 125

حرب الاشباح 157

شرارة اكتوبر 193

تحدي السلام 213

الشرك اللبناني 247

مبادرة السادات من الوهم الى الخيانة 303

الخـــاتمة 325